وَتَبْقَى
بِالْقَلْب
غُصَّة
نورا سليمان
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

وتبقى
بالقلب غصّة

الكتـــاب: وتبقى بالقلب غصة
المـــؤلـــف: نورا سليمان
تنسيق داخلي: سندس فخري
الطبعة الأولـى: يناير 2020
رقم الإيـــداع: 2019/26577
I. S. B. N: 978-977-992-068-9

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رواية

وتبقى بالقلب غصّة

نورا سليمان

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

لمزيد من الكتب الحصرية

زوروا موقعنا

موقع عصير الكتب

www.booksjuice.com

عصير الكتب

للنشر و التوزيع

الغُصَّة الأولى

«حبيب قلب ونور عين والدتك، أوامرك مجابة يا صغيري ونور حياتي، دقيقة واحدة انتظرني هنا ولا تتحرك.»

عينان تفيضان حنانًا ووجه بشوش يفيض محبة يحدثه ويضمه ويطبع قُبلةً فوق رأسه وهو جالس على عتبة باب منزل كبير، طفل مطيع بملابس نظيفة، يتمسك بأحد ألعابه يهز رأسه بموافقه لكلام المرأة التي اختفت خلف ذلك الباب واختفت معها ابتسامة الطفل وغرق في الظلام الدامس: «اللعنة، ما هو الاسم الذي يُنادى به؟ بل ما هي ملامح ذلك الطفل؟»

انقشع الظلام وحلَّ محله السواد الغاشم الذي يترافق مع يد غليظة خشنة ووجه يشعُّ كرهًا بعينين ضيقة كأنهم عيني أفعى تَنْفُسُ سمًّا ولهبًا، قاوم الجسد الصغير وصرخ طالبًا الغوث والنجدة من امرأة: اللعنة، ما الاسم الذي كان يستنجد به الطفل؟ لمَ لا يستطيع تبينه؟ لماذا صمَّت آذانه عن سماعه؟ أُلقِيَ الصغير وسط أَطفال كُثر.

وصفتهم المرأة ذات الوجه الشيطاني قائلةً: «البضاعة الجديدة».

رجل ضخم البنية ذو وجه ممتلئ بالجروح الغائرة البشعة مال يُقلِّب في تلك الأجساد الصغيرة وقال بصوت مرعب: «بضاعتك هذه المرة لا تستحق، جميعهم أجسادهم هزيلة.»

أمسكت المرأة بيدها القاسية ذلك الصغير الذي ما زال بصراخه يقاوم، ثم ردت بفحيح خبيث تساومه بتلاعب: «ربما، ولكن تلك القطعة تستحق؛ فالنظافة تشع منه؛ أي إنه لا يحمل أمراضًا، وقيمته مضاعفة تساوي خمسة ممن يرافقونه، إن لم تمنحني مبلغًا ذا قيمة سأتوجه به لمن يستطع الدفع أكثر.»

بتجهُّم صارم قام الرجل بمعاينة ذلك الجسد، وقال بحسم: «إذا سمعت منكِ تلك النبرة التهديدية مرة أخرى؛ فاعتبري نفسكِ خارج حمايتي.»

تشوشت الرؤية ليحلَّ الظلام والسواد مرة أخرى، ولم يستطع العقل أن يتبين ما الذي جرى وانتهت عليه الومضة.

أحدهم يفحص الجسد الصغير بملابس مهلهلة، قاوم الفتى وعافر وصرخ وغرز أسنانه في أحدهم فكانت الصفعة، صفعه قاسية فنزف دماءً، التمعت حدقتاه السوداوان بنيران الانتقام رافضًا للإهانة والانكسار.

صوت ثقيل بنبرة شيطانية أخبر المتعدي: «اتركه، هذا سيكون أحد الأبناء، به بأس وسواد بنظرته وجسده قويًا يحتاج للاهتمام، أنا أجزم أنه سيكون أحد الرعية والمدافعين الأشداء عن الوكر.»

غاص في الظلام وتوقفت الومضات كما توقف الزمن.

جوع يفتك بالأحشاء، ضرب يأتي من كل صوب، بعد عدة أعوام قاتلة موجعة تفيض بعذاب على تلك الأحشاء الخاوية ثم كانت البهجة، عينان عسليتان ووجه أبيض بيضاوي، تلعثم الحروف لطفلة صغيرة ذات الست أعوام خوفًا ورعبًا وقهرًا: «أين أبي؟ كنا في السوق التجاري الضخم ثم اختفى كل شيء.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عيناها دمعت، وعينان أخرى لمعت، ورجولة فتية تهبُّ بثورة حمائية: «يا معلم حماد، تلك تبتعد ولا يقترب منه أحد، إنها أصبحت أختي.»

ابتسم معلم حماد ذو الوجه البشع الذي أصبح أبًا روحيًّا وحماية إجباريًّا للجميع وقال: «اتركوها ولا تأخذوها للقسم الذي يبيع العذراوات، تلك ستبقى لغرض آخر، فهي تليق له.»

أحيط بالظلام ونسي الحلم والأمل، اختلط السواد أُغْلِقَت العيون ذات الجمر المحترق ثم فُتِحَت على سكين حادة تُقطع في أجسَاد أصبحت خاوية، الدماء تُسال فتملأ المكان، الصراخ أصبح لا يُطاق، الضعف والذل والهوان، الكسر والتحطم تحت صخرة الواقع الأليم.

ثم فتحت عينان قاسيتان تنبضان وجعًا من بين نيران الجحيم يخرج من فوهة بركان خامد ساكن لأعوام ماضية ووجه يتصبب عرقًا وبأنفاس لاهثة هتف دون سيطرة: «آية لا».

كان يدور بعينيه في أرجاء المطار الواسع، وهو يشعر بحِيرة نادرة وكأن جزءًا منه يتساءل أين أنا؟ هل حقًّا عُدتُّ أخيرًا للمكان الذي ظللت أحلم بالعودة إليه طوال خمس عشرة سنة كاملة؟ وصل إلى مكان ختم الجوازات فأخرج بروتينية جواز سفره الغربي للضابط المسئول فختم أوراقه سريعًا دون أدنى مناقشة بابتسامة مُرحِّبة مبالَغ فيها والرجل يخبره: «مرحبًا بعودتك إلى أرض الوطن.»

هز رأسه ببرود جليدي بوجه غير مفسر وبعين مشتعلة كالجمر المحترق والغُصَّة تزداد مرارة داخل قلبه فتطعن بسكين بارد «الوطن! ومنذ متى كان له وطن؟!»

سحب أوراقه بنفس الروتينية وهو يدسها في جيب معطفه الأسود المماثل لقميصه وبنطاله وحياته منذ أن وعت عينيه على تلك الدنيا

القاسية، بخطوات واثقة قوية تهز الأرض من تحت قدميه هزًّا كان يخطو أخيرًا إلى حدودها وأكمل طريقه إلى الخارج حتى دون أن يلتفت لبعض الأنظار التي تعلقت بهيمنة حضوره، لم يمنح أحد التفاتة ولم يبتسم حتى، منذ متى عرف وجهه القاسي الشرس الابتسامة؟!

لقد عاهد نفسه منذ زمن ألَّا تعرف الضحكة الطريق لقلبه إلا وهو ظافر منتصر منتقم.

بمجرد خروجه من المطار صفعه الهواء الحار، وجهه تصبَّب - مثل جسده - بالعرق من تحت ملابسه، رغم ارتعاش الجموع أمامه ببرد الشتاء اللاذع، شعر بالاختناق والتلوث، شعر بالرفض وعدم التقبل، رفع أنامله ومرَّرها في خصلات شعره الكثيفة، وهو يدرك جيدًا أن الحمى التي عانى منها على الفور لا تعود أبدًا إلى الطقس بل إلى البركان الخامد داخل صدره الذي كُتِبَ له أن ينفجر أخيرًا ويحرق كل مَنْ حوله بلا ذرة رحمة أو تردد، فالغضب يغذيه والكُره يزيد من تلك النيران كالحطب ليمنحه الطاقة للاستمرار وألا يتوقف ولا يتهاون أبدًا، كأنه آلة لا إنسان بشري له حدود وطاقة وضعف وقوة، أو كائن بُعِثَ من الجحيم ليأخذ ثأره دون رحمة أو شفقة، أشباح تسكنه، والمرارة والألم والحسرة تغذيه.

«سائد»، هتاف أفاقه من أفكاره المشتعلة ليوجِّه عينيه إلى الوجه الرجولي الضاحك المرحِّب البشوش، رجل ربما تخطى عمره الثلاثون بقليل، لن يستطيع سائد الجزم بكم يبلغ عمره تحديدًا، ومنذ متى علم أحد منهم عن عمره الحقيقي أو حتى أصله وصفته؟ فما هم إلا زوائد في أنظار المجتمع والناس ككلاب السكك أو قطط الأزقة المظلمة يُركَلون بالأقدام وينادَى بالتخلص منهم.

اقترب عمر مرحِّبًا حتى دون أن يحاول مسه، إنه يعلم بأشباح صاحبه وردة فعله إن حاول أحد الاقتراب من تلك الهالة التي تشع رفضًا، إن حاول أحدهم فعلها حتى وإن كان عمر صديقه ورفيق دربه وكفاحه المرير.

«حمد للّه على سلامتك، أنا في انتظارك منذ وقت طويل لقد تأخرت طائرتك.»

تقدم سائد بجانب عمر يمشي نحو ما أشار دون أن يتفوه بكلمة واحدة فقط اكتفى أن يهزَّ رأسه بما يشبه إجابة موافقة، وصل إلى السيارة الحديثة سوداء اللون كما طلب وفتح بابها، ثم ألقى بجذعه الضخم في المقعد الخلفي قبل أن يقول بصوت متجمِّد لا حياة فيه مماثل لشخصيته: «أين الرجال؟ لم أر أحدًا منهم.»

احتلَّ عمر المقعد المجاور للسائق وهو يقول ببساطة: «بعضهم في السيارة الخلفية والبعض الآخر ينتظر في الشركة الصغيرة التي افتتحناها، لم أجد داعٍ لأن يأتي الجميع ونلفت الانتباه.»

رد سائد بجمود: «خيرًا فعلت، لا داعي لإثارة جلبة في الوقت الحالي، أريد أن يتم عملنا في سرية تامة وهدوء كما تتم كل العمليات القذرة.»

تنهَّد عمر بغير رضى وهو يبسط كفَّه أمام السائق وهو من رجالهم وأمره بالتحرك.

يعاود عمر ويلتفت إلى سائد ويسلمه بعض الأوراق وهو يخبره: «كل المعلومات التي طلبتها ستجدها هنا، مرفقة ببعض الصور لكل شخص عليه العين تحديدًا.»

استلم منه سائد الأوراق بروتينية يتفحصها بتلك العينان ذات الجمر المحترق، قبل أن تقع بيده إحدى الصور التي زادت من حدة اشتعال عينيه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وتحفَّز جسده لا إراديًا، مرر يده وكأن شيئًا يجبره على تلك الصورة التي التُقِطَت لفتاة عفوية التصرفات بشعر أسود قصير ملتوي الخصلات وعينين واسعتين بلون رمادي منطفئ عكسه هو، ووجه خمري على شكل قلب، يميل فمها بشبه ابتسامة ساخرة وهي تقف على محطة ناقلات عامة على ما يبدو، لماذا تسكنه الحيرة؟ بسبب بساطة ملابسها أو أنها تستخدم وسائل مواصلات، لقد وصله من قبل معلومات وافية عنها، وعلم جيدًا ما الذي وصلت إليه تلك الفتاة من حياة مرفهة ناعمة إلى الحضيض والقاع، ما السبب؟ لا يهمه في الحقيقة السبب ولا يعنيه أين ذهب كل هذا الترف الذي جناه والدها من...

قطع تفكيره فجأة وهو يلقي برأسه بإهمال على المقعد وأغمض عينه بتشدد، لا يجب أن يغرق الآن في دوامة الذكريات، يجب أن يحرص على كل تركيز وانتباه وإن كانت تحيره تلك الأحلام التي عادت بقوة تشعل عقله بومضات تأخذه في دوامات، ومنذ متى لم يعانِ سائد من سواد كوابيس ماضيه ولكن ما يحيره بحق لماذا الآن؟ عادت تضرب بقوة، ربما هو يعلم الإجابة؛ لأنه أخيرًا أصبح بالقوة التي تُهيئه لأخذ حقه بل حق الجميع، ولكن ما يجعله يتشتت في وقت عاصف كهذا تلك الومضات الغريبة التي أصبحت تتكاثف عليه، لتلك المرأة البشوشة وطفلها المدلل أول كابوسه، مَنْ هي ومَنْ ذلك الطفل المقاوم الصارخ؟ بل لماذا عقله كل مرة يحجب عنه الأسماء وملامح تلك الوجوه؟ ولما يمتزج كابوسه دائمًا مع تلك الومضات المشتعلة التي يتذكر بها سبب غُصَّته التي تطعن قلبه بخنجر سام وتتركه منقسمًا لشطرين، ولكن لا تزيده إلا إصرارًا على هدفه حتى وإن كان الموت هو نهايته.

الحَرُّ أصبح لا يُحْتَمل في تلك الشقة الكئيبة المكوَّنة من غرفة واحده تقع أعلى سقف عمارة قديمة في مسكن شعبي، هواء ساخن ملأ الغرفة بطريقة غريبة رغم برودة الجو في الخارج.

تحركت دجوى من مكانها بضيق يصاحبه الملل ترفع علبة الطعام التي قامت بشرائها مسبقًا ولم تنس منها شيئًا فألقتها في الثلاجة الصغيرة المهترئة ككل شيء في ذلك المسكن، ثم تحركت بنفس الجمود ورمت بجسدها على الأريكة، وضعت كفَّيها متعانقين تحت وجنتها وشردت في البعيد بعينيها الرماديتين في منزلها الواسع الذي قضت فيه أعوامها الاثنتين والعشرين قبل أن تُطْرَدَ منه هي وأمها منذ خمسة أعوام ماضية، عيناها بدأت تَنْدَى بأول قطرات دموعها فلم تشعر بها وهي تتذكر كل ما حدث بعد خروجهم من منزلهم وتجريدهم من كل شيء باسم القانون، أو تستطيع القول: بالخدعة والمؤامرة التي حيكت لهنَّ، وهي على يقين بذلك، ارتفعت عيناها ببطء حذرٍ حريص كأنها ترفض أن تراقب تلك الصورة التي وضعتها على ذلك الحائط، لتلتقي أخيرًا مع وجه أمها الأرستقراطي، والتي لم تتحمل ما حدث فأصابها المرض الشديد وأتبعه الشلل بجميع أطرافها، لقد حاولت الاعتناء بها وباعوا كل ما كانت تملكه أمها منفصلًا، وتم صرفه على العلاج والقضايا والمحاكم، ربما يستطعن أن يستردا جزءًا من أملاكهنَّ التي سُلِبَتْ، فلم يستطعن وسط حبال المحكمة الطويلة لمدة أربعة أعوام، وبعدها كانت الصدمة برفض القضية فلم تتحمل أمها أكثر وسلَّمت روحها لله الواحد الأحد، فهو أحنُّ عليها من ذلك العالم الغادر، وبقيت هي وحيدة كفرع شجرة تعرَّى من كل أوراقه ليسهل كسره في مهب الريح، دموعها زادت غزارة حتى شوَّشت الرؤية أمامها، البرد أصبح ينخر في عظامها الرقيقة رغم الشعور الخانق بالحر، مدَّت يدها تسحب ذلك الغطاء الرقيق الذي

تلقيه على الأريكة عادةً تغطي نفسها به جيدًا (رباه هل يمكن لإنسان أن يرتجف بردًا ويغلي نارًا في آنٍ واحد؟!)

ضمَّت ذراعيها إلى صدرها بشدة وهي تحاول اغتصاب بعض الغفوة حتى تُريح عقلها الغارق في مرارته من دوامته، ربما تجد في النوم السلام، ولكن هيهات قد تستسلم للنوم، ولكن أين قد تهرب من كوابيسها، النهاية آتية لا محالة.

في لفتة نادرة، ارتسمت علامة استنكار باهتة على وجهه وهو يلتفت لعمر متسائلًا بنبرة حازمة: «ما الذي تفعله هذه هنا؟!»

تحركت شَفَتَا عمر بنزق قبل أن يتقدم منه يخبره بصوت خافت وهو يراقب الكيان الأنثوي الذي يقف مرتجفًا بعض الشيء وفي عينيها نظرة خوف، خوف يعلم جيدًا ماهيته الحقيقية عندما قال: «وماذا قد تكون برأيك؟ إنها سكرتيرة المكتب الخاصة.»

أعاد سائد نظراته إلى عينيه ببرود ووجه عاد للانغلاق بملامح لا تفسر، ثم خرج مباشرةً من المكان غير مبالٍ بتلك الفتاة التي تمكَّن منها الخوف، هل تودِّع وظيفتها التي حصلت عليها بعد صعوبة وعناء؟!

جلست متهالكة على مقعدها ودفنت وجهها في راحتيها قبل أن تسمع الصوت الرجولي يخبرها مبتسمًا: «لا عليكِ يا رابحة لقد أخبرتكِ مسبقًا عن حدَّة سائد في التعامل.»

رفعت رابحة عينيها البنيتين الواسعتين قائلةً بخفوت: «إنه ليس حادًّا سيد عمر، بل مرعبًا أعتقد أنني ودعت وظيفتي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم يستطع عمر منع ضحكته وهو يتأملها جيدًا، يتذكر عندما أتت منذ شهور مقتحمة للمكان – وكان ما زال طور الإنشاء – مطالِبَة – لا طالبة – بوظيفة في المكان عبر خُطبة طويلة صمَّاء عن عدم شعور الأغنياء بهم هم الكادحون، ورفض أصحاب الشركات منح وظيفة لفتاة عادية الشكل والملابس، مصرة بكل تعنُّت أنها تستحق تلك الوظيفة، ورغم أمر سائد لا شرطه أن يكون كل العاملين من الرجال، لم يستطع أن يرفض طلبها، بل منحها تلك الوظيفة على الفور، بالطبع مع ضحكته الساخرة من قولها عدم شعورهم بالكادحين.

«الكادحون! وماذا تعلمين أنت عن الكادحين الحقيقيين، الذين يكافحون فقط من أجل أن يبقوا على قيد الحياة أمام موجة برد قارصة وهم ليس لديهم مأوى أو سكن أو حتى بعض الملابس التي تستر أجسادهم الهزيلة؟!»

بحركة إصبع حادة كان يمنع الرجال من اتباعه، بتجهُّم كان يتعجب من أفعال عمر، لقد طلب هؤلاء الرجال لوقت محدد سيستعين بهم في خطته لا أن يتبعوه في كل مكان كما يحدث من الأمس، استقل سيارته، وانطلق سريعًا من المكان ومع استمرار السيارة في طريقها، كانت عيناه لا تفارق هؤلاء الذين يفترشون الرصيف ليعرضوا عليه بضائعهم بأسعار زهيدة مثلهم، وجوههم الكالحة يرتسم عليها الهمُّ والتحسر والمرض والجوع الذي يَنْخَرُ بأجسادهم دون رحمة، تنتقل عيناه إلى صنف آخر ممسك بالمكانس يجاورهم المتسولون، وهو يستطيع – ببراعة مكتسبة بالخبرة لأكثر من ثمان عشر سنة – أن يصنفهم بين محترفين وهواة! ثم وبكل جلد ذاتي كانت عيناه تبحث نحو هدفه وغصة قلبه، وفي أحد الأزقة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم يخبْ ظنه وقد وجدهم ينكمشون حول بعضهم كأنهم يتلمسون الدفء من أَجسادهم الضعيفة، يقتسمون شيئًا ما فيما بينهم ليسد قليلًا جدًّا من رمق جوعهم، كأن السنوات الفاصلة لم تُغير فيهم شيئًا، ملابس قذرة مهترئة لا تستر شيئًا من أجسادهم الهزيلة، وجوه مغبرَّة متسخة تعلوها نظرة تائهة حائرة وضائعة.

كاد سائد أن يوقف سيارته عندما انتابته موجة ضعف حادة، اجتاحته دون قدرة له على إيقافها، فتقبضت يداه بعنف على المقود وزاد من سرعة سيارته كأنه يهرب من تلك الملامح التي يعلمها عن ظهر قلب مخبرًا نفسه بقوة وقسوة: «لا، لن تضعف ويتوجب عليك أن تزيل أي بادرة ضعف الآن.»

منع بقوة الألم الذي سرى في داخله ليطعنه في النهاية كنصل سكين حاد، أو مشرط عديم الإنسانية والرحمة.

«لا»، هتفها لنفسه بقوة حازمة مسيطرة كعادته في الأعوام الخمس عشر الماضية منذ أن هرب وهو يقسم أن يعود ليذيقهم من كأس عذابه.

كانت تقوم برصِّ بعض المواد الغذائية على الأرفف في ذلك (الماركت) المتوسط، الذي استطاعت أن تلحق بوظيفة فيه منذ أربع سنوات بعد أن بدأت مدخرات والدتها في الانتهاء، وملامح الإرهاق والتعب نالت منها بقوة بعد ليلة تمكَّن منها السهاد ولم تستطع أن تنام حتى دقيقة واحدة، الذكريات السعيدة التي قضتها أميرة مدللة تتدفق على عقلها بقسوة فتعود تحمد الله دون كلل أو ملل، برغم توحُّش حياتها التي انقلبت رأسًا على عقب كان رحيمًا بها أن يمنحها القوة والثبات لتُعافر ولا تنجرَّ لطريق مظلم فتخسر نفسها وتربيتها وأخلاقها التي كان يزرعها فيها والدها منذ نعومة أظافرها، نعومة! نظرت ليديها التي أصبحت خشنة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

من الشقاء بحسرة على مكان، فعادت تهمس لنفسها بقوة: «توقفي دجوى عن تذكُّر ما كنتِ عليه، حرب لم تنتهِ بعدُ ومال والدكِ ستعيدينه رغم أنفهم ومحاربتهم إياكِ.»

عينان قاسية حاقدة غامضة كانت تتابعها منذ ما يقرب ساعة وهي تنتقل هنا وهناك، حتى رؤيتها ذليلة بهذا الشكل بعد العز ورغد العيش الذي كانت تتمرَّغ فيه لم يشفِ غليل قلبه، ولم يوقف ذلك البركان الذي يثور مهددًا أن يتوجه إليها على الفور وينفذ فيها حكمه.

انتبه لرنين هاتفه، فأخرجه من جيب معطفَه بآلية مجيبًا بجموده المعتاد: «ما الذي تريده؟»

أتاه الصوت الآخر مشفقًا قليلًا وهو يخبره: «الاطمئنان عليك، لقد خرجت منذ ساعات، وقلقت أن تكون ضللت طريقك.»

ضحك دون مرح وهو يرد ببرود: «أنت أصبحت مرهف الحس يا عمر، يبدو أنك نسيت أنني حفظت تلك البلد بشوارعها وحاراتها وأزقتها، ومَنْ أكثر مني علمًا بخفاياها المظلمة؟!»

تبدلت ملامح عمر الوسيمة في لحظة وهو يقول بتجبر متجنب بروده: «أنت الذي تنسى أن قضيتنا واحدة، وبالتأكيد أعلم ما تقوله عن ظهر قلب.»

شدَّد سائد على حروفه وهو يخبره مصححًا ومذكرًا: «حربنا يا عمر والتي نعلم عن يقين أننا لن نخرج منها أبدًا على قيد الحياة.»

الصمت ساد لدقائق معدودة قبل أن يقول عمر بقوة مؤكدة: «حربنا يا سائد، ثأرنا الذي لن نتنازل عنه وقد بايعتك عليه.»

أغلق سائد جفناه وهو يخبره: «ما الذي تفعله تلك عندك يا عمر؟ لا أريد أن أزجَّ بأبرياء في طريقي أو ينالها الأذى إن كُشِفْنا.»

القلب الأسود المتحجر لديه مشاعر إنسانية أخيرًا يعبر عنها! علم عمر عن يقين أن سائد لن يفصح عنها لسواه فردَّ بموارية: «وجودها كان ضروريًّا من أجل الواجهة الاجتماعية، كما أن حالتها الاجتماعية في فقر مدقع، فأخبرت نفسي لِمَ لا نساعدها بقليل من المال، وبعدها نستطيع اختراع حجة وإبعادها عَن المكان وعنا.»

عَمَّ الصمت مرة أخرى بينهم قبل أن يقول سائد بنبرة متجمدة: «المشاعر ليست لها مكان بيننا، وإن كنت تهتم بها كما فهمت من نظرات عينيك ودفاعك عنها حتى دون أن تقول المزيد يجب أن تتخلص منها وعلى الفور، لا أريد لشيء أن يعطلنا، هل تفهم؟»

لم يردَّ عمر، فقال سائد دون أن يزيح عينينه السوداوين القاسيتين عن دجوى: «واحدة فقط من سنسمح لها بأن تحترق بذلك الجحيم يا عمر.»

أخذ عمر نَفَسًا عميقًا قبل أن يخبره بهدوء متعمق كعادته يحاول أن يُحجم ذلك الغضب الأسود الذي يخرج منه عندما قال: «هي أيضًا ليس لها ذنب يُذْكَر يا سائد، لقد تعاهدنا عندما كُشِفَ كل شيء ألَّا نحصد أبرياء في طريقنا، فلماذا تصر أن تجرف في تيارك تلك الفتاة؟»

«عمر»، هَدَرَ بها سائد مُنْهيًا الحوار وهو يقول بتشدد: «إياك أن تتدخل فيما لا يعنيك أبدًا، هي قضية أخرى تخصني وحدي وبعيدة عن تدخلك تمامًا.»

لطالما كان عمر الوجه الناعم لجحيم سائد، فإن كان هو العقل المخطط المسيطر، فعمر دائمًا هو الأداة المنفذة في الخفاء، حدود وضعها الآخر منذ زمن بينهم، ويبدو أن دجوى أصبحت إحدى الخطوط التي لن يسمح لمخلوق بتعديها؛ لذا قال عمر بهدوء متجنبًا كل حديثهم: «جميع تحركات رأس الأفعى أصبحت بين يدينا وليس هذا فقط يا سائد، بل وجدت ثغرة ونقطة ضعف لهم نستطيع أن نصل منها إليهم بسهولة.»

لم تهدأ تعابير سائد قط وهو يخبره بشراسة: «لتهدَّ هرمًا يا عمر وتسويه بالأرض، يجب عليك أن تبدأ من القاع من قاعدة الهرم؛ حتى لا تقم له قائمة أو يعيد أحد تشكيله.»

قال عمر والقسوة والشراسة تعود تكلِّل ملامحه: «ستبدأ بالضباع الصغيرة.»

اشتعلت عينا سائد بوحشية قبل أن يقول: «نعم بالوكر والشارع، إنهم الأول في قائمتي.»

بعد عدة ساعات عاد إلى الشقة الفخمة، التي اختارها في مكان هادئ، ربما هو يُحب الهدوء بعيدًا عن ضوضاء البشر أو محاولة أحدهم لدخول حياته دون إذن ولكن هدفه الأساسي من تلك الشقة تحديدًا لغرض معين في مرحلته القادمة، فتح باب المنزل وخطا إلى الداخل دون صوت أو جلبة تُذكر كأنه شبح يتنقل بين ظلمات الليل الطويلة، لم يفتح النور كعادته ومنذ متى كان يحتاج لأضواء كي يتلمس طريقه؟! السواد كان يحيطه منذ نعومة أظافره، وعندما أتى بصيص نور واحد في عمره البائس، قاموا بقت ...

بقسوة يتخللها القهر عاد ليخبر نفسه: «توقف، توقف أنت لن تتذكر شيئًا الآن، لن تضعف لقد بدأت لعبتك وانتقامك.»

وكعادته منذ سنوات عندما يكثر عليه الضغط، يلجأ سريعًا لإيلام جسده بسادية! حتى يُفرغ كل موجة غضبه ليتمكن من إخضاعه ووضعه تحت السيطرة حتى الوقت المناسب.

قليل من الرياضة القاسية لن يضر، ألقى جسده على الأرض واستغرق بممارسة تمارين الضغط بصفة خاصة حتى يتعدى المائتين بنتيجة هائلة: واحد اثنان، عشرة مائة مائتان ولا نتيجة، الغضب لا يُحْتَمَل.

اعتدل متقطع الأنفاس، إذًا لا حل آخر، قليل من الدماء ربما تُفرغ جُلَّ سخطه، استلَّ مُدْيَة صغيرة من جيبه ومدَّ ذراعه وبدأ عمله، جروح غائرة تملأ ذراعيه، تلك الذراع بالذات التي ضمَّها بها إلى صدره يومًا، يرتشف من رحيق ثغرها ويدخل جنان عشقها، ينهل من روحها كما يُعطيها جزءًا من روحه، وقت مسروق من الزمن كان يغرق فيه معها بدنيا لم يعرفها أبدًا فيعرفها عليها ويتلمَّسا طريقهما بأعمارهم التي لم تتعدَّ سن مراهقة!

الدماء تسيل راقبها بقسوة مخلوطة بالحنين (آية)

أغمض عينيه ورأسه ترجع للخلف يستند على الحائط، سامحًا لعقله أخيرًا بأن يتذكر بهدوء تلك الأوقات المسروقة من الزمن والجميع!

استيقظ في الصباح الباكر وذهب إلى الحمام مباشرةً ليأخذ حمامًا سريعًا، سيبدأ خطواته الأولى بانتقامه بعد أن تخلص من سيل الذكريات القاسية في اليومين الماضيين، لقد علمته حياة الغربة عدم البكاء على

الحليب المسكوب، وألا يتوقف أبدًا ويغرق في رثاء الذات، خرج سريعًا ينشف الماء من على جذعه الضخم، قبل أن يرتدي حُلَّة رياضية سوداء اللون، ثم توجه إلى الأسفل مباشرةً إلى الركض ولكن ركضه لن يتوقف في الحي الراقي الهادئ الذي اختاره، بل يعلم يقينًا أنه سيأخذ الطرق الخلفية ويتسلل إلى تلك الأحياء الفقيرة المنسية، عجبًا على تلك الدولة شارع واحد يفصل بين حيَّيْن من أشهر أحيائها: أحدهما ينضح بالرُّقي والترف والهدوء والأمان، والآخر يمتلئ بالسرقة والغوغاء، ويغرق أهله في الحضيض إلا مَنْ رحمه ربه!

بعد ركض دام نصف ساعة وصل إلى المكان المقصود، كما وصلته التقارير عن موعد نزولها من ذلك البيت المهترئ، راقبها، تقلِّب عينيها بتخبط وخوف في الشارع الذي يخلو من المارة في هذا الوقت، قبل أن تأخذها خطواتها المتسارعة لإحدى الطرق الضيقة التي بالكاد تمرر شخصين؛ نظرًا لتلاحم المنازل بجانب بعضها، تبعها سائد دون تفكير عن بُعْد، قبل أن تتحفز كل عضلة في جسده الضخم وهو يرى آخر يتبعها بخطوات متقاربة، تتسارع خطواتها بذُعر على ما يبدو، فتلاحقها خطوات الآخر من ورائها، وفي أقل من لحظة، كان الرجل يمسك ذراعها بقسوة يثبتها إلى صدره ويُخرج سكينًا خاصًّا يعرف أنه لا يحمله إلا البلطجية يضعه على رقبتها مباشرة، أغمضت دجوى عينيها مستسلمة، كانت تشعر أن الأمر لم يكن مجرد تهديد، لقد وصلوا إليها للخلاص منها لا محالة وها هي ستُذْبَحُ هنا، وربما لن يتعرف على جثتها أحد، فالتهديد كان واضحًا: فصل رأسها عن جسدها ثم تشويه معالمها كليًّا.

لم تعرف متى ظهر هذا الرجل من العدم، وقال بهدوء صقيعي غريب مخاطبًا ذلك المجرم: «أنصحك أن تتركها وتفرَّ من أمامي، هذا لمصلحتك الخاصة.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان رد ذلك المعتدي سباب انطلق من فمه قبل أن يقول مهددًا: «لا تدخل فيما لا يعينك يا هذا وإلا ستكون أنت الضحية التالية.»

شعرت بنفسها تندفع بعيدًا في لحظة، لتتراجع بعينين متوسعتين غارقتين في الدموع ويديها ترتفع تتحسس مكان السكين الذي ربما طال رقبتها بجرح بسيط إثر دفع ذلك الرجل لها بقوة وسرعة تماثل سرعة ذئب أسود.

كانت تراقب برعب المعركة التي لم تكن متكافئة بالمرة، مهاجمها حاول أن يوجه ضربة للرجل ولكنه لم يستطع، فذلك الرجل القمحي كان يقاتل بطريقة غريبة تجمع بين حركات قتالية محترفة وأخرى عشوائية، ولكن شديدة التأثير إذ استطاع خلال دقائق قليلة أن يُسقط الرجل أرضًا، ويقف مشرفًا عليه وهو يقول آمرًا: «ما الذي كنت تريده منها؟»

رد الرجل بذعر تلبَّس ملامحه الإجرامية: «سرقة متعلقاتها، وماذا قد يكون غير هذا؟»

انحنى سائد على الجسد المسجَّى على الأرض وهو يقول بحدَّة: «ومنذ متى تكون أهدافكم سكان الحارات العشوائية؟! لا تخدع رجلًا يعرف كل ألاعيب أمثالك.»

تمكَّن الهلع من الرجل وهو يحاول أن يتملَّص منه، أخرجه صوت دجوى المرتجف تخبره: «سأطلب الشرطة حالًا.»

رفع سائد رأسه سريعًا وهو يقول بعنف: «أي شرطة تلك؟ هل تعتقدين أنهم سيأتون لكِ بحقكِ، أو يأتون من الأساس وفِّري رصيد هاتفك لشيء أنفع.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

سارت دجوى بجواره دون كلمة إضافية، عندما أفلت ذلك اللص الذي فرَّ هاربًا وبدون أي حديث كان يشير لها أن تتحرك أمامه، ورغم أنه لم يبادر بالسؤال شعرت أنه يتوجب عليها أن توضح موقفها فنطقت بارتباك وهي تعود تنظر له بتفحص رغمًا عنها: «أنا أخرج كل صباح لعملي، وأفضِّل أخذ الطرق الجانبية؛ حتى لا أستغرق الكثير من الوقت.»

صباح باكر وتأخذ طريق الأزقة المرعب كل يوم، إذًا ابنة الذوات غبية، ورغم مرور خمسة أعوام على كارثتها وحرمانها من دلالها السابق لم تستطع الأيام القاسية التي مرت عليها أن تمنحها بعض الذكاء الاجتماعي، حتى من أجل ألا تخاطر بحياتها، عندما لم يردَّ عادت تقول بتقطع:

«أشكرك لشهامتك معي لولا ظهورك لم أكن أعرف مصيري الآن.»

هذه المرة لم يستطع تجنبها إذ رد بهدوء غريب: «ولكن أنا أعرف، سرقتك أو ربما أسوأ؛ اغتصابك.»

شهقت دجوى برعب وهي ترجع للخلف خطوات إلى أن تركت الرصيف الذي كانا يمشيان عليه لتصبح في الشارع السريع مباشرة.

شتم سائد بعنف، قبل أن تمتدَّ يداه تمسك ذراعيها بقوة ويسحبها نحوه.

بكل تأكيد ما يحدث من مساء الأمس كان كثيرًا عليها، تهديد بالقتل والتشويه ثم لص يضع سكينًا على رقبتها يتبعه ظهور هذا الرجل الذي بعد أن تأملت ملامحه العابثة المتجهمة شعرت بخوف فطري يتغلغل لكل جزء من جسدها، جسدها الرقيق لم يتحمل، الدوار قد تمكَّن منها فنطقت بتوسل مقهور وضعف وعينيها تغرق برماديها المنطفئ في بحر

من الدموع: «أنا لم أتناول شيئًا منذ أيام وهذا كثير عليَّ، أرجوك كُن شهمًا للنهاية ولا تؤذني.»

وباللحظة التالية كانت الصدمة؛ إذ وقعت الفتاة بين ذراعيه وعلى صدره، هل من الممكن أن يجرَّه انتقامه لشيء أشد عنفًا وقسوة؟ أن يحميها من بركان غضبه الأعمى؟ أم ينفذ فيها العدل الآن دون ذرة تردد أو رحمة؟

تلقَّفها سائد بين ذراعيه، وسؤاله الحائر ما زال يتردد صداه في عقله، اسودَّ وجهه وتجهمت ملامحه، ابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يتخذ قراره، مال بجذعه قليلًا ووضع ذراعه تحت ركبتيها وأخرى أسفل ظهرها وحملها مغادرًا.

عجبًا، متى أصبح الناس لا يتدخلون في شئون بعضهم؟ كيف لم يسأله أحد لمَ يحمل فتاة فاقدة الوعي بين ذراعيه ويغادر دون أن يوقفه أحد، غُصَّتَه تفاقمت داخل صدره وهو يعود من نفس الطريق الذي أتى منه يتذكر كل التقارير وحكاوي الناس وتحذيراتهم على مواقع التواصل الاجتماعي الذي جمعها عن الطرق الجديدة التي ابتدعها الخاطفون، من تجار رقيق أبيض أو مافيا الجزارين البشرين لخطف البنات أو السيدات أو حتى شباب وأطفال، مادة خفية توضع لهم على ملابسهم يستنشقونها فيدخلون في غيبوبة فورًا، ويحمل الخاطف أو حتى مجموعة من النساء ضحيتهم تحت مسمى أقارب أو أصدقاء وتختفي الضحية دون رجعة، كل مخطوف حسب استخدامه يُحَدَّد سعره في أسواقهم، فتبًّا لمجتمع جاهل أحمق يغض بصره عن الحقيقة التي تماثل وضوح الشمس، اللعنة على محاولتهم نسيان الخطر المحدق بهم من كل جانب

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تحت شعار: (الدنيا بخير، ونحن حريصون ولن يطالنا الأذى)، ألا يعلم الحمقى أن تلك العصابات أصبحت تتكاثر بشكل غير طبيعي لاهثين وراء المال، وخطرهم يتفاقم ليطول كل فرد؟

وصل أخيرًا أمام منزله، صعد لشقته بآخر طابق قبل أن توقفه عينَي الحارس الذي ينظر له بتوجس ولكنه لم يستطع أن يتفوه ببنت شفة، تسللت السخرية لداخله عندما تراجع الرجل خوفًا من بريق جمرتيه المرعب.

كانت عينيه معلقة على جسدها الممدد على فراشه منذ دقائق وتذكر العقل جسد مراهقة أخرى وحقير يثبتها بجسده رغمًا عنها وهي تقاوم صارخة تستنجد باسمه، تبكي ذُلًّا وقهرًا، تحاول أن تحمي انتفاخ بطنها من سطو اعتدائه الغاشم.

عاشوا بهذا الذل كل لحظة في حياتهم المريرة، قهر كُتِبَ عليهم بغير ذنب، ولكن تلك اللحظة وعينيه تتابع ما يحدث من خلف ذلك الشباك مقيدًا وعاجزًا، كانت أكثرهم كسرًا ووجعًا ومرارة وغوصًا في أسفل الحضيض.

تنهَّد بانفعال وتسارعت أنفاسه غير قادر على السيطرة، وأطلقت عينيه جحيمًا فلت منه غضبًا مرغمًا فمال وأمسك معصمها، إن اغتيال رجولته ونور حياته وانتقامه هو ما قاده ليقترب بوجهه منها، عاد عقله ليتذكر توسلها لحظة سقوطها بين يديه فأغمض عينيه.

لحظة فارقة هي ما كان يحتاجها ليعود عمَّا انتوى فعله، ورغم كل مرارته كان قراره، يجب أن تنول من الكأس وهي مدركة وقوية كما كانت حبيبته، ستتجرع كل أنواع الذل وتصل الدرك الأسفل راغبة ومرغمة.

لا يعلم كيف اعتدل عنها وترك معصمها فجأة وهو يتأملها للمرة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الأخيرة بغرابة وشعور أغرب وأغرب مبهم يحيطه ولكنه لم يستطع أن يتبينه.

«عمر، تعالَ إلى المنزل على الفور واصطحب تلك السكرتيرة معك»، لم يعلم تحديدًا سر غضب عمر المفاجئ عندما قال بغضب مكتوم: «أي سكرتيرة تقصد؟»

جزَّ على أسنانه وتحامل على نفسه وقال: «كم واحدة نملك يا سيد عمر؟! تلك التي أدخلتها وسط دوامتنا رغم تحذيري المشدد لك.»

على الطرف الآخر من الهاتف احمرَّ وجه عمر بالغضب الذي لفَّه وسأل بخفوت مسيطر على أعصابه: «ما الذي حدث؟ ولِمَ تحتاجها؟ أنت عدت للتصرف ببعض الغرابة خلال اليومين الماضيين.»

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول سائد بخشونة متشددة ليذكره: «لأول مرة تسأل، منذ متى أحتاج للتوضيح لتفهمني؟ ومع ذلك أنت يجب أن تخاف عليها منك يا عمر وليس مني، أنت وحدك من تميل للَّهو مع النساء، أما أنا عندما أقول أحتاج إحداهنَّ، فأسبابي تتمحور حول عمل ما فقط.»

في لحظة تبدلت ملامح عمر للاسترخاء المتلاعب، ولكنه أبدًا لم يماثل تلك النبرة القاسية التي نطق بها قائلًا: «وهل يستحققن أكثر مما أفعله بهنَّ بالفعل؟ بالنهاية مَنْ توافق على فعل علاقة في الحرام، ما هي إلا غانية ستأتي للعالم (بلقيط) تتخلص منه بين مقالب القمامة، هو وحظه تأكله الكلاب، أو يملك الحظ الجيد مثلي ويعود ليذيقهنَّ من كأسهنَّ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ساد الصمت للحظة واحدة قبل أن يردَّ عمر على سؤاله المعلق: «أنا لم أظن بك شيئًا، وبالطبع أعرف أن هناك شيئًا ما حدث لاستدعائك لها بعد رفضك وجودها.»

أخذ سائد نفسًا عميقًا وهو يتجنب حديثه الذي يعرفه بالفعل منذ أن ...

وتذكر عندما أتى أحد صبيان الوكر بعمر من الشارع، ربما كان عمره آنذاك لا يتعدى التسع سنوات، ولكن المعلم حماد كان يعلم أن بأس وذكاء الثعالب الناعم الذي يمتلكه عمر أكثر من كافٍ ليجعله ينتمي لقسم رجاله في المستقبل.

في تلك اللحظة تجنب الذكريات فما لديه أهم، وقال بهدوء أثار عجب عمر: «أَحْضِرْهَا وتعالَ إلى هنا، فدجوى غسان الهاشم في منزلي فاقدة الوعي.»

وقفت رابحة على أعتاب الباب خائفة مرتبكة ومتحيرة، منذ أن اتصل بها عمر يستعجل قدومها ويخبرها أنه ينتظر أمام محطة الباص الذي تستقله يوميًّا، ثم يأمرها بتسلط بالركوب معه بوجه متجهم غاضب حانق لم تره فيه من قبل، ثم باقتضاب أخبرها عن ذهابهم لشقة سائد مباشرة، بالطبع رفضت وثارت غضبًا، ولكنه بهدوء أخبرها أن هناك أحد الفتيات فاقدة للوعي وسائد يريد امرأة تهتم بها ولم يجدوا سواها.

تعرف أنها غبية وتخاطر ولكنها لم تستطع أن تتخلى عن مساعدة تلك الفتاة المزعومة وفضولها يقتلها عن هويتها، وكيف وصلت لمنزل هذا الرجل المخيف لمجرد النظر في وجهه، قطع صمتها صوت عمر وهو يقول متجهمًا: «ستجدين الفتاة بالغرفة آخر الممر، حاولي إفاقتها واهتمي بها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تقدمت رابحة خطوة للمنزل وانتفضت بذعر عندما تقدم عمر وأغلق الباب خلفها بغلظة، نقلت نظرها بين سائد الذي يقف أمام شباك كبير يستند بيده عليه بتصلُّب وبين عمر الذي ارتخت ملامحه بنعومة وهو يخبرها: «هيا يا رابحة، فالفتاة منذ ساعة في إغمائها، تعلمين أنكِ تحت حمايتي ولن يؤذيكِ أحد.»

قالت رابحة بنبرة حاولت وضع القوة فيها: «ولِمَ لم تأتوا بطبيب مباشرة؟»

نطق سائد قائلًا بجفاء دون أن يلتفت إليها: «أنتِ تتقاضين راتبًا لتنفذي ما نريده، وليس لمنحنا الاقتراحات.»

جزَّت رابحة على أسنانها غضبًا ولم تعلق والتفتت مباشرة تتوجه نحو تلك الغرفة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عندما اطمأنَّ عمر لدخولها أخيرًا وسمع غلقها للباب خلفها بالمفتاح، هز رأسه يأسًا وهو يقترب ليقف بجانب سائد ينظر إلى الشارع من خلف الزجاج الذي يشمل الحائط، قبل أن يقول سائد بفظاظة: «مَنْ تتعهد بحمايتها غبية ومندفعة لا تملك ذرة عقل، كيف تثق برجلين وتخاطر بنفسها أيًّا كانت الأسباب التي أخبرتها بها؟»

توقَّع عمر هذا التعليق منه، زَفَرَ وقال ضابطًا أعصابه كالعادة: «إنها فقط طيبة، ولم تتحمل فكرة وجود فتاة معك وتحتاج للمساعدة، رابحة فتاة.»

قاطعه سائد وهو يقول بسخرية ميتة: «حاملة»

لم يفاجأ عمر للحقيقة من قوله، لقد علَّمهم الشارع الكثير والكثير؛ ومنها قراءة وجوه الناس جيدًا حتى أمهر من الأطباء النفسيين أنفسهم،

لقد طوروا مهارتهم عبر الشحاذة والسرقة والنصب وغيرها الكثير، كيف يحددوا ضحيتهم ومتى يهجمون ومتى يبتعدون تمامًا.

«كيف وصلت ابنة الهاشم غرفة نومك بتلك السرعة؟!»

التفت إليه سائد أخيرًا قائلا ببرود: «لقد وقعت بين ذراعي متوسلةً الرحمة ومتوسمةً في شهامتي، هل تصدِّق؟»

لم يبتسم عمر ولم تتغير ملامحه المتجهمة وهو يقول: «على ما أذكر لم تكن خطتك نحوها بها أي نوع من الشهامة، بل عملية سريعة منتقمة وتنتهي منها لنلتفت لما هو أهم، إذًا ما الذي حدث؟»

باقتضاب كان يجيبه: «لقد تغيرت الخطة تمامًا، لذة الانتقام تصبح بنكهة لاذعة حارة متشفية عندما تدوم أكثر وتستمر لوقت طويل.»

نظر له عمر بهدوء قبل أن يكرر سؤاله حتى وإن كان يتوقع الإجابة، ولكنه يحب أن يستمع لما يدور في عقله، ربما يفهم منه ما لم يستطع سائد توضيحه بنفسه: «كيف وصلت لك من الأساس؟ ولِمَ أنت بالذات مَنْ توسمت فيك الشهامة؟!»

عاد سائد ينظر من النافذ الزجاجية للشارع مباشرة قائلًا بقتامة: «أردت أن أرقبها عن قرب فذهبت للشارع الذي تسكن فيه وبعد خروجها في موعدها المعتاد كما دُوِّنَ في تقريرك، رأيتها تمشي بأحد الأزقة الضيقة، ولكن ما لم تذكره بتقريرك أن هناك أحدًا ما يتتبعها ويحاول قتلها.»

عبث عمر للحظات طويلة مفكرًا قبل أن يقول: «قَتْلها! هل أنت متأكد؟ ربما أحد ما يتتبعها لسرقتها أو بأسوأ الحالات خطفها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال سائد بصرامة حازمة: «لا أظن أبدًا، لقد فكرت في هذا عندما تتبعت اللص، ولكن الطريقة التي هجم عليها بها تجعلني أفكر في شيء واحد.»

سأله عمر بحذر: «ما هو؟»

رد سائد بنبرة قاطعة: «قَتْلُها أو إرهابها حد الموت رعبًا، ابنة غسان الهاشم تخفي أكثر مما تُظْهِر.»

بانت على عمر الحيرة، وقال كمن يراجع شيئًا ما في ذاكرته: «لا أعتقد سائد، خمسة أعوام منذ ما حدث لها لم تقم بأي تصرف غريب.»

فجأة قطع عمر حديثه وقد طرق عقله خاطرة فقال: «هل تظن أن هناك أمرًا ما حدث وكما تخلصوا من والدها يحاولون التخلص منها أيضًا؟»

التقزز طغى على ملامح سائد الجامدة قبل أن يقول بجليد: «لا يهمُّ، سينكشف كل شيء في الوقت المخطط له تمامًا، فأيًّا كان سبب ما حدث بالتأكيد في صالحي تمامًا؛ لأتخذ خطوتي نحوها سريعًا.»

بَدَا التفكير العميق على وجه عمر، بينما تساءل: كيف لعقل سائد - الذي يحسب لكل خطوة قبل أن يُقْدِم على فعلها ألف حساب - أن يخرج أحيانًا منه أغرب الأفعال؟! ثم قال أخيرًا: «أي خطوة تحديدًا سائد؟ وما هي خطتك الجديدة معها؟»

كان وجهه مظلمًا، مغلقًا غير مقروء عندما قال بلهجة مخيفة: «أريد أخذ جزء منها تعويضًا عمَّا حرموني منه، قبل أن أجعلها تلحق بهم.»

أحست دجوى للحظات بالتشوش وهي تفتح عينيها، ببطء نظرت حولها بعدم تركيز لدقائق لم تستوعب الغرفة شديدة الأناقة رغم ألوان الأسود الذي يحتل كل جزء منها، انتفضت سريعًا تنظر حولها هلعًا وهي تتفحَّص ملابسها أول ما خطر ببالها؛ لتجد أول زِرَّين من قميصها مفتوحين، وقبل أن يتمكن منها الرعب أطلَّت فتاة خمرية بشوشة الوجه عليها من باب داخلي للغرفة تخبرها بنبرة منتصرة: «وأخيرًا أفقتِ، هل أنت متأكدة أنكِ كنتِ في نوبة إغماء أم في سُبَات عميق وكأنكِ لم تتذوقي طعم النوم منذ أعوام حبيبتي؟!»

تشوَّش عقل دجوى كليًّا وهي تحاول أن تتذكر آخر ما حدث أو تتبين هوية الفتاة، فلم تتذكر إلا وجه الرجل المتجهم الذي أنقذها من ذلك المجرم؛ ازداد وجهها الشاحب بالفعل شحوبًا وهي تقول بخفوت خَجِل: «أين أنا؟»

أجابتها رابحة وهي تقترب منها تمد يدها بغير تحفُّظ تغلق لها قميصها الذي فتحته في السابق تحاول أن تجسَّ نبضها وهي تقول بحيرة: «في بيت السيد سائد العوضي، ولكن السؤال كيف وصلتِ إلى هنا؟ وما صلتكِ به؟»

عبثت دجوى في وجه الفتاة الفضولية وهي تزيح يدها عنها برفق قبل أن تقول باختصار وهي تُخمِّن أنه بالتأكيد الرجل الشهم الذي أنقذها: «لا صلة لي به، ولم أعرف حتى اسمه، إلا عندما ذكرتيه أنتِ.»

هزَّت رابحة كتفيها بلا اهتمام وهي تقول مثرثرة: «مزيد من الريبة حول رئيسي في العمل، لا يهمُّ.»

وقفت من جانبها تتوجه إلى باب الغرفة وهي تقول: «سأتركك لحظة؛ لأخبرهم أنكِ بخير ثم أعود إليكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

نظرت دجوى في أثرها مرتبكة مَنْ تقصد بالجمع؟ وكيف سمح هذا الشخص مهما كانت شهامته أن يحضرها إلى منزله؟ ألم يسمع بشيء يُدّعَى مشفى من قبل؟! حاولت النهوض من الفراش تعدِّل من ملابسها هامسة بسخرية مريرة:

«وهل تتشرطين دجوى؟! احمدي الله أنه لم يفعل بكِ شيئًا وأنتِ فاقدة للوعي، وكان من الرجولة أن يوفر لكِ امرأة حتى وإنَ كانت إحدى العاملين عنده كما أشارت الفتاة الثرثارة.»

وعندما وقفت على قدميها أخيرًا شعرت بالدوار يلفها كليًّا، فعادت تجلس على السرير بتعب والدموع تملأ عينيها، تلعن ذلك الضعف الذي ينهش في جسدها الهزيل دون رحمة، وترثى لحالها الذي أصبح في الحضيض بعد أن كانت مدللة تغرق في الحرير، حرير تشعر بنعومته الآن يلفها لفًّا ويجعل عقلها يتوقف في غفوة سريعة استسلمت لها منهكة.

فُتِحَ الباب دون مقدمات، فرفعت وجهها الشاحب تنظر له مجفلة، وهي تراقب جسده الضخم يقترب منها بتمهُّل كذئب غامض، ارتبكت دجوى وهي تحاول الوقوف مضطربة فاهتزت قدماها مرة أخرى، ولم تتخلص من أثر الدوار بعدُ مما جعله ينظر لوجهها الذي ابيضَّ فأصبح يماثل لوحًا من الرخام الأبيض، شعرها القصير مشعث بفوضوية، عيناها زائغة بغير تركيز، تبدو مختلفة تمامًا عن تلك الصور التي جُمِعَت لها في التقارير التي كانت تصله بانتظام، إذ لم يسبق أن رأى في عينيها كل هذا الضعف والخوف حتى بعد أن تم طردها من منزلها هي وأمها، كما علم لاحقًا أن كل أقاربهم رفضوا دعمهم تمامًا بحجة الفضيحة التي نالت من شرف والدها الحقير بعد موته، وبالتأكيد لا يريد أحد أي صلة بهم تُذكر المجتمع بهم.

بصوت مكتوم ووجه لا يفسر أخبرها: «من الأفضل أن تبقين بمكانكِ حتى تستعيدي القليل من عافيتك.»

لم تردَّ دجوى بشيء وهي تتبع نصيحته، وعادت للفراش مرة أخرى تجلس على حرفه وتمسك بكفيها طرفه بقوة كأنها تسند نفسها من سقوط محقق، نكَّست رأسها عن مراقبته، تحاول طمأنة نفسها أنها آمنة معه، فتلك الفتاة بالتأكيد ما زالت بالخارج وهو ترك الباب مفتوحًا بالفعل، سمعت صوت مقعد يُسْحَب، فسمحت لعينيها أن ترتفع قليلًا تراقبه يقرب ذلك المقعد منها ويجلس مواجهًا لها، ثم قطع الصمت وقال أخيرًا: «كيف أنت الآن؟»

تأملته دجوى، نبرته الهادئة عكس النيران الغريبة التي تتقد في عينيه تمامًا، ولكن للغرابة لم تشعر بالتوجس منه، حتى وإن كان هناك شعور خوف مبهم يعتمل في صدرها نحوه، حذر لا تعرف سببه، استطاعت أن تجيبه بصوت متزن قليلًا رغم ضعفه: «أفضل، وأشكرك لما فعلته معي مرة أخرى وعلى اهتمامك.»

أومأ برأسه بشبه إجابة دون أن يردَّ.

أحاطت دجوى نفسها بذراعيها مرغمة، كانت تشعر ببرد يتسلل لكل خلية من خلاياها، قبل أن تقول بتوتر: «أريد أن أرحل من هنا بالتأكيد، تأخرت على عملي و...»

قاطعها سائد وهو يقول بجفاء صارم صريح: «قبل أن تخرجي من هنا أعتقد من حقي أن أسألكِ مرة أخرى، هل ما حدث لكِ كان من سبيل الصدفة؟ أنا لا أعتقد هذا، هذا الرجل يعرف جميع تحركاتك وبالتأكيد اختار هذا الوقت المبكر الذي يكون فيه الناس نيام.»

تلعثمت دجوى وهي تجيبه كذبًا: «لا أعرف، أنا فتاة يتيمة بسيطة، أعمل في أحد المتاجر، فلماذا يريد أي شخص أن يتبعني؟! بالتأكيد هو لص أحمق ليس إلا.»

اتسعت عيناه بالغضب من كذبها المكشوف قبل أن يسيطر عليه سريعًا بمهارة اكتسبها عبر سنوات من التدريب القاسي، ثم قال ببساطة: «حسنًا، ربما هو مجرد حادث عابر ولكن»

تركها معلقة عن قَصد لدقائق، حتى يلفت انتباهها وترفع رأسها تناظره بحيرة منتظرة تلك الـ «لكن».

ساد صمت ثقيل بينهم قبل أن يقول سائد بنبرة خافتة ناعمة خطرة:

«ولكن هل أنت متأكدة أن لا خطر يحيط بكِ وأنه لن يعود للانتقام منكِ، بعد أن هشمت أنا يده ووجهه؟ بالتأكيد يعلم مكان سكنكِ، لا يحتاج الأمر لذكاء خارق يا آنسة.»

ابتلعت دجوى ريقها بصعوبة، الرجل رغم أنه لا يعرف عن حياتها الصعبة شيء والتهديدات بالقتل التي تلاحقها مؤخرًا، قال شيئًا واحدًا منطقيًّا، إنهم لن يتركوها، سيطاردونها حتى يجعلوا صوتها يصمت إلى الأبد.

لم يشعر بالشفقة قط بل التمعت عيناه السوداوين بقسوة وانتصار وهو يراقب تخبطها، جزعها وخوفها، مستمتعًا جدًّا بحيرتها وذعرها وعجزها، رفعت عينيها إليه أخيرًا وهي تقول بألم:

«وماذا أفعل؟ الله موجود لقد أوكلته أمري من البداية وكما أرسلك أنت لإنقاذي، مؤكد هو قادر على حمايتي.»

أحنى سائد رأسه وتسلَّل له الضيق المختلط بالعبوس وتساءل في نفسه: «اللّه! وهل من رباكِ يعرف له طريقًا كي تؤمني به وتوكلي له أمرك؟!»

زمجر وهو يقول من بين أسنانه: «من الغباء يا آنسه أن ترمي نفسكِ في التهلكة بيدكِ، ثم تنتظرين من أحدهم انتشالك!»

عيناها برمادها المنطفئ انبعث منها الشرر وهي تهبُّ من الفراش قائلة بكبرياء رافض نبرته المهينة: «لقد حاورتك يا سيد بتهذيب لفعلتك الشهمة معي وجميلك الذي طوقتني به، ولكن ليس معنى هذا أن أسمح لك بالتطاول على شخصي.»

النظرة التي ألقتها لعينيه كانت شيئًا خارج توقعاته تمامًا، وضد ما أراده تسللت لداخله، أجابها دون أن يحاول التحرك من مكانه بصوت هادئ ومباشر وصريح: «أنا لم أُهِنْكِ، أنا أوضح الحقيقة أمامك.»

صمت لبرهة وهو يتأمل وجهها غير المتنازل، ثم أردف دون لف أو دوران: «العودة لسكنكِ مرفوض إن كنتِ تحرصين على حياتك، وذلك العمل الذي لا يقدر كونكِ أنثى في مجتمع أصبحت تغرقه المخاطر، أيضًا يجب أن تتخلي عنه.»

التفتت له دجوى عابسةً وهي تقول بضيق: «ماذا تقول بحق اللّه؟ وهل كل مَنْ تعرض لحادث سيترك منزله وعمله؟!»

كم يمقت النساء بسجالهنَّ وغبائهنَّ؛ لذا كان يُبعدهنَّ عن دائرة اهتمامه لسنوات، وكم يمقت الحديث المطول والشد والجذب أجبر نفسه وعقد ذراعيه على صدره وأجابها: «أنتِ قلتِ أنكِ يتيمة وحيدة؛ لذا أمر سكنك هين، سنوفر لكِ غرفة مريحة في أقرب فرصة، أما عن العمل ...»

صمت وهو يتذكر شيئًا، لا بل يمشي على خطته التي رسمها سابقًا، فقال مدعيًا الجهل بها مراعيًا أنها المرة الأولى لمقابلتها: «ما هي مؤهلاتك؟ هل حصلتِ على تعليم متوسط حتى؟»

قالت دجوى بخفوت هادئ: «أنا خريجة الجامعة البريطانية إدارة أعمال.»

ادعى سائد الدهشة والصدمة، وهذا كان أول شعور إنساني تراه يرتسم على وجهه عندما قال:

«هل تمزحين؟! هل تعلمين كم تكلفة السنة الواحدة في هذه الجامعة تحديدًا؟»

تحركت ببطء لتبتعد عن مرمى عينيه المراقِبَة قبل أن تبتلع غصة مريرة شطرت حلقها قبل أن تهمس: «أخبرتك أني يتيمة، تستطيع القول: إن هذه الحالة التي تراني فيها جديدة كليًّا عليَّ، لا شيء يبقى على حاله سيد سائد.»

ضيَّق بين عينيه وأدرك فجأة أنه لم يعرِّفها بنفسه، ليسمح لها أن تخاطبه باسمه فقال: «كيف علمتِ اسمي؟!»

أشارت دجوى برأسها ناحية الباب قائلةً برتابة: «تلك الفتاة قالت: إنك رئيسها، وعرفت عنك ...»

عاد يخبرها بنوع من التفسير متجنبًا الحديث الذي طال: «اسمعي أنا عدتُّ من الخارج، منذ وقت قصير وهناك عمل صغير سأقوم بتطويره إن كنتِ مهتمة، أستطيع توفير عمل لكِ فيه، أما عن السكن سأحل مشكلته في وقت قصير، ما رأيكِ؟»

أغمضت عينيها بقوة وهي تغالب الدموع التي ملأتها فجأة، ما الذي يدفع رجلًا عرفها منذ ساعات لتوفير كل هذا الترف لها دون أي سابق معرفة وقد تخلى عنها الجميع؟! لم تستطع أن تحجب أفكارها فقالت بكبرياء جريح: «شكرًا لعرضك ولكن عليَّ أن أرفضه؛ إذ لا أستطيع أن أستوعب لماذا تهتم هكذا، وتعرض هذا السخاء من جانبك.»

هبَّ سائد من مكانه وقال بصوت غامض لم تتبين فحواه حقيقة: «تستطيعين القول: إنني مررت بظروف مشابهة لما أخبرتِني إياه؛ لذا أعرض مساعدتي، كما أني لا أحب أن أقوم بعمل ولا أكمله للنهاية، العرض مفتوح يا آنسة، فكري جيدًا وإن كان جوابكِ: نعم - وهذا ما أنصحكِ به، فالفرص لا تأتي كثيرًا - فأنا سأوفر ما أخبرتكِ إياه فورًا، وسيصحبكِ أحد رجالي إلى سكنكِ، تحزمي حاجاتك ولا تعودين هناك أبدًا.»

لقد حجب عنها الإجابة الحقيقية لإنقاذها والتي علمها عندما رأى أحدهم يحاول أن يؤذيها: إن كنتِ ستتعرضين للأذى والانتقام أو حتى قتْل روحك سأبذل المستحيل حتى يكون على يدي أنا فقط.

تحرك ناحية الباب ينوي المغادرة بعد أن ألقى بطعمه، فالتفت لها قبل انصرافه وأخبرها بخفوت ناعم: «بالمناسبة، أيًّا كان قراركِ أنت لن تخرجين من هنا إلا بعد تناول بعض الطعام الذي تحضره رابحة، لقد أخبرتني أنكِ لم تتناولي شيئًا منه آنسة.»

«دجوى، دجوى الهاشم»

التوى فكه بشبه ابتسامة لم تصل للمرح الذي لم يعرفه وجهه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، وهو يومئ برأسه بشبه ترحيب، قبل أن

يسمعها تقول من وراء ظهره بصوت مختنق متحشرج: «هذا كرم مبالغ فيه نحوي ولا أعرف كيف أرده لك مستقبلاً.»

لم يردَّ ولم تر عيناه التي لمعت بقسوة مظلمة وهو يهمس لنفسه: بل ستردينه كاملاً دجوى، دون رحمة أو شفقة مني، وستدفعين ثمن كل شيء في الوقت الذي أقرره أنا وحدي.

«أنا لست مطمئنة لترك الفتاة معه، إن تصرفاته مخيفة كما أخبرتك سابقًا.»

قالتها رابحة مندفعة لعمر الذي جاورها في السيارة بعد أن صمم أن يوصلها إلى منزلها مباشرة، النظرة التي تلقتها مع التفافه نحوها مثلت شيئًا مبهمًا جعلها ترتبك للحظة فوقعت علبة العصير التي اشتراها عمر لها فور أن هبطوا من منزل سائد وقدمها لها دون سبب واضح، وهي التقطتها منه دون أدنى تردد، سمعته يأخذ نفسًا عميقًا كأنه يكبح نفسه أن يرد عليها، بل تركت إحدى يديه مقود السيارة ليلتقط بعض المناديل من جيبه ويمنحها لها قائلًا دون أي تعبير: «نظِّفي بقية العصير يا رابحة، وأنصحكِ بعدم التحدث عن سائد بأي شكل أو حتى التفكير بأفعاله، اعتبريه منطقة شائكة ممنوع عليكِ الاقتراب منها بأي شكل إن كنتِ تريدين الحفاظ على عملكِ.»

التقطت منه ما قدمه مع ابتسامة مرتعشة، نظفت فمها ووجهها أولًا، راقبته يمنحها نظرة أخرى مختلفة تمامًا عن عمر البشوش الودود، نظرة تحمل شررًا متطايرًا غاضبًا، شعرت به يزيد سرعة السيارة ويسلك طريقًا آخر غير طريق منزلها، لم تتحدث في بادئ الأمر، ربما مطمئنة إليه منذ منحها عمر ذلك العمل الذي طالبت به بقوة دون أي

خجل، وهناك شيء ما يجذبها نحوه، ومع عملها معه سبعة شهور بشكل طبيعي، كانت تمنحه ثقتها يومًا بعد يوم، إذ لم يحاول أن يُبْدِي أي فعل سيئ معها، بل كان يلتزم بحدود رئيس ومرؤوسة، ودفاعه عنها ضد سائد عندما أبدى الآخر اعتراضه دون أن يتعرف عليها حتى؛ جعلها تمنحه المزيد من الثقة، فلتعترف لنفسها أنها منجذبة بشكل أو بآخر لعمر، ورغم أنها حاولت أن تُنحي هذا الإعجاب نحوه ولكنها لم تستطع، انتابها خوف فطري عندما أيقنت أن عمر يأخذ طريقًا منعزلًا نحو المدينة الصحراوية الجديدة، والسيارات من حولها تقل تدريجيًّا، فسألته بقلق: «إلى أين ستأخذني؟ ألن تُوصلني إلى منزلي؟»

كان رده مقتضبًا حادًّا عندما قال: «اصمتي، لا أريد سماع صوتكِ.»

ورغم ارتجافها الداخلي خوفًا جابهته بقوة: «ليس من حقك يا سيد أن تُحدثني بهذه اللهجة، توقف حالًا وأنزلني هنا.»

وهذا ما فعله بالضبط، وهبط فجأة بسيارته ذات الدفع الرباعي من الطريق الممهد وأخذ طريقًا ترابيًّا وتوقف.

التفت لها بوجه مخيف وهو يقول بهجوم غريب: «أنتِ ارتكبتِ أخطاءً اليوم لن تقع فيها فتاة ساذجة بغير عقل.»

في رد فعل عفوي كانت رابحة تتراجع والتصقت بالباب ويدها تمتد تحاول فتحه عندما سمعته يقول ساخرًا: «الباب مغلق، رابحة هانم.»

التفتت له ببطء، مستجمعةً كل قواها، وهي تقول مضطربة شاحبة الوجه: «لماذا تحاول إخافتي؟ ما الذي قُلته أو فعلتُه ليجعلك غاضبًا هكذا؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

هزَّ رأسه راضيًا مما رآه فيها من خوف وجزع، قبل أن يقول: «أنتِ ساذجة، فكِّري من بداية اليوم حتى اللحظة، ما الذي ارتكبتِهِ من أخطاء تِبَاعًا وسأجيبكِ بعدها.»

ساد الصمت المختنق بينهم دقائق طويلة، وهي تشعر بشيء مظلم يجثم فوق قلبها، ولم تر عينيه التي تلمعان قسوةً بغريزة متأصلة فيه حاول تهذيبها طوال حياته، ليظهر وجه الثعلب الناعم الذي كان يشتهر به وسط أقرانه من أولاد الشوارع ليصل لمراده، ولكن مع رابحة تحديدًا وملحوظة سائد حولها التي أدركها بالفعل، لم يستطع أن يُحَجمه، يجب أن تعيش الرعب كاملًا حتى تتعلم درسًا قاسيًا، أنه مهما وثقت بالأشخاص مهما ارتعبت على فتاة أخرى، لا تخاطر بنفسها أبدًا، تنازلت رابحة أخيرًا وهي تقول بصوت مختنق معترف: «أعلم أني تخطيت جميع الحدود التي وضعتها لنفسي اليوم ولكن أنا، أنا»

صمتت ولم تكمل وكبحت لسانها أن تخبره عن ثقتها به وأنها كانت على يقين أنه لن يؤذيها، قال بجفاف: «جيد أنكِ تعلمين أفعالكِ التي تُعتبر في هذا المجتمع مشينة، وفي عرفي أنا غير مسئولة وغبية، فتاة تقدم نفسها فريسة لرجلين تحت حجة واهية منحها لها أحدهم.»

اشتعلت نيران الغضب في عينيها العسليتين وهي تقول بصوت مكتوم: «أنا لم أقدم نفسي لأحد، كانت هناك فتاة بالفعل في فراش هذا الرجل معدومة القوة، شاحبة الوجه، مشوشة وتائهة وتحتاج مساعدة، هل تعاقبني على ثقتي فيك يا عمر؟»

لم يلاحظ نطقها لاسمه مجردًا لأول مرة، وبرقت عينيه بسخط وامتدت يده لتمسك ذراعها وهو يقول بخطورة معددًا: «بل قدمتِها فريسة سهلة بغباء، دخلتِ شقة رجل دون سابق معرفة، ركبتِ معي

عصير الكتب للنشر والتوزيع

السيارة وأنتِ من رفضتِّ فقط بالأمس مرافقتي لكِ حتى موقف الباص، وأخيرًا تقبلين مشروبًا من رجل يصطحبكِ في سيارته، وتأخذين منه مناديل أخرجها من جيبه لتضعيها على وجهك مباشرةً، بكل سذاجة العالم، ألم يصادفكِ خبر واحد لطرق خطف الفتيات من أقرب معارفهم ثم اغتصابهنَّ أو بيعهنَّ رقيقًا أبيض أو ...»

قطع جملته بلسان مفرقع، شحب وجهها بصدمة، وانكمشت بغريزية في مقعد السيارة حتى أصبحت كحيوان صغير مذعور من أثر كلماته عديمة الرحمة، لم تجد ما تدافع عن نفسها به وهي تنظر حولها بهلع، وهي تقول مرتعشة: «أعدني إلى منزلي من فضلك، لا تحتاج لقول المزيد إن كنت تقصد منحي درسًا ما أو تجربة، فأنا استوعبتها جيدًا.»

اشتدت أصابعه حول ذراعها بقسوة وهو يقول: «ظننتكِ فتاة ذكية، رابحة لا تتنازل أبدًا عن حدودها، ولكن اليوم خَيبتِ أمليَ فيكِ، وأجد نفسي لا أستطيع تركك بتلك البساطة.»

أزاحت يده عن يدها بحدة، وهي تقول بصوت آمر صارخ: «ابتعد عني، مَنْ تظن نفسك؟ أخبرتك أني وثقت بك، وإن كنت أنت وشريكك تستغلون حاجتي للعمل والراتب فأنا لا أريده، أعدني فورًا.»

استرخت أعصابه قليلًا وهو يقول: «لقد شربتِ مقدارًا جيدًا من العصير يا رابحة.»

ظهر تشوش في عينيها التي هبطت غلالات دموع منها وهي تسأله: «تكرر ذكرك لهذا المشروب، هل وضعت به شيء؟!»

لم يَزُلِ الغضب منه وهو يأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول بغيظ: «كان من الممكن أن أفعل ببساطة، آخذك لمكان ناءٍ كهذا أنفذ فيك كل الخيالات التي تُرعبكِ في هذه اللحظة، ثم ألقيكِ على قارعة الطريق، منبوذة من

المجتمع ومن عائلتك، وربما تحملين خطيئة بين أحشائك تأتي بها بعد شهور وتُلقيها مثلما ألقيتكِ في مقلب للقمامة فتتلقفها أحضان الشوارع المرعبة تحت مسمى لقيط.»

استحال وجهها للون أبيض خالٍ من الدماء وحدَّقت بِه وقد بَدَا مظلمًا، والشمس الغاربة تعكس أشعتها بلون أحمر قانٍ مرعب من نافذة السيارة، وهمست بتوتر: «ما الذي تحاول فعله؟ لمَ كل هذا السناريو الذي رسمته؟ كنتَ تستطيع أن تنبهني أو حتى تعنفنيَ دون أن تخيفني منك هكذا!»

فَرَكَ وجهه الذي كَسَتْهُ الظلال، قبل أن يقول بابتسامة حزينة: «آخر ما تتوقعينه مني رسم أي أفلام، أنا أخبركِ بواقع يا رابحة، تمتلئ به شوارعنا، وعلى الأرصفة يتم إلقاؤهم، وعالمهم عن الناس ليس مخفيًّا، جماعات أو أفراد لا تجمعهم حتى صلة الدم، فقط قسوة الحياة هي التي تنهش في أجسادهم، يكافحون بأنفسهم للبقاء، وحين يأتي وقت الرحيل لا تجدين لهم ذكرى أو حتى حزن من مجتمع عقيم.»

رفعت عينيها تحدِّق بعينيه الداكنتين فقرأت الكثير من الغضب، الكثير من الوحدة، الكثير من الألم والمرارة، وكأنه اختار هذه اللحظة بالذات، ليعرِّي نفسه أمامها، أو ليخيفها ويبعدها عنه، سألت نفسها داخليًّا: ما علاقة أطفال الشوارع ونبرة الحسرة في صوته بخوفه الذي أبداه عليها؟

لم تكن رابحة يومًا غبية؛ إذ أدركت جيدًا الغموض الذي يلفُّ كلًّا من سائد وعمر، فالرجلين أتيا من الخارج بعد غربة دامت أعوامًا طويلة، رجلين يُشاع أنهما فقدا أُسَرهم كاملة، وليس لهم إلا بعضهم، ولا تربطهم أي صلة دم غير صداقة أدركت عمقها من حديث عمر عنه،

فهمست دون أن تفكر: «مَنْ أنت يا عمر؟ وما هو ماضيك؟ لتحدثني بتلك الطريقة كأنك جربت قسوة عيشهم.»

انسحبت الدماء من وجهه وهو يلتفت أمامه جامد الملامح.

أدركت رابحة فداحة سؤالها، انكمشت غريزيًّا منتظرة منه أن يغضب أو يعود لتخويفها إلا أنه لم يفعل، الغضب الذي أطلَّ من عينيه لم يكن أبدًا موجهًا نحوها عندما قال بخفوت وهو يدير محرك السيارة: «سأعيدكِ لمنزلك، أرجو أن تكوني تعلمتِ درسكِ جيدًا، ولا تمنحي ثقتك لمخلوق تحت أي مسمى، الضباع المتعطشة للدماء أصبحت ترتدي الملابس الفاخرة المنعَّمة، وتنتظر فقط لحظة عطف تُبديها لتنقضَّ عليك وتمتص دمائك وتأكل لحمك حيًّا، ضعف الحائط يغري اللصوص، وأنتِ نقطة ضعفكِ قلبكِ فانتبهي.»

هبطت رابحة من سيارة عمر بعيدًا عن حارتها قليلًا، تعلقت نظراتها به لثوانٍ معدودة وكأنها تودِّعه، تُرَى هل تتجرأ؟ سألها عمر بينه وبين نفسه، ومن يلومها بعد أن أرعبها لساعة كاملة ماضية، ما استشفَّته رابحة بين السطور كفيل بأن يجعلها تهرب منه للقطب الشمالي ركضًا، ولكنه ببساطة لم يستطع ألَّا يفعل ...

همست وهي تغالب دموعها قائلةً بارتعاش: «وداعًا سيد عمر وشكرًا للنصيحة، أعدك ألا أتهور مرة أخرى، فالنفس أَوْلَى.»

أرجع عمر رأسه للوراء وهو يضحك بمرارة قائلًا: «لم أقل هذا يا رابحة، فنحن لدينا من الأنانيين ما يكفي، كل ما أريدكِ أن تتفهميه أن تكوني أكثر حنكةً وتعقلًا، لا تتبعي أهواء القلب أبدًا عزيزتي.»

لم تجد ما تقوله فالتزمت الصمت، وهي تستدير تغادر من أمامه برأس منكَّس مشوش وألم يعصر قلبها عصرًا، أتراها تتجرأ حقًّا لتترك العمل دون رجعة؟

لم تكد رابحة تخطو وسط حارتهم الضيقة، حتى لمحت أمام أحد البيوت المظلمة التي يطلقون عليها (خرابة) شابًّا بملامح إجرامية يركب دراجة بخارية، في الواقع لم يهمَّها مظهر هذا الشاب المريب بقدر ما صعقها مَنْ يقف مواجهًا له يتلفت حوله بريبة وكأنه يدرك أنه يرتكب جرمًا عظيمًا ويلقي بنفسه في التهلكة، بيد مرتعشة كان الشاب المراهق يمنحه ورقة مالية كبيرة، ويأخذ منه لفافة لم تستطع أن تبين ما تحتويه أو لم تمنح نفسها حتى الفرصة وهي تندفع صارخة بقهر نحو أخيها الذي عرفته على الفور هادرةً بانفعال: «قُصَيٌّ».

لم يتحرك عمر من مكانه حتى يتأكد من وصولها سالمةً تمامًا وبعين الخيال، كان يرى وقوفها في مقدمة الشارع، تتوسع عيناها للحظة بصدمة مرتعبة قبل أن تتحرك نحو الشابين الواقفين في منطقة مظلمة ولم يحتج للتفكير مرتين وهو يخرج من سيارته مندفعًا نحوها، راقبها وهي تمسك في تلابيب ذلك الشاب وهي تهدر بسخط: «يا ابن الحرام، يا قذر ألم تجد إلا أخي الصغير لتبثه سمومك؟!»

عندما حاول الشاب أن يتطاول عليها كان عمر الأسرع وهو يلتقطه مِن على ظهر الدرجة يمنحه ضربة قوية بقبضة يده تزين ملامحه، وفي لحظات كانت الغلبة للشاب الذي أدرك انهزامه ووقوعه في مصيبة ما، فأطلق لقدمه حرية التصرف، وهو يضغط على دواسة البنزين غير عابئ بمن يصدمه في طريقه وفرَّ هاربًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عندما يختلط الغضب بالخوف في دمائك، لا يعود للمنطق مكان، يتلاشى العقل، وتترك لأفعالك العنان وحرية التصرف، وهذا ما شعر به عمر ورابحة ولكلٍّ منهما أسبابه.

كان صدر رابحة يهبط ويعلو بأنفاس متلاحقة، وهي تنظر لأخيها الذي منحها كل نظرات التمرد قائلًا بصوت خافت: «أنا أكرهكِ يا رابحة إلى حد يفوق الوصف»، وبدون تردد كانت تقترب منه ترفع يدها وتصفعه بقوة صفعة جعلت قلب كليهما ينخلع خلعًا من مكانه

تجولت عيناه في المكان الذي ربما هجره منذ ما يقرب خمس عشرة سنة؛ لتستقر في النهاية على البوابة الخشبية الضخمة، وجدران عالية تحيطها من كل مكان، وسقف صغير يعلم عن يقين أنه يحمي المعلم حماد ورجاله من أهوال البرد القارص أو عوامل التعرية تاركين باقي المكان في الهواء لأجساد صغيرة متفاوتة الأعمار والتي يسيطرون عليها بقبضة من حديد ونار، مقسمين نهارًا إلى مجموعات ليقوموا بالأعمال التي يأمر بها حماد ما بين سرقة ونشل وتسول، وخطف وتوزيع مواد مخدرة، وقسمين مخفيين لم يكن هو يعلم عنهم شيئًا قبل تجربته التي كسرت روحه وأَحْنَتْ ظهره، المتاجرة بالأعضاء وبيع الصغيرات لكل نفس مريضة طامعة في أجسادهنَّ الصغيرة وعذريتهنَّ.

أغمض سائد عينيه بقوة وهو يكتم آهاته في صدره كالعادة: «مهلًا لم يأت وقت الانهيار أو الحساب بعدُ، تلك أولى خطواتك لتصل إلى ما تريده.»

اشتدت قبضته على الحائط ووقف مستندًا عليه، والذكرى تجتاحه قسرًا، هنا ذاق المرارة وتجرَّعها كؤوسًا من حنظل، وهنا رآها وحماها واعتقد بغبائه وقوته الفتية أنه قادر على النجاة بها، عيناه شردت لآخر ليلة بينهم، نظر لذلك الزقاق الضيق المظلم خلف المبنى الشبيه بإسطبل حيوانات أكثر منه مكانًا يحوي أرواحًا بشرية، وهنا امتلكها متخفيًا بها من كل عين متلصصة وَشَمَهَا باسمه ومنحته صكَّ امتلاكها، وضع فيها بذرته وجسدها تفوح منه رائحته، كتعريف لأي طامع أنها أصبحت ملكًا لذئب، فيبعد عنها أي حيوان ضاري طامع في تميزها وسط العديد من الفتيات التي يستخدمونها في قذاراتهم.

ضرب جانب الحائط بكفِّه المضمومة، الألم لا يُطاق ولا يُقارَن حتى بالمشرط الذي امتد ...

قطع أفكاره وهو يتأوه بحرقة أحرقته لسنوات، وقد عادت شرارتها للاتقاد.

بتمهل كان يقترب من الوكر، لم ينس بالطبع نزع تلك الملابس المترفة التي لم يَعْتَدْهَا جلده حتى بعد مرور سنوات من الترف، مرتديًا قميصًا قديمًا مهترئًا مفتوح الأزرار حتى منتصف صدره وبنطالًا مشابهًا تمامًا، قبل أن يخطو إلى المكان، استوقفته تلك المجموعة الصغيرة الملتفة حول جسد صغير جدًّا منكمش حول نفسه وملقًى بجانب الحائط كأنه جرذ أجرب، ابتلع سائد غصته، وهو يتذكر انكماشه في نفس المكان جائعًا تائهًا وضائعًا عندما كان يصدر حماد أمره بضرورة عدم منحه الطعام هو وأمثاله ليعرف بعدها معنى اللقمة المقدَّمة لها، ويشحذ أسنانه دون

رحمة حتى يحارب ويستطيع الحصول عليها، وفي لفتة أخرى إنسانية غريبة، كان يبحث بعينيه عن أي مكان يصلح ليشتري منه بعض الأطعمة.

وبعد نصف ساعة لم يخب ظنه وهو يعود محمَّلًا بأكياس بها بعض الأطعمة الشعبية ربما لم تكن ما أراده تحديدًا، ولكنها أكثر من وجبة دسمه لهم ربما مر عليهم أكثر من يومين كاملين لم يتذوقوا حتى قطعة خبز يابسة، ملقاة في القمامة التي تغرق أماكنهم.

ظله الضخم الذي حجب عن الصغار الضوء جعلهم يتفرقون في لحظة خوفًا ورهبة أوقفهم بنبرة حملت بعض الطمأنينة، ومظهره المهترئ منحهم بعض السلام أنه منهم عندما قال: «لا أريد أذيتكم، فقط أنا أحمل بعض الأطعمة»، وكحيوانات صغيرة مسكينة جائعة بأجسادهم الهزيلة لم يفكروا مرتين وهم يقتربون منه ويخطفون ما يحمله بين يديه، في لحظة كانوا يمزقون الأكياس يفترشون الأرض وأيديهم المتسخة تنشب نشبًا في الأطعمة، نظرة واحدة من عينيه السوداوين محاولًا أن يحافظ على ثباتهم وقوتهم رغم كل شيء، فمظهرهم جعل قلبه يبكي ألمًا ووجعًا: «كم من السهل اصطيادكم في سبيل سد رمق جوعكم»، تحامل على نفسه ألا ينهار فأبعد نظراته عنهم، والتفت للآخر المُلَقَى بلا حول ولا قوة، انحنى سائد على ركبتيه يهزُّ الولد الصغير الذي يئنُّ بعواء صغير جريح وهو يخبره بوهن مريض: «لم أخبر أحدًا، لم أتفوه بكلمة أرجوك اتركني، لم أعد أريد تلك المثلجات، فقط اتركني وشأني.»

الغصة شَطَرَت حلقه والخوف يعتريه مرغمًا، وهو يرفع جلباب الصغير الممزق، وحدثه لم يكذب أبدًا، عندما وجد الجرح الطولي الكبير

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الذي يشق بطنه ناحية الكلى اليمنى مباشرةً، همس سائد بوجع وهو يحاول حمله ربما يستطيع نجدته: «أنتم أطفال أضناكم وأصابكم اليأس من الليل الطويل في أي أزقة أو حتى قمامة تُلقوا، ربما تحميكم من وحوش الليل وقسوة البرد، ألا يوجد في قلوبهم رحمة ولو قليل؟! أخذ كليتك من أجل قطعة مثلجات!»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الغُصَّة الثانية

«سائد، لا تتركني الليلة وتذهب، ابقَ معي فأنا خائفة.»

خفق قلبه بسرعة مجنونة، اجتاحه خوف مبهم بطريقة غريبة لا يعرف سببًا له، فسيطر عليه وقال بعجز: «ليتني أستطيع آية، ولكن تلك العملية بالذات ستجعل المعلم حماد يرضى عنا أخيرًا ويعلن زواجنا أمام الجميع، ويمنحنا تلك الغرفة التي وعدنا بها قبل ولادتكِ للطفل.»

تشبثت يداها بطرفي قميصه المفتوح حتى منتصف صدره، وقالت بقلق ونبرة متلعثمة: «خذني معك، سأقف بعيدًا أراقبك.»

أبعد يديها عنه بلطف، ثم ضم جسدها الضئيل الرقيق إلى صدره وهو يقول بوعد قاطع برجولته الفتية: «حبيبتي ابقي هنا في ذلك الزقاق، ليتني أستطيع أن أصطحبكم معي ولكن عمل الليلة لرجال المعلم الموثوقين فقط، وبالتأكيد لن يرضى أحد بوجودكِ معنا.»

بكت بحرقة وهي تتمسك بجنينها الذي بلغ شهره الثامن وهي تخبره: «أنت لا تعلم ما يحدث هنا بعد أن يصرفكم بعيدًا، لا تعلم يا سائد أنا مرتعبة، ستندم إن لم تأخذني معك.»

لم يفهم يومها ما تقوله أو كان من الثقة والحماقة ألا يفهم، فما الذي قد يضرها بعد أن أعلن حماد زواجهما عندما بدأت بطنها في الظهور

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ودب سائد على صدره يخبرهم أنه طفله وقد كان واضحًا للجميع من التصاقها الدائم به، إنه الوحيد المسئول عن حملها، ووعده بإتمام زواجهما بورقة رسمية، سيمنحها لهم أحد المحامين معدومي الضمير المتورطين مع حماد في جرائمه المعتادة.

رجع برأسه للخلف مستندًا على الحائط مغمض العينين يخبط رأسه برتابة ليتذكر صوته الحازم وهو يبعدها عنه قائلًا: «كُفِّي عن طفوليتك، لقد أصبحتِ امرأة في سن السادسة عشر، وتلك هي حياتنا التي اعتدناها، فما الذي جَدَّ؟!»

تقبضت يداه بعنف، ثم فردهما يتلمس الحائط من خلف ظهره كأنه يتلمسها هي وهو يتذكر ملامسته الأخيرة لها عندما خلع معطفه الأسود الجلدي الذي حصل عليه من تثبيت أحد الأشخاص قبل أن يسرق كل ما يملكه، ثم ألبسها إياه وهو يقول بنبرة أقل حدة: «دفئي نفسكِ جيدًا واجلسي هنا، لا تحاولي الظهور حتى لا يأمركِ أحدهم بمزيد من العمل، يكفيكِ الوقوف على قدميكِ طوال اليوم وأنتِ تدورين في الإشارات.»

قلبه تمزَّق، وشعور العجز الحانق عاد ليشطر حلقه نصفين، فلم يعد يدري هل مرارته من ذكرياته التي تتدفَّق عندما يشاهد بعين الخيال تسوُّلها في الإشارات مستغلين حملها ليستعطفوا قلوب الناس، أم وجعه الدائم من ذلك المشهد المروع الذي رآها فيه آخر مرة، أوقف سيل الذكريات، عندما سمع صوتًا خشنًا يقول: «سيد سائد، لقد طلبتني.»

صرف سائد جميع ذكرياته بمهارة تدرَّب عليها كثيرًا في الماضي، واعتدل ليجيب أحد رجاله الذي تطلع إليه وقال بنبرة صارمة: «هناك طفل في الداخل مع الطبيب، أريدك أن تجلس هنا تنتظره وتهتم به، تحميه بحياتك كأنك تحميني أنا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تعجَّب إبراهيم من هيئة رئيسه الجديد، أين الملابس الفاخرة؟ وكيف تحوَّل في لحظة لمظهر (البلطجي) الذي أمامه؟ ولكنه كما تعوَّد لم يتدخل، فقال بخشونة عملية: «سيد سائد، هل من أوامر أخرى؟»

دوَّى صوت سائد حازمًا مسيطرًا قويًّا ومحذرًا: «لا تترك الطفل معه أبدًا ولو للحظة واحدة، عندما ينتهي من نجدته ترافقه كظله، ويُفَضل أن تأخذ كل تعليماته وبعض العلاج وتذهب به من هنا.»

حاول إبراهيم أن يستوضح أكثر منه عندما سأله: «هل الطفل يعنيك سيدي؟ هل هو أحد الأقارب؟»

عندها التفت له بحركة عنيفة وهو يقول ببرود: «لا تسأل عن شيء لا يخصك، فقط نفِّذ ما أقوله فور انتهاء ذلك الطبيب من نجدته، اذهب به إلى تلك الغرفة أسفل الشركة التي تتجمعون بها أنت وبقية الرجال إلى أن أعود أنا وسأتصرف.»

لم يرُدَّ إبراهيم بشيء اكتفى بإيماءة من رأسه متذكرًا حديث عمر عن سائد ومحاولته التلطيف من أفعاله الحادة، مؤكدًا لهم أن شخصيته لا تعرف التفاهم ويكره بشدة المشاعر الإنسانية.

«عجبًا»، نطقها إبراهيم إثر خروج سائد الذي كان يلوم نفسه بقوة كيف سمح لنفسه أن يأتي بالفتى لأحد الجزارين الذين يدَّعون أنهم ملائكة الرحمة، وما هم إلا شياطين ومصاصي دماء بالرداء الأبيض!

دقيقة كاملة مرت لم تجرؤ رابحة حتى على التقاط أنفاسها، كانت تنظر لأخيها مصدومة وقد صفعته، كانت تنتفض من رأسها حتى أخمص قدميها، وهي تنقل عينيها بين وجه قُصَيٍّ الشاحب، وعمر الذي اقترب

منهما بتحفُّز صامت، وعلمت سبب تحفُّزه عندما خرج قُصَيٌّ من ذهوله ورفع يده ينتوي رد صفعتها، راقبت ذاهلةً عمر الذي اندفع وأمسك يد أخيها، ثم قام بلويها خلف ظهره وهو يقول بهدوء: «تحركي أمامي، أنتم لن تكملوا شجاركم وسط عيون المارين الذين توقفوا ليشاهدوا الحدث.»

كانت عيناها ما زالت تتابع تفاصيل أخيها التي صُدِمَت فجأة بتغيره الجلل وكأنها أول مرة تراه، ظلال سوداء تحدِّد عينيه الذابلة، وجهه مرهق وكأنه لا ينام لياليه، جسده أصبح أكثر نحولًا عمَّا تتذكر، امتلأت عيناها بالدمع قبل أن تضع يديها على فمها الذي أخرج شهقة مكتومة وهي تقول: «رباه متى غفلت عنك؟! وكيف وصلوا إليك كي يجروك للتهلكة يا قُصَيُّ؟»

كانت عيناه المتوسعتين تبرقان غلًّا وهو يتلوى بين قبضتي عمر يصرخ منفعلًا: «لا تتحدثي بتلك الطريقة معي، مَنْ عَيَّنَكِ الوصية عليَّ؟ هل وصل بكِ جنون التملك أن تأتي لي ببلطجي يساعدكِ على ضربي؟!»

أمسك عمر بذراعه الآخر يثبته على صدره وهو يدفعه أمامه يخبر رابحة من بين أسنانه باقتضاب آمرًا: «الآن تحركي».

منذ ساعة أو أكثر كان عمر يستند عاقدًا ذراعيه على صدره على باب شقة متواضعة الحال، بدون تعبير يُذْكَر كان يراقب الهتاف المتبادل بسخط وغضب محتد ونُواح غريب بين رابحة وأمها السيدة الكبيرة في السن بملامحها المرهقة، تُلقي الاتهامات والذنب كله على ابنتها التي غفلت عن أخيها الذي وعدت بحمايته وانجرَّ لذلك الطريق، شاهد السيدة أخيرًا وقد تمكن منها الإنهاك فجلست على أحد المقاعد تمسك

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رأسها بين يديها، وهي تقول بحسرة: «حرقة قلبي عليه لقد ضاع أخوكِ، كيف غفل كلانا عنه؟ الله وحده يعلم إلى أي حد تمكَّن منه هذا السم.»

كانت ملامح رابحة شاحبة بشدة تنظر إلى أمها بعجز ولا تجد ردًّا، فأكملت أمها بالقول الذي جعل وجه عمر يشحب ويسود هذه المرة: «اللقطاء أولاد الشوارع ومن غيرهم قد يقنعه بهذا السم بقلوبهم الحاقدة أضاعوا شبابنا لينالوا هم الرضى عن تدمير أولادنا، والمال الذي يأخذوه من ضِعاف النفوس مثل أخيكِ.»

لم تعرف رابحة ما الذي جعلها ترفع عينيها تنظر لوجه عمر المسود، باعتذار صامت متوسل ووجه يأخذ لونًا مسودًّا مماثلًا بخزي، تلاحقت أنفاسها عندما نطق بقهر يلون صوته بنبرة خافتة: «معذرة منكِ، ولكن هؤلاء اللقطاء ليس الذنب عندهم كاملًا، فلو وجد ابنك التربية الصحيحة والتي تُعَدُّ رفاهية لأولاد الشوارع، ما كان أحد أستطاع جره لشيء.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أخذت أنفاسها لتشعر بالهدوء التدريجي، وقالت بعجز: «حاولت حمايته، وأخته لم تفرط فيه لحظة واحدة، نحاوطه وندلِّله رغم ضيق اليد وشُح المال، أحرم نفسي وأخته من الضروريات لينال هو بعضًا من الرفاهيات.»

قال عمر بنبرة ساخرة محمَّلة بالمرارة: «إذًا لِمَ تلقين كل الأخطاء على أخته؟ فكما أرى أنها حاولت حمايته.»

منعت رابحة نفسها من البكاء أمامه، لا لم تكن تريده أن يكتشف حالها وورطتها هكذا، منعت صرخة مجنونة تريد الخروج لتطرده من هذا المنزل ومن حياتها، أن يتركها لمصيبتها وحملها الثقيل؛ لتستطيع

التركيز والتعامل معه، أجفلها عمر عندما قال بحدة: «أريد أن أتحدث معه وحدنا.»

بهدوء وثبات مثيرين للعجب قالت رابحة: «لمَ يا سيد عمر؟! لا أعتقد أن تدخلك في الأمر أكثر من هذا جيد لنا، أرجَوك غادر من هنا وشكرًا لمساعدتي إلى هذا الحد.»

عيناه الملونتان منحتها نظرة واحدة فكرتها بملامحه المظلمة في سيارته والتجربة المرعبة التي مرت بها معه، ثم قال أخيرًا بنعومة خطرة جافة: «لقد تورطت معكم وانتهى الأمر، فوجِّهيني إلى غرفته، أنا أعرف جيدًا طريقي في التعامل مع مَنْ مثله.»

تدخلت أم رابحة تخبره بلهفة: «الباب أمامك يا بُنَي، افعل ما تريده إن كان سينقذه ويجعلنا نسيطر عليه.»

لم يبادل المرأة حتى نظرة ولم يُعِرْ طلبها اهتمامًا وكلماتها الطاعنة التي أَرْدَتْهُ قتيلًا كرصاص موجَّه لمنتصف قلبه ما زالت تتردد في عقله بصخب، تُذكِّره بكلمات أخرى موجعة كان يُطْعَن بها في السابق من رجال حماد عندما يحاولون تهذيبه أو السيطرة عليه إن حاول يومًا التمرد ليذكروه بمقداره وحجمه الحقيقي، ربما كان جميعهم يتماثلون في التشرد والضياع، ولكن حتى في ذلك الوكر والحضيض كان هناك تميز بينهم، مَنْ هو دون أهل أو متشرد بسبب تفكك الأهل أو ابن حرام وُجِدَ أمام باب مسجد أو حتى بين القمامة مثله هو، أخذ عمر نفسًا عميقًا يسيطر على نفسه بصعوبة، قبل أن يفتح الباب ويدخل مباشرةً إلى غرفة قُصيٍّ الذي صرخ في وجهه بغضب وهوس وهو يقذفه بأحد زجاجات المياه: «اخرج من هنا يا هذا، إن كانت عديمة الأخلاق تلك سمحت لك بالتحكم في حياتها، فأنا سأقتلك إن حاولت الاقتراب مني.»

بتمهل خطِر كان عمر يقترب منه وعيناه تتفحص سريعًا حالة الفوضى في تلك الغرفة الضيقة والتي قلبها قُصيٌّ رأسًا على عقب إثر نوبة غضب، ودون مقدمات كان يقبض على الفتى ويلصقه في الحائط ويمسك رقبته بين يديه كأنه سيخنقه ويده الأخرى تثبت يديه التي يحاول أن يدافع بها عن نفسه، كانت عينا قُصيٍّ متوسعة رعبًا حقيقيًا وهو يشعر بذلك التهديد ينظر لوجه عمر المظلم، وبَدَا الرجل أنه قادر على دق عنقه دون أن يرفَّ له جفن واحد، نطق عمر أخيرًا بنبرة كالفحيح: «قد أتفهَّم تمرد فتى غبي مثلك يلقي بنفسه بين يدي تجار السم الأبيض؛ ليستغلوه كما يحبون وبالنهاية ينتهي به الحال إما ممددًا على طاولة جزار بشري معدوم الرحمة، يلتهم أعضاءك ويعبث بها كما يريد ليأخذ ما يريده ويتركك مجرد جيفة عفنة فارغة، أو إن كان حظك أوفر ستصاب بمرض الإيدز وأيضًا سينتهي بك الحال ميتًا غارقًا في دمائك على قارعة الطريق تأكلك كلاب السكك؛ لأنه ليس هناك إنسان عاقل سيجازف ويحملك ليتلوث.»

النظرة المرتعبة وانتفاض جسده خوفًا ورهبة تحت يديه هي كل ما أراده، فابتسم عمر ابتسامة لم تصل للمرح أبدًا عندما أردف ببطء مميت: «ولكن إن تتهم أختك باتهام بشع تلمِّح لشيء ما في أخلاقها، هذا ما سأحاسبك عليه بنفسي».

أنفاس قُصيٍّ كانت تتسارع خوفًا عندما نطق بتلعثم متهور: «أنا لا ألمح بشيء مجرد، شتيمة تليق بها بعد ما فعلته بي؛ تخنقني و...»

صَمْتُ قُصيٍّ يقطع حديثه المسترسل، لا لن يسمح لرجل أو أحد أن يعلم سر غضبه الداخلي من تصرفات أخته التي تتحكم في رجولته الفتية، تعامله كطفل صغير لا يفهم شيئًا، يحتاج للتهذيب والتأديب طول

الوقت، ترفض أن يتحمل هو حمل منزلهم ويأخذ موقعه الطبيعي كرجل وساند وحامٍ لهم.

لم يُعِرْ عمر حديثه اهتمامًا وهو يرفع يده يثبت رأس قُصيٍّ وينظر لبؤبؤ عينيه باهتمام وتفرُّس، ثم سأله بغضب وهو يضغط على أسنانه بغيظ: «أيها المدلل الغبي، ما هو النوع الذي تتعاطاه؟»

بادله قُصيٌّ الغضب الصارخ يدفعه بعيدًا عنه برجولة فتية: «ابتعد لا يعنيك ما أفعله إطلاقًا.»

شعر قُصيٌّ بالعجز للحظات عندما كان الآخر كجدار صلب لا يتزحزح، اشتدت قبضة عمر حول عنقه للحظات عَمَّ الصمت بينهم، وبدون إرادة من عمر كان يضغط على عنق الفتى بغضب مستعر وحزن دفين عميق يجتاحه، إن كان ضحايا الشوارع لهم العذر أن يصبح البعض منهم مدمنين وجزء آخر بلطجية حاقدين، ما هو عذر مراهق كقُصَيّ، لديه عائله تحيطه باهتمام وجدران منزل يحتضنه بعطف ودفءٍ؟!»

نبرة التوسل التي نطق بها قُصيٌّ بأنفاس مكتومة وهو يقول: «ابتعد أرجوك وسأخبرك ما تريد، أنت تقتلني.»

ابتعد عنه عمر سريعًا مبهوتًا بوجه شاحب وهو يراقب الفتى ينحني على ركبتيه ويسعل بشدة طالبًا للهواء، تخلَّل عمر شعره بعصبية؛ ما الذي يحدث معه؟ متى خرج عن هدوئه وتعامله الماكر يومًا؟ متى من الأساس اهتم بمصير أحدهم؟ ما الذي برابحة يجذبه ليهتم؟ أغمض عمر عينيه مسيطرًا على نفسه، أزاح بعض الكتب والملابس الملقاة بفوضى على أرضية الغرفة، ثم يجثو على ركبتيه يمسك وجه قُصيٍّ بخشونة وهو يقول آمرًا: «أنت لا تتعاطى الهروين، تلك كانت مرتك الأولى أو الثانية على أقصى تقدير، ولكنك تتعاطى مخدرًا آخر، أريد إجابة مباشرة.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان قُصيٌّ يشعر بالغضب بالذل بالهوان بالكسر، أغلق جفنيه قبل أن يتعالى بكاؤه بحرقة كأنه طفل تائه ضائع لا يجد مرسى، لم يَرِقَّ عمر، لم يستطع ذلك، رغم تلك النبضة التي كانت تضرب على أوتاره متعاطفة مع ضعف الفتى، انتظر أن يهدأ من نفسه، ولم يحاول الضغط عليه بالمزيد، ثم سمع صوته وهو يخرج مشوبًا بشهقاته العالية: «الحشيش».

أطبق عمر على جفنيه وهو يأخذ نفسًا عميقًا مستريحًا بعض الشيء؛ لعلمه أنه أقل تلك المخدرات فتكًا، ولكنه قال مقتضبًا:

«لماذا مراهق مثلك لديه دراسته وحياته، مسئول عن امرأتين، بدلًا من أن يكافح ليحصل على فرصته ويأخذ دوره الطبيعي بينهنَّ؛ يتحول لمدمن؟!»

تلعثم قُصيٌّ وهو يجيبه محترقًا:

«أنا رجل وهما يرفضان رؤيتي هكذا، رابحة تعاملني كطفل تخنقني بالحصار وتهين رجولتي، تكسرها بتحكمها المتكرر، وحتى عندما حاولت العمل لمساعدتها رفضت، وذهبت لصاحب الورشة تخبره أني مجرد طفل، فجعلتني محط سخرية الجميع.»

لم يرُدَّ عمر بشيء ولكنه أدرك أن أصدقاء السوء استغلوا سخط الفتى وتخبطه؛ لإقناعه أن تعاطي تلك المخدرات هي من ستصنع منهم رجالًا، تلك هي مساحتهم الخاصة وحريتهم التي لن يستطيع أحد التحكم بها أو اكتشافها.

عم الصمت لثوان قبل أن يكرر عمر سؤاله بجفاء: «كم مرة حصلت على الهيروين؟»

قال قُصيٌّ بتوتر: «تلك هي المرة الثانية فقط.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كزَّ عمر على أسنانه وهو يخبره: «والأخيرة يا قُصيٌّ».

اشتعلت ملامح قُصيٍّ مرة أخرى وهو يقول برعونة:

«ومَنْ أنت لتأمرني؟ مَنْ منحك الحق من الأساس لتفرد عليَّ قوتك وتهاجمني؟»

بكل ذرة هدوء استدعاها عمر في تلك اللحظة وبنفس روحه الثعلبية التي أطلقوها عليه يومًا كان يخبر قُصيًّا حازمًا جازمًا: «تستطيع القول: إنه يوم سعدك، أنا من سأجعلك تنال كل ما تريده وتفرض رجولتك الحقيقية على رابحة وغيرها، ولكن بقواعدي أنا، وبعيدًا تمامًا عن طريق الحشيش والهيروين، سأساعدك لتتخلص أولًا من آثار إدمانك وبعدها لنا ترتيب آخر.»

بارتياب حذِر كان قُصيٌّ يقول بصوت منهَك: «وأنت ماذا قد تستفيد من مساعدتي؟»

ابتسم عمر ببطء مهادن قبل أن يقول: «لديَّ حاجه عندك، إن ساعدتك أنا فيما تريده وأَثبتَّ لي تلك الرجولة التي تطالب بها، سأمنحك أنا مصدر قوة لن يستطيع أحد بعدها الوقوف في طريقك يومًا، وأنت ستمنحني حاجتي.»

بان الرفض على ملامح قُصيٍّ، وهو يقول: «وما هي تلك الحاجة؟ وما الذي يجعلني أثق بك؟ طريقي أعرفه ولن أتركه.»

وقف عمر على قدميه يضع يداه في جيبَي بنطاله قبل أن ينظر له باستخفاف ويقول مستفزًّا له: «كما توقعت مجرد طفل باك يحاول لفت أنظار أمه وأخته؛ لينال المزيد من الاهتمام عبر اللجوء لشيء غبي مثله لن يزيده إلا ضعفًا فتاكًا عند نقصان أي جرعة لن يستطيع أن يحصل عليها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

انتفض قُصيٌّ وهو يهتف به: «بل أنا رجل، وأعرف ما أفعله جيدًا.»

اقترب منه عمر يخبره: «إذًا أثبت واقبل الصفقة والتحدي الذي ألقيته في وجهك.»

تردد قُصيٌّ لفترة طويلة قبل أن يقول: «ليس قبل أن أعرف، ما هي تلك المصلحة التي تريدها مني، وأنت لم ترني إلا منذ ساعات قصيرة.»

لمعت عينا عمر بانتصار خفي، وهو يقول: «عندما تنفذ شروطي كلها سأخبرك ما هي حاجتي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عاد سائد هذه المرة ولن يسمح لمشاعره بتشتيته أو بضياع تركيزه في ذكرياته، وقف أمام البوابة الضخمة القديمة الخشبية، ثغرات كبيرة مهدمة، قَلَّب نظره بين ربوع المكان الواسع، نفس القمامة الملقاة في كل مكان، نفس الأجساد الهزيلة المتلاصقة بأعداد ليست قليلة، حالة الارتباك والهياج بينهم كأنهم قطعان من المواشي وليسوا ببشر، بحثت عيناه عن هدفه سريعًا، ليجده هناك بنفس جلسته السلطانية، يجلس على كرسي ضخم ومحاط برجاله ذوي الملامح الإجرامية، ويجثو أمامه أحد الأطفال متوسلًا الرحمة وسوط أحدهم يهبط على ظهر الفتى دون ذرة شفقة، وحماد يقول بنبره قاسية شرسة: «لا رحمة عندي لخائن، هذا للتعلم كيف تستطيع أن تخفي عني المال يا ابن الحرام.»

فتوسَّل الطفل الصغير ببكائه، والضرب ينزل عليه يمزق بشرته الرقيقة تمزيقًا، والدماء تنزف من ظهره المحمرِّ، والضرب يغطي وجهه المتورم: «لن أفعلها مرة أخرى يا معلم، كنت جائعًا، وأردت فقط أن أشتري بعض الطعام.»

لم يرُدَّ حماد، عندما لفته الصمت الذي احتل المكان انتباهه، وقف حماد مصدومًا للحظات رغم تصلُّب ملامحه المُخيفة، ضيَّق عينيه ونظر للوافد الجديد وهو يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه، وصل أمام سائد يخبره: «من أنت؟ وكيف تجرؤ أن تُخطي مملكتي دون إذن؟!»

بلا مبالاة رد سائد: «لقد خيبتَ أملي يا معلمي وأبي الروحي، أنسيت ذئبك سريعًا؟!»

خيَّم الغضب فوق ظله كاسحًا مهيمنًا، لكنه استطاع أن يلمح خلفه ظل إنسان متوار، وكعادة حماد الذي لا يرى السطح بل ينفذ إلى العمق مباشرة، عرف أن مَنْ أمامه عاد يطالب بانتقامه بعد أن هرب لضعفه وقتها وعدم قدرته للحصول عليه، رفع حماد إصبعًا واحدًا وكان أمره نافذًا، انفضَّ الهرج والمرج من وكره ثم حدَّث سائد بنبرة خافتة قائلًا: «كل فتى يخرج من هنا هاربًا، أحضره راكعًا تحت قدمي قبل أن أنفذ فيه حكمي حتى يكون عبرةً لمن تُسوِّل له نفسه الهروب من تحت قبضة يدي.»

رفع حماد وجهه وقال بنبرة فضحت لكل مَنْ يسمعه مكانة من يقف أمامه عنده: «إلا أنت والثعلب، لم أستطع وتركتكم لحال سبيلكم بعد ما حدث متعشمًا أن تجد طريقك ولا تعود إلى هنا أبدًا.»

بصوت ميت قال سائد: «وأنا أتيت مخاطرًا بنفس مكانتي عندك التي صرحتَ بها، وسؤالي الذي يُحرقني لخمسة عشر عامًا عالقًا على لساني: لماذا ذبحتني بمشرطهم وكسرت ظهري يا معلم حماد؟»

بعد يومين كان سائد يجلس في مكتبه الفخم وابتسامته الساخرة المعتادة تُزين وجهه، نفس الابتسامة الميتة التي لا تصل لعينيه أبدًا، تذكر عقب خروجه من وكر حماد بعد الحديث المطول الذي دار بينهم، وكم

كان كلٌّ منهم كاشفًا أوراق الآخر، ولكن رغم ذكاء حماد وعقله الشيطاني الإجرامي لم يستطع كشف أوراق سائد كاملة أو مخططه الحقيقي لعودته إلى هناك تحديدًا ليبدأ أول خطواته الانتقامية الحقيقة والتي لن يهدأ أو يتراجع إلا حين يراهم مقتولين مغدورين تحت قدميه، وبعدها ...

أغمض عينيه وهو يهمس: «وبعدها لن أبالي بشيء سأستلم لمصيري وموتي الذي أعرف جيدًا أنه يطاردني دون أي مقاومة».

تراجع ليضع رأسه على ظهر كرسيه بإرهاق؛ متى يستطيع أن ينام كالبشر؟ متى يكف عقله عن التفكير؟ تذكر أيضًا رسالة حماد الصامتة التي وجهها له عبر إرساله أحد رجاله ليتبعه وكأنه يخبره أنه رغم كل شيء لا يثق به، وما أسباب إرساله غير ذلك، فحماد يعلم جيدًا مهارته في تضليل من يريد ولن يستطيع أحد يومًا أن يتبع أثرًا له أبدًا.

طَرَقَات هادئة على الباب أيقظته من شروده، فاعتدل وهو يعيد وجهه الجامد ويجيب بصوت رخيم: «ادخل».

دخلت دجوى بخطوات مترددة ولكن واثقة غير مهتزة، وقفت أمام المكتب وهي تقول دون أن ترفع وجهها له: «سيد سائد، هناك بعض الأخطاء التي ارتُكِبَت بشكل واضح مع الشركة الأجنبية التي تستورد منها المعدات الطبية.»

قال سائد بصوت صارم: «اجلسي دجوى وكُفِّي عن تجنبي والحديث معي باختصار.»

جفلت دجوى من نبرته القوية الصريحة، لن تنكر أنها ما زالت تتعجب من شهامته الغريبة معها، مضى أسبوعان الآن منذ أول مقابلة بينهم، وعرضه الكريم الذي سينجدها مما هي فيه كما سيبعدها عن هؤلاء المجرمين الذين يطاردونها مطالبين برأسها دون تنازل، فبما وفره سائد

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لها جعلها تطمئن قليلًا، شقة صغيرة فوق سطح شقته، وعمل محترم بمؤهلاتها الحقيقية براتب محترم، تحركت لتجلس على المقعد المقابل له بهدوء ساخرة من نفسها: «يبدو أنكِ أصبحتِ من ساكني السطوح بعد القصور يا ابنة غسان الهاشم أشهر طبيب كان اسمه يحتل صفحات الصحف الهامة في البلد في حياته وحتى بعد موته غدرًا.»

ابتلعت غصتها المميتة قبل أن تُعيد عينيها لسائد، رسمت ابتسامة لطيفة منمقة على وجهها وهي تقول موضِّحَةً: «الأوراق التي لديَّ تذكر أسماء معدات طبيبة عادية جدًّا ومتداولة، أما ما وصل إلى المخازن فهي أسماء مختلفة تمامًا لأجهزة معقدة باهظة الثمن ولا تُسْتَخْدَم إلا في ...»

صمتت دجوى عندما رأت شعاع نيران انبعث من عينيه السوداوين قبل أن يسألها ببرود: «يبدو أنكِ تعلمين فيما تُستخدم تلك الأجهزة تحديدًا دجوى وكأنكِ طبيبة!»

ابتلعت دجوى ريقها من شكله الذي أصبح مخيفًا وقاسيًا، ولكن لعجبها من نفسها، إنها لا تهاب سائد أبدًا، بلفتة مقتضبة ردَّت مرتبكة: «لا، لا أعرف كل ما هناك أن والدي كان طبيبًا وكنت أستمع له أحيانًا وهو يتحدث عن بعض الأجهزة وعبر الأوراق التي معي استطعت أن أفهم الاختلاف الكبير بينهم.»

رغم تلك الابتسامة الساخرة المستفزة وكأنه يضعها تحت اختبار أو ضغط ما دائمًا إلا أن سائد رد بهدوء: «حسنًا لا داعي لغضبكِ الذي أستشعره يشتعل على حين غِرَّة دائمًا، أما ذلك الخطأ إنه عمل عمر وهو المسئول الوحيد؛ لذا مرري ملاحظتكِ تلك له عبر رابحة وهو سيهتم بالأمر.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم تقتنع دجوى تمامًا بما يقول؛ إذ تدرك جيدًا أن خطأً كهذا غير وارد الحدوث، فالفرق بين بعض السماعات الطبيبة التي يُفترض أن يستوردها وبين أجهزة التبريد والتعقيم التي وصلت بالفعل مكلف جدًّا، تُرَى ما الذي تخبئه أنت وشريكك يا سائد؟ ولكنها سمعت بالفعل عن نظافة الرجلين وصدق ما قاله سائد، مجرد مغتربان عادا للوطن أخيرًا بعد طول غربة، يريدان أن يؤسسا حياتهما بهدوء ويستثمرا أموالهما.

فتح عمر الباب مباشرةً دون استئذان وهو يقول: «إبراهيم يريدك في أمر عاجل.»

توقَّف عمر عن الحديث وهو ينظر لدجوى بابتسامة متوسعة لطيفة قائلًا: «مرحبًا دجوى، سعيد برؤيتكِ معه.»

عبثت دجوى وهي تنظر له بصلابة رافضةً تلك النبرة التي تحمل بين طياتها تلميحًا من نوع آخر، قبل أن تقف سريعًا تخبره بعملية: «مرحبًا سيد عمر، لقد أتيت فقط في أمر للعمل، والسيد سائد قال: إنك المسئول عنه.»

هزَّ عمر كتفيه بلا اهتمام قبل أن يقول ببساطة: «اتركيه على مكتبي سأراه فيما بعدُ.»

خرجت دجوى بخطوات ثابتة، بينما كانت ترتعش اضطرابًا وغضبًا داخليًّا، للمرة الأولى في حياتها وبرغم ما حدث لها من تدهور بأحوالها، تشعر بهذا العجز في مواجهة شخص لا تعرفه ولا تفهمه، تلميحات عمر الدائمة تؤكد لها أنه رغم حدة سائد وجموده كأنه تمثال حجري لا يشعر غموضه واختفائه المتكرر المريب، ولكن هناك شيء ما يعنيها بالذات، شيء واضح بما يكفي للجميع أن سائد يميزها ويهتم بها.

نفضت رأسها المضطرب ساخرةً: «أحلامكِ العذرية السابقة عادت للطفو دجوى، متى كنتِ حالمة؟ سائد مجرد رب عمل قدَّم لكِ المساعدة، إياك أن تسمحي لذلك الانجذاب أن يتعشم في شيء آخر.»

«قبل الحديث عن إبراهيم أريد أن أخبرك بشيء ما» قالها عمر وقد استعاد وجهه الجدي وهو يقول: «أخبِرْني ما الذي توصلت إليه تحديدًا؟ أنا من جانبي استطعت أن أحصل على المكان الجديد الذي تتم فيه عملياتهم، ثم يتبقى أن أعرف مَنْ موردهم الجديد، ونحصر كل جاسوس لديهم.»

هز سائد رأسه قبل أن يفتح درج مكتبه يضع ملفًّا أمام عمر وهو يقول: «سننتقل للمرحلة الثانية يا عمر وهي الأهم على الإطلاق، ولكن عليك أن تكون أكثر حذرًا، فالهدف قاتل محترف ولا يحمل ذرة إنسانية.»

تناول عمر الملف الذي يحمل عنوان مشفى باسم «فهمي النجار»؛ ليبدأ في مناقشة بعض المعلومات وتبادل كل منهم ما استطاع أن يحصل عليه خلال الفترة الماضية قبل أن يقول سائد: «هل استوعبت كل شيء، ما زال لديك بعض الأسئلة؟»

انطلقت ضحكة منه قبل أن يقول بمكر الثعالب: «لا تقلق، سأحاول الوصول لأفضل مما تريده بالفعل.»

ومر شهران كاملان، كان كل واحد منهم يتحرك في طريقه ببطء وحرص متأنٍّ كما رُسِمَ تمامًا حتى لا يثيرا أي نوع من الريبة لدى مَنْ يستهدفون، ولِمَ لا؟ إنه صبر خمسة عشر عامًا؛ لذا لا ضير أبدًا أن ينتظر المزيد من الوَقت، بالتنظيم لكل خطوة سيحصلان على ما يريدان،

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وقد أصبح هذا وشيك جدًّا، أولى خطواتهم في الانتقام المدمر قد بدأت بالفعل.

لم يشغل عمر باله بخططهم الآن، بل كل ما يشغله وهو يقف هنا بحجرة قُصيٍّ وينظر للفتى شاحب الوجه بعينين غائرتين وجسد منهك ضعيف خائر القوى وقد تخلص أخيرًا من آثار المواد المخدرة والسموم البيضاء التي كان يتناولها، في الواقع التخلص من آثار الهروين لم يؤلم الفتى كثيرًا؛ لأنه لم يتناوله بجرعات كثيرة، ولكن ما كان مؤلمًا حقًّا السم الآخر المسمى بالحشيش، تعجب عمر من بعض الشباب بل والرجال الحمقى الذين يقولون: إنه مجرد عشب عادي يستطيعون الإقلاع عنه بسهولة، فليأتوا وينظرون لمأساتهم في قُصيٍّ الذي دُمِّرَ كليًّا وحرق قلب أمه وأخته اللتين تبكيانه دائمًا وهنَّ يراقبن انطفاء الفتى يومًا بعد يوم وصراخه وجنونه العنيف مطالبًا بجرعة حشيش أخرى.

جلس عمر بجانب قُصيٍّ على فراشه يخبره بهدوء: «انتهت أول مرحلة يا بطل من اتفاقنا، ولكن أريد وعدًا منك قبل أن ننتقل للمرحلة الثانية.»

رفع قُصيٌّ عينيه الشاحبتين وهو يقول بإرهاق: «أي وعد تريد؟ لقد نفذت أوامرك بالفعل.»

بخشونة كان عمر يربِّت على كتف الفتى وهو يقول: «وهذا تحديدًا ما أريدك أن تعلمه وترسخه في عقلك.»

صمت عمر وهو يسحب يده قبل أن يعقدهم وراء رأسه يستند على ظهر الفراش بأريحية يخبره ببساطة: «رسِّخ بعقلك أنك ساعدت نفسك سريعًا، انتشلت روحك من تلك القاذورات التي كنت تنوي الخوض فيها، لن يفرق معي شيء كونك عولجت أو استمريت في طريق الإدمان.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

اشتعلت عينا الفتى بنظرةِ تمرد وتحدٍّ وقال: «ولكنك أكدت أنك تساعدني ولن تريد شيئًا مني.»

شردت عينا عمر للبعيد وهو يتذكر حالته التي كانت مماثلةً لقُصيٍّ، لا بل كانت أصعب بكثير، عندما تآمر عليه رجال حماد من وراء ظهره ومنحوه تلك المخدرات التي كانوا يعملون بتوزيعها لبعض العصابات الكبرى مستغلين تشردهم، فلا أحد سيشك أبدًا أنهم يحملون بين طيات ملابسهم الممزقة تلك المواد التي يبلغ ثمنها آلاف الجنيهات، وقتها كان هو أمهرهم وأسرعهم في توصيلها، فأشاد حماد بِه وبدهائه، وأطلق عليه لقب ثعلبه القادم، فما كان من رجاله الحاقدين إلا جذبه لتناول بعضها حتى أصبح من مدمنيها وهو في سنّ الثالثة عشر فقط، وبالطبع كان الغرض تدميره وقتله؛ لأن جسده الصغير بالتأكيد لم يكن ليتحمل المزيد، حتى علم سائد بمخططهم فقام بمعاقبته، بل وتعدى عليه بالضرب وصرخ بهم يتوعدهم، وقتها أمر حماد بأسى بالتخلص منه على الفور، فكانت النجدة في سائد الذي أنقذه من القتل وتوعَّد بتطهيره وإن لم ينجح سيقتله بنفسه، ابتسم عمر بمرارة متذكرًا نعته بالألقاب البشعة التي تخص أمه المجهولة بالذات فهو في عُرفِهُم «ابن ...» ولكن سائد لم يهتمَّ، وعالجه بالطريقة الصعبة والتي نجا منها بأعجوبة، أغمض عمر عينيه بعذاب حقيقي والذكرى تلسعه متذكرًا أعراض انسحاب المخدر منه، والتي كانت تمثل ألف طعنة وطعنة من سكين حاد تدخل في كل نسيج من جسده، في الدقيقة الواحدة كان يصرخ ويبكي ويتوسل ويتذلل لمنحه فقط القليل، فما كان من الآخر إلا كتم فمه وتثبيت جسده بقوته الفتية وينهار في بكاء حاد مثله تمامًا، عجبًا لمن يلومه لمناصرته لسائد سواءً ظالمًا أو مظلومًا وهو من منحه فرصة للنجاة، نطق عمر أخيرًا قائلًا بلطف: «في الوقت الحالي لا أريد منك شيئًا إلا أن تجد الطريقة

الصحيحة لتوجيه غضبك، اهتمَّ ببيتك وافرض رجولتك، ابتعد عمن وجهوك لذلك الطريق.»

للحظات نظر له قُصيٌّ بعينيه المرهقتين متعجبًا وعقله لا يسعفه للهدف الحقيقي لما يفعله هذا الرجل معه أو سر اهتمامه، لقد حرص خلال الشهرين الماضين أن يأتي إليه يوميًا وبموعد ثورته تمامًا وهو يُكسر منزلهم ويقلبه رأسًا على عقب مطالبًا بجرعته ناعتًا أمه ورابحة تارةً بأبشع الألفاظ، وتارةً أخرى متذللًا ومستعطفا ومهددًا أنه سيموت إن لم يحصل عليها، فما كان منه إلا تكميم فمه وتكبيل يديه، بل وتقييده بظهر السرير حرفيًا متحملًا ثورة غضبه وسبِّه، ردًّا على طلب عمر السابق نطق قُصيٌّ أخيرًا قائلًا بخجل: «أعدك ألَّا أعود لهذا الطريق، وأن أهتم بدراستي، ولكن أنا أريد العمل وأن أصرف عليهم بنفسي، وأساعد بالمنزل وأتولى راية رجولته.»

أخذ عمر نفسًا عميقًا وهو يتحرك من جانبه وأخبره: «أنا أثق أنك رجل وعند وعدك الذي قطعته يا قُصيُّ، وإن كان على العمل فهذا شيء هين سأدبره لكن بنفسي بما يتوافق مع دراستك حتى لا تغضب أمك وأختك.»

انتفض قُصيٌّ يخبره برفض متعنت: «لا شأن لهنَّ بي، أنا الرجل هنا، أفعل ما يحلو لي.»

كان عمر واقفًا على قدميه قبل أن يمنح قُصيًّا نظرة غامضة ساخرة استبدلها بالقول الحازم الجاف: «الرجولة يا فتى لا تعني التنمر، ولا أخذها عنوةً وقسوة.»

مال عمر يضرب على رأس قُصيٍّ بخشونة يخبره: «الرجولة هنا يا أحمق يوجهها عقلك بدهاء، يمحورها لتأخذ ما تريده بمنتهى السهولة

واليسر، تخدع من أمامك بذكاء لتوجهه لما تريد دون فَرْد عضلاتك ليستجيب لخدعتك معتقدًا أنه من يتحكم بك، ولكن أنت في الحقيقة مَنْ توجهه لكل أفكارك دون أن يشعر.»

أبعد قُصيٌّ رأسه عن عمر بحدة دون أن يتنازل ليجبر عقله أن يفهم حديث عمر الذي أردف مكملًا: «الرجولة تعني الحنكة والذكاء لتوازن بين الأمور وتفهم متى تستخدم عقلك ومتى تفرد عضلاتك، لتخرج أنت الرابح المنتصر في حربك بأقل الخسائر.»

قال قُصيٌّ بضياع متخبط: «كيف؟ أرجوك أخبرني.»

ردَّ عمر بصوت مكتوم وهو يتوجه إلى باب الغرفة ينوي المغادرة: «ما زال أمامك الكثير، ولكن يجب أن تثق بذاتك وتعتمد على نفسك لتفعل، لن يساعدك أحد يا فتى، لتصل لرجولتك التي تتغلغل بكل جزء منك، أنا أثق بك ولكن ثقتي تلك لا تعني شيئًا أبدًا إن لم تدرك وحدك طريقك إلى نفسك وتتواصل معها بطريقتك.»

صمت عمر قبل أن يأخذ آخر مشتعلًا وهو يقول: «يا قُصيٌّ، أنت في نعمة كبيرة، تتمثل في جدران هذا المنزل الذي يحميك وأسرة دافئة تحيطك وتحرص عليك، وإن لم تستغل تلك النعم وتثبت أنك على قدر المسئولية فهذا يعني أنك لم تستحقها يومًا، فهناك الكثير والكثير يتمنوا حتى ولو هذا الغطاء الذي يقيك من رجفة البرد، ارجع لعقلك يا فتى واحمد الله أنك كُشِفْتَ سريعًا وأن هناك من يهتم ليضعك على الطريق الصحيح.»

عقب كلامه فتح الباب وغادر على الفور، متخبطًا في أفكاره لأول مرة وسؤاله الحائر ما زال يحرق عقله، لمَ يهتم؟ لماذا يفعل هذا معهم؟ وما هو آخر ذلك الطريق الذي يخوضه مَع رابحة؟

كان يوشك على المغادرة على الفور عندما استوقفته أم رابحة تخبره بمودة: «الى أين أنت ذاهب سيد عمر؟ ابق معنا لتناول الغداء.»

التفت عمر برأسه للخلف وأخبرها بصوت خرج جافًّا رغمًا عنه، وهو يتذكر كلمة المرأة التي طعنته سابقًا رغم أنه أصبح كفرد أساسي منهم بمشكلة قُصيٍّ، ولكنه لم يستطع أبدًا تناسي جرحه حتى وإن لم تعلم، ربما هو سمع أبشع الألفاظ التي وصفته في السابق، ولكنه ببساطة لم يتقبله من تلك المرأة بالذات: «شكرًا لكِ، لا داعي لتعبكِ فلديَّ عمل مهم بالفعل.»

شحب وجه صفية قليلًا وهي تتمتم بحرج: «أعرف أنه ليس من مقامك، ولكن هو مجرد امتنان بسيط لشكرك على ما فعلته وجميلك الذي سنعيش أنا وأبنائي نحمله العمر كله.»

ابتسم عمر قائلًا لنفسه بسخريه سوداوية لم تلتقطها إلا عينا رابحة المتابِعَة له: «ليس من مقامه! أتبجله؟! أحدهم يُبجِّل اللقيط المتشرد ويعتقد أنه يتكبر عليهم، رحم الله أيام ما كان يتوسل بقية فتات البشر؛ ليسدَّ بعضًا من رمق جوعه!»

كعادته سيطر على نفسه بقوة قبل أن يلتفت لها ويمنحها أول ابتسامة متنازلة من يوم معرفته لها وهو يقول: «لم أحاول أن أتهرب كما تعتقدين لتخبريني بهذا، وتستطيعين أن تناديني باسمي مجردًا، كما أنني سأتناول الموجود بطيب خاطر.»

قطع جملته وهو ينظر لوقفة رابحة المتوارية خلف ستارة مهترئة قليلًا تفصل المطبخ الضيق عن بقية شقتهم، فابتسم في وجهها وهو يغمز بمكر قائلًا: «إن كان من صنعها هي، فهي تجيد الطبيخ.»

توسعت ابتسامة صفية وكأي أم عربية أصيلة، تعشمت أن شيئًا ما يحدث بين ابنتها وصاحب العمل، فرصة العمر لصغيرتها الكادحة والتي لن تتكرر، فقالت معدِّدةً مميزاتها: «إنها تجيد التدبير المنزلي صنع الحلويات والمحاشي، كما أنها هادئة صبورة كنسمة مريحة تنشر البهجة في منزلك.»

لم يستطع عمر منع ضحكته وهو يراقب وجه رابحة الذي تورَّد وهي تنهر أمها قائلةً بإختناق حرجًا: «أمي، أرجوكِ توقفي وتعالي ساعديني، السيد عمر هنا لمساعدة قُصيٍّ، وليس لتعديد صفاتي.»

بعد وقت قصير كان عمر يجلس على أرضية الغرفة، وأمامه بعض الأطعمة البسيطة في نظرهم ولكنها أكثر من شهية بالنسبة له، لن ينكر فهو دلَّل نفسه جدًّا بعد عذاب سنوات من الكدح وجمع المال في غربتهم، وبعد أن استطاع هو وسائد عمل أول مشروع يدرُّ عليهم مالًا وفيرًا لم يتوانَ لحظة في تذوُّق كل ما حُرِمَ منه، ولكن تلك الجلسة البسيطة في منزل يشعر بالدفء والحنان والاهتمام بين جدرانه لا تماثل أبدًا أي رغد عيش حصل عليه في غربته.

كانت رابحة تنظر له وهي تَعَضُّ على شفتيها بخجل قبل أن تقول: «أعتذر منك لجلستك هكذا على الأرض، وبدل مائدة نفترش الجرائد القديمة.»

رفع عمر حاجبيه وهو يتناول بعض الأرز قبل أن يقول مباشرة: «لا داعي لاعتذاركِ، تلك الجرائد كانت في وقت ما أقصى ما أستطيع أن أحلم به لأفترشها ولكن ليس للطعام بل لشيء آخر.»

صمت وهمسًا داخليًّا لم يصل لمسامعها وهو يكمل: «كنت أبحث عنها لألتحف بها من البرد أو حتى أفترشها لتصبح سريري على الأرصفة.»

منذ عدة أشهر وهي تتابع تفاصيله باهتمام، تحاول أن تخترق جداره الغامض والذي يخبئه تحت قناع الهدوء واللطف والسخرية في كثير من الأحيان، لقد أصبحت قريبة جدًّا منه لتعلم أن مَنْ أمامها يعاني جرحًا عميقًا يشق روحه نصفين، وكلا النصفين يحتلهم السواد والفقد وانعدام الأمل والظلمة، لقد باتت متأكدةً أن عمر وسائد يحملان ماضيًا منفرًا بغيضًا ومستقبلًا مرعبًا مخيفًا، ولكنها ببساطة لم تستطع لا الابتعاد ولا حتى الاقتراب، ابتسامة مهتزة احتلت شفتيها المنتفختين الورديتين قبل أن تقول بهمس أنثوي رقيق: «هيئتك ومكانتك ووصولك من الخارج بكل تلك الهالة البراقة تناقض تمامًا النبرة المريرة التي تتحدث بها سيد عمر.»

رفع عمر عينيه ينظر لها نظرة داكنة، متأملًا تفاصيلها بشكل آخر عميق متمهل، فتغلغل داخل روحه ذلك الشعور المرافق دائمًا معها وهو يرى وجهها الدائري وشفتاها العذرية المنتفخة بطبيعية، أنفها الدقيق وعينيها العسليتين البريئتين رغم الاندفاع والحالمية التي تبرق من بين حدقتيها، ولكن رغم جمالها البريء الهادئ هناك شيء آخر يجذبه نحوها ويقيِّمها دائمًا تقييمًا إيجابيًّا، نَهَرَ نفسه عند تلك النقطة، فمنذ متى استحقت أي أنثى مرت به أن يمحنها استحسانه؟! بالنهاية معظمهنَّ ساقطات عاهرات يسلِّمن أنفسهن لأسباب مختلفة: المال أو المكانة أو حتى هذا الشيء المنفر المسمى بالحب، ابتلع ريقه قبل أن يقول بسيطرة ذاتية لوجه رابحة الذي زاد توردًا، وعينيها التي انخفضت تنظر إلى أرضية الغرفة بارتباك: «قُصيٌّ أصبح بحالة جيدة الآن، يجب أن تهتمي بإطعامه جيدًا، وأنا سأرسل إبراهيم ببعض الأدوات الرياضية البسيطة؛ ليوجِّه كل طاقته الزائدة بها، الرياضة مهرب جيد الآن له ستجعله يُهدئ من حدة غضبه، ويسيطر على أفعاله قليلًا.»

بصوت هادئ قالت: «هذا مقدور عليه، ولكن ما زلت مرتعبة لعودته لهذا الشيء.»

عجزت نبراتها كما تهدَّل كتفاها وهي تخبره مختنقة: «أنا لا أعلم حتى ما الحل معه إن عاد لهذا المخدر مرة أخرى، على حسب معلوماتي أن المدمنين يعودون ببساطة.»

بصوت بارد فاتر كان عمر يخبرها: «هنا يبدأ دورك يا رابحة، فالمدمن لا يعود لهذا الطريق إلا لو أُحْبِطَ أو عادت له نفس أسبابه السابقة ليتوجه لهذا الشيء المدمر.»

توترت رابحة وهي تقول: «هل تعتقد أنني السبب حقًّا؟»

النظرة الرافضة الممتزجة بالاستياء جعلتها تندم على السؤال كأنه يخبرها بصمت أن بعد كل ما جرى يُعَدُّ سؤالها من الغباء، مطَّ عمر شفتيه وهو يعاكس نظرته تمامًا عندما أخبرها: «على كل حال الكلام لم يعد يجدي، أريد أن أطمئنكِ، قُصيٌّ أنقذناه في أول الطريق، الهروين لم يتمكن منه تمامًا، ولكن الخطورة تكمن في مخدر «الحشيش» والذي يعتقد بعض الأغبياء أنه مجرد عشب يبسطهم قليلًا ولا ضرر منه، ولكنه لا يقل خطورة أبدًا عن بقية أنواع المخدرات، ولكن النقطة الجيدة الوحيدة به أن علاجه سهل، والأمل في علاجه كبير جدًّا؛ لأن متعاطيه إن تخلص من كل أثر السموم بالفعل وامتلك إرادة قوية ووعي من الأهل لن يعود إليه أبدًا؛ لأن وجه الاختلاف ببساطة أن الجسم لا يشتاق له أبدًا مرة أخرى عكس المخدرات الأخرى.»

انبسطت ملامح رابحة وهي تنظر له بامتنان حقيقي، وقف عمر على قدميه سريعًا ينوي أن يتحرر من ذلك السحر والدفء الذي يلتف به،

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ذلك الشعور المبهم الذي يُشْعِره معها «بالطهر والنظافة»، طُهْر لم يجربه أبدًا خلال أعوامه الثلاثة والثلاثين.

وقفت رابحة وراءه تهتف به مندفعة متهورة بدون تفكير: «مَنْ أنت حقيقةً يا عمر؟ كيف تحمل كل هذا بداخلك؟ من أين تأتي بالحكمة وتملك كل تلك المعلومات؟»

التفت لها عمر برأسه، ومنحها نظرة ثعلبية ماكرة قبل أن يقول: «لا تقحمي نفسكِ في شيء أنت لستِ أهلًا له رابحة، فما زلت أرفض اندفاعكِ الجاهل إليها.»

عادت للتهور ولم يصلها تمامًا حقيقة جملته وهي تقول بتشدد: «أنت علمت كل شيء عني فمن حقي أن أعلم مَنْ أنت حقيقةً.»

التفت عمر هذه المرة بكليته واقترب منها خطوة تلو الخطوة إلى أن وقف أمامها تمامًا، وبدون تحفُّظ رفع ظهر يده يمرره على وجه رابحة بتمهل، فتسمرت متسعة العينين مشلولة الأوصال دون قدرة لها على الابتعاد أو الرفض، فسمعت صوته يقول بتمهل خَطِر: «نحن خفافيش الليل، زوائد المجتمع وأخطاء أفراده، نحن نتاج الشوارع ساكنيه وحاقديه وعاجزيه، نحن من نضجنا مبكرًا جدًّا قبل الأوان، شربنا كؤوس الحنظل على الدوام، من يقترب منا يحترق، ومن يخاطر ويقتحمنا فُقِدَ، نحن بقايا الإنسانية قبيحة الخُلق.»

كانت دجوى تستند إلى حائط المصعد بعينين متوجستين وقلب متسارع الدقات حتى خُيِّل لها أنه يسمع كل نبضة هاربة منها بوضوح، على ما يبدو أصبحت عادةً لديها منذ معرفتها بهذا الغامض الجذاب دون إرادة منها، فالأدرينالين كان يغزو جسدها يحثها على القيام بأي

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تصرف إيجابي لتُبعده عنها، تهرب من عينيه وسطوة وجوده، جموده وجراءته في الاقتراب منها.

أسفر فمه الذي مال بخط مستقيم عن ابتسامة ذئبية، استند بأحد ذراعيه على حائط المصعد خلفها وقال: «ما بكِ دجوى مرتعبة هكذا؟ تعلمين تمامًا أنني لن أتهور مثلًا وأقبِّلكِ.»

تعرَّق جبين دجوى وتلعثمت حروفها رغم رماد عينيها المنطفئ، كانت تجابهه بقوة قائلة: «سيد سائد، من فضلك ابتعد، لا داعي لهذا الحديث الـ...»

هز سائد كتفيه ببرود قبل أن يقول: «السافر، هل هذا التعبير المناسب لما يحدث بيننا؟»

قالت باضطراب وهي تعبث بوجهها: «لا شيء يحدث بيننا على الإطلاق، لمَ تصر أن يكون الأمر بتلك الطريقة؟»

همس سائد داخليًا: «عليكِ التماسُك يا دجوى أكثر ولا تنهاري هكذا من مجرد بعض الإغواء الذي أمنحه لك بتمهل، فالانهيار لم يحِنْ بعدُ عزيزتي.»

حرك ذراعه بعيدًا عن محاوطته لرأسها، وابتعد عنها خطوة أخرى منسحبًا نحو باب المصعد قائلًا: «أنا لا أصر على أي شيء، ولكني أخبرتك من قبل أن هناك شيئًا ما يجذبني نحوكِ، ويغضبني بشدة تجنُّبك لي بل وتوترك غير المفسر عندما تتواجدين معي في أي مكان بمفردنا وكأنكِ تخافين مني.»

امتُقِعَ وجه دجوى واشتعلت وجنتيها بحمرة خجل، وهمست لنفسها بسخط: «اللعنة، إنها مكشوفه جدًا لهذا الرجل، يقرأها ككتاب مفتوح، يقتحم خيالاتها وأفكارها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عجيب كيف يتفوَّه بما كانت تفكر فيه بحالمية أنثوية الآن، نعم، إنها منجذبة نحوه بشكل خطير، عقلها المرهق يفكر به ليل نهار حتى أنها أصبحت تتناسى المصيبة الأخرى التي تطاردها، ولِمَ لا وهي منذ أصبحت تحت حمايته لم يطاردها أحد على الإطلاق.

أغمض سائد عينيه بقوة وهو يستشعر الارتجافة التي مرت بجسدها من خلفه والتي أكدت له أنها خائفة وبأي فرصة ستفر منه هاربة بغير عودة.

«تبًّا لماذا مِتَّ يا غسان؟ لماذا ارتحتَ وتركتني لأنتقم من تلك التي تجعلني أتردد للحظة، وأتحير في طرق انتقامي منك فيها؟»

لا، لم يسترح سائد أبدًا عندما علم بموت الرجل، بل لن يستريح أبدًا بموت أحد الأطراف، بل يجب أن يفقدوا ما حطموا لأجله كل شيء وباعوا من أجله ضمائرهم وإنسانيتهم وأن يعترفوا ويندموا، أخذ نَفَسًا مشتعلًا وحسم أمره، لن ينتظر طويلًا ليوجِّه ضربته الأولى، سيبدأ من أسفل الهرم وبأصغر الأطراف التي رغم ضعفها أهمها ...

أتاه صوتها من خلفه متلعثمة: «سيد سائد، الباب فُتِحَ أريد أن أَمُرَّ، المشهد غير جيد للموظفين.»

التفت سائد برأسه من أعلى كتفه يتأملها مره أخرى قبل أن يقول بنبرة خرجت ناعمة هادئة على غير عادته: «سائد فقط، ولا تقلقي أبدًا على صورتكِ، فأنا لن أسمح لأحد أبدًا أن يذكركِ ولو حتى بمجرد نظرة، مفهوم؟»

ما تمر به يضر بصحتها بالتأكيد، فتغير حالتها النفسية والمزاجية عدة مرات في الدقائق القليلة التي تتواجد بها معه من خوف وسرور، وتلك الفراشات الوردية اللعينة التي ترفرف في قلبها الذي لم يتفتح أبدًا

لأي رجل قبله، وانقباض معدتها الذي يحدث بشكل متكرر من تبادل بعض كلمات معه سيكون سببًا لمرضها قريبًا جدًّا، يا الله ما الذي يريده منها تحديدًا؟ بل السؤال المرعب لنفسها: ما الذي تريده هي منه؟

ابتسم وجهها الشاحب رغمًا عنها وهي تقول: «مفهوم تمامًا، أرجوك دعنا نخرج من ذلك المصعد.»

تراجع سائد على الفور يسمح لها بالمرور وملامح وجهه تتبدل كليًّا بشكل مرعب، عيناه السوداوان منحتها نظرة خاوية من الحياة، قبل أن يشير لها بيده بآلية ثم يغلق المصعد في وجهها مباشرةً، فَغَرَتْ دجوى فمها بذهول وعدم تصديق، ما الذي جرى له لينقلب حاله للنقيض تمامًا على الفور؟ هل أجابته بشيءٍ ما خطأ؟

ما الذي أتى به إلى هنا في ذلك الوقت؟! ألم يتعهد دومًا ألَّا يواجههم مرة أخرى إلا بعد أن يأتي ظافرًا بحقهم أو جسدًا خاويًا ليُدْفَنَ بجانبهم، تجولت عينا سائد بالمكان الذي لم يره منذ خمسة عشر عامًا، لتستقر في النهاية على القبر الصغير المهدَّم الذي يقع بعيدًا جدًّا عن بقية مدافن الصدقة، لقد تعمَّد أن يدفنهما هناك بعيدًا فيميزهما ويحصلا على بعض العزلة والراحة التي لم يشعر بها جسداهما في حياتهما، اقترب من القبر دون تردد أو حيرة أو حتى يخطئ في مكانهم، وكيف له أن ينسى أو يخطئ وهو عاش كل لحظة في حياتهما المريرة، ذكرى إخراجهم من المقبرة الجماعية ومن وسط الأجساد العديدة المدفونة في تلك الحفرة ذات الرائحة العفنة، عفن ينتشر بها لا يخص أبدًا الضحايا الأبرياء الملُقين هناك كجرذان تم التخلص منها لينظفوا مجتمعهم الظالم، ولكن عفن كل ضمير سمع عنهم وعلم ما يحدث لهم على أيدي هؤلاء

الجزارين مصاصي الدماء وآكلي اللحوم البشر، احتجزت مُقلتاه دمعة ملتهبة حارة، وابتلع غصته التي تحرق حلقه وهو يتذكر انهياره ودموعه التي أغرقت صدره وهو يلتقط جسديهما الفارغين، منهارًا مقتولًا مغدورًا مطعونًا عاجزًا، مدَّد جسديهما على الأرض وضمَّ كليهما إلى ذراعيه يبكي كطفل صغير بحرقة، لقد رفض تركهم هناك، كان من حقهما عليه أن يكرمهما لأول مرة في حياتهم المحطمة ولآخر مرة بموتهم المعذب، هبط على ركبتيه والذكرى تعود قسرًا إلى عقله، بتسلله هو وعمر إلى هناك خوفًا أن يراهم الحارس، فحتى الموت والدفن بكرامة محرَّم على جرذان الشوارع، فحتى القبور تخضع للمال والمكانة الاجتماعية، حفرا القبر بيديهما ثم دفنا قطعتا قلبه الفارغين من كل شيء بعد أن كفنهما ببقايا ملابسهما الممزقة، وطبع قُبْلَة وداع أودع فيها كل مرارته ووجعه وعجزه، ثم وعده القاطع ألَّا ينسى ثأرهما أبدًا، لم يجد سندًا ولا داعمًا إلا رفيق عمره المنهار مثله، وانصرفا متعجلين يجرَّان نفسيهما جرًّا.

تقبَّضت يده على تراب القبر غير مبالٍ بالأحجار الصُغيرة التي خدشت كفَّه الضخم، كان يكرر وعده بخفوت وقسوة: «أُقسم لكما سأجعلهم جميعًا يدفعون الثمن، ويذوقون من نفس كأسي وكأسكما.»

«ركزي معي يا رابحة، وامحي تلك النظرة البلهاء من وجهكِ رجاءً.»

قالتها دجوى بحَنَق وهي تراقب الأخرى التي تنظر لعمر بخوف يتخلله نفس النظرة العاشقة، لقد أصبحت هناك علاقة طيبة بينهما، ومن خلال مراقبة رابحة علمت أنها تُكِنُّ مشاعر خاصة جدًّا لعمر.

لقد أتيحت لها فرصة جديدة هنا ليس لحياة طبيعية بها بعض الكرامة فقط، ولكن بعلاقتها الطيبة بالجميع، ولكن يظل الغامض العابث الذي

يحتل أفكارها هو ما يحيرها ويؤرق منامها، هل من الممكن أنه يبادلها حقًّا ما يحاول أن يخبرها إياه جهرًا ودون تردد؟

«أنا هنا، من التي تريد التركيز الآن؟»

ابتسمت دجوى بهدوء أنيق وهي تقول مازحة: «حسنًا، يبدو أننا نحن الاثنتان نحتاج لتركيز ما.»

تصنَّعت رابحة الأسى وهي تقول ممتعضة: «أو ربما نحتاج لكسر رأسنا بالحائط لتعلقنا بالأشخاص الخطأ».

توسعت عينا دجوى بصدمة من صراحة رابحة المتهورة وهي تقول: «ماذا تقصدين؟ تحدثي عن نفسكِ.»

أخذت الأخرى نفسًا عميقًا قبل أن تقول بشرود متحير حزين: «تلك هي الحقيقة دجوى، إن كنتِ أنت تنكرين نظراتكِ التي تفضحكِ فأنا أعترف تمامًا أن قلبي معلق به، ولا يوجد لي أمل في الوصول له يومًا.»

فتحت دجوى فمها تحاول أن تستفهم منها أكثر عن سبب يأسها، والجميع أصبح يوقن أن عمر مَنْ يُولي السكرتيرة البسيطة جُلَّ اهتمامه، ولكن أوقفها دخول إبراهيم الذي قَال بصرامة: «استدعي أحد الأطباء فورًا.»

لم تستطع دجوى منع صرخة الرعب التي خرجت من بين شفتيها وهي تراقب سائد الغارق في الدماء ويتحامل بصعوبة على قدميه وإبراهيم يقوم بإسناده محاولًا أن يجعله يصل إلى مكتبه، هرولت دجوى نحوه، شهقتها مع رؤيتها له عن قرب جعلته يرفع عينيه بصعوبة ورغم كل ما به كان يحدِّق فيها لوهلة، لهفتها وخوفها عليه جعلا وميضًا سريعًا يحتل عينيه قبل أن يغلقهم من الألم، وقفت أمامه تمنع تقدمهم ولم تستطع

عصير الكتب للنشر والتوزيع

منع نفسها وهي تقول بلهفة: «سائد، ماذا حدث؟ كنت بخير عندما خرجت من هنا.»

صباحًا دَخَلَتْ رابحة إلى مقر الشركة ووجهها تعلوه ابتسامة باهته شاحبة، ما زال ما حدث بالأمس يؤثر عليها، لقد أصبحت على يقين وثقة أنها أمام بئر مليء بالأسرار مرعب ومخيف بلون السواد الذي يحمله كلاهما، ولكن عِوَضًا عن النفور أو الخوف وجدت نفسها تنجذب أكثر، تريد الاقتراب أكثر لتعرف الحقيقة الكاملة من عمر، ثم تواسيه وتطبب جروحه غير المرئية، وتجبر كسره وتمنحه من حنانها، ولكن كيف وهو يقاومها ويبتعد عنها ويحاول أن يخيفها منه؟!

«رابحة»، سمعت صوت عمر الآمر يهتف فيها بانفعال، كانت عيناه حمراوين بلون الدم ووجهه يحمل من الغضب المستعر ما لم تره فيه من قبل، ابتلعت تورم حلقها الذي خَيَّل لها أنه حدث تلقائي قبل أن تجيبه بارتباك: «نعم، سيد عمر.»

للحظات ظل واقفًا أمامها يتأملها وكأنه يحارب شيئًا ما بضراوة، قبل أن يقول بهدوء ما يسبق العاصفة: «اتبعيني إلى مكتبي».

باستسلام جرجرت قدميها بصعوبة وهي تتبعه على الفور، فتحت الباب وهي تخطو إلى الداخل تراقبه، منحها ظهره المتشنج بينما هو عقد أمره دون تردد، ربما لم تسمح له الفرصة للحديث مع سائد بشكل مطوَّل ومعرفة ما حدث، ولكنه لم يستطع أن يغفو لدقيقة وهو ينازع، يتمزق ما بين اعترافه أخيرًا باحتياجه لها بجانبه وبين حكم العقل والانصياع لما طلبه منه سائد في بدء الأمر، يجب أن يبعدها عنه بأي طريقة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال عمر مباشرةً بجفاف: «على سطح المكتب هناك مغلف يحمل شيكًا باسمكِ وضعت لكِ فيه بعض المال الجيد لتستطيعي أن تبدأي حياتك بمشروع صغير، وتشركي فيه قُصيًّا أيضًا، دون الحاجة للبحث عن وظيفة مرة أخرى.»

هزت رأسها بحيرة قائلةً: «لا أفهم لمَ تمنحني المال؟ ولماذا قد أبحث عن وظيفة من الأساس وأنا لديَّ عملي بالفعل؟»

قال بصوت مكتوم: «لم يعد لديكِ مكان هنا، لقد فُصِلْتِ من العمل منذ هذه اللحظة.»

ارتعش قلبها بين أضلعها قبل أن تقول بخفوت مذهول: «هل فعلت شيئًا سيئًا لتطردني يا عمر؟»

التفت لها هذه المرة ونظر لها بتوحش وجزَّ على أسنانه قائلًا: «سيد عمر، مَنْ منحكِ الحق لسحب الألقاب بيننا؟»

فتحت فمها وأغلقته عدة مرات وهي تشعر بنفسها معقودة اللسان تمامًا، قبل أن تقول بتحشرج بائس: «أنت من منحتني هذا الحق، وأنت من تسللت لحياتي ومنحتني الأمل في ودك يا عمر.»

أطلق عمر ضحكة قصيرة ساخرة ليعود يقول بقسوة: «ليس ذنبي أنكِ حالمة يا صغيرتي لتعاطفي نحوكم، أحلام وردية مثلما فعلت أمك تمامًا، لا ترفعي سقف طموحكِ يا رابحة، تبقى الفروق الاجتماعية محفوظة بيننا.»

تلاحقت أنفاسها وهي تهز رأسها عاجزةً عن تقبُّل كلماته، قبل أن تقول بقنوط: «أنت تكذب، تعرف هذا جيدًا ولا أصدقك.»

التحدي المندفع اشتعل في عسل عينيها الذائب فرفعت وجهها تحدِّق به بقوة وهي تردد بتحدٍّ:

«أنا لا أصدقك لأنك تعلم جيدًا أنك كاذب، ولم ولن تشعر يومًا بأي فروق بيننا، هل تظن أني غبية ولا أشك بحقيقتك أنت وصديقك؟!»

اندفع عمر بتهور نحوها يمسك عضديها بقوة قبل أن يلصقها بالباب الذي أغلقته خلفها قائلًا بسفور: «حسنًا يا حالمة يا غبية، يبدو أنكِ لن تفهمي إلا بالطريقة الصعبة، أنا لا أمل فيَّ لا مستقبل، لا أملك ذلك الحصان الأبيض الذي تظنين أني سأحملكِ عليه وأطير بكِ لعالم أحلامك السخيف، هل فهمت الآن مع من تتعاملين، أنا لا أملك ماضيًا مشرفًا، ولا حتى أستطيع أن أَجرؤ لأتطلع لأي مستقبل يحمل الحياة.»

اغرورقت عيناها بالدموع تحت جفنيها المسبلتين، ثم تدفَّقت لتسيل فوق وجنتيها غزيرة وهي تهمس: «ماضيك لا أهتم به، ومستقبلي سأتشاطره معك، سأزرع الأمل في روحك وأنثر زهور الحياة على صدرك، ولكن لن أستطيع أبدًا تركك لضلالك، سأنتشلك يا عمر من نيرانك رغم أنفك.»

كل دمعة منها كانت تتضافر مع همساتها الناعمة الواعدة؛ فلمست تلك الدموع جدار القلب الأسود تبدِّد بعضًا من ظُلمته وتجلِّي القاذورات من حوله، أوشك أن يحنَّ ويخبرها أن تقترب جدًّا وألا تتركه يضعف فيها وبها، أليس من حق المحكوم عليه بالإعدام أن ينال أمنية أخيرة؟ ورابحة أصبحت كل أمنية يتمناها لنفسه، أن يغوص في طهرها ويحترق في نظافتها، أن يكتشف معها لأول مرة في حياته المحرمة طعم الحلال والعفة والطيبة والدفء بقلب يهتم به وحده يعرف جيدًا أنه غارق في حبه، بصعوبة انتزع نفسه من أفكاره التي تُعَدُّ متطرفة بشدة، ابتلع

غُصَّة حلقه بصعوبة قبل أن يُخْرِجَ الثعلب الماكر ويستخدمه معها بيأس من نفسه وكل ما في عقله، يجب أن يجعلها تهرب بعيدًا لتنجو ولا يطالها أذى أبدًا، تحدَّث أخيرًا بنبرة وضع كل حقارته الماضية فيها، وليزيد من رعبها منه، اقترب بشفتيه من وجنتها يتلمسها بخفة وهو يقول بنعومة خطرة: «أنا لست رجلًا للزواج وإن كنتِ تريدين المجازفة، فأنا أتقبلكِ بكل صدر رحب، للحقيقة من يوم أن رأيتكِ وأنا أقاوم نفسي بأعجوبة حتى لا أمزق ملابسكِ وأمددكِ على سطح هذا المكتب عارية، وأدمغكِ بي وآخذ منكِ كل ما أكاد أُجَنُّ لأحصل عليه.»

هذه المرة كانت تبعده عنها بهلع حقيقي صارخ، فلم يرحمها أبدًا وهو يضع شفتيه على وجنتها بقوة مكملًا حديثه الفج: «ولكن لمكانتكِ عندي سأمنحكِ عرضًا آخر، شقة في أرقى مكان في البلد، رصيدًا محترم في أحد البنوك، وكل ما عليكِ فعله أن تسلميني نفسكِ لشهرين كاملين، وأنا أعدك سأترك نفسي بين يديكِ تفعلين كل تلك المهاترات السخيفة الحالمة، ولكن أيضًا يجب أن تعلمي أنها لن تفلح مع ابن حرام أبدًا.»

كادت أن تنهار، أن تموت كمدًا بما تسمع: «رباه، هل من المعقول أنها أخطأت الحكم؟ إنه حقير فاسق بالفعل.»

استطاعت بكل ما أوتيت من قوة أن تزيحه عنها، ثم رفعت يدها رغم الدموع التي تشوش الرؤيا أمامها وحاولت صفعه فصدَّ يدها سريعًا، وقال من بين أسنانه: «لو كانت وصلت إليَّ، كنت سأدقُّ عنقكِ الجميل قبل تلك الكف.»

سحبت يدها منه وهزَّت رأسها بمرارة قبل أن تستدير بتخبط وتفرَّ من أمامه هاربة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أسبل عمر عينيه محاولًا أن يداري الوجع: «أي وجع يا عمر؟ لقد اعتدته واعتادك، ومنذ متى جربتَ أي مشاعر غيره؟»

رفع هاتفه وهو يقول لأحد رجاله: «لقد خرجت، لا تتركها أبدًا إلى أن تراها تدلف إلى منزلها.»

كل عضلة في جسده كانت تئنُّ ألمًا، حتى أنه خشي أن ينقلب إلى جانبه الآخر تخوفًا من الوجع القادم، فتح عينيه بتشوُّش للحظات وهو يدرك أنه في غرفته وعلى فراشه الخاص، لا يتذكر متى وصل إلى هنا ولا كيف أتى، تحرَّك بصعوبة عندما أزعجه جرس الباب، وقف سائد متحاملًا لا يصدق أن تلك الليلة انتهت وتركته على قيد الحياة.

بينما يتحرك بحرص نحو باب الشقة كان عقله الذي لا يهمد يحلِّل ما حدث له، يبدو أنه وصل للمركز الرئيس بالفعل، وإلا ما الذي جعلهم يخاطرون ويكون رد فعلهم نحوه بكل هذا العنف والقسوة؟! بسبب سؤال سطحي تافه، لقد ذهب بنفسه ورفض أن يذهب عمر، خاطَرَ ليعرف من خلال رد فعلهم هل هو على الطريق الصحيح أم لا، ولكنه الآن يندم قليلًا لجعل طرف ثالث يشترك في مخططهم هو إبراهيم، بالطبع هو لم يكشف كل أوراقه أمامه ولم يخبره بأي معلومات صريحة، وصل سائد لباب الشقة، فتحه متوقعًا رؤية عمر أو إبراهيم، ولكن لدهشته وجد دجوى هي من تقف أمامه مرتبكة خائفة ومترددة، بدون كلمة واحدة فتح سائد باب الشقة على مصرعه سامحًا لها بأخذ الخطوة لتخطو إلى عرينه، من نفسها.

ابتلعت دجوى ريقها وهي ترفع يدها تزيح شعرها القصير بحلقاته الحلزونية خلف أذنيها وهي تقول:

«آسفة أزعجتك، ولكن لقد رأيت سيد عمر يغادر في الصباح الباكر، وإبراهيم تبعه بعد قليل، ففكرت أنك ربما تحتاج لشيء ما.»

تقدمها سائد إلى غرفة المعيشة وهو يقول بهدوء: «لا تحتاجين لتبرير دجوى، يمكن أن تقولي: إنكِ أردتِّ الاطمئنان عليَّ.»

أخفت دجوى رماد عينيها وهي تتذكر قلقها منذ الأمس، لم تستطع أن تنام بضع ساعات وهي تتذكر مظهره المدمى، قلبها تمزق لوعة عمَّا خمنته عبر جروح جسده القديمة، لقد حاولت أن تبقى معه ولكن عمر رفض، وأخبرها أن تذهب لشقتها ويمكنها أن تأتي بعد أن يستفيق، تذكرت كيف تكاتف إبراهيم وعمر لنقله إلى هنا وهو في حالة أشبه بالمُغَيَّب عن الوعي، أخيرًا استطاعت أن تقول بصوت مختنق: «نعم، أنا قلقت عليك بل ارتعبت، وأنا أتخيل كل الأسباب التي تجعل أحدهم يتعرض إليك هكذا.»

لم يردَّ بل انغلق على نفسه في عادة يتبعها عندما يريد، ولكن تلك النظرة نفسها التي يتأملها بها من الأمس جعلتها ترتبك، بل ويشحب وجهها عندما اقترب منها يخبرها: «ما الذي تحرَّك نحوي دجوى؟ هل هو عقلكِ الذي ما زال يعتبرني الشهم الذي ساعدكِ؟»

هزَّت رأسها وهي تبتلع ريقها الذي جفَّ، لم تستطع الرد بينما حاربت نفسها ألا تخبره: «ليت الأمر يخص العقل، إذًا لهان الأمر، لو أن عقلها هو المتحكم في مشاعرها نحوه كانت استطاعت أن تتبين السواد والغموض الذي يحوم حوله ففرت بعيدًا دون تردد، ولكنها تستطيع أخيرًا أن تعترف لنفسها تواجهها بقوة أن قلبها هو من يقودها نحوه، وإلا فما سرُّ انتفاضته بل وتقافز دقاته عندما تلمح مجرد طيفه؟! ما سر شعورها بالألم عندما ترى في سواد عينيه عذابًا متألمًا حائرًا؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وهو ما كان يؤرقه شيء آخر، ملمس يديها وهي تتبع جروحه بوجع صدر من كل جزء منها بذبذبات واضحة، ذكرته بيد أخرى من ماضٍ بعيد كانت تهتم أن تمنحه شيئًا يصبر قلبه ونفسه الضائعة، نفض عن عقله هذا الخاطر تمامًا ودون تردد كان يأخذ قرارًا من نوع آخر.

دجوى الأولى في سلسلة انتقامه يجب أن تكون الأولى، يجب أن يحصل منها على ما يريده قبل أن ...

قطع أفكاره وهو يقترب منها يخبرها مفاجأةً: «أنا ليس لديَّ أهل دجوى، تستطيعين القول: إني يتيم مثلكِ، تغربت خمسة عشر عامًا في إحدى البلاد الغربية، عملت وكدحت وتعبت جدًّا إلى أن استطعت أن أكوِّن ثروة صغيرة تؤمِّن المستقبل القادم؛ لذا أريد الاستقرار، من حقي أن أحصل على أسرة خاصة بي أخيرًا.»

كانت تخبره بحيرة شديدة: «لا أفهم، ما الذي تحاول قوله؟»

وصل لها صوته بعد لحظات صمت قصيرة قبل أن يسمح ليديه أن ترفع ذقنها إليه، ينظر لرماد عينيها الذابل وهو يقول: «أعني أنكِ تماثليني في الوحدة واليُتْم؛ لذا أريدكِ أن تُنهي ألمي كليًّا سريعًا ودون تردد.»

كانت كالمسحورة وهي تنظر لوجهه الذي رغم أنه مغطًّى ببعض الضمادات الطبية، لم تستطع أن تحجب تلك الصورة التي كانت تداعب أحلامها المراهقة والشابة، رجل غامض وسيم لافت للنظر ويبدو أنه يحبها حقًّا، هل تستطيع أن تأمل حتى؟

أتاها الجواب سريعًا جدًّا منه وهو يقول: «جازفي وتزوجيني دجوى، فأنا أحتاج لامرأة مثلكِ في حياتي، لا بل أحتاجكِ أنت بالتحديد ولن أقبل بسواكِ امرأتي.»

لمع رمادها لأول مرة منحته إجابته المرضية تمامًا، وقعت الحمقاء في شَرَكه بسهوله كفراشة غبية تجذبها النار فتندفع نحوها دون تعقُّل أو تمهُّل وتفكير، وهو لن يكون سائد إن لم يؤذها حقًّا ويجعلها تندم على اليوم الذي وُلِدَت به، ابتسم برضى وهو يربِّت على وجنتها، لقد أصبح قاب قوس أن يجعل بنت الأكابر عاهرته الخاصة.

ابتسامة حزينة كانت تزين الالتواء الساخر لفمه وهو ينظر أمامه لطبق المعجنات المتنوعة، طرفت عيناه قليلًا لأنواع الجبنة المتعددة الموضوعة أمامه، بينما عقله هناك أبعد ما يكون في ماضيه الكالح السواد و...

تبدلت ابتسامته لحنين، فرجع برأسه للخلف مغمض العينين وذهب إليها بأفكاره، ها هو يرى نفسه ببنطال قماش ممزق وقميص مشابه تعلوهما سترة صوفية كريهة الرائحة حصل عليها في أكوام القمامة، ولكن لا يهمُّ، فما حصل عليه من أجلها اليوم يُعَدُّ كنزًا وغنيمة ربما لن تتكرر أبدًا.

«آية»، همسها بصوت خافت من وراء أحد السيارات في أحد الشوارع العمومية التي أوقف فيها المعلم حماد حبيبته للتسول، فهو منذ أعلن حمايته لها وضمها أثناء ارتعابها عندما جاءت بها تلك المرأة إجرامية الملامح بشعة الوجه؛ فانصاع حماد على غير العادة، وهذا لسببين قد أدركهم هو الآن عندما أصبح ذئب المعلم حماد الرسمي منذ شهور مرت وهو لم يكمل عمره السابعة عشر، للحقيقة يُعَدُّ هذا في قوانين غابتهم إعجازًا.

التفتت له «آية» تمسح العرق بطرف معصمها المتسخ عن وجهها المحمر من قسوة شمس الصيف، وفور أن رأته؛ أشرقت ملامحها، اقترب منها سائد وعيناه تمشط ملامحها المرهقة وأخبرها: «لديَّ شيء لكِ، ولكن لن أستطيع منحه لكِ هنا، حسان يراقبنا.»

نَفَرَت ملامحها سريعًا، ولكن بسيطرة على مشاعرهم تدربوا عليها جيدًا من قِبَل حماد وأعوانه حتى يستطيعون أن يتحكموا في ردود أفعالهم أمام البشر الذين يستميلونهم من أجل القليل من المال، عادت آية للابتسام بشحوب وهي تُخبره: «سأتهرب منه وألحق بك إلى مكاننا.»

هزَّ رأسه وهو يقول: «سأنتظركِ وإن سألكِ هذا ... عن سبب مجيئي أخبريه أني أتيت لكِ بالمزيد من علَب المناديل الورقية.»

لم تنظر في أثره، بل عادت على الفور تجري بين السيارات المتوقفة في الإشارة تحاول بيع ما بين يديها، عيناها تذرف الدموع، صوتها يخرج متوسلًا بإذلال: «مناديل يا هانم، اشتري مني يا سعادة البيه، حن على يتيمة لم تذق الطعام منذ يومين.»

كالعادة يتجنبها بعضهم ويسبُّها بعضهم، وآخرون يعنفونها ويدفعونها بعيدًا حتى تقع على الأسفلت الحار فيتلهب جسدها الصغير وكفَّاها من أثر عنف الضربة والخدوش والشمس الحارقة.

رحماك يا رب، همستها آية بعذاب والقلب يبكي بحرقة وهي تشاهد مَنْ في عمرها يَرْتَدُون أحلى الثياب، وبالطبع يأكلون أحلى الأطعمة، وينامون ليلًا في أسرة حقيقية وسط لهفة أب وأم.

وقفت آية وعادت بحرقتها وبكائها للركض بين السيارات، ولكن هذه المرة لتضليل السافل حسان التي تبغضه وتكرهه.

تلاحقت أنفاسها وهي تتوقف أخيرًا لتهبط تحت أحد الكباري، وهناك عند ماسورة الصرف الكبيرة وجدته يجلس ينتظرها في مخبئهما السري، عيناه السوداوين شديدتا البأس منذ طفولته تلمع ببهجة حقيقية لكنزه الصغير، لم ينتبه جيدًا لدموعها التي أخفتها، بالطبع لقد تعوَّد أن يرى عينيها المحمرَّتين دائمًا تبكيان، سمعت صوته يخبرها: «اقتربي، لقد أتيت لكِ بعيش فينو ساخن وطازج، وبعض قطع الجبن، وأيضًا قطعة بسبوسة للتحلية.»

رجفة قوية من الامتنان والفرحة اجتاحت جسدها الصغير قبل أن تركض إلى ذراعيه المفتوحة تحتضنه بشدة تخبره بحزن احتل نبرتها وبدَّد سعادتها: «سائد، سيعاقبك المعلم إن علم كيف جازفت.»

أبعدها عنه ورفع طرف قميصه وبحث عن جزء نظيف به قبل أن يُجلسها بجانبه ينظف وجهها المعفَّر بالأتربة، وهو يقول بهدوء: «لا تقلقي أنا من رجاله الآن ومسموح لنا ببعض المميزات.»

توقف عن الحديث وهو يناولها غنيمته لتبدأ في تناول الطعام بنهم، لم يكن أبدًا نهمًا لشيء ستتذوقه لأول مرة، بل كان نهم جوع حقيقي علم أنه يقرص معدتها الخاوية، حاول أن يتجنب حزنهم الدائم وأخبرها مازحًا: «ثم مَنْ سيخبره؟! إنه سرنا الصغير، سندفنه هنا كالعديد منها.»

ابتسمت له مرتعشة ودموعها تنزل مدرارًا؛ فعبس بشدة وهو ينهرها قائلًا: «توقفي عن البكاء، لقد علموكِ هذه الأفعال من أجل أن تحنني قلوب الناس فقط.»

دفنت آية نفسها عنوةً في صدره وهي تخبره بصوت مرير: «ومَنْ أخبرك أنها دموع تماسيح أو استعطاف يا سائد؟ قد يعتقد الجميع أننا

نجيد البُكاء من أجل شحاذة بعض المال أو حتى الفتات، ولكنهم لا يعلمون - لا بل يغفلون - أنها دموع الألم والقلب والكسر والجوع والحرمان.»

أغلق جفناه بشدة وضمها إليه بتشدد مصدقًا على كل حرف نطقت به.

عاد من ذكراها وفتح جفنيه على اتساعهم، وقف بحدة من كرسيه وقد فقد شهيته لكل شيء، همس بأنين قلب مليء بالندوب: «أتظنين أني كنت غافلًا عن وجعكِ وألمكِ وعيناكِ المقهورة وهي تنظر لكل المارة لعلكِ تجدين وجه والدكِ الذي خطفوكِ منه لعله ينتشلكِ، كنت أعلم حبيبتي، ولكن لم يكن وقتها باليد حيلة لأنتشلكِ من مستنقعنا.»

فتح سائد باب شقته وهو يُدخِل ذراعيه في سترته عندما أتاه صوت عمر يقول بخشونة: «كيف أوقعوا بك؟!»

سمح له بالدخول وهو يُعدل ملابسه ليسوي أكمام السترة، قبل أن يقول بهدوء: «وإذا اكتشفوا شيئًا وتمكنوا مني كنت ما زلت أمامك يا عمر.»

أومأ عمر برأسه برد فعل ليقول بعدها: «المعركة كانت عنيفة يا سائد وأنت ذهبتَ لأحد أوكارهم، إذًا ما الذي حدث بالضبط؟»

حرك سائد رقبته بالترافق مع تحريك كتفيه لأعلى وأسفل، قبل أن يقول بطرفة سخيفة: «لقد حطموا وجهي تمامًا، كأنه يحتاج للمزيد من العبوس.»

رغمًا عن أنف عمر ابتسم للكوميديا السوداء، التي تحتل روح سائد من وقت لآخر على فترات متباعدة، ثم ما لبث أن أردف: «لا تقلق يا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عمر كل خطوة كان مرتب لها، أنا قصدت أن أثير ريبتهم عندما ذهبت لأحد أوكارهم، والأهم لديَّ أني حصلت على ما أريده، أما عن ضربي فكان متوقعًا، ولكن يبدو أن البلطجية الذين يحمون المكان تحركوا بعشوائية فجاء أربعة منهم يهاجموني متعشمين في إخافتي؛ ظنًّا أنهم بهذا سيستطيعون التكتم عن زلَّة لسان أحدهم.»

أطلق عمر زفرة مرتاحة أخيرًا وهو يقول بجدية: «إذًا لا مشكلة، سأكمل أنا في مساري.»

هز سائد رأسه بتأكيد، ثم قال معلقًا وهو يتحسس الجرح الغائر على وجهه: «نعم، أنت أَكْمِلْ في طريق الشوكة والسكينة واترك لي أنا السنج والشوم والمطاوي.»

امتعض عمر وهو يخبره: «كان هذا تخطيطك منذ البداية، لا تتذمر الآن، كلانا يعرف دوره ولكني بدأت أشعر بالشفقة على ملامح إبراهيم.»

ابتسم سائد وهو يقول: كلما تذكرت ملامح الرجل عندما شاهدني بعدما استطعت الهرب من المعتدين، وأصِل للسيارة التي كانت تقف بعيد جدًّا عن ذلك الحي، حقًّا نظرة الجهل مع الحنق التي ارتسمت طواعية تثير الضحك.»

بلا مبالاة ظاهرية قال عمر: «وما الذي منعك لتضحك؟ ولِمَ لا توفر تلك الشفقة لمن تستحقها حقيقة منك؟»

النظرة التي منحها له سائد مع التفاتة عنيفة محذِّرة؛ جعلت عمر يتنهَّد بتعب ويصمت ربما لن يفعل شيئًا ليوقفه، ولكنه بالتأكيد لن يشارك في اللعبة.

منذ أن خصص له فهمي النجار إحدى الغرف في مشفاه وهو يلتزم المراوغة التامة، يرسم وجهًا هادئًا عمليًّا تمامًا ولا يسأل إلا عمًّا يخص جانبه من الصفقة التي استطاع هو وسائد إغراء الرجل بها عبر مراسلته من الخارج منذ عام مضى، فالرجل رغم قذارته وذكائه إلا أن الجشع أعماه عن البحث وراءه، أو ربما سأل عنهم بالفعل ولكن خطواتهم المنظمة منحت الرجل المعلومات التي يريدونها.

خرج عمر من مكتبه ليتفقد المشفى وغرفه الفارهة، المشفى الذي يبدو للجميع مكانًا للرحمة والعلاج، ولكنه استطاع أن يجمع بعض المعلومات؛ منها أنها بالنسبة لهم (نقل الأعضاء البشرية للوافدين من دول أخرى أو حتى من نفس دولتهم والتي تخص الأغنياء فقط، وبالطبع لا أحد يسأل من أين تأتي هذه الغيارات البشرية، ما يهمُّ أنها نظيفة وآمنة، أيًّا كان المصدر طالما أنهم سيمنحون عمرًا آخر وفرصة أخرى فليحترق الجميع).

توحشت ملامحه للحظة واحدة ليعاود السيطرة عليها بمهارة عندما استوقفته سمر مديرة مكتب فهمي النجار تخبره بدلال: «أي مساعدة سيد عمر، نحن في خدمتك.»

بلهجة صارمة أخبرها عمر: «هل ستتبعينني كثيرًا؟ لست طفلًا يحتاج لعونكِ، ما أريده سأحصل عليه بنفسي.»

عادت سمر تقول بنبرة خافتة ناعمة وعيناها الفجة تتفحصه بدعوة صريحة للإعجاب: «أنا أريد مساعدتك فقط، أنت هنا كما أعلم شريك بالتوريدات الجديدة للمشفى من مستلزمات طبية، وأعرف أنك تريد أن تطمئن على مال شركتك؛ لذا بالتأكيد أنت لن تستوعب كل شيء يدور بالمشفى.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قاطعها بهدوء وهو يقول ببساطة متلاعبة: «أحوالكم الطبية وما يدور لا تعنيني، ولكن بالتأكيد أريد أن أعلم مدى رضى المرضى عندكم وكم عددهم، نحن لن نرمي أموالنا هباءً.»

امتُقِعَ وجه سمر كليًّا وتلجلجت في الحديث، فتأكد أن كلامه وصل الهدف مباشرةً: «العدد ليس محددًا سيد عمر، كما أن الأجهزة التي توردها بالتأكيد ليس لها علاقة بالمرضى المتواجدين.»

ابتسم عمر بانتصار لذلة المرأة، فدون أن تدري اعترفت ضمنيًّا بما يشك فيه منذ البداية، إذ إن أرباح المشفى العالية بشكل غير معقول، لن تأتي من مجرد حالات ولادة أو عمليات زائدة، بل النشاط الموازي لهم.»

ابتسامته جعلت سمر تتصبَّب عرقًا بشكل ملحوظ والتوتر يعتريها مما قالته، تركها عمر دون المزيد من التعليقات وأخبرها: «لقد تذكرت شيئًا أهم الآن، سأتفقد المشفى في وقت لاحق، إلى اللقاء يا سمر الجميلة.»

التعليق المجامل جعل الأنثى بداخلها تعود للابتسام المتغنج في وجهه، فضربت معدته بالنفور وغادر متصلب الملامح.

يعلم أن ملامحه جذابة بشكل ملعون، فحتى أطفال الشوارع من الذكور لم يُرّحموا من الاستغلال يومًا، ربما هو حاقد على جنس حواء بشدة، ولكن لم يكن السبب فقط تلك المرأة الخاطئة التي تركته في أكوام القمامة، ولكن كل امرأة غانية استغلته مقابل بضعة جنيهات، اقشعرَّ جسد عمر بتزايد كريه وهو يتذكر يومًا ما كان في الثانية عشرة من عمره مجرد طفل شوارع عفن الملابس والرائحة نائمًا على أحد الأرصفة، فوقفت بجانبه سيارة صفراء اللون مماثلة تمامًا للمرأة التي تقودها، لم تأخذ الكثير من الوقت لتقنعه بالصعود معها مقابل وجبة دسمة ستمنحها له، وبمعدة طفل جائع، وعقل فتى لم يدرك سبب هذا العطف

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وقع فريسة لأنثى تماثل الحشرات قذارة، جردته من ملابسه بالكرسي الخلفي للسيارة، وأفرغت فيه كل نجاستها وأدخلته عالمًا ربما كان يسمع عنه بفجاجة بسبب تلك الغابة التي نشأ فيها، ولكنه لم يقترب منه قط، ومن هنا كانت البداية فأصبح كحيوان صغير لا يشبع كلما احتك جسده بإحداهنَّ يمارس معها.

سيطر على موجة قيء بصعوبة، وهو يهمس بألم متذكرًا وجهًا ملائكيًّا طاهرًا نظيفًا: «تبًّا رابحة، لقد غصتُ في الوحل كما لن يتخيل عقلكِ البريء يومًا، ولكني أبدًا لم أقترب من أنثى طاهرة وألوثها بي، بل النجسات فقط ممن يُرِدْنَ الرذيلة مَنْ أحقق لهنَّ مبتغاهنَّ.»

«أرسِلي لي العنوان من فضلكِ، وسأحضر في الموعد.»

رسالة نصية بسيطة أرسلتها رابحة، بعد بحث مضنٍ قامت به لتحصل على وظيفة جيدة براتب محترم، لتستطيع أن تسدَّ الفجوة التي ستحدث بعد أن تركت العمل في شركة عمر، عمر اسم حروفه سهلة وتذكرها جلب الأنين والحنين والوجع، لقد كسر قلبها حرفيًّا بفعلته وبكلامه البشع وبعرضه المنحط؛ ليجعلها تتساءل: مَنْ عمر حقيقة؟ وهل فعلًا عقلها الأحمق منحها الصورة الخاطئة عنه؟ دون إرادة منها عادت دموعها للتدفق، لمَ قطع عليهم بأحكامه القاطعة وفجاجة عرضه بأن لا شيء من الممكن أن يكون بينهم؟ ربما وقتها صدَّقته من الصدمة، ولكن قلبها الأحمق كما لقبه منحه العذر، بل أجزم أنه كان يُبعدها عنه، يجافيها متعمدًا وإلا ما قام بإغوائها من البداية، عادت تهمس بأنين متحشرج: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ربِّ لا تحملني ما لا طاقة لي به، الطف بي يا رب.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

خرج صوتها عاليًا قليلًا لعين قصيٍّ التي لا تتركها، يعلم أن حزن أخته وتركها للعمل بصورة مفاجئة وراءه سر كبير حتى عمر أصبح لا يتلقى أيًّا من مكالماته، سمع صوت حاسوب رابحة يعلن عن وصول رسالة لم يستطع بالطبع أن يعرف فحواها فاقترب بحرص يلتقط الحروف البسيطة المتراصة: «مرحبًا آنسة رابحة، سعيد لموافقتكِ وكما أخبرتكِ أول مرتب ستحصلين عليه فور أن تقومي بإمضاء عقد العمل، ومكان المقابلة لتطمئني في «مول ....» في المدينة الجديدة، والموعد غدًا في الرابعة، سيكون هناك تجمُّع أمام «محل ....» لأن هناك فتيات مثلكِ سيأتين للعمل، وبعدها سنبلغكنَّ بالمقر العام للشركة.»

لم يستطع قصيٌّ مقاومة موجة الرعب التي انتابته فهتف بحدة: «رابحة، هل جُننْتِ موقع عمل من الإنترنت؟! أنت لن تذهبين.»

كفكفت رابحة دمعها سريعًا، ثم استدارت لقصيٍّ بهدوء تخبره: «قصيُّ، ماذا هناك؟ كيف تتجسس عليَّ؟! ولِمَ لا أذهب؟ إنه طريقة عرض للوظائف جديدة لا أكثر.»

أخذ قصيٌّ نفسًا عميقًا قبل أن يقول بحدة: «أي عرض بحق اللّٰه؟ هل أنت صغيرة غِرَّة لا تفهم تلك الألاعيب المبتكرة؟ ألم تقرأي أي منشورات محذرة على موقع التواصل الاجتماعي عن طرق خطف الفتيات؟»

لم تكن رابحة في حالة نفسية تسمح لها بالمجادلة فشوَّحت بيديها وهي تقول بعصبية: «قصيُّ، كُفَّ عن خيالاتك، تلك المنشورات ما هي إلا نظام جلب الأنظار لا أكثر، الشركة محترمة ولها اسم ووزن في السوق، كما أن الناس حريصون، وأول مقابلة في مكان عام.»

قَطَّبَ قصيٌّ وهو ينظر لها حائرًا يعلم كيفية تفكير عقلية رابحة المندفعة والتي تسعى للوصول بأي طريقة لمال يريحهم هو وأمه المريضة

من أجل توفير العلاج، تنهَّد قائلًا وهو ينحني ويمسك بكفَّيها: «رابحة أرجوكِ لا تذهبي، اكتفي بتلك الوظيفة كعاملة في محل الملابس، وأنا سأبحث عن أي وظيفة بعد المدرسة وسنتعاون حبيبتي، ولكن لا تفعلي شيئًا نندم عليه، أنا قلق عليكِ.»

عادت دموع رابحة تملأ عينيها وهي تمسك وجه قصيٍّ بحنان، التغير الكبير الذي طرأ على أخيها يُدهشها، ماذا فعل به الآخر ليجعل حبيبها الصغير يعود كما كان عليه قبل أن يَحْرِفَه به رفقاء السوء؟

أخبرته برتابة: «لن أرفض أن تعمل لتساعد نفسك، وأعلم أنك تحتاج أن تخرج من القوقعة التي أُدْخِلْتَ فيها رغمًا عنك، ولكن أريدك أن تطمئن أنا أحتاج لتلك الوظيفة حاجة نفسية أكثر منها مالية، لقد بحثت عن موقعهم، ورأيت العديد ممن يثنون عليهم، كما أني لست الفتاة الوحيدة التي ستذهب؛ لذا كن مطمئنًّا.»

لم يعلق قُصَيٌّ بشيء، يعلم أنه مهما قال أو فعل لن تنصاع له أبدًا، ربما هو يبالغ في قلقه سيتركها تفعل ما تريده، ولكنه لن يسمح لها بأن تغيب عن نظره.

كان سائد يجلس على ناصية ذلك المطعم أمام مقر شركته يتلاعب بشوكته دون أن يمسَّ الطعام الراقي الذي أمامه، والذي ترك اختياره لدجوى.

قطعت دجوى شروده وهي تقول بتوتر: «لم ينل إعجابك على ما يبدو؛ لذا أخبرتك أني لا أجيد الاختيار.»

رفع سائد رأسه سريعًا ينظر لها قبل أن يقول بنبرة فجَّة غير مفهومة

المعاني: «نعم دجوى، هذا ما عرفته عنكِ، أنت لا تجيدين اختيار أي شيء.»

جفلت دجوى للحظات من ردِّه الفج، وبهتت ابتسامتها وارتعش جانب فكها وهي تقول بنبرة متحشرجة: «أنا آسفة، لم أتعود اختيار شيء لأحد أو حتى لنفسي، كانت والدتي هي من تدير حياتي و...»

تبدَّل صوتها لنبرة حزن عميقة، وشيء آخر مبهم وهي تقول بخفوت: «وأبي أيضًا، كنت وحيدته ومدللته التي حصل عليها بعد عذاب؛ لذا كان يدللني أكثر من اللازم».

مر بريق خاطف مرعب في عينيه عند ذكر والدها أثار تعجبها قبل أن يقول ببساطة: «ولكن كما علمت منكِ، أنك خسرتِ كل شيء منذ خمس سنوات، وكما أرى ما زلتِ صامدة، لم تنهاري وهذا لا يُنبئ أبدًا عن شخصية مدللة أو ضعيفة دجوى؟»

شردت عينا دجوى والصمت لفَّها كليًّا، بَدَتْ بعيدة كل البعد عن تلك الشخصية الهادئة الحزينة، بل تلك المشاعر التي تعاقبت متضامنة على وجهها، جعلت العجب يتسلل إليه هذه المرة، نفور ووجع وإحباط وعدم تصديق لم يعرف موجهًا لمن، ثم ما لبثت أن قطعت الصمت أخيرًا قائلة بوجوم: «لا شيء يبقى على حاله يا سائد، الحياة قاسية عنيفة، وبعض الحقائق التي تكشَّفت جعلت جزءًا منك لم تعرف بوجوده وهو مختفٍ ومندثر بداخلك يسارع للخروج، يغرز مخالبه في أي شيء كرد فعل تلقائي لحمايتك من ضعف نفسك أولًا قبل غيلان البشر التي تسارع للتفاوض ونهش لحمك؛ لذا رغم كل الترف والدلال الذي كنت فيه خرج جزئي الخفي يدفعني للاستمرار دون أن أسقط.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لا يعلم ما سر تلك الموجة من النصر التي اجتاحته، لمعت عيناه السوداوين وهو ينظر لتوهج الرماد في عينيها، هذا ما يريده تحديدًا منها، القوة المقاومة، كره الحضيض الذي سيغرقها به، في الواقع هو لا يريد أبدًا لطعم انتقامه أن يخفت سريعًا عندما تنهار من أول صفعة أو ثانيها، بل يريدها شرسة تقاومه، تجابهه حتى يستنفدها لآخر قطرة، وعندها فقط سيشعر أنه لم يتحامل على نفسه ليتواصل معها وأنه يستحق، طعم النصر والانتقام لا يشبع الروح إلا عندما تكون الفريسة وحشَ غابة مثله، ولكن لِمَ يشعر أن ابنة غسان الهاشم تخفي أكثر مما تظهر؟

«وتَّرها بنظراته، تعاقبت مشاعره الخفية والتي لا تستطيع أن تفسرها أبدًا، ما زال سائد بالنسبة لها منطقة رغم أمانها ولكنها مبهمة، ومخيفة إن تجرأت وتطرفت للتفكير فيها، للحقيقة سائد منذ أن عرض عليها الزواج لم يمنحها حتى الفرصة للتفكير، بل أخذها على حين غِرَّة، يسابق الزمن لإنجاز كل شيء ليكون زفافهم في أقرب فرصة، بالطبع لم يقوموا بخطبة، بل منحها مبلغًا جيدًا من المال وأخبرها أن تشتري ما تريد «كشبكة لها وبعض مستلزمات الزواج»، سمعت صوته يخبرها بصرامة تعوَّدت على سماعها منه: «أنهي طَعَامِك، ما زال لديكِ الكثير من العمل، والتجهيز للزفاف بعد يومين.»

تورَّد وجه دجوى ورأسها ينخفض تنظر ليدها التي تشابكت بتوتر من تحت المائدة فانسدل شعرها الأسود القصير يغطي ملامحها وهي تقول بخفوت: «لقد أنهيت شراء كل ما أحتاجه بالأمس.»

أحسَّت بيديه تمسك بطرف ذقنها، رفع وجهها إليه لتواجهه وهو يقول

مداعبًا يتلاعب على أوتار أنوثتها: «لا أريد أن ينقصكِ شيء دجوى أي شيء، بل أريدكِ أن تحصلين على كل شيء مضاعف.»

ابتسمت وهي تهز رأسها بالإيجاب، تمتمت بهمس ناعم شاكرة إياه، لمح دموع تغرق عيناها فناظَرَهَا مرغمًا وهو يقول بخفوت: «كيف غفل أي رجل عنكِ دجوى ولم يُقْدِمْ على الارتباط بكِ حتى الآن؟! أنت جميلة جدًّا.»

عَضَّت دجوى على شفتيها برقة وفتحت فمها تنوي أن ترد، ولكن قاطعها وجهه الذي تصلب في الحال وهو ينتفض من مجلسه ينظر لشيء خارج المكان الذي يجلسان به، سمعته يقول وهو يتحرك سريعًا من جانبها: «ابقي هنا لا تتحركين.»

هزت دجوى رأسها موافقة وهي تراقبه يقطع السلالم الأربعة التي ترفع المطعم عن الشارع، ثم يتوجه إلى امرأة تهرول هنا وهناك صارخةً بألم يُمزق قلوب كل من يسمعها: «ابنتي، ابنتي سلمى يا عالم، كانت معي كنت أتشبث بها في يدي.»

تصرخ المرأة والجموع تحتشد حولها، بعضهم عاجز عن فعل شيء، والبعض يضرب كفًّا بكفٍّ محتسبًا داعيًا لها بإيجادها، والبعض الآخر يتهمها بالإهمال، والمجموعة الأكبر تبحث هنا وهناك لعلهم يجدونها، تقدَّم سائد من تلك المرأة بهدوء غريب وسألها مباشرةً مختصرًا مقتضبًا: «متى اختفت الفتاة تحديدًا؟ وأين بالضبط؟ فهذا سيفيدنا لتحديد خطواتنا.» رمشت المرأة بعينيها تحاول استيعاب ما يقول، ثم هتفت بتوسل متضرع عشوائي:

«هنا، فقدتها هنا، لا أعرف متى، فقط كنا نسير أنا وهي أتمسك بها جيدًا وفجأة ظهر أحد السمجين وقام بالتحرش بي حتى استفزَّني،

وعندما نهرته لفعلته وقف في الشارع وافتعل شجارًا معي، وتجمَّع أناس كُثر، ثم اختفى هو مرة واحدة وعندما التفتُّ لم أجدها.»

تبدلت ملامح سائد كليًا في لحظة، وأخذ وجهه في الشحوب حتى أصبح كلوح أبيض من الرخام، ورغم سيطرته على أعصابه وجموده ولكنه لم يستطع منع شعوره بتلك الغُصَّة التي زادت ضغطًا على قلبه كشفرة سكين حاد تنحره نحرًا: «تبًّا، لقد خُطِفَت الفتاة بحيلة جديدة مدبرة، مَنْ يلوم ومن يُتَّهم، لقد أصبح وحوش البشر بارعين في اصطياد فرائسهم.

وعلى صعيد آخر كانت حمقاء أخرى تتوجَّه لفخ غزلته بيديها لتوقِعَ نفسها في شبكة عنكبوت جيدة الإحكام والجذب، كانت رابحة في طريقها إلى المكان المتفق عليه، تقطع خطواتها في المول الضخم سريعًا تبحث عن اسم المكان الذي مُنِحَ لها، علَّها تجد ذلك التجمع الذي أشاروا إليه، لم تأخذ الكثير من الوقت وهي تهتف بسعادة إنجازها عندما وجدتهم كما وصفوا أنفسهم بالضبط، اقتربت من التجمع الصغير رجل بملامح وبسمة ناعمة وتجاوره فتاة شديدة الأناقة تضم بعض الملفات على صدرها، مظهرهم شديد الترف والنزاهة، وهناك أيضًا فتاتان أخرتان يبدو أنهنَّ أتين لنفس أسبابها، فور أن تقدمت رابحة من الرجل، تُعَرِّف عن نفسها منحتها المرأة استمارة وأخبرتها: «آنسة رابحة، استريحي على هذا المقعد وضعي بياناتك.»

سحبت الأوراق بحماس وجلست كما أخبروها وانهمكت تملأ الفراغات، وبعد دقائق قليلة لم تعلم تحديدًا سر الهرج والمرج الذي قَلَبَ المول كله في لحظة، البعض يثير شجارًا والبعض يقدِّم أغنية ارتجالية،

وآخرون يشتبكون مع بعضهم، واقترب منها من الخلف واحدٌ آخر وقبل أن تلتفت أو تُبدي رد فعل، ثم كان لا شيء.

«ما الذي تقوله يا غبي؟ لقد أمرتك أن تكون تحت مراقبتك كل لحظة.»

هتفها عمر بعصبية فاقدًا كل أعصابه بوجه جامد استحال للسواد والرعب، رعب لم يشعر به عمر قط منذ أن أجبروه على إدمان المخدرات، ثم وقوفه على شفا حفرة من الموت أو القتل، رعب لم يستشعره أبدًا رغم استخدامه ككبش فداء في توزيعها حتى بعد علاجه من آثار إدمانها، ورعب آخر لم يشعر به وهو يراقب آية على ذلك السرير القذر، وهم يتعدون عليها ثم يخرجون، توقف عقل عمر عن التذكر يبتلع ريقه بارتياب، ونظراته تتوحَّش مع ضيق عينيه والتواء فمه بقسوة، ودون تردد كان يهرع إلى الخارج متوجهًا إلى المكان الذي أخبره عن حارسه، وقال: إنه فقد رابحة فيه، لم يصل عمر إلى باب المقر، ولمح سائد يهبط من سيارته بوجه غير مفسر تمامًا، لم يهتم ولأول مرة لم يهتم بما يشعر سائد هذه اللحظة، أن تضحي بروحك النقية التي وجدتها محض صدفة من أجل ألا تلوثها ثم ببساطة هكذا يأخذونها منك، أمر يفوق احتماله واحتمال أي بشر، لم يكد يصل إلى سيارته تحت هتاف سائد الصارم باسمه إلا وعاجلته على غفلة منه، لكمة في منتصف وجهه ربما لم تسبِّب له الضرر ولكن مَنْ وجهها كان غاضبًا ثائرًا ومرتعبًا، توقَّف المشهد بهم على الفور لم يجرؤ أحد على الاقتراب من الفتى أو التحدث والاعتراض على تعديه، بل قطعه مهاجمه بنفسه يضربه على صدره بوحشية وتخبط، وقد بدا فاقدًا لسيطرته يصرخ بفجيعته: «اللعنة عليكَ، أنت السبب، أنت

مَنْ تخليت عنا، أنا أخبرتها ألا تذهب وهي لم تستمع لي كعادتها، لقد رأيتهم يخرجون بها من باب خلفي مخدرة يا عمر أخذوها ولم أستطع فعل شيء.»

ثبته عمر بجمود وبآلية ثم قام بآخر أمر كان يتوقعه يومًا، احتضن قصيًّا بشدة ودون أي تصريح كان يخبره مباشرةً: «سأجدها، حتى لو هدمت كل جحورهم وأزلتها بيدي حجرًا حجرًا سأعثر عليها.»

بهدوء مسيطر كان سائد يستجوب قُصَيًّا عن كل ما رآه تفصيلًا منذ خروج رابحة حتى وصوله إلى هنا، قلب قصيٌّ عينيه بين عمر الواقف بجمود على باب غرفة الاستراحة أسفل الشركة، ثم عاد لسائد الذي يراه لأول مرة رجلًا ضخم الجثة، يتفوق عن عمر طولًا وقوة جسمانية ملحوظة، وجوه مخيفة وصوته صارم حازم يجبرك على السيطرة على ذاتك تلقائيًّا، لم يجبه قُصيٌّ الرجل لا يماثل عمر الطيب أبدًا، ابتلع قُصيٌّ ريقه الجاف قبل أن يجيبه على آخر أسئلته:

«كما أخبرتك عندما صمتت على الموضوع، لم أرتح تمامًا للطريقة؛ لأني قرأت حوادث مشابهة على الإنترنت تختفي بعدها الفتاة تمامًا؛ لذا أخذت قراري باتباعها، استَعَرْتُ العجلة البخارية من أحد أبناء الحارة وتتبعتها، وعندها حدث الهرج الذي من الواضح أنه مفتعل، كنت قريبًا منها جدًّا فرأيت ثلاثة رجال متضامنين يكتمون أنفاس الفتيات، ثم يسحبوهنَّ إلى داخل أحد محلات الملابس التي كانت مكان اللقاء، خرجت مهرولًا أحاول أن أعرف موقعه من الخارج ولم يتأخروا كثيرًا إذا فُتِحَ أحد الأبواب الجرارة وخرجت منها عربة معتمة فاتبعتهم من بعيد، ثم أتيت إليه.»

أنهى حديثه وهو يشير إلى عمر، فاقترب منه سائد وخبط على كتفه وهو يقول: «خيرًا فعلت يا بطل، وحدك كنت ستصبح مجرد فريسة أخرى، والآن سنتحرك جميعًا ولكن سنعتمد عليك لنعرف المكان.»

هنا تدخَّل إبراهيم وهو يخبر سائد بقوة: «سيد سائد، هذه الأمور لا تتم هكذا، يجب أن نبلغ الشرطة.»

تحرك سائد ناحية بعض الأدوات الموضوعة على طاولة، فخلع ملابسه الفخمة برتابة ثم ارتدى بنطالًا ممزقًا من الجينز يعلوه قميص أسود لا يغلق منه إلا زرين، ثم التقط سلسلة حديدية «جنزير» ولفَّها على يده بشكل أثار تعجب إبراهيم وحسه الشرطي، ثم ما لبث أن قال سائد وهو يحرك فمه لأعلى ويسحب نفسًا قويًّا: «في قانون الغابة، لا أحكام لوحوشها، لن ننتظر بشريًّا ليأتي بحقوقنا، البقاء للمفترس الذي يربح ويسترجع أملاكه بيديه، وإلا سنصبح جميعًا أسرى لدى بشري لا يملك رحمة ولا عدلًا.»

للحظات تملكت إبراهيم الدهشة من كلمات سائد الفاصلة، حاول مجادلته ورفض طريقته، ولكنه صمت عندما راقب عمر يحذو حذوه ويتبعه رجاله.

ترجَّل عمر - يتبعه سائد وإبراهيم - من سيارة الدفع الرباعية الخاصة، التي جاءوا بها يتبعون الطريق الذي وصفه قصيٌّ عندما تتبع الخاطفين من بعيد، توقفت السيارة على بُعْد، كان الظلام قد خيَّم على تحركهم البطيء المتخفي يتتبعون بعضهم في خط مستقيم بانتظام، استطاع إبراهيم بنظرة عسكرية بسيطة أن يتفحص المكان بعين ثاقبة عندما قال: «النقطة الجيدة لنا أن ذلك المنزل من دور واحد، نستطيع تسلق جدرانه بسهولة.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قيَّم سائد ما قاله إبراهيم وهو ينظر للمنزل الصغير وسط منطقة مهجورة على أطراف العاصمة، يبدو أن العصابة لا تهتم كثيرًا بمراعاته، بل ربما هو مجرد مرحلة حتى تُنَقَلَ بضاعتهم لمكان أفضل.

همس سائد لرجاله بحزم مخططًا: «النقطة الجيدة أيضًا أنه لا يتواجد كثير من الحرس، مجرد اثنان من السهل السيطرة عليهم، ولكن حتى نصل بالداخل يجب أن نحسب كل خطوة نخطوها؛ لأننا بالتأكيد لا نعرف ماذا ينتظرنا.»

تدخَّل إبراهيم: «مسموح لنا بالتعامل بالأعيرة النارية التي تؤذي ولا تقتل.»

عندها فقط تدخَّل عمر وهو يقول بوجه شرس عنيف: «لو أن أحدهم مسها بالأذى سأمزقه بأسناني، ولن يتدخل أحدكم في الأمر.»

نظر إليه سائد بوجه بارد متباعد غير متعاطف إطلاقًا، فشعر عمر بالغضب يعتريه، ألا يكفيه الجحيم الذي يكاد يأكل جزءًا من روحه وهو يتخيل رابحة وحيدة مرتعبة باكية ضعيفة بصحبة مجهولي الهوية الذين تسببوا بخطفها، فعلى ماذا نظرة اللوم هذه؟ إنه أبعدها عنهم وأطلق سراحها قبل أن يطولها جحيمهم، ولكنه لم يحسب حسابًا للخطر الحقيقي والوحوش المتربصة بها وبمن مثلها، أخرج عمر مسدسه، والذي تحصَّل عليه بعد أن عاد إلى البلاد منذ ما يقارب عامًا، شدَّ أجزاءه وتأهَّب لمعركته، وقبل أن يوزعوا تحركاتهم كان يلتفت لقصيٍّ بصرامة يخبره بنبرة قاطعة لم تقبل الجدال: «عُدّ أنت للسيارة تخفَّى خلفها، وإن حدث أي مكروه يجب أن تجد وسيلة للنجاة والعودة لصفية.»

جز قصيٌّ على أسنانه وهو يخبره معاندًا: «لن أترككم، أنت تهدر وقتك، لم آت إلى هنا لأراقب غيري ينقذ أختي.»

تدخَّل صوت سائد قائلًا بإيجاز: «اتركه لا وقت للجدال.»

وعندها كانت إشارة البدء، بحركات سريعة كان ثلاثتهم يأخذون كلٌّ منهم موقعه، تبع كل فرد منهم رجل من الرجال يقسمون أنفسهم لثلاث مجموعات كل مجموعة مكونة من اثنان، ببطء كان سائد يقترب من الحارس الأول، وبطريقة عشوائية تمتزج بأعلى الطرق القتالية مهارة كان يلفُّ ذلك الجنزير على يده بطرف، ثم بالطرف الآخر يلقيه على الرجل بحِرَفية كان يعلم جيدًا أين يضرب ضربته المتوحشة، وخلال دقيقة واحدة كان الرجل مُلْقًى على الأرض غارقًا في دمائه.

أما إبراهيم فكان تعامله حِرَفي مدرب بحت بحكم عمله في القوات الخاصة قبل أن يصاب ويترك الخدمة العسكرية، وهذا ما لم يعرفه سائد وعمر أو ربما يعرفان، ولا يتحدث أحدهم إلا في الوقت المناسب كما تعوَّد، رغم تركيزه الجلل على ساحة معركتهم، ولكنه لم يستطع أن يتجنب طريقة الرجلين في القتال والتي تفصح بالكثير، وكأنهم عاشوا نصف حياتهم كبلطجية، ثم طوَّرا من مهارتهم القتالية.

استفاقت رابحة لتجد نفسها في غرفة مطلية بلون رمادي، أو ربما لا توجد الألوان من الأساس، بل مجرد غرفة قذرة عفنة الرائحة باهتة وأرض متسخة، فتحت عيناها برعب وقلب وجِل أخذ في التسارع بشكل مجنون، وجدت بجانبها فتاة أخرى، ولكن ليست ممن رأتهم في المول، اقتربت الفتاة من رابحة تخبرها هامسةً بأنفاس ثقيلة ونظرات شاردة تمنحها شيئًا ما وهي تقول: «شوِّهي أي جزء من وجهكِ في الحال، احرصي أن يكون جرحًا غائرًا.»

ابيضَّ وجه رابحة وهربت منها الدماء وهي تقول بذعر: «ماذا تقولين؟»

تحشرج صوت الفتاة الهامسة وهي تشير لوجنتها التي تنزف الدماء تخبرها بتلاحق: «لا تسألي، لقد وقعنا في أيدي تجار الرقيق الأبيض يتاجرون بنا بعد أن يُحْكِموا الفخ لإيقاعنا، وتشويه نفسك هكذا تُتلفين بضاعتهم.»

كانت دموع رابحة تُغرق وجهها وعقلها المشوش لا يستوعب ما يحدث حولها: «إنه مجرد كابوس، ما تحياه مجرد حلم سيئ، هلوسات ليس لها معنى، احتضنت نفسها بذراعيها تهز جسدها بالترافق مع رأسها وهي تهمس بفزع: «مجرد حلم ستفيقين الآن، هذا لا يمكن أن يحدث، مستحيل، أنت آمنة والخطر بعيد عنكِ.»

أشفقت الفتاة عليها، فقالت بنبرة متوجعة منحورة مهانة: «كنت مثلكِ أول مرة لم أصدق إلى أن تم بيعي، وحظي كان في أحد الأثرياء القذرين الشواذ في هذا البلد، وعندما ملَّ مني أعادني إليهم ليستبدلني بأخرى.»

صمتت الفتاة، ثم قالت أمره بسيطرة: «أيًّا ما كان سيحدث لنا معهم موت وخسارة، ولكن لا شيء أبدًا يماثل أن تموتين وأنتِ مغتصبة وتُنْتَهَكي وتُبَاعي في سوق النخاسة؛ لذا الاختيار الآخر هو الحل.»

كانت رابحة تشعر بالفزع الجزع والرعب حتى تحوَّل جسدها لكتلة جليدية شديدة البرود عندما قالت برهبة: «أي اختيار آخر؟!»

اهتزت عضلة واحدة في فم الفتاة لكنها لم تَرُدَّ، بدت كأنها فقدت حتى الأحاسيس البشرية، أصبحت مجرد لوحة جميلة خالية الروح، مقتولة النظرات، مستسلمة تمامًا ليدها التي تحفر في وجهها بالأداة

الحادة دون أن يَرفَّ لها جفن، انتهت أنفاس رابحة حرفيًا، تستنشق الهواء بصعوبة كأَن الغرفة لم يعد بها أوكسجين كافٍ، أزاحت عينيها بصعوبة عن الفتاة الميتة وهي على قيد الحياة، ليلفت نظرها جسدًا صغيرًا بفستان وردي مبهرج ينكمش في ركن من الحائط، فلم تستطع أن تتبينه في ظلام الغرفة حينما كانت تتحدث مع الفتاة المحطمة، زحفت رابحة على ركبتيها، تقترب من الصغيرة دموعها لا تتوقف، تضرُّعها إلى الله لا ينضب، خرج صوتها مرتعشًا ككل ما فيها، وهي تصل للفتاة أخيرًا تضمها إلى صدرها دون تردد وهي تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ صدق الله العظيم.»

ضمت الفتاة الصغيرة المرتعبة التي تمسكت فيها بخوف وما زالت رابحة مشوَّشة رغم رهبتها مصدومة، رغم استيعابها للفخ الذي وقعت فيه، رباه لا تُحمِّلني ما لا طاقة لي به، نظرت للفتاة تتمتم بذهول: «حتى الطفلة، ماذا قد يفعلون بطفلة إن كانوا تجار أعراض كما أخبرتها الفتاة المشبوهة؟!»

سمعت رابحة صوت هرج يدور خلف الباب الموصد، فتراجعت خائفة تنتظر المحتوم.

تغيرت خطتهم عندما داروا حول المنزل ليجدوا شباكًا زجاجيًّا منخفضًا، فتعلق به عمر أولًا وهو يخرج «مُدْيَة» من جيبه، فتحها ووضعها بين أسنانه، ثم بحركة مكتومة كان يكسر الزجاج ويفتح النافذة يدفع جسده أولًا للداخل، هبط على الأرض جالسًا القرفصاء، تفحص المكان

أولًا فعلم أنه في منطقه ما يشبه مطبخًا صغيرًا وخاليًا منهم، بحذر فتح النافذ على متسعها يسمح للبقية باتباعه تتبعه بعضهم، الفوضى كانت تعم المكان الممتلئ بأكوام طعام وأثاث قديم وجهازَي حاسوب، كان أحدهما مفتوحًا تركه صاحبه على ما يبدو للتو، والآخر يجلس عليه رجل ما، التقط عمر على الفور قنينة زجاجية واقترب من الرجل بتمهل، ثم ضربه بها على رأسه سريعًا، ووضع يده على فم الرجل ليكتمه، في ثوانٍ معدودة كان البقية ينتشرون في المكان، ويشتبكون مباشرةً مع بقية أعضاء العصابة، كان القتال يدور بتوحش، مبدأهم جميعًا واحد (يا قاتل يا مقتول)، مرت ربع ساعة ربما وكانت الغلبة بالطبع لهم، فعنصر المفاجأة والتحرك السريع أربك الآخرين.

بصدر يهبط ويعلو قال سائد بانفعال يأمر إبراهيم: «نحن سنتحرك من هنا ومعنا رابحة، وأنت ستتصرف وتبلغ الشرطة بطريقتك.»

لم يحتج إبراهيم للشك الآن؛ إذ أجزم أن سائد يعلم مهنته القديمة، حاول أحد رجال العصابة المقاومة مرة أخرى ليصل لأحد الحواسيب ويدمر ذاكرته، فإذا بإبراهيم يتحرك سريعًا ليقبض على كفِّ الرجل بعنف قاصدًا كسرها حتى سمع طرقعة عظامه.»

عيناه وقعت سريعًا على شاشة الحاسوب الذي أُضيئت فصدمه حرفيًّا المكتوب فيها بلغة إنجليزية، صفقة ما تخص فتاة صغيرة بالاسم والصور، ابتلع إبراهيم ريقه متمتمًا: «رحمتك يا الله، أين أصبحنا نحن؟»

لم يلتفت عمر ولم يَدُرْ، أسرع هو وقصيٌّ يفتح الغرف الموصدة بعنف؛ أربع غرف، كل غرفة تُفتَح يصدمهم وجود فتاتين أو ثلاثة ولكن لم تكن بينهنَّ، وصل للباب الأخير وفتحه والقلب يتمتم بحرقة: «عهد على نفسي

لن أتركِكِ مهما حدث، إن كانت كل اختياراتكِ موتًا تدفعين نفسكِ بغباء للهلاك، فلن يكون إلا بين ذراعي رابحة.»

وجدها أخيرًا في ظلام الغرفة، لم يحتج للضوء ليتعرف عليها بل روحه التي قُيِّدت بها دون أن يدري متى وكيف مدت ذلك الرابط الخفي بينهم ليجد نفسه يندفع نحوها دون تفكير، وهو يدس «مُدْيَته وسلاحه الناري» في حزام سرواله من الخلف.

فور أن رأته رابحة تبينته وتعرفت على رائحة عطره، استشعرت تلك اللهفة والرعب ومعاناته، دفعت جسدها دفعًا تستقبل ذراعيه التي فُتِحَت لها، ثم أخيرًا أفاقت من صدمتها وصوتها المرتعب يعلو ببكاء صارخ وشهقاتها تشقُّ أرجاء المكان، لم تتخلَّ عن الصغيرة من بين ذراعيها، بل كانت تحشرها بينها وبين عمر الذي لم يعِ للفتاة التي تسكن صدرها، بل أخذ في ضمها بحرقة مماثلة، عقله مشوَّش وتركيزه هرب مع منطق تفكيره، أحس وكأن قلبه قد توقَّف عن الخفقان، وهو يبعدها عنه يتفحص وجهها، ويداه تسرح بهوَس تتفحص ملابسها وتهبط إلى ركبتيها، سألها بصوت اختنق بعاطفته الهلعة: «هل آذَوْكِ؟ هل اقترب أحدهم منكِ؟ هل تنزفين؟»

لم ترُدَّ رابحة، فقط التقت عيناها مع حدقتيه الداكنتين، فتوقف كل شيء من حولهم، تخبره بصمت من بين دموعها المنسابة: «أنتِ هنا، لستِ مجرد طيف أو خيال نسجه عقلي.»

اقترب منها عمر مرة أخرى يضمها إلى صدره برفق وكأنه يخشى أن يسبب لها المزيد من الألم، دسَّت رابحة وجهها بين طيات قميصه، تئنُّ بألم وقد تمكَّن منها الخوف والصدمة، لم تُحَكِّم عقلها أو تضع مبادئها حائلًا بينهم، فقط أطلقت لمشاعرها العنان تعبر عن مقدار احتياجها

عصير الكتب للنشر والتوزيع

في تلك اللحظة لذراعين تبثها الأمان، كانت تستنشق رائحته بعمق هز كيانه، تركه يرتجف، بعاطفة فاضت من أعماق قلبه، حتى كادت أن تخنقه، فطاوعيةً ضمَّها أكثر إليه كأنه لم يكتفِ.

بينما سائد ينظر له من خلال الباب المفتوح بملامح مغلقة ومشفقة، يعلم أن سؤال عمر إن كان أحد آذاها يعبر عن مدى تشتته؛ إذ يدرك أنها بالذات بضاعة - أمثال رابحة - تُعامَل بحرص وتأنٍّ، وغير مسموح أبدًا بحدوث خدش فيها أو انتهاك جسدي، وإلا ستفقد قيمتها.»

في حركة لم يستطع أن يتخلص سائد منها يومًا، حرَّك فكه إلى الأعلى مع تجعيد أنفه قبل أن يأخذ نفسًا سريعًا وهو يقول: «تحرَّك يا عمر واخرُجْ بأنثاك من هنا، لا وقت أمامنا صديقي.»

تمالك عمر نفسه على صوت سائد، رفع رأسه ينظر إليه وقد أدرك ما يحاول سائد توجيهه له، لقد اخترق صدره وعلم بسره، وعرف بضعفه فيها وطوقه لحياة نظيفة معها، لم يستخدم حتى لفظ امرأتك بل أنثاه، وكأنه يختصر عليه الطريق ويشجعه أن يدخلها دوامتهم، وتُحكَم بقوانين غابتهم.

عندما اقتحم قُصيٌّ المكان قطع الحديث الصامت بينهم، راقبه عمر يهبط بجانب أخته يضمها إليه وينهار في البكاء مرة أخرى، فأصبحت أذن عمر لا تفرق أيهم رعبه أكبر.

كان سائد ينظر للفتاة التي ضمها إبراهيم إليه بحنان يتعامل معها برقة تناقض خشونة وضخامة إبراهيم، لقد خلصوها من بين ذراعي رابحة بصعوبة، وهي ترفض تمامًا تركها، معلنة أنها لن تتحرك إلا بصُحبتها، أمعن سائد في الفتاة، وأدرك جيدًا أنها نفس الفتاة التي

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فُقِدَت أمام المطعم، عندما رأى هو وإبراهيم المكتوب على الحاسب، أَجفل إبراهيم لكن هو للحقيقة لم يثر الأمر استعجابه؛ إذ يعلم جيدًا أن بعض رواد مواقع التواصل الاجتماعية، يقدمون يوميًّا معلومات وصورًا لذويهم، كأنهم يخبرون الخاطف أو مرضى النفوس؛ أنا هنا هذه معلوماتي وتحركاتي، صور أطفالي ها هي، أرجوك حرِّك غرائزك القذرة الشاذة، وخطِّط لخطفهم أنا في انتظارك!

تحرك سائد يلحق عُمر وقُصيًّا سريعًا وهو يقول بحزم: «سأخرج من هنا، وأنت تعامل مع الشرطة، وأَخْبِرْهم الحجة التي تناقشنا فيها، إبراهيم لا أريد أن يُزَجَّ اسم أيٍّ منا في الأمر.»

صمت لبرهة وهو يحرك رقبته لليمين واليسار ثم أردف: «الفتاة تسمى «سلمى»، أعتقد أن المعلومات في الحاسب كفيلة ان تصل لأمها سريعًا.»

أخذ إبراهيم نفسًا عميقًا وتجنب ملحوظة سائد عن سلمى وهو ينظر للرجال المقيدين ويثبتهم بقية رجال سائد، وهو يقول: «لا تقلق، والشيء الجيد أن بقية الفتيات لم يرون أحدًا منكم، يتبقى تلك الفتاة المشوهة، ولا أعتقد أنها في حالة تسمح لها بالحديث، أما هؤلاء المرتزقة القذرين لا أظن أنهم سيتفوهون بكلمة من الأساس.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بعد يومين دخل عمر غرفة رابحة تحت ابتسامة صافية باهتة، سحب أحد المقاعد الخشبية بلون بني قديم، وجلس أمام فراشها فأزاحت وجهها بعيدًا عنه، فقال عمر مباشرة: «إن كان وجودي يُزعجكِ سأنسحب فورًا.»

أغلقت جفنيها بينما صوت قلبها يهمس بنزيف عقلها: «لِمَ أتى؟ لِمَ أنقذها حتى؟»

لقد هدأت الآن وعادت لتتذكر كل لحظة جارحة تعرضت لها معه، رباه لم أعد أريد شفقته، ولا حتى شهامته التي تعامل بها مع قصيٍّ في السابق.

تسللت الدموع من بين عينيها لتجده يهمس بخشونة: «لا تبكي، لم آتِ لأسبِّب لكِ المزيد من الألم.»

همست بتحشرج: «إذًا لماذا أتيت؟ لمعاقبتي على اندفاعي؟»

هزَّ رأسه بالنفي وهو يخبرها: «ولا هذا أيضًا».

صوته رقَّ قليلًا وهو يخبرها: «جئتُ لأعتذر منكِ على آخر مرة بيننا، ولأخبركِ أننا لو كنا في زمن غير الزمن ومكان غير المكان؛ لدفعت عمري كله مقابل أن تحملي اسمي، وتبني معي مستقبلًا نظيفًا، أنجب منكِ أطفالًا، وننشئ أسرة مستقلة ولكن ...»

صمت ليعود يبتلع ريقه وهو يقول بخشونة: «ولكنني لن أستطيع منحكِ اسمًا لا أملكه من الأساس، حتى أوراق جنسيتي الأجنبية لا تحمل الأصل المشرف، وإن تجنبنا هذا لن أستطيع المجازفة بكِ، أتزوجكِ وآخذ منكِ ما أحتاجه، ثم في النهاية أتركِكِ أرملة مطاردة، تدفعين ثمن ما سأفعله.»

تحولت دموعها إلى شهقات كتمتها بصدرها وهي تخبره: «توقف، تبًّا لك يا عمر، بعد كل ما صار ما زلت تضع حواجز وهمية، أيًّا كان ما ستفعله أنا سأمنعك وسأنتشلك من ضياعك والجحيم الذي تحاول أن تُلقي نفسك به حتى وأنا لا أعرفه، سأمنحك سببًا يا عمر للتمسك بي وبالحياة.»

ابتسم عمر أمامها وهو يقول: «لا فائدة منكِ، تصرين على زجِّ نفسكِ فيما لا تطيقين وتعدينني بما لن تستطيعي فعله.»

قالت بتصميم: «سيكون لي شرف التجربة على الأقل.»

مال بجسده يحاصر بنظراته عيناها ووجهها يلتهم ملامحها هذه المرة بشغف، يسمح لنفسه أن يحصل على أمنية وحيدة لأول مرة في حياته، يتخلى عن حذره وحرصه، إن كانت معرضة للخطر على أي حال وتدفع نفسها بغباء نحو المخاطر، فليكن معه على الأقل سيؤمّنها جيدًا، ثم إن غادرها ورحل سيترك لها ما يكفيها لتعيش حياة رغدة آمنة من بعده، قطع الصمت أخيرًا وهو يقول:

«لطالما تمنيت أن ترتدي لي إحداهنَّ اللون الأبيض، لون الوهم، لون الوعد، لون الأماني الوردية الحالمة مثلكِ، ورغم معرفتي بأنه لون كاذب يخفي تحته الحقائق المُرَّة وظلمات قلوب البشر وقسوة الحياة السوداوية، إلا أني مثل الكثيرين أريده وبشدة حتى ولو للحظات قليلة مسروقة من الزمن.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ليلًا كانت دجوى يكاد قلبها يتوقف من فرط الانفعال، فبعد يوم شاق تكمل فيه ما يلزمها وحدها، انتهى بها الحال هنا في شقة سائد ترتدي فستان العرس الأبيض الذي صمَّمت على شرائه، رغم أنه أبدى اعتراضه ولكنه لم يجادلها، بالنهاية هي مثل أي فتاة، ولطالما حلمت أن تُزَفَّ بالأبيض، كانت تنظر لوجوه الرجال الذين حضروا لكتب الكتاب مع «المأذون» بحسرة، لم يقف أحد بجانبها، الغريب أن سائد طلب منها أن لا داعي لدعوة أحد إلا أنه يعلم بالفعل أن الجميع تخلى عنها منذ سنوات.

رفعت رأسها نحو باب الغرفة، فصدمتها نظرات عمر الرافضة، هل يعترض على زواج صديقه منها، لقد علمت أن عمر رفض أن يكون شاهدًا على عقد الزواج واكتفى بوقوفه هكذا محدقًا فيها برفض، ونظرة أخرى

لا تفهمها، لعنت بسخط داخلي، لمَ بحق الله عقلها يتوقف تمامًا عن استيعاب غموض هذان الرجلان؟!

همست: «لا يُهِمُّ».

أحلامها الوردية وقلبها الذي عشق هذا الرجل الجذاب الذي يبتسم وجهها بانتصار أرجعته لزواجهم أخيرًا، لا هي لا تخاف من سائد أو تخشاه، لقد وجدت أخيرًا سد حماية وربما لاحقًا تستطيع أن تُفضي له بسرِّها المرعب، والتهديد الذي يلاحقها مطالبًا بقتلها.

بحيرة تلفتت حولها بطيات فستانها الكثيرة، فمنذ انتهاء كتب الكتاب الذي تم في أضيق الحدود وانصراف رجال سائد مع المأذون الذي عقد القران، وعريسها يبدو غريب الأطوار، لقد دخل إلى حجرة جانبية ولم يخرج منها حتى اللحظة، تنهدت بضيق وهي تتقدم بحرص لتجلس على إحدى الأرائك، وعقلها مرغمًا شارد في تصميم سائد على أن يتم الزفاف على وجه السرعة، ابتسمت رغمًا عنها بمرارة وهي تتذكر عدم وقوف أي صديقة بجانبها، فتاة مثلها تبث فيها كلمات الدعم، معترفة لنفسها أنها وافقت على طلب سائد بعدم دعوة أحد؛ لأنها تعلم جيدًا أنها لا تملك أحدًا تستطيع دعوته لزفافها مثله هو تمامًا، تكورت على الأريكة بصعوبة تكافح مع فستان الزفاف لتستطيع أن تصل لقدميها وتتخلص من ذلك الحذاء الذي تشعر أنه نار تكبِّلها، أغمضت عيناها وتراجعت إلى مسند الأريكة تتأوه بخفوت وتمسِّد قدميها بهدوء بعد أن تخلصت منه.

شهقت بدهشة عندما شعرت بيد رجولية ضخمة تزيح يديها ويقوم بتدليكها بنفسه، اعتدلت تنظر له بتوتر وهي تخبره هامسة: «لا داعٍ لهذا، أنا فقط كنت أشعر ببعض الألم.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان يجلس على عقبيه أمامها فرفع وجهه ونظر لها قائلًا بنبرة رخيمة جادة: «أعرف هذا، وأنا أحاول مساعدتكِ على إزالته، أريدكِ مسترخية تمامًا.»

ساد الصمت المشحون بينهم لدقائق وهو مستمر فيما يفعله باحترافية ولم يبدُ عليه أي نوع من التأثر حتى ويده تتجول إلى أن وصلت أسفل ركبتها بقليل، عكسها هي التي كانت تغرق في الخجل والتوتر والترقب.

قطع الصمت أخيرًا وقال بهدوء: «أرجو أن يعجبكِ المنزل، لقد بذلت جهدًا في تجديده لينال رضاكِ.»

همست بصوت مضطرب دون أن تفتح جفنيها المغلقين: «إنه جميل جدًّا منذ البداية.»

فتحت عينيها أخيرًا تراقبه عندما أفرج عن قدميها أخيرًا، وقف ببطء وعينيه الغامضتين تتأملها بدقة، ابتلعت ريقها الجاف عندما ابتعد عنها خطوات ليخلع سترته وربطة عنقه ويفك أزرار قميصه العلوية قائلًا:

«أعتقد من الأفضل أن تتحرري من هذا الفستان، فبرغم جماله عليكِ لكنه بالتأكيد يزعجكِ.»

احمرَّت وجنتاها خجلًا، ومررت يدها فوق تسريحة شعرها الأنيقة وقالت بصوت مختنق: «لا أعرف، ربما أنا أحتاج فعلًا للتحرر منه.»

لم تتبدل نظراته وهو يقول بصوت حاول أن يسيطر عليه ليخرج به بعض الرقة: «تستطيعين أن تدخلي لغرفة النوم، ستجدين هناك بعض الملابس المريحة.»

اقترب منها بحزم يساعدها على الوقوف وهو يتابع: «هيا دجوى بدِّلي ملابسك، وأنا سأحضر مشروبًا منعشًا ليساعد كلينا على الاسترخاء من إرهاق اليوم.»

لم تجادله، وحاولت أن تتخلص من الموقف سريعًا وتوجهت إلى الغرفة التي أشار إليها.

بينما عيناه السوداوين انقلبت في لحظة لتتبدل نظراته ببريق مخيف، وتتقبض يداه بعنف وهو يعصرهما كأنه يحاول ترويض شيء وحشي حتى يصل إلى ما يريد.

وقفت أمامِ المرآة تتأمل نفسها بنوع من الخوف والخجل، سمعت دجوى صوت طَرْقٍ خفيف على الباب وصوت سائد يسألها: «هل أنت بخير دجوى، لقد تأخرتِ قليلًا في الداخل.»

أخذت نفسًا عميقًا تحاول أن تهدأ مذكِّرَةً نفسها بتأكيد أن مَنْ بالخارج سائد الذي أنقذها من مؤامرة كادت أن تزهق روحها دون سابق معرفة بينهما، وعرض عليها الزواج بعدها بأيام قليلة، همست مشجِّعة نفسها:

«اهدئي إنه زوجكِ، ما الذي يخيفكِ؟ سائد لن يؤذيكِ حتى وإن بدت تصرفاته مريبة في بعض الأحيان.»

ردت أخيرًا بصوت خافت: «أنا بخير سأخرج حالًا».

اعتدلت ونظرت للمرآه مرة أخيرة قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا، ثم فتحت الباب وخَطَتْ لخارج الغرفة، هربت عيناها سريعًا عندما رأت سائد يجلس أمام طاولة صغيرة يتناول فنجان قهوة صغير عاري الجذع،

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وتلك العلامات والجروح على جسده لم تزده إلا جاذبية فجة لعينيها، لقد شُفيَت جراحه بشكل عجيب، وبعد الاضطراب الذي ساد الشركة وقتها، عاد كل شيء كما كان، عندما عاد سائد بعد يوم واحد ليمارس حياته بطبيعية.

رفع رأسه أخيرًا ونظر لها بتأمل، مشاعر عنيفة مبهمة لا تخلو من الإثارة والرغبة، وشيء آخر لم تستطع تحديده، فأطرقت برأسها ورفعت ذراعيها وضمت نفسها اتقاءً لنظراته.

وقف سريعًا وحمل فنجانه بيده يرتشف منه وعينيه تراقبها من على طرفه، وبيده الأخرى قدم لها كوب العصير، وقال برتابة:

«تناولي العصير حتى تحصلي على بعض الاسترخاء.»

أومأت برأسها وتناولت منه الكوب بهدوء، احتست العصير اللذيذ فخرج صوت تلذُّذ منها طواعية وأخبرته: «لذيذ جدًّا ومرطب أيضًا أشعر ببرودته تتسلل إليَّ.»

لم تكمل جملتها، مدَّ يده وسحب منها الكوب ووضعه مع الفنجان على الطاولة، ثم عاد إليها وأخبرها بصوت خرج دافئًا: «جيد، لقد وصلت لهدفي سريعًا.»

امتدت يده ووضعها على كتفيها فارتعشت بتوتر خوفًا وترقبًا، قال بخفوت: «اهدئي، أنا لن ألتهمكِ.»

ابتسمت وأخبرته: «أعرف هذا ولكن الموقف كله غريب، وبرغم اتفاقنا على موعد الزواج منذ فترة لم أفكر في الأمر هكذا.»

التوى فكه بشبه ابتسامة ساخرة لم ترها من قبل، فقال بهدوء مسيطر: «أعرف هذا، وليس من المفترض أن تفكري فيه بل تتركين نفسكِ لي كي يتم الأمر بعفوية دون أي ترقب.»

وقف خلف ظهرها ومدَّ يديه يدلك عنقها بحركات ناعمة ثم انتقل لكتفيها، فأغمضت عينيها تطلق أنينًا زافرةً بارتياح، وبعدها توترت وشهقت بذعر منفصلة عنه عندما قبض على مرفقها وأدارها إليه وألصقها بصدره، ارتبكت أكثر واهتزت حدقتاها بخجل، فقال برقة: «لا تخافي، واتركي لمشاعركِ العنان، أنت تحبيني صحيح.»

ابتلعت ريقها وهي تومئ باضطراب، فاقترب منها وهو ينظر لها بثمالة يلتهم ملامحها الرقيقة الناعمة، فأخبرها بنبرة خرجت متحشرجة: «لا أريد أن أسمعها وستجدين مشاعركِ تحركت وحدها لتجاريني فيما أريد، وتذكري أنكِ أنثاي وزوجتي و...»

قطع جملته وكأنه غير قادر على البوح بالمزيد، أن يخصها بلقب آخر لا تستحقه إلا حبيبته الحقيقة، ولكنها لم تكن في حالة تلاحظ تغيير ملامحه، لقد أسكرتها كلماته، لم تكن الغريزة ما تقودها نحوه، بل كانت تحتاج أن تشعر أنها محبوبه مرغوبة، حصلت أخيرًا على سند وذراعَي أمان تُعينها على توحُّش الحياة، فحملها فجأة واتجه إلى الفراش ليضعها عليه، انضم إليها وغمرها كلها بين ذراعيه، لهثت قائلة بارتباك: «سائد، انتظر أرجوك.»

غمغم بكلمات غير مفهومة وعاد ليكتسحها بجنون، وأجبرها أن تنساق وراء ما يريد غير سامح لها حتى بأن تتنفس بين ذراعيه.

انتابها الذعر قليلًا وامتدت يدها تحاول التخلص منه، فرفع سائد رأسه ولمح ذعرها الواضح فانتبه للحظة هل يتمم الأمر كما خطط له منذ البداية بعنف وقسوة؟ لكنه عاد وسيطر على نفسه سريعًا وتذكر أن الأمر بالرضا والقبول تكون نشوة انتصاره أقوى، فأحكم قبضته عليها وقال بصوت أجش به حنان العالم: «اهدئي دجوى».

عصير الكتب للنشر والتوزيع

استمرت تتخبط للحظات ولكنه لم يسمح لها بالابتعاد وقد حصل عليها أخيرًا، مرر أنامله عبر خصلات شعرها المستريح على وسادته، وكرر بنبرة أشد رقة وحنانًا يطمئنها بكلمات حانية، فلم تستطع إلا أن تنصاع إليه وجسدها كله يسترخي بين ذراعيه، نظرت لوجهه المحبب لقلبها وتذكرت أنها تحب هذا الرجل، وأنها ممتنة لظهوره أخيرًا بحياتها حتى وإن كان مفاجئًا وعاصفًا، وليتها لم تفعل.

منذ وقت كانت تتكمش على طرف السرير تبكي بحرقة لم تفهم أسبابها أو ربما أنها فهمت، ربما هذه أول تجربة لها حقًّا، ولكنها استطاعت أن تتبين أن ما مر بكليهما لم يكن أبدًا علاقة طبيعية لحبيبين، بل فور أن سلمت له كاملة، انطلق من عينيه السوداوين وجسده شيءٌ قاتم مظلم وطاقة كره عنيفة لم تعرف أسبابها، كل جزء من جسدها كان يئنُّ، لقد شعرت أنها تتعامل مع حيوان مفترس وكأنها في صراع غابة غير متكافئ الأطراف مطلقًا، زاد بكاؤها وهي تسمع صوت أنفاسه العنيفة تهدأ ببطء، التف ليقف ناحيتها من الفراش، فتح درج الطاولة الصغيرة الجانبية وأخرج حزمة من المال وألقاها عليها، وقال بصوت غريب: «كانت ليلة استحقت ما ستحصلين عليه ثمنًا لطهارتكِ.»

توقفت أنفاسها داخل صدرها وشهقت برعب، نظرت له بعينين متوسعتين بنوع من الذعر، وهبَّت من جلستها متجنبةً الألم الذي تشعر به يكسر عظامها، سألته بجزع: «ما الذي تقوله؟ هل جُنِنْتَ؟» لم يردَّ وهو ينظر لها بازدراء.

فهزت رأسها برفض، بخاطر مر في عقلها فجأة وبنبرة متقطعة قالت: «هل أنت مريض يا سائد بطريقةٍ ما؟»

اقترب منها سريعًا ومال إليها وأمسك مرفقيها يهزها بعنف وقال بصوت قاتم: «اخرسي، إياكِ حتى أن تحاولي اتهامي، بل أنا سليم تمامًا، ولكن أنتِ من لا تستحق إلا ثمن ما حصلت عليه منكِ.»

هزت رأسها بحيرة عظيمة تبكي بعنف وأخبرته من بين شهقاتها الملتاعة: «إذًا أنت جُنِنْتَ فأنا زوجتك، ما الذي تقوله؟!»

تركها من بين يديه وضحكاته تتعالى صاخبةً وكأنها ألقت عليه طُرفة ما قبل أن يقطعها أخيرًا ليخبرها بنبرة محتقرة: «هذا ما تظنيه أنتِ، وقصدت أنا إيهامكِ به، أنتِ لستِ زوجة لي.»

فَغَرَت فاها بذهول، هل يعاني من مرض نفسي ما؟ تمتمت تسأله: «هل نسيت أنك تزوجتني منذ ساعات هنا في هذا المنزل؟»

تحرك من أمامها وكأنها شيء لا يستحق الاهتمام وقال ببرود: «لم يحدث هذا بالطبع، لقد كان المأذون أحد رجالي لا أكثر، ولكن أشهد أنه رسم عليكِ الدور ببراعة.»

التفت إليها من وراء رأسه وأخبرها مستمتعًا: «ربما يجب أن أكافئه، فأنتِ كنتِ وجبة لذيذة جدًّا وتستحق التعب والسعي وراءكِ.»

زاد بكاؤها حدة وأخبرته رافضةً التصديق: «هل هذه طرفة؟! مستحيل أن تفعل هذا، ليست هذه أخلاق الرجل الذي أحببت.»

اندفع عائدًا إليها وأمسك ذقنها بحدة عنيفة رفعها إليه وقال بغضب صارخ: «ما الذي تعرفيه أنتِ أو أهلك عن الأخلاق لتحكمي عليَّ من مجرد معرفه عابرة، هل يصدمكِ أَن تعلمين أن تلك الهالة البراقة بمدعين الشرف والمثالية، ما هي إلا واجهة يخبئون خلفها أعمالهم القذرة وأخلاقهم الوضيعة الحقيرة؟»

تحشرج صوتها وهي تخبره رغم الألم العظيم الذي يسببه إمساكه العنيف بها: «ما الذي فعلته لك؟ هل آذيتك في شيء لتفعل بي هذا؟»

اشتدت ملامحه سوادًا وأطلق لعينيه حرية التعبير لينطلق منها بريق قاتم مخيف مرعب قبل أن يقول: «لقد حرصت أن أجعلكِ تُسلمين راضية، قاصد أن أجعلكِ تغوصين في طريق العهر بامتياز، عهر تعلمين أنكِ حملتيه الآن وأنتِ تسلمي نفسكِ لرجل يمنحكِ ثمن تلك الساعات المحمومة التي قضاها معكِ.»

صرخت وهي تتخبط بين يديه تحاول أن تبعده عنها، فعاجلها وهو يقول بحرقة مجنونة: «كما فعل والدكِ تمامًا وهو يتسبب في اغتصاب زوجتي رغمًا عنها، ثم يشرِّحون جسدها ويخرجون طفلي من أحشائها، ليتم بيعهم قطع غيار بشرية.»

الصدمة أخرستها وجعلتها فاقدةً للنطق، للحركة فقط عينين متوسعتين مذعورتين كانت تحدِّق به مرتجفة شاحبة الوجه حتى خُيِّل له أنها أصبحت في أعداد الأموات: «الرحمة يا الله، هل أحدُ خطايا والدها تتجسد أمامها مطالِبَةً بالانتقام الذي لن يدفع ثمنه إلا هي؟»

بعد عدة ساعات استطاع أخيرًا أن يتخلص من الضجيج والاحتفال البسيط الذي أُقيم في الحارة الشعبية، بسيط هل يكذب على نفسه؟ لقد كان فوق ما تمنى يومًا أكثر مما حلم يومًا، تلك الوجوه المشابهة تمامًا للناس التي كانت تشمئز من وجوده وترتعب من وجهه المعفر وملابسه الممزقة وجسده الهزيل، وبدل أن تعطف عليه لتمحنه القليل من التفهم، القليل من الاهتمام حتى لو كان مجاملة، الآن يبجلونه ويحترمونه، بل وربما البعض منهم يحسد عروسه على رجل الأعمال الغني «اللقطة» التي

استطاعت رابحة ببساطة حالها إيقاعه، ولا أحد أبدًا ينظر لحقيقة أنه هو من استغل نقاءها وحبها إياه ليسدَّ بعضًا من جوع روحه.

سمع صوتها المضطرب يخرجه من صمته الذي طال وهي تقول: «كان زفافًا جيدًا، لم أتوقع أبدًا أن توافق عليه أو أن يأتي سائد وهؤلاء الرجال المحيطين بكم دائمًا.»

عقد عمر حاجبيه للحظات مستغربًا، ثم أجابها بحرص بطيء: «وما الذي جعلكِ تفكرين أني قد أرفض احتفال أهلكِ وجيرانكِ بكِ، أو أن يأتي سائد؟! إنه أخي قبل لن يكون صديقي.»

أجابته رابحة على الفور بدون تفكير: «سائد لا يحبني ولا يتقبل وجودي قريبة منك.»

أوَلَم يشعر ويعلم بما تقول؟ لم ينزعج تمامًا من استنتاجها والذي كان واضحًا للجميع، ولكن وحده يعلم سر رفض سائد إياها.

أخذ عمر نفسًا عميقًا واقترب منها وقد وضع أفكاره الصاخبة المتصارعة جانبًا، وهو يقول بابتسامة متلاعبة:

«وما لكِ أنتِ وسائد! هل هذه الجنة التي وعدتِّني بها ليلة زفافنا؟!»

أرجعت رأسها للوراء ونظرت له متحيرة، ثم قالت: «أي جنة؟! كما أنك أنت الذي تبدو منذ عقد القِران متجهمًا أو تائهًا كطفل خدعوه فجأة ووجد نفسه في قفص مع أنثى غوريلا متوحشة ستلتهمه.»

انفجر عمر بضحكة صاخبة، وهو يقترب منها سريعًا وبدون مقدمات أو كلمة مستفسرة، كان يضم خَصرها بذراعيه ملصقها بجذعه بقوة، توسعت عينها بصدمة من عناقه المفاجئ وبرد فعل غريزي وضعت كفَّيها

على صدره وهي تقول بخوف طبيعي: «اتركني عمر، إياك والاقتراب مني، سأصرخ.»

رفعها قليلًا عن الأرض وضمها إلى ذراعيه أكثر، لم تتوقف ضحكته وهو يتأملها بعينيه اللامعة والسعادة تتسلل له مرغمًا وفؤاده يقرع كالطبول داخل صدره همسًا: «أين كنتِ كل هذا الوقت؟ لمَ تأخرتِ لاقتحام عالمي وإنارة بعض من ظُلُمتي؟»

لم ترُدَّ على الفور وجسدها يرتخي رويدًا رويدًا، ارتفعت يداها بتردد ولفتها حول عنقه، قبل أن تقول بخفوت: «كنت أنتظرك».

أراح جبهته على جبهتها مغلق الجفنين، وأخذ نفسًا عميقًا محترقًا قبل أن يسمح لكل دفاعاته لتلك الواجهة الثعلبية أن تنهار وتندثر حتى لو لساعات، ليبقى بين ذراعيها مجرد طفل مذعور يختبئ في إحدى الزوايا الموحشة ينتظر تلك اليد الحنون أن تعانقه وتنجده وتعطف عليه، ليس لشيء إلا أن تمنحه حبًّا مجردًا طاهرًا ونقاءً دون شرط ودون تصنُّع؛ فقط لأنها تريد منحه والتربيت على وجعه، بصوت رخيم أخبرها: «لو كنت أعلم بوجودكِ وأن الحياة الظالمة ستمنحني يومًا ملاكًا طاهرًا مثلكِ، يخلص روحي قبل جسدي من آثامه؛ لكنت حاربت نفسي، وفعلت المستحيل لأبقي جزءًا من فطرتي سليمًا لمنحكِ إياها.»

حاوطت بكفيها الرقيقتين وجهه وهي تقول بحنان: «لمَ دائمًا تتهم نفسك ببشاعة يا عمر؟ لماذا تصر أن تضع الماضي بيننا يا حبيبي؟ لقد أخبرتك أني مستعدة تمامًا لمحاربة جميع أشباحك معك سننتصر عليها سويًا، سنظفر ببيت وأسرة وحياة طبيعية وكل ما رَنَتْ إليه روحك يومًا.»

فتح عمر عينيه وحدقتيه الملونة تحمل نظرة مبهمة قبل أن يقول بسخرية مريرة:

«ننتصر! رابحة، لا تنسجي ورديتك وأحلامكِ يومًا حولنا، أنا لم أغشك، الحب لا يغير أحدًا وحربي التي أرفض أن أُدخلكِ فيها أو تعلمي يومًا أَبعادها لن ينجو أحد منها.»

شحب وجهها وهي تهمس ويديها تتخلى عنه لتهبط بجانبها: «سأحاربك ولن أستسلم، القادم بيننا.»

ببطء كان يعيدها لأرض الغرفة، قبل أن يسحب ذراعيه مِن حولها يدور في غرفتهم كأسد محبوس مسجون غير قادر على الأمل يومًا أن يحصل على حريته ويودع ظلام ماضيه، صعقها وهو يقول بمصارحة: «دعيني أكون واضحًا معكِ قبل أن أتهور وأنا لكِ لوضع بصمتي عليك كما أكاد أجن وأفعلها.»

استدار إليها وقال بنفاد صبر وهو يخلع سترته ويرميها جانبًا ثم يلحقها برابطة عنقه، ويده تمتد بنزق يخلص قميصه من الحزام ثم يتبعها بفك أزراره برتابة، مجتذبًا أنظارها رغمًا عنها لتتبع عضلات صدره وبطنه الرياضية الجذابة، كتمت رابحة أنفاسها ووجهها يتورد تلقائيًّا وهو يقول: «لم نُلْقِ أنا وسائد أنفسنا في عرض البحر معرضين للتهلكة للموت والذي واجهناه بالمناسبة ونجونا منه بأعجوبة، عندما غادرنا هنا عبر الهجرة الغير شرعية، ثم تتبعها النوم على الأرصفة والهرب من الشرطة حتى لا نرحل عائدين إلى هنا،»

صمت لبرهة ليلتقط أنفاسه ملاحظًا وجهها الذي تبدد تورده، وتحول للوح أبيض خالٍ من الحياة وهو يردف: «في الواقع، الهروب والشوارع والأكل من القمامة وبقايا البشر لم يكن غريبًا عنا، ولكن مؤكد كنا سنفعل أي شيء حتى لا نعود لهذا البلد إلا ونحن نملك المال والقوة، وهذا ما فعلناه خلال خمسة عشر عامًا.»

تمتمت مرتعشة جاعلة إياه يلاحظ بصمت الألم الذي جاهدت لإخفائه: «وكيف فعلتم ذلك؟ كيف استطعتم أن تحققا المال وأيضًا تمنحكم تلك الدولة جنسيتها؟»

راقبته بأنفاس مكتومة وهو يدور في الغرفة الواسعة كأنه يجاهد أو يحارب ذكرى ما ترفض الخروج، يكتمها ويرفض أن يجعلها هي بالذات أن تعرفها وليته لم يخبرها، ليته لم يكشف لها هذا الجزء منه، حاربت رابحة قدميها التي أصبحت رخويتين كأنهما تحوَّلا لحلوى الجيلي، عندما قال عمر بصوت مكتوم: «الجنسية! كلانا قدم طلب لجوء بغرض الحماية، معترفين أن لا وطن يحمينا ولا هوية تُعَرِّف عنا، بعدها تزوج كل منا، هذا أمر وارد، هناك زواج مقابل المال، سائد كان يعمل ليل نهار يسدد لها الألف التي طلبتها، ورفض تمامًا أن يمس أي امرأة مهما بلغ جمالها أو إغراؤها، ولكن أنا لم أستطع وقد تعودت على ممارسة العلاقات القذرة مع أي امرأة تطلب وليست من تزوجتها فقط، بل تطرفت أن ألوث كل حقيرة تطلب مني علاقة عابرة، حتى وإن كانت منحلة ما قبلتها من الجالية صدفة، كنت أفعلها في أي مكان وأي وقت حتى في السيارة، وإن تطلب الأمر كمرتي الأولى عندما كنت فتى صغيرًا في الثالثة عشر فقط.»

«يا إلهي»، نطقتها رابحة صارخة دون وعي وهي تنهار باكية على أرض الغرفة، التفت إليها بملامح مرهقة موجوعة تحمل جحيم ذكرياته وهو يقول بعجز: «أنا آسف، ولكن أنتِ من سألتِ، لن أستطيع سرقة طهارة عالمكِ دون أن تعلمي مع أي ملوث تتعاملين.»

لقد أرادت أن تعرف، مدركة أنها لم تكن حتى هذه اللحظة تعرف كل شيء عن الرجل الذي أحبته، عن الحبيب الذي توعدت أن تخرجه من جحيم مجهول يلقي بنفسه فيه ونهايته لن تكون إلا الموت.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رباه، الألم لا يُحتمل، ليتني لم أسألك، ليتك لم تخبرني، لماذا لم تحجب علاقاتك بأخرى بعيدًا عني؟»

اقترب منها يجثو أمامها على ركبتيه وتردَّد أن يمد يديه، حاول أن يرفع جسدها المنهار على أرض الغرفة، ولصدمته التي لم يعد يعلم عددها كانت تمد يده تنهش في صدره كأنثى أسد شرسة حتى جعلت جسده يفقد توازنه ويقع على الأرض ساحبها معه عندما صرخت بفقدان سيطرة: «تبًّا لك، متزوج من أخرى، تتفاخر بأنك على علاقة مع امرأة غيري، سأقتلك يا عمر سأنهي حياتك بيدي قبل أن تطلقني.»

أغمض عينيه للحظات محاولًا استعادة توازنه، تاركًا لها المساحة لتفضي كل صدمتها وآلامها فيه، ثم قال فجأة:

«أطلقكِ! لم أتوقع انهياركِ سريعًا هكذا ومن أول ليلة، أين تلك التي أخبرتني أنَها ستحارب كل شيء وتبقى معي؟!»

أجفلها سؤاله البارد عديم الدم فخَبَتْ ثورتها فجأة وهي تخبره بصوت مرير لم يخلُ من شهقات بكائها المتقطع:

«أنت متزوج غيري، هناك امرأة تشاركني بك، بل العديد منهنَّ سبقنني لك.»

هز رأسه وقلبه يرق لوجهها المتألم وهو يقول: «كنت متزوجًا وطلقتها فور حصولي على الجنسية، ربما هناك من لوثت نفسي به قبلكَِ، ولكن لم أمنح قلبي لامرأة سواكِ ولم تبتغي روحي امرأة كما ابتغيتكِ أنتِ.»

هتفت من بين بكائها المتعالي: «كاذب لا أصدقك، أنت غششتني يا عمر.»

سيطر على جسدها الغاضب ثم أدارها بحركة سريعة؛ وحاط وجهها بكفيه ليخبرها بنبرة مسيطرة استشعرت الصدق فيها: «أنا أحبكِ أنتِ، في هذه اللحظة لا توجد امرأة تحتل روحي وأمنحها اسمي وقلبي غيركِ، ليس لي زوجة سواكِ يا رابحة، ليس من حقكِ معاتبتي على ماضٍ مشين لم أنكره أو أتملص من ذنبي فيه، ولكن ما الذي توقعتِه من ابنٍ شوارع بالضبط؟!»

احمرَّ وجهها في اعتراف ضمني بأن الفكرة قد عبرت ذهنها سابقًا، مما جعل محاولته لمهادنتها تصبح أسهل، قال أخيرًا: «كل الحقائق التي من حقكِ أن تعرفيها سأخبركِ إياها، ولكن لن أسمح لكِ بمحاسبتي على ماضٍ انتهى بغير رجعة، لقد توقفت عن ممارسة الجنس كالكلب الضال يجدُ كلبة ملوثة تمنح جسدها لأي حقير مقابل ساعات من المتعة، توقفت من تلقاء نفسي، حاسبتها وعاقبتها منذ أكثر من عامين، وحتى إغواء نقاءكِ أنت لم يجذبني بالبداية لأطاوعكِ وأتزوجكِ فحاولت إبعادكِ عني.»

لم تقل شيئًا وهو يراقب الدموع تفرُّ من عينيها لتغسل وجنتيها، وحدقتيها تراقب وجهه بألم الغيرة والحب، تمتمت بهمس مندفع أخيرًا: «أنا أحببتك، لا تسألني لماذا أو متى، أحببتك يا عمر وإن لم تكن ضممتني إليك وتزوجت مني فلم أكن لأمنح نفسي أبدًا لسواك.»

أخفض وجهه وتمتم من خلال سحابات الألم التي كانت تلفُّ حواسه وعقله: «أنا أعتمد على هذا يا رابحة، أنتِ لم ولن تكوني لسواي أبدًا، ستظلين أنثاي وحدي مهما حدث.»

فلتت شهقة متألمة منها ويديها تلتف حوله تضم نفسها إليه بشدة وهي تقول:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

«أبدًا يا عمر لن أكون لسواك يومًا، ولكن الغيرة تقتلني فعِدني بأن لا تمس أي امرأة بعدي.»

قال وعينيه تحاصر عينيها: «وعدي لكِ يا حلم العمر ونقاء الروح ألَّا أسمح لنفسي حتى بالالتفات لغيركِ.»

استرخت قليلًا وقد طمأنتها كلماته، ولكن مؤكد لم تحجب ذلك الألم الذي طغى على أي شعور آخر أنها أخيرًا أصبحت ملكه تحمل اسم عمر وأصبح بين ذراعيها.

وكأن شعورها ذاك تسلل إليه عندما أخفض وجهه يلثم ذلك العرق النابض في عنقها بشغف وهو يهمس: «كيف أسمح لنفسي حتى بأن أعود لعهري بعد أن غسلت خطاياي فيك وبكِ.»

أشاحت بوجهها، أنفاسها تتسارع وصوت نبضات قلبها العنيفة كان مسموعًا له من مكانه شاعرًا به تحت صخب قلبه.

شعرت برأسه يرتفع عنها وهو يقول إلى جانب أذنها ضاغطًا على حروفه وكأنه يكافح ليتحكم في مشاعره حتى لا يرعبها منه: «لن أسمح لكِ أو لنفسي بإفساد ليلة زفافنا وقد جهزت كل شيء هنا ليصبح حالمًا مثلكِ يا أميرة.»

شعرت بالخواء والبرد للحظات وهو يرتفع سريعًا ثم انحنى مرة أخرى يرفعها عن الأرض يوقفها على قدميها وهو يقول بحرقة وأنفاسه الحارة تعذبها: «عندما كنت أتلصص على المقاهي، كنت أرى دائمًا مشهدًا يجذب كل أنظار هؤلاء البلهاء للتلفاز.»

يده تسللت ببطء نحو سحاب فستانها الأبيض الجميل مثل كل ما فيها وفتحه ببطء وجسدها يلتصق فيه لا إراديًا تحتمي في صدره من جحيم

شوقه وهو يهمس: «عروس جميلة، وعريس مجنون بكل تفصيلة فيها، ينزع عنها فستان زفافها ثم يضمها بين ذراعيه مراعيًا خجلها وبراءتها.»

همست هي باندفاع: «أحلام مراهقة، ألم تحققها من قبل؟!»

ضحك بخفوت وهو يقول: «لا، هناك أشياء لم أجربها أبدًا، ويبدو أني احتفظت بها لكِ وحدكِ من حسن حظي وسوء حظكِ.»

صوتها المرتجف أتى مستفسرًا: «لِمَ سوء حظي؟!»

«لأني لن أرحم براءتكِ يا رابحة، سآخذ كل حق لي فيكِ، سأشبع جوع عالمي، وأنهب بنهم الدنيا كل نقاء فيكِ، ربما أجد جزءًا من أحلام طفولتي المشردة فيها.»

الغريب أن غريزة الخوف لم تتمكن منها ولم تشعر بالتهديد ولم تجفل مما يقوله، بل بسيطرة على الذات كانت تضع ذراعيها فوق صدره لتمنحه استسلامًا صامتًا.

قال عمر: «إياكِ أن تفقدي إيمانكِ بي يومًا، أنا أحبكِ يا رابحة، أنتِ أنثاي ولم توجد امرأة لترقى يومًا لأن تكون أنثى الثعلب غيركِ وحدكِ.»

«أحبكَ»، كلمة واحدة من أربعة حروف كانت كفيلة أن توقف كل صراخ في عقله المضطرب، قالتها ببساطة بوجهه المطل عليها، ارتفاع كفَّيه ليمسح بحنان غلالات دموعها المتساقطة، جعلها تتأكد أنها لم تخطئ عندما تزوجته، لم ترتكب حماقة وحالمية كما يدَّعي عمر لمسامحته، مَنْ هي لتحاسبه؟ من تكون لتملك الحق على معاقبته لماضيه الموجع؟

«أحبك، أنا من أحبك، ولن أتوقف يومًا عن قولها حتى أزفر آخر أنفاسي، أنا أرمي كل حصوني بين يديكِ حبيبتي، فلا تخيبي أملي بكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الإحساس بصدق كلماته رغم بساطتها جعلها تجزم أنها على الطريق الصحيح، الشعور الذي ولَّده بداخلها، أكد بداخلها الثقة بأنوثتها، بمعنى أن تكون امرأة حقيقية للثعلب، جعل إيمانها بحبه وبصدقه وبعشقها إياه لا تقبل الشك بل أصبح هو اليقين في كل عالمها.

أغمض جفنيه وهو يهمس بصوت مرتجف مشبَّع بالشجن والعاطفة: «يا إلهي، لا أستطيع أن أصدِّق، ما مررت به معك، كانت رحلة محمَّلة بالطهارة التي خلصتني من كل آثامي.»

همست بلوعة وهي تتشبث بِه أكثر وأكثر تندس فيه وتتستر به، تحتمي من مشاعره الغريبة:

«لا أفهم يا عمر، حقًّا أنا مشوشة عن فهم كل ما قصدته، ما حدث مجرد ...»

سمح لوجهه أن ينخفض ويشرف على وجهها المرتفع نحوه وهو يقاطعها بابتسامة هادئة وقال: «لا، ليس الليلة يا أميرة عمر، ستفهمين حبيبتي يومًا ما، ستفهمين معنى أن تكون روح نقية كنز من كنوز الجنة، مكافأة لعاص غرق في آثامه، ستفهمين معنى أن يكون نقاء حره سببًا لطهارة مَنْ لُوِّثَ بالخطايا.»

عم السكون في أرجاء الغرفة، إلا من أصوات أنفاس كليهما، لم يتخلَّ عمر عن الغرق في عسل عينيها الدافئ، بل شعر بالشبع بعد جوع، بالاكتمال بعد خواء، بالاطمئنان بعد ذعر الرفض، وبالإشفاق على الصراع المحتد بين مقلتيها رغم استسلامها البريء بين ذراعيه.

أخرج نفسًا هادئًا وأمسك خصلة من شعرها وموجة من المشاعر تضرب قلبه، وتجتاح جسده كسيل من حمم نارية مرة أخرى كأنه لم يكتف بعدُ ولم يأخذ من الغيث إلا قطرة، همس وقربها نحو فمه يلثمها

بخفة وقال بنبرة جشَّة: «لم أكن أعلم أنكِ تملكين شعرًا من الحرير بلون حالم كطبعكِ.»

تلعثمت رابحة، واللون القرمزي ينتقل من وجهها ليحتل نحرها وجِيدها، بل شعرت بأن خط نار سرى في كل إنش من جسدها العاري بين ذراعيه، وبتلقائية ردت متهربة: «لا، لقد خدعتك!»

أجفل عمر للحظات، وهو ينظر لها مستفهمًا، فردَّت على الفور وهي تجذب خصلتها بعصبية من أمام فمه: «لقد، صبغت شعري، وفردته بمكواة حرارية، حتى أنال إعجابك ليلة الزفاف.»

لم يفق من إجفاله تمامًا وهو ينظر لها بصدمة، بعد كل ما تبادلاه وبعد كمِّ المصائب الذي اعترف لها بها.

فتح سائد عينيه المرهقة يتأمل وجه إبراهيم المتجهم للحظات قبل أن يعتدل بهدوء من استلقائه على الأريكة الواسعة التي تحتل غرفة الاستراحة تحت مقر مكتبهم، توجه بخطى ثقيلة نحو الخزانة الصغيرة التي يحتفظ فيها بالملابس الخاصة لتنكُّره، أو بمعنى أدق ملابس العودة لجلده الحقيقي، همس ساخرًا لنفسه بينما يسمع صوت إبراهيم يقول: «كيف علمت عن الفتاة سلمى؟ ومن أين لك بكل تلك المعلومات؟»

اعتدل سائد ورمى بالملابس على الأريكة وقال ببرود: «الصدفة لا أكثر هي من ألقت والدة الفتاة في طريقي صباح تلك الحادثة، أما عن المعلومات، ألا تحيا معنا في هذا العالم إبراهيم لتعلم الغابة التي نعيش فيها؟»

لم يتنازل إبراهيم عن تلك المواجهة التي قررها معهم، لن يصمت مرة أخرى عمَّا يحدث، الأمر أصبح أكبر من مجرد رئيس عمل، بل إن الرجلين يجهزان لشيء مزلزل خطير أو كارثة ما وربما يُلقوه فيه، وهو لن يسمح لنفسه أبدًا أن يكون مجرد أداة مستخدمة؛ لذا قال بشراسة: «سائد، أنت تعلم من أنا، تعرف كل شيء عني، لم يختارني عمر عشوائيًّا، وأنت لن تخضعني لكل اختبارات الثقة تلك إلا لأنك تجهز لشيء ما.»

حرَّك سائد كتفيه المتيبستين من آثار نومه، ثم ما لبث أن قال بهدوء مسيطر: «بالطبع أعلم أنك ضابط حراسات خاصة، اعتزلت بعد إصابتك الأخيرة، وأعلم إخلاصك لعملك، وحزمك وعدلك في كل أمر توضع به؛ لذا مؤكد لم نلجأ إليك عشوائيًّا.»

هز رأسه متفهمًا وقال: «طالما أصبحنا مكشوفين لهذه الدرجة، لا بد أن أعرف ما اللعبة التي سوف أُزَجُّ فيها؟»

بهدوء مستفز كان يخلع سائد ملابسه الأنيقة التي حضر بها زفاف عمر منذ ساعات، واستبدلها بالأخرى التي سيذهب بها في موعده الفاصل، وقال: «لن أستطيع بالطبع إخبارك كل شيء، ولكن إجابة على أسئلتك المعلقة، من أين أعلم كم هذه المعلومات.»

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يلتفت بكليته لإبراهيم المتحفز، ثم ما لبث أن قال ببساطة: «سلمى مجرد نموذج عن طرق ما يحدث في مافيا الإتجار بالبشر، لقد استغرقتُ عشرة أعوام كاملة أدرس من بعيد التقارير والخطط المختلفة لخطف الأطفال والكبار والمتاجرة بالأعضاء والرقيق الأبيض.»

راقبه بهدوء وهو يتحرك في أرجاء الغرفة الصغيرة بعصبية، ثم ما لبث أن توجه نحو النافذة الزجاجية المطلة على الشوارع الخارجية، لم

يَبْدُ على سائد أي تغير في حالته أو توتر، رغم معاناته الداخلية، صراع محتد منذ شهر مضى، شعوره بالعجز عن الاستمرار بأذيتها وحقده على نفسه لعدم شعوره بأن يجعلها تدفع الثمن، نفض رأسه مجفلًا ما الذي يفعله؟ لماذا يصر وجهها الباكي الشاحب وجسدها الذي يرتعد بخوف وذعر فور رؤيته يفرض سيطرته على تفكيره.

أخرجه صوت إبراهيم الذي قال مباشرةً ودون مقدمات: «والدة سلمى أمانة لشخص ما عبر موقع التواصل الاجتماعي، وبالطبع كما قلت أنت، كانت تشارك أصدقاءها صور الفتاة؛ لعبت، أكلت، نامت، فعلت.»

شوَّح بيديه بنزق وهو يبتلع غصة مؤلمة، ثم أردف: «أنت تعلم بالطبع أن هذا العالم أصبح نافذة لبيوتنا وحياتنا.»

هز سائد رأسه بتفهُّم يستمع إليه رغم معرفته بالآتي، فأكمل الآخر بعد أن أخذ نفسًا سحيقًا وعينيه تبرقان شررًا رغمًا عنه ثم ما لبث أن قال: «صور الفتاة حظيت بمريض نفس رَغِبَ في الفتاة صاحبة الأعوام الصغيرة لاستغلالها جنسيًّا، كما أوضحت التحقيقات عندما اعترف أحد المجرمين، فاخترق حساب والدتها وجمع كل المعلومات عنها وببساطة أرسل لهؤلاء كل المعلومات بجانب المال وطلبها منهم.»

كبح سائد سبًّا بذيئًا بصعوبة بالغة حتى لا ينعت به جميع الغافلين، ثم قال بنفس مكتوم: «نعم، أعرف أنها طريقة متبَعة، سواء للاستغلال الجنسي للأطفال أو حتى مجرد خطف للتبني، أو أبشعهم يا إبراهيم، وهذا ما تسأل عنه تحديدًا في ما نجهز له ونشركك فيه.»

لم يمنحه فرصه للعودة لهدوئه عندما قال سائد بجسد متشنج: «هل سمعت من قبل عن تجارة الأعضاء البشرية؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان وجه إبراهيم مرغمًا يشحب كليًّا، بل زاغت عيناه بعجز وهو يرى جسد سائد الضخم يرتعش فجأة ويتهدل بوجع وحروفه تتخبط كليًّا عندما قال: «هل سمعت عن سفاحي البشر ومصاصي الدماء وآكلي أعضاء الغلابة؟ هم سبب حربي وما تراه من أفعال متطرفة منا يجب أن يدفعوا جميعهم الثمن.»

حاول إبراهيم أن يبتلع ريقه وسأله بحرص: «الفساد متفشٍّ في كل العالم، فلماذا هؤلاء بالذات؟»

هل رأى لمعة دمعة حارة في عين الرجل الصلب أم أنه خُيِّل له؟! تلك الشياطين الحبيسة في مقلتيه تصارع لحرق العالم أجمع: «لأن طفلي كان أحد وجباتهم الرئيسية، لم يتركوا فيه قطعة غيار واحدة ولا نقطة دم لم يمتصوها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

×××

هل يشعر بأنه مشوَّش أو نادم لإخبار إبراهيم سره المقدس هكذا ببساطة؟ لقد درس كل خطوة جيدًا ولن تخرج من بين شفتيه كلمة واحدة إلا إن كان أدارها في عقله عدة مرات لتخرج في الوقت المناسب وللهدف الدقيق، كان يجب أن يلعب على مشاعر إبراهيم الإنسانية وأن يكسب ولاءه الخالص وتعاطفه، وهذا ما حدث: «آسف حبيبتي لاستغلال بشاعة ما حدث لصغيرنا، ولكن هو عهد لن أتخلى عنه حتى أضمكِ بين ذراعي مرة أخرى وأجاوركِ في مثواكِ.»

كان حماد يدرك جيدًا النظرة الصلبة القاسية في عينَي سائد وهو يخبره: «ما حدث ماض وانتهى يا سائد، ما تطالب به صعب تحقيقه، ولا حتى مكانتك لديَّ ستجعلني أتواطأ معك.»

قال سائد بصرامة كان يعلم أنه يحتاجها لأن نمسًا خبيث بارع الذكاء كحماد يعلم جيدًا كيف يتلاعب بفرائسه، متى يُحْكِم الطوق عليهم ومتى يضعهم تحت ضغط التردد، فقال: «وأنا أعلم أن كلمتنا عهد ووعدنا سيف يسري على رقبة الجميع؛ لذا ترددك أو تراجعك لا أصدقه يا معلم.»

أطرق حماد برأسه للحظات بينما عيناه الشرسة تنظر لمن أمامه بتقييم، ثم ما لبث أن قال بغموض: «وإن سلمتك من غدر بك، ما الذي سأكسبه تحديدًا من التضحية بأهم رجالي؟»

انتفض سائد داخليًّا وكأن تذكر الحقائق وما أخبره به حماد يصفعه صفعات غير مرئية، الألم لا يُطاق ونبش الماضي بآلامه يوئد روحه داخل صدره الذي ضاق، خرج صوته بصعوبة ولكنه شرس مسيطر: «أهو حسان؟ لن يفعلها غيره إن لم تسلمها أنت، لن يجرؤ أحدهم على فعلها، هو الوحيد الذي كان يحاول وضع قذارته عليها، رغم معرفته أنها أنثاي وتخصني.»

الصمت المهيب عمَّ في أرجاء عشة حماد التي بناها كعرش ملك متوج داخل وكره، نظر لسائد بجمود متذكرًا ذئبه الغالي الذي تفوق على جميع أقرانه وقتها في الجَلَد والتحمل، في التعلم السريع واحتراف السطو والبلطجة، لا يتذكر حماد مرة واحدة أرسل سائد فيها لضرب أحدهم وأتَاه مهزومًا، تذكر أيضًا أنه أبعده تمامًا عن تجارته السرية في بيع كل رأس من هؤلاء الصغار المهمشين؛ لمعرفته أن هناك جزءًا صغيرًا جدًّا داخله نضيف ومشفق حتى وإن كان يرفض إظهاره، ولكن مع آية الصغيرة كان يتضح ضعف ذئبه نحوها، لن يكذب على نفسه، لقد أراد التخلص من الفتاة، حتى لا تكون أحد نقاط ضعف ذئبه، ولكن عاد يعده بزواجه منها؛ ليكون تحت سيطرته حتى أنه رفض المال الذي عرض عليه لبيعها هي وجنينها لذلك الطبيب الذي كان يرسله «غسان الهاشم»،

ولكن حقد حسان أو ربما كما برر له أن الفتاة كشفت أكثر مما ينبغي فكان يجب الخلاص منها وعلى الفور.

شمخ حماد برأسه هيمنةً وهو يرمي في وجه سائد كلماته: «البكاء على الأطلال لن يعيدها لا هي ولا ولدك؛ لذا أريد أن أفهم ما الذي تريده يا سائد؟»

لم يتنازل سائد عن فرض سيطرته وعاد سريعًا يتوحش وجهه ونبراته وقال بقوة: «القصاص، أريد القصاص يا معلم، وليس الانتقام.»

عاد حماد لتأمله طويلًا بغموض قبل أن يتنازل أخيرًا وقال بنبرة جافة: «القصاص أو الانتقام، كلاهما هدف واحد لن يفرق مسماه؛ لذا هو حقك وأنا معك فيه ولكن أريد مقابلًا مغريًا لتضحيتي.»

كان الصمت من نصيب سائد، لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه القاسي وابتسامة ملعونة ترتسم على شفتيه، ثم قال بنبرة جاءت عميقة: «أنا يا حماد المقابل، كل رأس ستسلمها لي سيكون مقابلها الآلاف لا بل الملايين من المال وفوقها روح ذئبك.»

قال حماد بنبرة أجشَّة: «هل تدرك ما تقدمه يا سائد؟ فور أن أسلمك ما تريده لن أرحمك وأنا أطالب بنصيبي من الصفقة.»

قال سائد بخشونة متهورة مدروسة جيدًا: «لم أمض أعوامًا أخطط فيها للعودة وانتقامي لأتردد الآن.»

صمت لبرهة قبل أن يرفع عينيه الداكنة قوية مسيطرة وقال: «ومن أخبرك أني أريدك أن تسلمهم لي؟ أنا فقط أريدك ألَّا تتدخل فيما أفعله بهم، وأريد منك العون إن عجزت للوصول لاسم أحدهم أو كان غائبًا عن بصيرتي.»

ابتسم حماد ببطء وقال بنبرة أشبه بالفحيح: «لا أظن أبدًا، إنك غفلت عن أحدهم، ولكن هناك من ستعجز عن الانتقام منه كغسان الهاشم.»

الغضب المتوحش هو ما احتل ملامح سائد هذه المرة، بينما يداه تتقبض بجانبه وقال بنفس مكتوم: «أعرف ويكفي تدمير مشفاه والحقير فهمي.»

قاطعه حماد وابتسامته تزيد كقذارة كلب مسعور يلهث ولعابه قذر يسيل من بين ملامحه الإجرامية عندما قال: «لا، غسان ترك فتاة من بعده، جميلة فَرَسَة، حتة طرية ومغرية، وقد رصد فهمي الكثير مقابل رأسها ورحب كثيرًا بمعاشرتها قبل ...»

«يكفي»، هدر بها سائد رغمًا عنه فاقدًا لأعصابه واتزانه ومنطقه، وصدره يهبط ويعلو بانفعال هستيري، بينما يده تحفر في خصره حفرًا نارية مقاومًا ألا يتوجه إليه ويقوم بقتله، همس سائد بصمت داخله:

«الحقير النذل القذر، كيف يخبرني أنه تخيل امرأتي مع أحد الأنجاس؟! ذنب آخر سيكون سببًا لرميك في الجحيم يا حماد الكلب، ولكن صبرًا حتى أتخلص من رؤوس الأفاعي ثم ألتفت لأذيالهم.»

بينما تعلو وجهه نظرة إن كان حماد منتبهًا لها لكشف جنون الآخر الذي يكاد أن يحرقه حتى يذيب عظامه، عبس حماد بغير فهم قبل أن يقول ببطء ولم يصله سر غضبه: «لماذا أخبرك إن كنت تسعى للانتقام؟ فالفتاة تعلم الكثير جدًا من أعمال والدها وقد تكون تعويضًا جيدًا لك، قبل أن تسلمها لي بالطبع.»

«ماذا تعنى بأنها تعرف؟ هل كانت طرفًا في صفقاتكم؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ابتسم حماد بفحيح غريب طامع وهو يقول: «نعم، فالبنت سر أبيها يا سائد.»

كان كتفا دجوى يهتزان بقوة وهي تقوم بإفراغ معدتها الخاوية في الأصل، دموع الانكسار تهبط بحرقة رغمًا عنها، بينما توقن بحقيقة وضعها الجديد ضمت بطنها بقوة تهز رأسها المنكس نحو الأرض، شهقتها خرجت بصوت شبه هستيري وهمست بلوعة: «رباه، لمَ أتيت؟ ما الذي فعلته؟ كيف سمحت لنفسي بأن أمنحه أضحية أخرى مَن دمي؟!»

هبطت دجوى على أرض الحمام البارد، تراجعت ببطء نحو الحائط لتسند بظهرها عليه وهي تحيط نفسها بكلا ذراعيها، ازداد بكاؤها حرقة، والألم والذعر يفيضان من كل دمعة كانت تفر من عينيها المتورمتين، متذكرةً بعين الخيال الشهر الذي مضى معه فيحترق قلبها حرقًا وهي تدرك وضعها جيدًا كعاهرة ساقطة يستغلها سائد في فراشه بعد أن أوهمها بالزواج، بعد أن فرض عليها كل قيد، وبعد أن حبسها في تلك الزنزانة الإجبارية محبطًا لكل محاولة فرار وهرب، لقد حاولت، يشهد الله أنها حاولت الهرب وأن تطالبه بتركها بعد أن أخذ غرضه منها، ولكن كانت صدمتها الثانية فيه عندما فجر قنبلته الأخرى وهي أنه لن يتركها إلا وهي جثة هامدة، لن يحررها إلا إن أخذ قطعة من أحشائها تحمل دماء والدها، أحاطت بطنها المسطح بغريزة دفاع قوية، بينما تتوسل بصمت أن يكون ذلك المؤشر مخطئًا، ستوهم نفسها بأنه مخطئ كما أوهمت نفسها وهي تدرك جيدًا بطلان حجتها أن سائد ما زال زوجها مكتفية بأنه أشهر أمام الجميع وأنه ما زال يخبرهم أنها زوجة له، امرأته وليست مجرد محظية يفرغ فيها حاجاته رغمًا عنها،

رفعت دجوى رأسها تنظر من خلال باب الحمام المفتوح نحو فراش سائد بمزيد من الخزي والوجل، متذكرةً محاولتها للتمرد والصراخ لأمره بتركها وينتهي بها الحال فوق فراشه، يثبتها بجسده ويغطيها برغبته ويكبلها بوحشيته، ترفضه وتقاوم وتصرخ آمرة إياه بالتوقف بتركها، تتهمه أنه مغتصب حقير.

ولكنها تدرك - كما يدرك - أنها في نقطة ما تفقد المنطق والعقل ومبدأها وفقط تستسلم لعاطفته وللرغبة المطلة من عينيه، وتتخلل هدير أنفاسه التي تمشط كل إنش منها، التقزز منها ومنه ومن الظروف ومن والدها سامحه الله هو ما يسيطر عليها فور أن يرتفع جسد سائد عنها، لا يتفوه بحرف واحد وهذا من حسن حظها رحمةً بها، مؤكد لن تحتمل أبدًا مزيدًا من كلماته السامة، بالتأكيد هو يدرك جيدًا باستسلام جسدها اللعين وقلبها المتواطئ لحبه.

عاد بكاؤها يتعالى مرة أخرى، الضعف والوهن الذي أصبح لا يفارقها يسيطر على أطرافها المتعبة، بينما تكرر بحشرجة كعصفور صغير مسكين وجد نفسه في أَسْر صقر جارح لن يتوانى لحظة في تمزيقه قبل التهامه: «هو فعل، ما ذنبي أنا غير أني وثقت بك وأحببتك يا سائد؟»

رباه، إنه الألم بعينه والوجع بمرارته والعذاب بكل جحيمه، ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

أمام الجنون الذي كان يتراقص في عينيه، ذلك المزيج من الصدمة والألم؛ عرفت دجوى بأنها وقعت في فخ آخر ومصيبة أخرى، وهذه المرة لن يرحمها سائد مطلقًا، جحيم صوته الذي كان يأتي بشراسة أسد وجد

نفسه عالقًا في شيء مبهم لم يكن يعرفه: «ما هذا دجوى؟ ألم تخبريني بأنكِ بريئة ولم تعرفي ما الذي أتحدث عنه؟»

للحظة واحدة، كان كل ما تفكر فيه دجوى القفز عليه وأن تمزق وجهه بأظافرها انتقامًا وكراهية لما يفعله بها، لكذبه عليها منذ معرفتها إياه، وأخيرًا لمنح نفسه الحق والتفتيش بين ملابسها وعثوره على سرها المخزي!

شحب وجهها حتى استحال لقطعة من قماش الكفن الأبيض، جسدها الضئيل تراجع للوراء بغريزية، بينما هو يقترب خطوة خطوة نحوها بتمهل خطر متوعد، سيقتلها لن يبقيها على قيد الحياة، لن يمنحها حتى فرصة لتوضح حقيقة إجبارها على ما فعلت.

جمدت عيناها برمادها المنطفئ، كانت تحدِّق في حدقتيه الداكنتين بذهول مصدومة شاحبة تمامًا ومرتعبة، تمتمت باضطراب:

«كيف وجدت تلك الأوراق؟ كيف عرفت عنها؟ لقد ...»

بترت عبارتها وهي تصرخ بذعر عندما شعرت بأصابعه القاسية تُطْبِقُ على نحرها، يرفعها دون تردد عن الأرض عدة سنتيمترات وهو يقول بفحيح: «أنتِ تاجرة أعضاء بشرية مثلهم يا دجوى، تمثلين عليَّ البراءة، تجعلينى ألوم نفسي على ما أفعله بكِ وأنتِ في الأصل مجرد حشرة أخرى قذرة.»

انتفضت بين يديه تتشبث كفَّاها بذراعه في محاولة واهية لموازنة نفسها، كانت عيناها المتوسعتين المتوسلتين تنظر له كعصفور وجد نفسه فجأة بلا أجنحة بلا عش ضائعًا وخائفًا، أخبرته بتحشرج: «أنت لا تفهم، امنحني الفرصة وأنا سأشرح لك.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ازداد ضغط يده على عنقها وملامح وجهه تتوحَّش وينقلب وجهه بالغضب وهو يخبرها: «كاذبة قبل أن تنطقي، لقد نفيتِ مرارًا معرفتكِ بما كنت أتحدث عنه، لقد وقفتِ في وجهي تتهميني بالكذب والادعاء على أبيكِ بما حدث لحبيبتي.»

ضَغْطُ أصابعه القاسية لم تمنع أبدًا ذلك الألم الذي شَطَرَها نصفين، «حبيبته!» زوجته الوحيدة دائمًا وأبدًا والتي لن ترقى امرأة أبدًا لمكانتها لديه، «حبيبته» التي قلب العالم وفعل المستحيل لينتقم لها منها هي، رغم تهديد الموت هتفت بتقطع خشن: «وأنت حقير كاذب مخادع مغتصب خسيس، أنت كل هذا وأكثر.»

كان الغضب كبيرًا، كبيرًا إلى حد أعمى بصيرته، أفقده اتزانه حتى ورماد عينيها يتراءى له برسائل غامضة تَأْسر جزءًا فيه وتضعه أمام صراع نفسه مرغمًا، جزَّ على أسنانه وهو يخبرها:

«تاجرة البشر، ابنة مصاص الدماء، على حق أنا كل هذا وأكثر، أنسيتِ أني بالأساس بلا أصل، طفل شوارع بلطجي بلغتكم، ربما أكون نتاج عاهرة ما ورجل غيَّب الخمر رأسه أو تكمن فيه الشهوة فالتقته في صفقة جنس نارية وكنت أنا، فما الذي تتوقعينه؟»

فلتت شهقة بكاء متألم منها وقدميها تحاول ضربه ليتركها، أخبرته: «توقف، لا يعنيني مَنْ أنت، فقط اتركني.»

ثبت ركبتيها بجسده ملصقًا جذعه بجسدها الضئيل، مرغمًا كانت قوة إجباريه تفيقه من هول صدمته فيحاول أن يوازن جسدها المرتفع في الهواء، يخفف من ضغط أصابعه حول عنقها دون أن يتوقف عن إرعابها أو تركها، وقال دون أن يرحمها: «حشرة وضيعة، من تظنون أنفسكم

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لتتاجروا بنا؟ مَنْ منحكم الحق لاستغلال الفقراء وأطفال الشوارع في دناستكم؟»

صرخت كالمجنونة وجسدها ينتفض بين يديه وأنفاسها تتلاحق بهستيرية تحاول استنشاق أكبر قدر من الهواء:

«لم أتاجر بأحد يا غبي، ألا تتذكر حالي عندما وجدتني؟»

لم يتنازل عن شراسته ولم يحاول أن يتفهم ما تقوله بعد كذبها عليه عندما زأر بها: «كاذبة، ما تقوله تلك المستندات غير ما تدَّعي.»

عيناها الواسعتان كانت تحدق فيه كغزال شارد جمد عندما هجم عليه ذئب مفترس فجأة، لم تجد ما تقوله خائفة ضائعة، وفقدت كل ثقة وإيمان كان لديها فيه، أتخبره عنهم؟ أتكشف كل شيء أمامه؟»

قال بصوت خافت صارم جمد الدماء في عروقها، وجعل الخوف يزحف فوق جلدها، مقشعرًا إياه:

«لن أرحمكِ، ستظلين هنا عشيقة، عاهرة لفراشي حتى تأتي بطفل من نسلكِ ونسله وبعدها ...»

صمت مطرقعًا بلسانه منتشيًا بالألم والرعب الذي ارتسم على مُحَيَّاها: «لن أسمح لكَ باستخدامي مرة أخرى واغتصابي، سأقتلك وأقتل نفسي قبل أن تمتد يدك الآثمة لطفلي.»

أخفض أصابعه المرتخية بالفعل عن نحرها، وبدون تعبير أو رد كان يتفحص مكان آثاره بينما يميل طرف فمه بابتسامة مستلذة جدًّا بأثره ورعبها البادي وقال بأحرف مضغوطة:

«أعتقد أني أثبتُّ لك أكثر مِن مرة أنكِ ساقطة بالفطرة، أنا لم أغتصبكِ دجوى، أنتِ مَنْ تُسلمين لشهوتي فيكِ بكل إرادتكِ، أما عن الطفل من يعلم قد يكون زُرِعَ في أحشائك بالفعل.»

تهربت بعينها ودموع الألم والخزي تهبط مدرارًا، الغضب يضرب بوتيرته بين عروق جسدها اللين فتحاول أن تدفعه عنها بحدة تصرخ فيه بأمر أن يتركها ويبتعد.

لم يهدأ الغضب المتفاقم داخل قلبه وعقله، الحقد الأعمى يتصاعد بنغمات قاسية، وهو يدرك أنه لم يرغب امرأة قط كما يرغبها هي، لم تستطع أنثى قط إخراج ذلك الجحيم الذي يعيشه ويلقيه بين ذراعيها، حتى حبيبته الصغيرة لم تستفز فيه، تلك الحاجة المؤلمة والضارية لامتلاكها، تبًا لمَ لا يتوقف؟ لماذا يجد نفسه ينقاد لأخذها مرغمة؟ لماذا يشعر أن هذا الأَمر أصبح يفرغ فيه شحنات ألمه ووجعه قبل أن يصفعها به؟ حبيبته الصغيرة لن يكون في قلبه سواها، لن تمتلكه امرأة مثل آية يومًا.

لم يكن يشعر بالصمت المسيطر إلا من صوتها الذي صار حادًّا شرسًا لتأمره بالابتعاد، جسدها الضئيل يضربه بالفعل ويقاومه، بينما لا ترى عيناه إلا رمادها المنطفئ، رجولته لا تستشعر إلا بأنوثتها، أنفاسه يتغلغلها عبيرها المألوف، هو يريدها أكثر من أي شيء آخر ليفرغ فيها كل غضبه، مبررًا لنفسه عندما أطبق بشفتيه على شفتيها كاتمًا بكاءها، ساعداه القويان أحاطا خَصرها وبدون تردد كان يتوجه نحو الفراش مبررًا لنفسه أنها يجب أن تعاقب قبل أن يستمع لأكاذيبها وقبل أن يُلحقها بهم.

ألقاها على الوسائد فتراجعت منكمشة لتخبره: «انتظر، سأخبرك كل شيء، أنت تفهم خطأً أرجوك يا سائد أنا لا أريد.»

اعتلى الفراش جالسًا على ركبتيه، ثم جذبها نحوه بجمود ممزقًا قميصها بخشونة مقصودة، وهو يقول ببرود رغم نارية جحيمه الخاص: «ومتى أردتِّ؟ كل مرة ترفضين وأنا أثبت لكِ بالتجربة أنكِ أكثر راغبة.»

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول بقهر: «أنت قذر، أمثالك لن يجدوا الراحة يومًا، أنت حقير تبرر لنفسك ما تفعله بي بينما أنت مجرد...»

رأت الألم يحدد معالم فمه ولكنه لم يتخلَّ عن بروده وهو يكمل ما ينتوي، وقال مقاطعًا: «حافظي على الفكرة إذن، على رؤيتكِ الصحيحة تلك، ذكري نفسكِ أن ابن الشوارع التف على ابنة الحسب وجعلها تتغنى بعشقه بشهامته قبل أن ...»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم يكملها وقد وصلتها جملته المتقطعة كاملة، حاولت أن تتوسل إليه أن يتوقف وتشرح له حقيقة ما رأى وتعلمه كل صلتها وما عرفته، ولكنه لم يستمع وهو ينتهك روحها ويخترق ذلك القلب العاصي، الانتفاض خوفًا ووجلًا ككل مرة هو ما صدره منها، محاولة المقاومة والتمرد، والذي يسيطر عليها بعضلاته القوية، كانت تشعر بالقهر وبالجروح التي تغور داخل صدرها ولن تجد العلاج يومًا، أحست بمقاومتها تبهت وبجسدها الملعون يرتعش استجابة، ما الذي يفعله؟ لقد قرر سائد أن يلعب على مشاعرها وبراءتها لعبة منحطة أخرى استبدل خشونته بالحنان وقوته بالسيطرة، لقد كان يتحكم فيها ويعرف متى يسيطر عليها بخشونته ومتى يخضعها بنعومته، دوَّى قلبها كهدير صاخب هذه المرة لا لتصدَّه سوف تتحرر منه، دموع المهانة بللت شفتيه، ولكنه أبى أن يتركها.

«أنا حامل بطفل حرام منك»؛ توقف وأنفاسه الهادرة كانت تخرج عنيفة، هل استشعرت الذعر للحظات بين ملامحه التي ارتفعت لينظر إليها مجفلاً، تبدلت كل رقته في لحظة وعاد وجه الذئب للتحكم عندما قبض عليها بقسوة، ووجهه انخفض وأخبرها بنبرة لم تستطع أن تحدد معالمها: «ما أريده يأتي أولًا وأنا أريدكِ الآن، ثم ستحاسبين على كل أكاذيبكِ.»

تهدلت يداها بجانبها باستسلام يائس مقهور وتركت لذئبها يحرر كبته وغضبه.

أفلتت منها شهقة قوية وهي تحاول كبت نشيجها، أمسكت طرف الشرشف بقوة تلف نفسها به، لا لم يكن شعورًا بالانتهاك هو ما أحسته، بل الذل والهوان والألم، الاشمئزاز الذي يغالب ملامحها ويجعلها تتمنى الموت في تلك اللحظة، بل تمنَّت لو أنها ماتت يوم أن ذاق والدها ذلك الكأس الذي شرب منه العديد من ضحاياه، ليته لم ينقذها ولم يصل إليها، ليته تركها لتعيش الامتهان على يد آخر غير الرجل الوحيد الذي أحبته بصدق، أغلقت عينيها بوجل من تلك الأفكار المتطرفة التي تغزوها من تلك القسوة التي احتلت عقلها، «رباه، هل تمنت أن تقع في شَرَكِ تجارة الرقيق أو بيع الأعضاء بدلًا عمَّا تعيشه مع سائد؟»

أجهشت بالبكاء غير قادرة على احتمال جنونه وتطرفه واحتقاره لها واتهامه دون أن يمنحها حق الدفاع والاستماع، أحست بأصابعه القاسية تمسك بكتفيها وتديرها إليه ينظر لها من علٍ وعينيه السوداوين برَّقتا بغضب مخيف، وقال بصوت منخفض جمَّد الدماء في عروقها بينما انخفض وجهه ليبتعد عنها مسافة لا تُذْكَر: «كذبة حملكِ لن ترحمكِ مما أنتوي فعله بكِ بعد أن علمت حقيقتكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فتحت عينيها تنظر له من بين دمعها المنساب، ورماد عينيها المنطفئ يتحول لرماد باهت ميت، فقد حتى لمعة بريق الحياة، لم تخف منه، وقد فقدت كل شيء بالفعل، حتى وهو يضغط ذراعيها بأظافره ويغرس مخالبه في لحم جسدها المنهك، يهددها جسديًا، وقد بدا قادرًا على إيذائها حقيقة.

أطلقت ضحكة مريرة جعلته يجفل للحظات وكأنه كان يتمنى بداخله ألَّا يُزْرَعَ ذلك الطفل في أحشائها حقيقة وهو يسمعها تقول:

«لم أكذب، يبدو أن القدر يخدمك بشكل جيد، ويتواطأ عليَّ ليدمر آخر ما تبقى مني، أنا أحمل في ابن حرام يا سائد، هذا لا يقبل الشك.»

رفع كفَّه بغضب يمسك خصلات شعرها القصيرة، وجذبها بقسوة رافعًا إياها نحوه وقال من بين أسنانه: «أنا لم أمسسكِ إلا منذ شهر مضى، وأنتِ أسيرتي هنا كيف تأكدتِّ؟»

أغلقت جفناها سريعًا وجسدها كله تجتاحه رعشة خوف، انكمشت لا إراديًا تحيط نفسها بكلتا ذراعيها، ثم ما لبثت أن قالت بنبرة مرتعبة: «أنا أعرف بعض القواعد البسيطة في الطب والتأكد من الحمل لا يقبل الشك خاصة مع تأخر ...»

أغلق جفناه وارتخت أصابعه من حولها، وخرجت أنفاسه بزفير وشهيق عدة مرات، صوتها المرتجف مع رعبها الواضح كان غُصَّة أخرى تذكره بمشهد مشابه من الماضي، فتح جفناه لتصعقه رغبته العنيفة بها، نظراته التي انحدرت تلتهم جسدها العاري مرغمًا، ما زال يريدها، ما زالت رغبته لم تنطفئ فيها، ما الذي يحدث معه؟ ما السلطة التي تمتلكها ابنة غسان عليه؟ لماذا يهدر عقله مطالبًا بها عند كل تماسٍّ بينهم، وهو الذي رفض الاقتراب من نساء يفوقونها جمالًا وبراءةً؟!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

هزَّها بقوة وقد فقد بروده لصدمته في نفسه: «تقصدين أنكِ تعرفين كيف تخديرهم، أو ربما نهشتِ أجسادهم بنفسكِ.»

رغم القهر الذي يحيط بها هتفت فيه بصوت مبحوح إثر بُكائِها: «أنت غبي جاهل يا سائد، كيف تعتقد أني فعلتها، دراستي إدارة الأعمال يا أحمق وليس الطب.»

رفع يده لا إراديًّا ليضربها إلا أنها توقفت في الهواء للحظات، ورأسها يرتفع سريعًا لتتبع حركة يده بذعر، وارتجاج جسدها بين ذراعيه يرتفع بوتيرة مؤلمة، تجمدت أطرافه بردًا رغم دفء الغرفة من حولهم، لم يمهل نفسه التفكير لثوانٍ وهو يقفز من الفراش وقد صدمه ما وجده في نفسه، ربما فعل الكثير من الأشياء السيئة معها، الكثير من الحضيض الذي حرص أن يشعرها به ولكن أن يصل غضبه لضربها، أن يرميها بامتهان إلى أسفل الدرك، للحظات وقف في منتصف الغرفة مضطربًا، وفي نفسه اكتشافات مما عرفه عندما هدر حماد بما قاله، تذكر كيف جاء للمنزل وبدون تردد كان يتوجه لغرفتها التي اعتقدت الحمقاء أنه من الممكن أن يسمح لها بالتواجد فيها، وهناك علم دون أن يجهد نفسه بتلك الحقيبة التي كانت تدسها بين ملابسها بحذر ولم يهتم من قبل أن يكتشف ما بداخلها معتقدًا أنها مجرد حقيبة نسائية ربما لا تحتوي أكثر من بعض ذكريات حياتها السابقة، ولكنه الآن علم بحقيقتها التي قتلت جزءًا متمردًا منه كان يريد أن يثور ليجعله يشعر بالتعاطف نحوها، تحرك نحو الخزانة يسحب بعض الملابس لنفسه، سمعت دجوى صوت حفيف ملابسه بصمت يخالطه الرعب غير قادرة على التحرك أو الاعتراض أو حتى الهرب، الهرب من ماذا وإلى أين وقد خسرت كل حربها بالفعل، أتهرب من موت لموت آخر ينتظرها؟!

سمعها تقول من بين بكائها الذي لم يتوقف بصوت مضطرب يخالطه التشوش كأنها فقدت جزءًا من عقلها أو حتى لم تع ما تقوله: «أنا لا أريد طفلك، يجب أن يموت، أنا سأفعل المستحيل لإجهاَضه، حتى وإن فقدت حياتي معه، أنا لست من غابتك يا سائد كي آتي بطفل لا يحمل هوية، طفل جاء من حرام عبر خداعك وانتهاكك لي.»

استدار نحوها ببرود بعد أن سمع ما قالته، بينما يخفي انفعالاته وبدا وكأنه بوغِتَ بآخر ما يتوقعه منها؛ تقتله وتموت معه.

سار نحوها مرة أخرى وبهدوء غريب جلس بجانبها وقال: «ومَنْ قال: إنه طفلي يا دجوى؟»

حدَّقت مذهولة بوجهه الصلب وملامحه الجامدة، بريق غضب وحشي لمع في عينيه المتأججة دائمًا بنيرانه كيف غفلت عنها في الماضي؟ متى تاهت عن حنكتها وذكائها؟ غريزتها لالتقاط الخطر والشعور بالشر الذي يتربصها وقد حمتها غريزتها تلك لخمس سنوات، تمتمت برعب يخالطه الذعر: «ماذا تعني أنه ليس طفلك؟ أنا لم يمسسني غيرك.»

للحظات فقط شتت انتباهه جسدها الذي يرتعش بشدة دون قدرة لها على التوقف، عبس وهو يضيق ما بين عينيه، هل أوصلها لدرجة من الخوف والجزع تجعلها تفقد شعورها ببرودة جسدها كل هذا الوقت؟ ربما هو لا يهتم، ربما هذا هدفه من البداية، ولكن مؤكد هو لا يريد أن يفقدها سريعًا دون مقاومة منها، دون تلك القوة والتحدي الذي لمسه فيها من قبل والتي لم تَطْفُ للسطح بعدُ، مدَّ كفاه وسحب الغطاء الثقيل بهدوء كان يلفُّه حول جسدها بإحكام، نظرت إليه غير مصدِّقة فتراجعت للخلف وَجِلَة في محاوله مضنية للهرب منه، قال أخيرًا بذات الهدوء: «ولن يمسسكِ غيري يومًا، أنا بدايتكِ ونهايتكِ يا دجوى.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قالت باضطراب وكأن عقلها الباطن لم يستوعب هدف سائد الحقيقي لتشويشها ودفعها للجنون: «إذًا ماذا تعني أنه ليس طفلك؟!»

صمتت للحظة واحده قبل أن تتوسع رماديتها بذهول وكأن صورة ما مرعبة مرت بعقلها، شهقت دجوى بذعر بينما تراجعت ضامَّة نفسها منه تتشبث بالغطاء الذي سترها هو به مسبقًا، بالفعل كانت الصدمة من نصيب سائد هذه المرة عندما سمعها تخبره بوجل وكأنها امرأة فقدت عقلها بالفعل: «رباه، هل خدرتني في مرحلة ما وجعلت أحدهم يعتدي عليَّ؟!»

انتفضت من جديد وارتعشت شفتاها بينما تلتف قبضتاه حول ذراعيها ليمسكها منهما ويهزها بقوة وصوته يزداد صلابة وهو يخبرها من بين أسنانه: «أي قذارة كبرتِ فيها ليخطر بعقلكِ أني سآتي برجل آخر يلمس زوجتي؟!»

انحدرت عيناها نحو شفتيه نحو صراخه المتملك واعتراف تترجاه منه، تتعشم فيه بغباء همست بتوسل مرير: «زوجتك!»

توقف كل شيء للحظات، بينما براكين الخطر تتفجر حولها، الغموض عاد يكتسي ملامحه وهو يتأمل التعابير المؤلمة على وجهها: «أنتِ زوجة في قانوني، أنثاي يا دجوى، وأنثى الذئب لا يجرؤ آخر على النظر نحوها وإلا حياته وحياتكِ ستكون الثمن حتى لو كنتِ مرغمة.»

نبراتها المجروحة المتألمة جاءت بغرغرة متوجعة وقالت: «وأمام الله أنا زانية، خدعتني وحولتني لغانية، وأنا أعلم ببطلان ما يحدث، بل أعلم بجهنم التي تنتظرني وبالعار الذي حمَّلتني إياه، فما تقوله لا يمت إلى أي شريعة سماوية يا سائد.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

توحشت ملامحه وهو يبتسم ابتسامة مخيفة، ثم ما لبث أن تحرك نحو الأوراق التي ألقاها سابقًا عندما أخضعها لرغبته فيها، انحنى ليلتقط ذلك المغلف وقلَّب فيه ببروده الجليدي المعتاد وقال: «الأمر لا يشكل فارقًا لديَّ.»

جفَّت مقلتاها من دمعاتها وأصاب قلبها كتلة من النتروجين فجمدته؛ إذ أصبحت لا تشعر بالألم الشديد من تلك الطعنات الموجهة إليها بصمت، روحها تخفت ببطء، الاستسلام المرير يكبل كل جزء منها، بينما يدها التي تختبئ تحت الغطاء كانت تمسد أحشاءها لا إراديًا، تنازل أخيرًا وقال بنبرة مرعبة متهكمة لم تصل إلى عقلها المجمد بفعل خطورتها: «تخافين جهنم دجوى! تشعرين بالعار لأنكِ زانية، ولم تشعري بأي ندم وأنتم تختطفون حثالة الشوارع؛ لتفرغوا أجسادهم الصغيرة من أجل المال وشراسة نفوسكم القذرة.»

تمتمت دجوى بهمس مرهق وكأنها استنفدت كل قدرة لها بالدفاع عن نفسها: «لم أشترك في أفعالهم ولم أفرغ أحدًا، متي ستصدقني؟»

قال بجفاف: «أنا لن أصدقكِ يومًا.»

صمت لبرهة ليستعيد سيطرته على ذاته، ثم ما لبث أن قال: «النهاية واحدة، لن يختلف اكتشافي لحقيقتكِ شيء، فاسمكِ يحتل تلك المستندات بالفعل والعديد من الصفقات يذيِّلها إمضاؤك.»

بساقين مرتعشتين كانت تجاهد للوقوف أخيرًا ومواجهته، قالت بقهر: «إن درستها حقًّا كما كنت تدَّعي لعلمتَ أن ذلك ليس أنا ولا إمضائي، إنما محاولة من قتلة والدي لإشراكي في الأمر تأمينًا لأنفسهم إن تجرأت وبلَّغت الشرطة بعد معرفتي بكل شيء.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قاوم رجفة عنيفة هزَّت صدره من تخيله لما تقوله، لا ينكر أنها في مرحلة ما من وجودها بين ذراعيه واستجابتها المخزية لكل اجتياح بري منه، جعلته لا يشك فقط بما رآه، بل أعادت برمجة عقله للثقة في براءتها، بأن هناك تفسيرًا ما لاكتشافه.

لم يردَّ عليها فاقتربت هي خطوة أخرى مترددة وأخبرته بصوت أخذ في الثبات: «أنت قلت: إنه لن يختلف مصيري معك؛ لذلك أنا أخبرك الحقيقة، أما تصديقك لها من عدمه لم يعد يفرق معي.»

تقبضت يداه مكافحًا نفسه ألَّا يتأملها مرة أخرى، فالنظر إلى عينيها المتألمة ألجم كل خلجة في صدره عندما أكملت بهدوء ظاهري: «أنا علمت بكل شيء قبل موت والدي بأيام معدودة عندما تعرضت أنا ...»

قطعت جملتها تلجم نفسها مقاومةً ذلك الألم والمرارة والصدمة التي تعرضت لها إثر اكتشافها، قاومت أمام عينيه موجة أخرى من الألم والانكسار والخزي، أخذت نفسًا مهتزًّا وأكملت بمرارة: «أنت تعلم أن غسان الهاشم مات مقتولًا.»

هز سائد رأسه بصمت موافق يراقب دمعها الذي انساب دون إرادة، قالت بصوت مرتجف: «عندما قُتِلَ، قُيِّدَ الحادث أنه انتحار ولكن وحدي كنت أعلم الحقيقة، علمت أنه عندما حاول أن يوقف ما يفعله قتلوه بوحشية دون رحمة.»

عاد لجفائه وقال ببرود: «كاذبة مرة أخرى، لم يكونوا ليتركوكِ.»

تراجعت نحو الحائط قليلًا تسند نفسها عليه وقالت مستسلمة ببساطة: «لم يستطع «فهمي» وقتها؛ لأن كل شيء كان باسمي ويجب أن يستولي عليه، فقام بتزوير ما بين يديك، ثم استولى على كل شيء، وطردني أنا وأمي من ممتلكاتنا.»

اقترب منها سائد بتمهل وسألها بحذر متشكك: «كيف؟! كلامكِ متناقض.»

قالت بتيه وهي تضع يدها على بطنها المسطح وأخرى على جبهتها وكأنها تقاوم نوبة إغماء إجبارية: «هذا كثير عليَّ.»

قاوم رجفة ورعبًا هو الآخر، بينما تنزلق عيناه تتبع تمسيد بطنها على تلك النطفة التي سكنت أحشائها، وملامحها الضعيفة تذكره بمعاناة أخرى همست له برعب في تلك الخرابة التي امتلكها فيها أول مرة عندما تفاعلت أجسادهم المراهقة غير قادرين على مقاومة تلك الحاجة التي صرخ بها كلاهما:

«أنا حامل يا سائد، تلك المرأة التي تكشف على بنات الوكر أخبرتني، سيقتلون طفلي أو يبيعونه لأحدٍ ما، سأموت يا سائد تصرَّف.»

نفض من ذاكرته بكاء آية المتهدج، وهو يتتبع بألم جسد دجوى الذي انخفض ببطء على الحائط إلى أن جلست على أرض الغرفة وقالت بهستيرية نافية: «لم أقتل أحدًا، يجب أن تصدقني، فهمي أطلق العديد من كلابه نحوي، وتلك الأوراق التي بين يديك كانت لإسكاتي، وحصلت عليها لأن كل من يعتقد أنه ذكي له ثغرة ما، وثغرة الغبي أنه لم يغير أرقام خزانة أبي في ...»

انخفضت نبراتها بخزي وألم ثم قالت: «في ذلك المكان المجهز والذي تُخزَّن فيها أعضاء الأطفال قبل بيعها، لماذا تُصر على إيلامي وتذكيري أنه سادي حقير؟ ألا يكفي ما تفعله أنت؟»

جثا على ركبتيه أمامها وبحسبة سريعة أدرك أن دجوى تُخبئ أكثر بكثير مما اعتقد، ستوصله للعديد منهم بسهولة؛ ألهذا ما زال البحث عنها مستمرًّا؟! ألهذا يريدونها حية قبل قتلها؟ ولكن لِمَ صمتوا عنها

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لخمس سنوات كاملة؟ وكأنها سمعت تساؤلاته فرفعت وجهها تخبره بوجوم:

«قتلي أو اختفائي بعد الإشاعات التي دارت حول أعمال أبي المشبوهة جعلتهم يتوقفون بالفعل، وملاحقتي بالطبع وقتها كانت ستؤكد الحقيقة، بعد أن كشفت أحد أوكارهم القذرة، وحُبِسَ بعض الأطباء لوقت ثم أُطْلِقَ سراحهم لعدم وجود أدلة كافية أو حتى أثر لتجارتهم في ذلك المكان.»

تغضنت ملامحها بألم فمالت إلى الأمام قليلًا تعود لتحاوط معدتها بقوة وقالت ببهوت: «أنا أعلم عنهم أكثر مما يتوقعون، ولكنك لن تصدقني إن أخبرتك.»

رفعت وجهها الشاحب فجأة وقالت بنبرة جريحة ساخرة: «كنت أنتوي إخبارك لتبعدهم عني وتحميني، قبل أن أعرف أنك بنفسك قاتلي.»

قاطعها بذلك الصوت الذي ميَّزت انعدام الرحمة فيه والذي يتلبسه عندما يأتي ذكر أبيها أو تتوسله لإطلاق سراحها قائلًا: «أخبريني واتركي حرية تصديقكِ لعقلي، كُفِّي عن هدركِ وربما بعدها سأترك لكِ بعض البقايا لتحيي بعد أن أرميكِ.»

شَحَبَ وجهها حتى ماثَلَ لون جثة ماتت بالفعل، بينما رماد عينيها يتحول للون السحاب المحمَّل بأمطار لن تنضب من البكاء على أطلال مدينة حزينة تحطمت في مواجهة إعصار، وقالت: «سائد، اترك طفلي، اترك لي ابني واجعلنا نبتعد وأنا سأخبرك كل ما تريد للقضاء عليهم.»

تحرك وجلس بجانبها، وامتدت ذراعاه تطوقها، وانخفضت كفَّاه لتلامس بطنها المسطح وقال بنبرة غريبة: «كنتِ تريدين قتله منذ دقائق دجوى.»

اختنقت وهي تقول بنبرة عاجزة: «أنا لا أريد قتله، ولكنك قلت: إنك ستفعل به ما فعلوه بطفلك، أي قلب صخر تحمل بداخلك؟ أي جنون يتملك عقلك؟ أنا لا أصدق»

من المؤكد أنها لم تر ذلك الألم المتعاقب الذي طعن صدره وصعد ليحوِّل تقاسيم وجهه لنوبة من الضعف والوجع، تقبضت يداه أكثر حولها وقال متجنبًا حديثها: «لمَ قتلوه؟ وكيف اكتشفتِ ما فعل؟»

التفَّت بين ذراعيه تطوف عيناها بملامح وجهه وقالت بخفقة موجعة: «حدث بينهم خلاف فوجدني على طاولة مشرحته جاهزة لنقل أعضائي الحيوية.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شحب وجه سائد وهو يقول بعدم تصديق: «ماذا؟!»

ضحكت بألم وقالت: «أخبرتك أنك لن تصدقني.»

دون وعي أو تعليق آخر كان يضمها بقوة بين ذراعيه ويداه تتقبَّض بإعصار حول بطنها المسطح، تعلقت عيناه في عينيها بصمت مطبق، غير قادر على كسر تلك المرارة التي أحاطت كليهما، لم تستطع أن تصمت أكثر وهي تقول بتشنج بينما ترتفع يداها تستند على صدره العاري بألم: «هل صدمك أن آية ليست فقط من واجهت المشرط يا سائد، أم وسط اغتصابك لي لم ترَ ذلك الشق الذي يُزين خصري؟!»

عادت للصمت مرة أخرى لبرهة ثم أردفت: «ما أصعب أن أمنحك كل شيء، أن أتعشم فيك كل شيء، قمة أملي منك أن تكون كل شيء ولا شيء، لقد وهبتك قلبي وثقتي وحبي، وأنت منحتني الضياع والخزلان فلم أعد أعلم هل الموت على يدك أهون أم تسليم نفسي إليهم لينهشوني أرحم على قلبي وطفلي من اغتيالك أنت؟»

لم يرد لوقت طويل وتضارُب مشاعره تحارب بوضوح براكين عينيه ما بين التعاطف والتردد والقسوة، لم تشعر دجوى إلا بتلك الطعنة الخفيفة المعتادة ويداه تتقبض حول طفلها بقوة وهو يميل هامسًا بجانب أذنها: «لن أسمح لكِ أبدًا بإخراج ذلك الصغير قبل أن يحين موعد انتقامي منكِ، وأنتِ ستخبرينني بكل شيء يا دجوى، وضعي في عقلكِ قبل أن يصلوا إليكِ سأكون قد مزقتهم بالفعل بأسناني، أنتِ أنثاي يا ابنة غسان ولن يقتلكِ ببطء أحد غيري.»

ما بين الخير والشر خيط رفيع، يماثل شعرة متقصفة هزيلة لا تحتاج أكثر من جذب إصبع لتنهار وتتساقط، فيختلط الأسود بالأبيض، وبردة فعله من أدغال الطبيعة يسود الأسود ويتعاظم ويتفاقم؛ لتنقلب كل المعادلة فيصبح المطالب بالحق ظالمًا، والبريء مجرد قاتل عابر طريق بدون تردد حيث لا رجعة منه، حيث لا سبيل من خلاله إلا نحو الندم والفقد، حيث لن يترك إلا الوجع والألم ومرارة الخسارة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

منذ ساعة أو أكثر يحوم ثلاثتهم كذئاب شرسة قررت أن تتحرك نحو أول انتقام حقيقي ربما يشفي بعض غليله، ولكن ما بال انتصارك طعمه مرٌّ يا سائد؟! هل هزتك تلك البشرة الرقيقة التي لمستها وأنت تعلم أن بذرة أخرى منك زُرِعَت بداخلها؟! نطفة لم تُرِدْ غرسها هناك عندما كنت تعذب رماد طيرك الذبيح، تبًّا ما الجريمة التي افتعلها وهو يعلم مصيره الذي حُدِّد منذ خمسة عشر عامًا؟ طفل من دجوى من ابنة غسان الذي انتوى أن يصحبها معه في الجحيم، صغير يأتي به لتلك الغابة ليصبح عرضة لوحوشها آكلي اللحوم البشرية.

«سائد هل أنت بخير؟» جفل للحظة وهو يحدِّق في وجه عمر دون تعبير يُذْكَر، ضيَّق إبراهيم ما بين عينيه مستعجبًا إذ لم ير مديره السابق وشريكه الحالي مشتتًا من قبل، انخفض عمر بقامته يساوي جلسة صاحبه التي لم يتحرك منها منذ ساعات، وقال همسًا: «ما الذي يحدث معك؟ ولماذا تهرب هنا منذ يومين؟»

احتقن وجه سائد بالغضب وهو يقول بتجهم: «ماذا تعني أني أهرب؟ ألا تراني بينكم؟»

أخذ عمر نفسًا عميقًا مصبرًا نفسه حتى يعلم ما الذي يشغل بال صاحبه عن قضيتهم الأساسية، ثم ما لبث أن قال بخفوت: «منذ ليلة زفافي - أي منذ شهر مضى - وأنت لست سائد الذي أعرفه، كما أني أعلم أنك تبيت في الشركة ليلتين متتاليتين.»

ساد الصمت للحظات، وكل منهما ينظر للآخر بعمق كاشفًا كل خلجة داخل روحه دون أن ينطق سائد الذي جُرِّدَ من المشاعر الإنسانية لسنوات، عقد عمر حاجبيه وذلك الخاطر أجفله هذه المرة بينما الآخر أسبل أهدابه وقال بهدوء لا يعكس جحيمه الذي يحياه:

«تعرف أني لن أخبرك إلا ما أريد؛ لذا دعنا نقول: إننا بدأنا ساعة الصفر وأحتاج لكل ضبط نفس أستطيع الحصول عليه، فالتنقل بين حياتين ليس بالشيء السهل.»

ابتسامة بطيئة خبيثة ارتسمت على شفتَي عمر وهو ينصب جسده مرة أخرى وقال: «أتذكر أن تحطيمها كان هدفك، وليس تشتيتك وفقدان سيطرتك.»

لم يأته الرد فعلم أنه دخل قوقعته الباردة المغلقة مرة أخرى، ومن يلومه؟ لقد مر على زواجه هو الآخر شهر كامل شهر بين أركان الجنة

مع أكثر امرأة تملك صفات فطرية نقية، امرأة حنونة وشجاعة، عنيدة مندفعة، حالمة وتملك قلبًا من الذهب ونقاءً يماثل الطفولة، ولكنها للأسف تفقد الحكمة واستشعار الخطر.

ابتسم بألم متذكرًا أحلام امرأته وحبيبة قلبه في بيت دافئ وزوج محب وأطفال، تمنحهم إياه لتعوضه كل آلامه، ليت باستطاعته تحقيق كل أمانيها، ولكنه بالتأكيد لن يضنَّ عليها بقلبه وحبه وعشقه طالما ما زال في صدره نفس يتردد.

سمع صوت سائد يشركهم أخيرًا في خطته لهذه الليلة والتي ستكون ضربة قاضية يتمنى من كل قلبه أن تتم دون خطأ، ربما تنطفئ نيران قلب صديقه قليلًا ويهدأ حتى ليلة واحدة.

«الليلة ستكون نقطة التحرك يا إبراهيم كالعادة، أنا سأذهب إلى الشارع، أما عمر دوره في مستشفى «فهمي» وأنت بالطبع ستتدبر أمر ذلك المخبر.»

قال إبراهيم واجمًا: «أنت تخاطر بتواجدك هناك، كما أني لم أفهم إلى الآن ما العلاقة التي تربط حسان بالشبكة؟»

وقف سائد من مقعده وتوجَّه نحو النوافذ الزجاجية الواسعة لمكتبه يراقب الشارع الراقي أسفل الشركة وقال بعينين قاسيتين: «حسان هو نقطة الوصل، الموزع الرئيس لرؤوس الأطفال أو حتى المراهقين ممن يملئون الشوارع، وما نرتب له يستحقه.»

ورغمًا عنه فلا زال حس الضمير والواجب القانوني يتحكم في جزء منه، قال إبراهيم بجمود: «حماد هو أداتهم الحقيقية، أما حسان وغيره مجرد محرك ينفذون الأوامر، فلِمَ لا نُوقِعُ بهم جميعًا ويحاكمون؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أفضل ما فعله يومًا هو ترويض الوحش بداخله والتحكم بانفعالاته وغضبه؛ لذا جمح جنونه حتى لا يلتفت صارخًا في إبراهيم، بل اكتفى أن ذكره من بين أسنانه بنبرة قاطعة: «لقد وافقت على دخول دائرة الانتقام بشروطي يا إبراهيم؛ لذا أنت ملزم تمامًا أن تنفذ ما أخططه أنا.»

نفرت عضلات إبراهيم الضخمة وملامح وجهه تتلوَّن بالغضب والرفض قائلًا: «أنا لا أنفذ أوامر أحد، وظيفتي تنص على حمايتك، ولكن الآن الأمر أصبح شراكة بيننا جميعًا؛ لذا رأي كل واحد منا مهم حتى لا نضيع جميعًا.»

التفت له سائد بحدة وقال: «لقد خيَّرْتُكَ وأنت من انزلقت في النار بقدميك، ووافقت على شروطي بإدارة الأمر، إن كنت مترددًا انسحب على الفور هذا حقك؛ لأني وعمر نعرف تحديدًا ما نحن مقبلان عليه، وما هي نهاية هذا الطريق.»

عندما شعر عمر ببداية الخلاف بينهما، تدخَّل قائلًا بنعومة قاطعة وحاسمة: «اهدأ نحن لا نفرض قوة هنا، أدوارنا مرسومة يا إبراهيم، ولن نأتي الليلة بالذات لنرجع في خطة رُسِمَت بالفعل؛ لذا كما أخبرك سائد إن كنت تريد الانسحاب فالآن هي فرصتك الأخيرة.»

تشددت قبضتي إبراهيم بجانبه، ثم ما لبث أن قال جازمًا: «الأمر منتهٍ يا عمر إلا إذا كنتما لا تريانني لست منكم حتى اللحظة.»

هز سائد رأسه بيأس ثم استدار يَزْفَر بضيق قبل أن يقول بسيطرة على الذات: «إن لم نُدرِكَ بيننا تتعاون معنا لم نكن لنضع أعناقنا بين يديك، هل هذا يريحك؟»

قبل أن يجيبه إبراهيم بأي شيء كان سائد يكمل بنبرة شاردة: «نحن لن نخون أبدًا، إن منحنا عهدًا نوفي به وإن لجأ إلينا شخص كنا عونًا له

نفتديه بأرواحنا؛ لأنه أشعرنا ببعض الآدمية، إننا نستحق أن نعامَل كبشر يمكن الوثوق بهم، نحن لا نبيع أو ننهش إلا من يغدر بنا أو يكون من خارج غابتنا.»

تولى عمر دفة الحوار مرة أخرى ليترك صديقه في شروده حتى يستطيع أن يلملم روحه جيدًا ليستطيع أن يواجه ما سيفعلون الليلة: «لقد حرصت أنا على منح فهمي النجار الخبر الكاذب عبر ذلك الطبيب الصغير عن حسان والليلة هم سيراقبونه؛ لذا يجب أن يحرص الرجل الذي من طرفك أن يظهر معه أمام العيان.»

قال إبراهيم بذهن يقظ: «لا تقلق، المال يفعل المستحيل، والحديث الذي منحته إياه عائم، أي سيؤخذ على أكثر من محمل؛ لذا من سيستمع إليهم بالتأكيد سيفهم أن الاتفاق على تسليم هؤلاء الأطباء وليس مجرد تجارة حشيش وبانجو.»

قال إبراهيم شارحًا: «لقد أغريت المخبر بالمال قبل أن أشرح له أن حسان مجرم خطير يضيع الشباب بترويج المخدرات، وأريد أن أحكم قبضتي عليه، ولكن قبلها يجب أن أعلم أسماء باقي المروجين.»

تدخَّل سائد مقتربًا منهم وانحنى على المكتب وهو يشير لدائرة ما قد رسمها سابقًا، وقال: «وأنا استطعت الأيام الماضية أن أتسلل داخل بعض هؤلاء البلطجية؛ أشتري منهم مرة، وأشاركهم الشراب مرات؛ لذا تستطيع القول: إني كسبت ثقتهم قليلًا؛ لذا حسان سيكون محاصرًا من كل جانب، ولكن لا تنس أن هؤلاء الأشخاص الذين نستخدمهم معدومي الضمير في الأساس، يبيعون أهلهم من أجل المال، فكونا حريصَين ومبتعدَين عن الصورة تمامًا، إن كُشِفَ أحدنا وقعنا جميعنا قبل أن ننفذ القصاص.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

هزَّ عمر رأسه وهو يقول متأملًا سائد بوجوم: «القصاص! سعيد لتبديل المعنى يا سائد، لقد كان انتقامًا لمدة خمسة عشر عامًا.»

شحب وجه سائد بطريقة لم يلاحظها إلا عمر، بينما الألم يعتصر قلبه وقال بخشونة: «لن تفرق المسميات طالما سنصل إلى الهدف.»

استدار إبراهيم فجأة وقال: «أتعلما أظن أني سأرحل الآن لمقابلة ذلك الرجل مرة أخيرة وبعدها نتجمع ليلًا، كما أنكما تحتاجان لحديث منفرد.»

وأمام عينَي سائد الجامدة كان يتحرك للخارج مغلقًا الباب خلفه.

فور أن خرج انفجر عمر في ضحك صاخب وهو يقول: «البلطجية! مَنْ كان يصدق أن أكبر بلطجي منذ أن كان عمره تسعة أعوام فقط يتحدث الآن عن تلك الطبقة باشمئزاز؟!»

افترَّ فم سائد عن شبه ابتسامة ميتة وقال: «ما كنت عليه ليس شيء أخجل منه يومًا، ولكن أنا لم أقتل يا عمر ولم أشترك في بشاعتهم ولم ألوِّث يدي بالدماء يومًا.»

احتدَّ صوت عمر عند تلك النقطة وهو يقول بنبرة صارمة: «جيد أنك تتذكر هذا؛ لأني لن أوافقك أبدًا أن تبدأ الآن بتلويث يديك.»

أظلم وجهه وقال: «لن نحتاج أن نكرر حديثنا كل بضعة أيام، عمر، لِمَ كل تلك اللفة التي افتعلتها لتصفية أول أذيال الأفاعي؟!»

نظر عمر بتمعُّن نحوه وقال: «كنت أحتاج لتذكيرك، فأنا أعلم جيدًا بجحيم غضبك إن لمحته قبل أن ننفذ ما خططت له.»

صوته المكتوم كان مثقلًا بشيء كالألم وكأنه يحاول جاهدًا إخفاء مشاعره لتذكر ماضيه ولكنه لم يفلح تمامًا عندما قال: «لهذا كنت ألفُّ

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وأدور طوال الشهور الماضية حتى لا أراه فأمزقه بيدي وأشرب من دمائه، أمسك بقلبه بين يدي وأسحقه بحذائي، الخائن الحقير هو مَنْ سلَّمها يا عمر، إنه قاتل طفلي.»

ابتلع عمر ريقه شاعرًا بألمه يتسلل إلى قلبه متذكرًا كيف منع صديقه في تلك الليلة المشؤمة من المخاطرة بروحه أمام نجدته لحبيبته وطفله، ثم ما لبث أن قال: «هذا متوقَّع يا سائد، الندل كان يكرهك، لقد حطمتَ له وجهه أكثر من مرة عندما ضبطته وهو يحاول أن يعتدي عليها.»

قال سائد بسخط يتصاعد: «وكأن الحقير لم يكفه كل تلك الفتيات اللاتي كان يساومهنَّ لتسليم أنفسهنَّ أمام لقيمات من الطعام.»

أشاح عمر بعينيه التي اهتزت بعيدًا عنه وهو يقول: «ما زلت تتذكر تلك الأشياء!»

تحرك سائد بعصبية مفرطة في أرجاء المكان، عصبية يعلم عمر أنه لا يتعرض لها إلا عندما يتذكر ذلك المكان الحقير القذر: «وهل أستطيع أن أنسى يومًا؟ هل يستطيع إنسان أن يتناسى ما رأيناه؟»

أظلمت ملامحه وهو يقول بنَفَسٍ متحشرج واصفًا بشاعة ما رآه: «هل أستطيع أن أنسى الأجساد الصغيرة الهزيلة لفتيات في سن الثماني والعشر سنوات، وإن حالفهنَّ الحظ كُنَّ قد بلغن قليلًا، لن أستطيع أن أنسى أجسادهنَّ العارية وهي تستبدل تحت هؤلاء الخنازير المستمتعين بهنَّ في حفلات أشبه بممارسة حيوانية جماعية، يمرحون بالصغيرات بكل طريقة حقيرة وشاذة ممكنة، متباهين مَنْ فيهم قوته الجسدية أكبر، حتى الذكور الصغار منهم لم يرحموهم في ممارسة الشذوذ الجنسي معهم.»

أظلمت ملامحه أكثر وأكثر حتى كادت أنفاسه أن تُفْقَدَ وهو يردف بانفلات عصبي: «ما زالت أعين بعضهنَّ العاجزة الذليلة لا تفارق ذاكرتي أو أعين بعضهنَّ التي سكنها الموت بعد أن فقدت أنفاسها تحت خنزير منهم ولم تتحمل قذارته، فيقوم ببساطة بوضعها في جوال ورميها على قارعة أي طريق.»

هدر عمر بعواء جريح: «يكفي يا سائد، أعرف ما تقوله.»

أجفل سائد للحظة ووجهه شاحب كوجه مصاصي الدماء، فنظر لعمر بعينين مظلمتين خاويتين من الحياة قبل أن يطلق زئيرًا مكتومًا، أمسك برأسه بين يديه يضغط عليها بتعصب، ودون إنذار كان ينطلق إلى حمام مكتبه، يغلِق الباب بإحكام، يحوم بين جدرانه الضيقة كأسد حبيس مسكين عاد لأَسْرِه، لهثت أنفاس سائد وهو يغلق عينيه بشدة هامسًا: «ليس مرة أخرى، لا أريد فعلها بنفسي، لا ليس مرة أخرى.»

ولكنه لم يستطع، لم يمتلك الإرادة والإيمان، مستسلمًا لنيران جحيمه وبراكين غضبه غير المحتمل، أخرج مُدْيَة صغيرة من جيب بنطاله وبهدوء مدَّ ذراعه وبدأ في ممارسة ساديته على نفسه، كانت الدماء التي خرجت منسابة على طول ساعده تطفئ جحيمه، رويدًا رويدًا تراجع بظهره ليستند على الحائط، وجلس ببطء مع دمعه حارة طرفت عينه اليمنى فسمح لها باستسلام أن تنعي ذكرياته، همس بحرقة بينما توقفت يداه أخيرًا عن تعذيب نفسه: «لقد حاولت حمايتك من وحوش حماد حفاظًا عليكِ وعلى نفسي من تلك الحيوانات القذرة، لم أكن أعلم أني كنت أُعدك كصفقة لهم لتنالي نفس المصير صغيرتي، لينهشوا براءتك قبل أن يأكلوا لحمكِ وطفلي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ملامحه الجامدة لم تتغير حتى وهو يجاهد لرسم المهادنة على وجهه، كل ما يحدث رغم أنه من يندفع إليه بخطوات مدروسة قد حلم به خلال الأعوام الماضية ولكنها ترهقه، تعيد له الماضي متجسدًا في صورة وحش مخيف يأبى إلا أن يوقف الهواء من حوله.

«ما الذي يجري معك يا سائد؟ ومنذ متى أصبح الخوف يطرق قلبك؟ منذ متي عادت الكوابيس البشعة تغزو عقلك بعد أن توقفت ولم يبق إلا قلب بارد خاوٍ من الحياة يقتات على وعدك لنفسك بالانتقام، ومشاعر تجردت من كل الصفات الإنسانية، متى أصبحت تخاف؟ متى تمكن منك الرعب لدرجة أن طيفها المنهار وهي تخبرك بما واجهته تحت مشرط عديمي الرحمة، لا يفارق عقلك؟»

هل أصبح لدجوى قيمة حقيقية وبات جزء منك ينتفض ذعرًا أن تطالها أيديهم؟ شحب وجهه ونبضات قلبه تصاعدت لمعدل غير مسبوق، الرفض يتخلل لكل جزء من جسده مصدومًا من تفكيره، مرتعبًا من نفسه يذكرها بقوة أنها ابنة قاتل حبيبته وطفلته، تحرك حلقه بصعوبة وهو يهمس: «الطفل الذي تحمله هو السبب، هو من يشقق ذلك الجدار الذي بنيته، ما كان يجب أبدًا أن تحوي ابنة غسان نطفة منك.»

المكان يعج بالحثالة، انتبه سائد لنفسه وهو يرى تدفق رجال حماد في وكره القذر، كتم ضحكة ساخرة من نفسه مرددًا: «الحثالة»، لقد كان هو في الأساس منهم بلا أصل ولا نسب، كانوا مهمشين ملقون على جنبات الطرق، يجمعهم هدف واحد في بادئ الأمر؛ صراع البقاء وعدم الهلاك، وبالتدريج يحولهم المجتمع لمجرد جِرَاء صغيرة أصابهم مرض السعار لينهشوا من كل ما يمر بهم قطعة تقويهم وتجعل لهم ألف حساب، فما بالك إن كانت الحيوانات المفترسة الكبيرة هي من تنهشهم أولًا لينتقل لهم ذلك الفيروس اللعين؟! قال حماد مقاطعًا صمته: «أكاد لا أصدق

عصير الكتب للنشر والتوزيع

نفسي أن سائد القديم عاد، حصيلة الليلة لم نحققها منذ سنوات يا رجل.»

تحرك أنف سائد مع رفع فمه يمينًا ويسارًا بحركة شرسة ملزمة له، فأخذت ملامحه بعضًا من المظهر الإجرامي المعتاد قبل أن يقول بنبرة حيوان مفترس على وشك الانقضاض: «يجب أن تصدق، تلك البداية فقط، وأعتقد أني في الأيام السابقة أثبت لك أن لقب الذئب لم أستحقه عَرَضًا» بنظرات خبيثة طامعة يملؤها الإعجاب قال حماد: «وهذا ما يجعلني أسلِّم لك كل ما تريد وأنا راضٍ عنك، لقد أثبتَّ لي أن تربيتي فيك لم تضع هباءً، لقد استغرق هؤلاءِ الخنازير الكثير ليتخلصوا من «شبيحة» المقهى وأنت خلال هجومين قضيت عليهم تمامًا.»

أومأ سائد رأسه بهدوء صامت متذكرًا مهمة حماد التي أوكلها إليه ليثبت صدق نواياه أنه سيعود إليهم، فطلب منه تخليصه من بعض البلطجية الذين ينافسونه في تجارة الحشيش والهيروين وأصبحوا الآن يهددون تجارته بالصغار.

وقف سائد من مجلسه بهدوء يراقب عينَي حماد الجشعة وهو يعد غنائمه الليلة، لقد أجبر نفسه لمشاركتهم عملية أشبه بالسطو على مقهى بلدي في أحد المناطق الموبوءة، لم يكن يريد أن يعود لأعمال البلطجة، ولكن الغاية تبرر الوسيلة، كما أن ذلك العفن الآخر صاحب المقهى يستحق، الحقير يتاجر في الأعراض بالخفاء ويتلاعب بشرف الفتيات في حجرات خلفية قذرة مثله موفرًا لبعض المراهقين والمدمنين تلك الأجساد بأسعار زهيدة؛ ليصبح ذلك المكان القذر بيت دعارة متطور يقدم جميع الخدمات، بالطبع حماد لم يُرِد التخلص منهم لرفضه الأمر بل لأن ذلك المكان أصبح يزاحمه في قذارته الخاصة.

«أنا سأذهب الآن لا أريد لرجالك أن يروني.» دون أن يصرح باسمه فَهِمَ حماد من يعني برجاله فقال بنبرة آتية من الجحيم: «رأس حسان تحتاج أكثر من أموال يا سائد.»

انخفض جسد سائد ونظر لحماد بنوع من القسوة بتحدٍّ غير متنازل أشعر معلمه مرغمًا ببعض الرهبة والتوجس عندما قال بنبرة أشبه بالفحيح: «أنت طلبت وأنا نفذت، ووعدك لي لن تستطيع الإخلال به، كما أني لم أستلم منك أحدًا بل كل ما يحدث أقوم به وحدي؛ لذا أنت مجبر أن تغضَّ بصرك عمَّا سوف يحدث، لقد مررت معلومة خيانته لفهمي النجار؛ لأنك أردت الخلاص منه بعد اكتشافك أنه يخونك أنت بالفعل.»

جزَّ حماد على أسنانه وقال بفحيح مماثل محذر: «أنا لا أؤمر يا سائد، تذكر في حضرة من تقف، أما عقابي لحسان أو غيره لا يخصك، أنت تنفذ فقط.»

رد سائد سريعًا بهجوم حيواني لفرض القوة والكلمة الأخيرة: «أنا أعرف أمام من أقف، في حضرة معلم قاسٍ مرعب، ورغم ذلك سمح لأحد حشراته أن يتلاعب به في الماضي والحاضر، أن يتخطاه ويسلم إحدى مَنْ كانت تحت حمايته دون أن يعود إليه.»

توتر حماد للحظة واحدة وهو ينظر لتحفز من أمامه، وجهه الغاضب يذكره بيوم علم بقذارة حسان، أنه سلَّم آية وطفلها مقابل خمس مائة جنيه لفهمي، وبالطبع اختفاء سائد وعمر ليخسر في لحظة أهم ذراعين لديه، يتذكر جيدًا العقاب الذي أنزله على رأس حسان، ولكنه تدارك أمره إذ أخبر باقي رجاله بأنه مَنْ أمر بالخلاص من الفتاة حتى لا يفقد هيبته بينهم، كما أنه صفح عن حسان حتى يقلل من خسائره، وقد أخلص حسان له خلال الأعوام الماضية، ولكنه بدأ يتمرد خلال الفترة

الماضية، بل وعلم من بعض رجاله أن حسان يقوم بعمله الخاص في تلك التجارة، يسلم فهمي بعضًا من أطفال الشوارع المقيمين في الأزقة أو حتى يخطف بعضهم، لقد أصبح الحقير ثعبان خطر شرس يهاجم كل فريسة تمر من أمامه، ومن الممكن أن تتفاقم قوته ويهاجمه؛ لذا تسليم رأسه لسائد هو حله الأمثل.

كان يراقب حسان ورفيقه بعينَي صقر بعد خمسة عشر عامًا، ها هو يرى أول مَنْ سلَّم روحيه للموت، فكاد يفقد أنفاسه وهو يمارس باحتراق كل ضبط نفس لديه حتى لا يتوجه إليه ويقوم بتصفيته بيديه، ولكن ما سوف يحدث بعد دقائق يجعل غليله يتراجع قليلًا.

«في قانون الغابة البقاء للأشرس والأقوى، أما باقي القطعان ما هي إلا وجبات دسمة مهمتها الوحيدة الاستسلام لتحوم تلك الوحوش حول أجسادهم يؤدون رقصة الموت قبل افتراسهم ببساطة.»

رغم وقوفه منذ ساعات يتنقل بخفة ذئب بين الظلام يتتبع خط سير حسان إلا أن ما سيراه قريبًا منحه القوة والصمود ليشاهد بتصرفات محسوبة وخبرة اكتسبها من ماضيه، كان يتخفى وراء أحد أكوام القمامة المنتشرة في المكان، وشاهد بعينيه ثلاثة من المسجلين الخطر يجتمعون مع حسان الذي ظهر من بعيد قائلًا بتأفف: «لماذا لم تحضروا إلى العشة؟ لقد أضعتم الحجرين اللذَين ضبطت بهم مزاجي.»

أشار له أحدهم وهو يقول ببطء رغم عنف نبراته: «نريد صفقة جديدة ولكنها كثيرة العدد هذه المرة، ما رأيك؟»

التمعت عيناه بالجشع وسال لعابه وهو يقترب منهم بتلهف غير منتبه للأسلحة البيضاء التي يحملونها، وقال على الفور: «أي كمية، نحن خدام السيادة ولكن هذه المرة سآخذ مائتي جنيه على الرأس الواحدة، فأنا لديَّ بضاعة نظيفة واردة من البيوت مباشرة.»

اشمأزت ملامح سائد، الحقراء يتعاملون مع الأطفال والمراهقين كأنهم نعاج خُلِقَت لتُذْبَح وتكون أضحية لجشعهم، سمع أحدهم يقول: «وبالطبع كالاتفاق الأخير، لا تريد لحماد أن يعلم.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بعينين حمراوين قال حسان: «إنه تعبي وعرق رجالي، نحن من نجتهد ونخطط وننتظر حتى يغفل أحدهم عن إحدى القطع النظيفة فنحمله بين ذراعينا هاربين به قبل أن يكتشف هؤلاء الحمقى اختفاءه، ونحن أيضًا من نلفُّ في الحواري ليلًا لنجمع باقي الرؤوس، ونورد لكم الكمية المطلوبة.»

«الحقير»، همسها سائد بعنف، القذر يختطف بعضهم ويلتقط الآخرين من الشوارع المليئة بهم، الكلب لم يسلم أحد من أذاه، يجب تصفيته ليس بسبب انتقامه فقط بل لتخليص المجتمع من أمثاله، ليت باستطاعته فعلها بيديه، ولكن يجب تصفيته بأيديهم دون تدخُّل منه؛ لعدة أسباب وأهمها في الوقت الحالي ضرب قاعدة فهمي التحتية، حتى يدقَّ أول مسمار في نعش انهياره وسقوطه.

لفت انتباهه أن أحدهم استلَّ سكينًا ضخمة من جانبه تُسْتَخْدَم في ذبح المواشي، وحدَّق في حسان وهو يقترب منه وقال ببطء مخيف:

«نعم، حقك أيها الخائن حسان أن تحصل على تعبك وحدك دون الرجوع لمعلمك.»

اقترب منه حسان باندفاع غير محسوب وقال بغضب: «من الخائن؟ احترس لكلامك يا شعبان لأنه سيضيع فيه رقاب.»

رد شعبان بغضب كاسح وهو يسمح للبقية بمحاوطته وقال: «لقد كُشِفَت لعبتك يا قذر، تريد أن تسلمنا للشرطة، هل تعتقد أننا أغبياء لن نعرف خطتك؟ هل وجدت سريعًا بديلًا آخر تورِّد له مقابل مال أكثر أم ماذا؟»

توتر جسد حسان للحظات بعدم فهم والخوف يعتريه، يكتسحه بعدم رحمة عندما اكتشف السكين التي تلمع في يد شعبان: «أَبْعِدْهَا يا رجل، هل جُنِنْتَ؟ عن أي خيانة وشرطة تتحدث؟ لقد أرادوا بعض التافهين الذين يوزعون الحشيش والبانجو.»

ازدادت ملامح شعبان قتامة إجرامية وبحركة سريعة كان يستدير حول جسد حسان يكبله من الخلف بقوة لم يمنحه حتى الفرصة وهو يرفع سكينه وبقوة وثبات يضعها على رقبته وقال: «وكأننا سنصدقك حتى وإن كان، فمن يخون مرة يغدر مرات وأنت رائحتك فاحت ويجب الخلاص منك.»

جحظت عينَا حسان حتى ابيضَّت، حاول الاعتراض، الصراخ، تبرير موقفه، تقديم الولاء والطاعة، ولكن نصل السكين الساخن الذي مر على نحره بنعومة وسلاسة أنهى مهمته وقطع جلده بالفعل، نفذ ليمزق أحباله الصوتية، واصل شعبان عمله بجمود حتى فصل الرأس عن الجسد تمامًا، وتركه ليسقط تحت قدميه في بِرْكَة الدماء التي غطَّت المكان على

الفور، بجمود قال شعبان آمرًا: «اذهبوا لتحضروا السيارة لنحمل هذا الرأس الجديد وقد أمر الكبير بأن لا يُهْدَر.»

لم يتحرك سائد من مكانه رغم انتهاء الأمر، لم يستطع أن يبرح مكانه بجمود جليدي مخاطرًا باكتشافه، كان ينظر من بعيد لجسد حسان المفصول عن رأسه، متذكرًا ذلك القذر ويده تحاول أن تطال زوجته حتى بعد أن علم الجميع بأنها انتمت إليه وتحمل صغيره، وبعين الخيال رآه يعود ويقدمها لمجزرة فهمي النجار الذي يحتل الآن رأس قامته متذكرًا أن ثأره مع فهمي أصبح ثأرين ولن يُفرط أبدًا في أخذهما.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عندما فتحت دجوى عينيها صباحًا أدركت خلو الفراش بجانبها، لقد ظل بين ذراعيها طوال الليل صامتًا مرهقًا ومتباعدًا، لم يحاول أن يَقْرَبَهَا بأي طريقة حميمية، لم يذكر أي حرب بينهم، كان يكتفي بضمها بطريقة أثارت عجبها وكأنه طفل صغير يدرك لأول مرة سحر التواصل بالعناق، كأنه غريب يكتشف طوق نجاة أُلْقِيَ له في عرض البحر على غفلة، رغم تشوش أفكارها والهلع الذي ينتابها في حضرته، ولكن بالأمس بينما هي تمنحه بصمت وبقلب أنثى متعاطفة لحاله أدركت أن سائد لم يحتضنها قط، وهي قد عَزَتِ الأمر إلى أنه لا يريد إلا جسدها، ولكنه بينما تضمه ليلة أمس مرتجفًا تحت كفيها التي تربِّت عليه بتعاطف؛ أدركت بأن ذلك الذئب الشرس لم يعرف معنى أن يترجم مشاعره بالاحتضان يومًا، لم يعلم لغة العناق لترجمة بعض من الأحاسيس الإنسانية بصمت أبلغ من أي كلام مفعم بالمشاعر.

عندما خرجت دجوى من باب غرفة النوم أخيرًا متوجهة إلى ردهة الشقة تراجعت للخلف سريعًا حتى اختلَّ توازنها عندما لمحته ما زال يتواجد في المنزل واقفًا أمام الشباك الزجاجي عاري الجذع وآثار الماء تظهر بوضوح على ظهره الرطب، الضجيج الذي صنعه عدم توازنها جعله يلتفت إليها بحدة، للحظات أجفله مظهرها المرتعب وهي تنظر إليه بحرص ويبدو أنها وجدت الحائط حماية لها من السقوط.

«ما بكِ؟ هل رأيتِ شبحًا ما؟ يفترض أنكِ تعودتِّ على وجود سيدكِ.»

توسعت عيناها ووجهها يتحول للشحوب: «أنت لست سيدي، بل مجرد رجل خدعني بعشق وهمي لينال مني.»

قست عيناه ناظرًا إلى رماد عينيها مباشرة، ثم ما لبث أن قال بصرامة: «يبدو أن ما حدث بالأمس منحكِ بعض الشجاعة أخيرًا يا ابنة غسان، ولكن أريد تذكيركِ أنكِ هنا فقط لراحتي، لاستخدامكِ كما أشاء وما حدث ليلًا لا يعني أي شيء.»

تهربت من عينيه وقالت بخفوت: «أنا لا أعتقد شيئًا، فقط لأصحح معلوماتك لم أكن أنتوي ذكر شيء عن الأمس.»

عم الصمت الحذِر بينهما لبضع دقائق قبل أن يقول ببرود مفاجئ ليربكها: «كيف حال ما تحويه أحشاؤكِ؟»

نظرت إليه مجفلةً للحظات، مؤكد أن التقلبات النفسية التي تتعرض إليها بسببه ليست جيدة مطلقًا، ومؤكد إن لم تمُت على يديه ستُجَن بسبب ما يفعله، وربما كان هذا هدف سائد في الأساس، رفعت كفَّاها تفرك وجهها بعصبية، صارخةً بهجوم وكأن كل شيء تفجر بداخلها: «إنه طفلك، ما أحمله هو ابنك، جزء منك، أنت من سعيت لتزرعه بداخلي، طفل خاطرت بوجوده وأنت تعلم أنه طفل زنا جاء من حرام لا مستقبل له

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولا اسم تمحنه إياه يا سائد، مجرد صغير آخر سيُلْقى للشارع الذي أتيت أنت منه بعد أن تقتلني وتفقد أنت نفسك في جنون انتقامك.»

كانت تلهث حرفيًّا بعد انفجارها غير المسبوق أمامه، شجاعتها التي ظنها يومًا بدأت في الظهور رويدًا مانحةً إياه المهرب المثالي الذي أراده ليبرر لنفسه ما حدث ليلة أمس أو ربما تهرب لاهتزازه نحوها، حتى يمحنه الوقت تبرير نفسه واستكشاف ذلك الضعف المنفر الذي شعر به بين ذراعيها.

حدَّقت دجوى فيه بعدم تصديق، مدركةً أن الروح المنفرة الكريهة عادت للظهور، بخوف تملكها التصقت بالحائط أكثر والرعب تمكَّن منها عندما اقترب منها ومدَّ يده يحاوط خَصرها يجذبها إلى صدره ملصقها فيه واليد الأخرى تزيح شعرها القصير خلف أذنيها كحركة الأمس ليكشف وجهها كله، وهو يميل يهمس بجانب أذنها بخفوت أرعدها: «هل سمعتِ بالمحظيَّة يومًا يا دجوى؟»

لم تردَّ وعلم أنها لن تردَّ؛ إذ أدرك مقدار الرعب الذي يسببه لها اقترابه فأكمل بنفس النبرة: «بالطبع تعرفينها، ما هذا السؤال الغبي؟ مؤكد درستِهِ في المناهج الأجنبية، التي كان يدفع والدك مصروفاتها من المال الذي يحصل عليه مقابل أعضاء الأطفال البشرية.»

حاولت أن تفلت من بين ذراعيه إلا أنه شدد من تطويقها فشعر بجسدها المهتز بسبب البكاء العنيف فأردف هو بانتشاء متشفٍّ:

«المحظيَّة هي زوجة مشتراة بطريقة ما تكون ملك سيد واحد، فإن كان يهمكِ الحرام بتلك الطريقة يا ابنة غسان الكلب، اعتبري نفسكِ محظيَّة.»

حاولت التماسك والتحلي بالقوة المقاومة وهي تقول: «أنا لست محطية، أنا حرة يا سائد، حرة رغم أنفك، وسأتحرر منك قريبًا جدًّا هاربة بطفلي من جحيمك.»

ضحك سائد دون مرح ويده تقبض على ذقنها بقسوة رافعًا عينيها لتواجه الغضب المتموج في سواد عينيه قائلًا من بين أسنانه بخطورة مهددة: «أي طفل هذا يا دجوى؟ أفيقي من أوهامكِ، من تحمليه من دماء أبيكِ الكلب، أي قصاصي سيتحقق بالعدل أخيرًا، دماء زوجتي أمام دمائك، وروح طفلي سيدفع ثمنها رضيعكِ.»

فتحت فمها بذهول وخفقان قلب توقَّفت دقاته غير مصدقة هذيانه، لم تستطع أن تقاوم صراخها فيه: «أنت مجنون مختل، أنا لن أصدقك أنت تحاول أن تفقدني عقلي ليس إلا.»

تلوَّن وجهه بسموم قفزت إلى روحه فجأة فمال مرة أخرى يخبرها بنبرة مجنونه دبت الرعب الحقيقي بين أوصالها:

«بلى دجوى، بالأمس فقط أخذت أولى خطواتي في تلويث يدي بالدماء، وصدِّقيني الأمر لا يحتاج إلا مرة أولى كي أُخرج الوحش الحبيس بداخلي إلى الغابة الفسيحة ليتغذى على كل فريسة تقابله متلذذًا بطعم كل قطرة دماء وأنتِ وابنكِ لن تكونوا استثناءً.»

ما يفعله ويقوله يزيد من ضغطها النفسي مع هرمونات الحمل وتقلُّب نفسيتها التي أصبحت في الحضيض جعلها فاقدة للمنطق للتفكير والعقل، انفجرت المفرقعات داخل عقلها في وقت غير مناسب إطلاقًا وفكرة واحدة تسيطر على عقلها، لا حل آخر، نظرت إليه بوجل وهي تقول بأسنان اصطكت ببعضها: «سأقتلك، قبل أن تلمس يديك صغيري.»

ضحكة ساخرة توسعت عندما مال مرة أخرى بهدوء يلثم خدها بخفة وقال: «افعلي إن استطعتِ يا دجوى، ولكن أريد أن أعلمكِ فقط أن موعدكِ اقترب أنتِ ومن تحمليه.»

تهدجت أنفاسها وهي تقول متمتمةً: «لِمَ تفعل ذلك بي؟»

للحظات طويلة لم يردَّ، شفتاه معلقة على وجنتها، أنفاسه تخرج غير متزنة، ثم ما لبث أن قال: «أتريدين الصدق أم أخبركِ بعض الكذب المريح؟»

أغمضت عينيها بأسي وقالت باستسلام: «أريد الصدق، مؤكد لن يكون متطرفًا أكثر مما تتفوه به.»

دون تردد أخبرها: «بداخلي بركان يا دجوى، لم أعد قادرًا على تحمله، أتمنى الموت في كل لحظة ربما يرحمني مما أعاني، يخلصني من العذاب الذي أعيشه كل ليلة منذ أعوام، أنا أموت في كل مرة والحادث يعود لعقلي بتتابع ذكريات المكان القذر الذي كبرنا فيه، ذلك الشعور القاتل بالجوع، تذمر لسعات حزام حماد على جسدي، كل شيء عشته كان الحضيض بعينه، نار من سَقَر تتفجر بداخلي.»

نظرت له بعينين مرتعبتين، مستوعبةً أنه للمرة الأولى يخبرها عن بعض ما عاناه، عن بعض أوجاعه حتى وإن كان يداريه ببعض قسوته التي يقصد بها دفعها للجنون.

قالت: «وما تفعله بي يهدئ نارك يا سائد؟»

اشتدت ملامحه مرة واحدة وقال بنبرة قاطعة جازمه حاسمه: «نعم يا دجوى، فكلما فقدتّ عقلكِ أو عانيتِ من عذاب ورأيته بعيني فأتشفى في روحكِ وروح أبيكِ الكلب؛ لذا انتقامي منكِ يخفف بعضًا من النار بداخلي وستنطفئ تمامًا عندما أقضي عليكِ يا دجوى.»

ساد صمت ثقيل بينهم وبثبات انفعالي كانت تخبره: «الإنسان هو من يحدد خياراته ليسمو بفطرته أو يهبط للوحل ويلقى جزاء ما فعلته يداه يا سائد؛ لذا ربما إن تذوقت من نفس كأس دائك يكون دواءك.»

ابتعد عنها هذه المرة سامحًا لعينيها أن ترى جروح وحروق جسده المتعددة، وقال ساخرًا: «كأس الحنظل شربته قطرة قطرة حتى أصبح طعمه المرير هو المذاق الوحيد الذي أستطعمه.»

ارتعشت شفتاها بتوتر ولم يخف عنه الإصرار في عينيها وقالت: «دعنا فقط نثبت وجهة نظر كل منا يا سائد.»

منذ يومين يراقب سائد وإبراهيم ذلك المقر العفن الذي كان يراقبه في السابق وعلم أنه وكر فهمي الجديد، بالطبع فهمي لا يأتي إلى هنا أبدًا، ولكنه استطاع أن يجمع معلومات مفادها أن هناك طبيب تخدير وخمسة آخرين ما بين طبيبَي الجراحة معدومي الضمير والذين تقتصر أعمالهم على عيادات قذرة يمارسون فيها كل ما هو خارج عن القانون وبعض البلطجية، سمع إبراهيم يخبره: «للإيقاع بهم متلبسين نحتاج للوصول للمورد الأساسي».

أجابه سائد بصقيع: «تقصد تصفيتهم، لا تقلق كل شيء مرتَّب له في رأسي مسبقًا، ولكن أحتاج للتأكد أولًا، أريد أن أدخل إلى هذا المكان يا إبراهيم.»

رد بتجهم: «ولكن تلك خطوة خطرة غير محسوبة العواقب قد يوقِعون بك».

قال سائد ببروده المعتاد مقررًا ومُنْهِيًا الجدال: «تعلم أني سأفعلها، فلِمَ الجدال؟ فكل خطواتي القادمة مرتبة على أن أرى بعيني داخل هذا المكان.»

أخذ إبراهيم نفسًا مهمومًا مصبرًا نفسه وهو يهز رأسه بصمت، مدركًا أن سائد خارج نطاق حمايته، من الأساس الرجل يتصرف بعقل إجرامي محنك حتى هو يصعب عليه مجاراته.

يحتاج عقله لبعض الإلهاء، فقد قرر أن غدًا سيقتحم وكر فهمي المغطى تحت اسم عيادة للغلابة، ابتسم ساخرًا من كل شيء حوله، من سذاجة الغلابة المدافعين بحياتهم عن تلك العيادة غير مدركين أن فلذات أكبادهم تُقطع هناك ويتاجَر بها دون رحمة.

رجع برأسه مستندًا على الفراش، متذكرًا وجه الأخرى التي تراقبه منذ يومين بنظرة غريبة، نظرة إصرار وقوة، خوف ورهبة وتصميم، لم يقترب منها منذ اعترافها له، منذ أن سلَّمته معلومات ستجعله يُعجِّل بمهمته ويصل لرأس الأفعى فهمي النجار بسهولة لم يتخيلها، لَفَتَ نظره دخول دجوى المضطرب، وكانت تهمس اسمه بلهاث، صدرها يعلو ويهبط وكأنها تجاهد للتنفس، اعتدل سائد ببطء وعينيه الذئبية ترصد كل خلجة من خلجات أنثاه، تعاني وترتعب وتتألم بل وتتمزق بضياع، ضياع بعالم فقدت فيه طهرها وشرفها وهو من رماها بيديه في هذا الوحل، تنتفض هولًا من الخوف كلما اقترب منها، ويعلم جيدًا أنه يدفعها إلى حافة الجنون بما يفعله ويتفوه به، استشعر جنونًا في رماد عينيها المنطفئ التائه وكانت تضم بطنها بكلا كفَّيها كحماية، فمنذ أن أخبرها عن نيته الحقيقية وهدفه من الحصول على طفل منها يحمل الدماء القذرة لغسان الهاشم، ورغم بشاعة ما أخبرها به، ونزاعه الوحشي الذي يأكل صدره وفؤاده، ولكنه لم يستطع أن يتعاطف معها وهو يراها تتخبط ورمادها

يتحول لبركتين بلون الدم المتخثر، كان يحتاج بشدة لصرف تفكيرها عن لجوئه المقيت لذراعيها، أخيرًا وصلت إلى طرف السرير تخبره بتحشرج: «سائد أنا ...»

تعثرت حروفها، شحب وجهها ليصبح بلون الجليد الذي تستشعره يدبُّ في كل طرف من أطرافها، بينما هو ينظر لها بملامح مغلقة مرغمًا يرى من خلف كسرها قوتها، تحديها وعزمها على شيء لم يصل لمعرفة ما هو، مزيج بَدَا جميلًا ساحرًا خلابًا، مغريًا لسائد أن يعود يتلمَّسها ويضمها ويغرق بها وفيها في بحر من لجة المشاعر المبهمة التي تجعله يفقد عقله ونفسه ولا يسيطر على عاطفة قلبه وجسده.

لا جسد فقط لا قلب معه، فالقلب ملك لصاحبته ولن يكون لسواها، أفاق نفسه بقوة عندما راقبها تقول أخيرًا بصوت باهت مطعون في صميمه متحشرج: «سائد أنا أوافق على عرضك، أوافق على أي شيء تطلبه، ولكن أخرج طفلي من معادلة انتقامك.»

عبث قليلًا وهو يحاول أن يتذكر أي عرض هذا الذي أخبرها عنه، ما بالها هل فقدت عقلها حقًّا وتهذي؟!

شهقت مذعورة عندما مد ذراعه فجأة وأحاط معصمها بأصابعه ليطبق عليها بقبضة من فولاذ ويسحبها بعنف لتقع فوقه وهو يقول ببرود عكس جحيمه وتفكيره الذي خبأه بجدارة: «هل أحببتِ نطفتي يا دجوى بهذه السرعة؟! لقد أعلنتِ مرارًا ومنذ اللحظة الأولى كرهكِ لها، بل وطوقكِ للخلاص منها.»

أحاسيس مجنونة تشعر بها تتصارع بداخلها وتجعل كل تماسكها وعزمها يطير في الهواء، حاولت التملص منه إلا أن يده ازدادت قسوة حولها، بينما يده الأخرى أمسكت بوجهها، أشاحت بوجهها مذعورة

تبتهل بداخلها ألَّا يشعر بما تخبئه بين طيات ملابسها، حاولت تشتيته وهي تقول: «لا، أنا أكرهك بشدة، أحقد عليك، ولكن طفلي يبقى طفلي، ما ينبض بداخلي يكبر بين أحشائي هو ابن ...»

هبطت غلالات دموعها بحرقة قبل أن تدفن رأسها في كتفه، فتصلب جسده مصدومًا مبهوتًا مصعوقًا من منطقها: «ما بداخلي ابن الرجل الذي أحببته، من سلمته نفسي راضية، من أنقذني ومنحني الأمل وتزوجني، من أتى يلجأ إلى غمرة بين ذراعيَّ منذ يومين، وبالتأكيد هذا ليس أنت، أنت مجرد شيطان، ذئب في هيئة آدمية نهش لحمي الحي، والآن يريد نهش صغيري، وهذا ما لن أسمح به.»

عَلَتْ أنفاسه قليلًا وهو يقول مدعيًا الجمود: «أنا لم أتزوجكِ، أنا خدعتكِ، فلِمَ تصرين أن تعيشي الوهم؟!»

لم ترفع رأسها من كتفه، لم تستطع أن تواجه عيناه السودواين، دائمًا ينظران لها بحقد وبريق وحشي: «رحمتك رباه، ما زال القلب العاصي يحبه، يتعاطف معه ويتفهم جنونه، ولكنك تعلم يا الله أني لم أتحول لزانية بإرادتي.»

عند همسها المتضرع مذكرةً نفسها بثأرها وبنجدة طفلها مما ينتويه، تمالكت نفسها وهي تخبره بتحشرج متبلد: «لأن الحقيقة ستجعلني أقتل نفسي دون تردد، الوهم هو أملي الأخير وجدران حمايتي من السراب الذي وجدته معك، أن أعيش بوهمك المريح خير ألف مرة من الحقيقة التي قتلتني برصاصك الغادر يا سائد.»

المرارة في صوتها جعلت ذرة إنسانية معدومة لديه دَحَرَهَا منذ زمن تهبُّ للخروج؛ فرفع ذراعيه يحيطها بهما ويحتضنها بقوة ويربِّت على ظهرها، سيكذب إن قال: إنه يتعاطف معها بل يستمتع جدًّا بانهيارها

وتمردها واستسلامها الآن إليه وعدم مقاومته، لقد حرص أن ينالها من قبل بطريقة تجعلها تستسلم في لحظة من اللحظات، فهو ليس مغتصبًا ولن تكون متعته باغتصابها بل بنيلها راضية ومرحِّبة كما يحدث الآن بالضبط، لقد أصبح جسدها وقلبها يتعرفان عليه تلقائيًّا فيجبرها على الاستسلام التام، عند هذا الخاطر ابتسم ببطء يضمها إليه فتشبثت به بكلا ذراعيها تعصر قميصه من الخلف عصرًا بيديها، مرغمًا عادت الثورة الملعونة داخله بقلب وجِل يتمرد ويجبره على الخفقان المؤلم من أجلها: «اللعنة، تبًّا هو لا يحبها، هي لا تعنيه هو يستمتع بما يحدث معها.»

غافلًا في غيمة مشاعره كانت هي تبكي بحرقة تتمسك به كأنه الحياة، بينما يدها تتحرر ترفع طرف قميصها من الأمام تسحب سكين المطبخ الحاد، ثم تعود للتعلق بقوة تنتحب بحرقة ويدها الأخرى ترتفع بكل ما أوتيت من قوة خلف ظهره وهي تخبره بتأوه مكلوم: «سامحني، والله إني أحببتك وتعاطفت معك، بل وتفهمت انتقامك منه فيَّ أنا، ولكن إلى هذا الحد يكفيني أذاك يا سائد، إلا طفلي.»

جحظت عينا سائد بصدمة وذهول عندما شعر بنصل السكين ينغرس في ظهره.

طعنة السكين الحادة جعلته يصرخ برد فعل تلقائي، وبغريزة بشرية للبقاء كان يدفعها عنه بقوة غير مقصودة أبدًا، قوة كانت كافية لتطيح بها بعيدًا عنه حتى الطرف الآخر من الفراش.

للحظات طويلة مريرة توقَّف الزمان وأُعْدِمَ المكان مصدومًا مذهولًا، كان ينظر لجسدها المسجى أمامه، يشعر بالدماء التي تسيل بخط من نار على ظهره شاعر بالجرح العميق الذي افتعله سلاحها، ولكن مؤكد مكانه خاوٍ تمامًا، مرت لحظات ودقائق وساعات، مؤكد هو لا يعلم مطلقًا، لم

يستوعب عقله بعدُ ما فعلته، ينظر لما حوله وكأنه في فيلم هزلي، شهق طالبًا للهواء بصوت أشبه بخوار حيوان جريح أفاق من صدمته الساكنة مدركًا أن أنفاسه كانت متوقفة تمامًا، بقوة ممتزجة بعذاب خفي كان ينتفض من مكانه أخيرًا، توجه إليها صارخًا فيها بصوت مكتوم متجنبًا جرحه الذي يئن من الألم متناسيًا دمائه التي تسيل أمام تدفق دمائها التي أغرقت طرف السرير ويديه التي حاوطت رأسها: «مادا فعلتِ يا غبية؟ دجوى، أجيبي، يا اللّه لم أقصد دفعكِ، لم أقصد أذيتكِ أرجوكِ أجيبي بحق اللّه.»

ابتلع ريقه بصعوبة مجبرًا نفسه ألا ينهار وأن لا تجذبه الذكرى لمنظر دماء مماثلة، لجثة أخرى حملها خالية الوفاض دفنها بيديه، كان متشنجًا وعاجزًا بينما عقله يعصف به آلاف التصورات ولكن لا شيء مهم، في لحظات تحامل على نفسه وجذب منشفة بجانبه كتم بها الدماء التي تسيل من رأسها وتحرَّك على الفور يطلب رقم إبراهيم بعشوائية، أمره فور أن رد: «زوجتي حامل، وتعرضت لخبطه قوية على الرأس، أريدك أن تأتي بزوجتك في الحال.»

قال إبراهيم على الفور: «سائد المصاب يذهب للمشفى لا أن تأتي إليه زوجتي، وقد توقفت عن ممارسة المهنة.»

صرخ سائد دون سيطرة: «لن أذهب بها إليهم، لن أمنح أحدًا منهم الثقة يومًا، الأمر منتهٍ.»

«غبي، مريض نفسي يحتاج العلاج.» هتفها إبراهيم وهو يصرخ هو الآخر فور أن أغلق سائد هاتفه.

كان ينظر إلى الأدوية والمضاد الحيوي الذي تركته نرمين بعد أن أخبرته أن الجرح غير عميق، تحتاج فقط بعض الراحة وستكون بخير، أما الطفل فأخبرته أنه ليس مجالها ولكن كونها امرأة وأم استطاعت أن تعرف بطريقة ما أنه آمن تمامًا.

من بين الظلام الدامس فتحت عيناها ببطء تنظر إليه بوجهها الذي أصبح بلون الرماد المماثل للون عينيها، لم ينزع عيناه عنها ولم تتنازل هي في النظر إليه بغرابة، همس بهدوء: «أردتِّ قتلي يا دجوى.»

رغم إجهادها خرجت كلماتها بصعوبة: «إن أردت قتلك لم تكن يدي اهتزت بالسكين أبدًا.»

وجهه كان قريبًا منها للغاية دون أن يسمح لنفسه بلمسها، وقال بخفوت مُضْنٍ: «إذن ماذا كان هدفكِ يا دجوى؟»

أطبقت بيديها على فمها المرتعش، بينما أغمضت عينيها على سيل من الدموع قبل أن تزيح كفيها وهي تقول بصوت مختنق متألم: «صفعة إفاقة، طعنة الحياة يا سائد، مَنْ مثلك يحتاج لشحن من الألم، أن تشرب من الكأس الذي تريد أن تسقيني منه، لقد أردتَّ أن تقتلني وطفلي وأنا قمت بالتجربة، ورغم كل ما فعلته بي لم أستطع إلا جرحك.»

اهتزت عضلة جانب فمه وقال بسخرية: «تجربة فاشلة، إلا أنكِ استطعتِ أن ترفعيها وتُحدثي جرحًا غائرًا.»

أخذت نفسًا مرتجفًا وهي تقول: «حسنًا، ربما حقدي عليك دفعني قليلًا لطعنك دون أن أسمح لك بالموت»، نظر لعينيها طويلًا جدًّا، قبل أن يقول: «ما أخبرتِني به أثناء طعنكِ كان يوحي بأنكِ أردتِّ الأمر بكل كيانكِ»، هزت وجهها بصعوبة وكأنها تفك شفرة طلاسم، قبل أن تهمس

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ببديهيه: «أردت أن أشعرك ما في قلبي ربما يشفي تشوُّه روحك، ربما تلك البقايا المشوهة التي أخبرتني عنها يومًا تثور مدافعة عن آدميتي وطفلي.»

خرس تمامًا وكأنه يعجز عن إيجاد رد شافٍ وكأنها وجهت له ضربة غير متوقعة هزت ركائزه وجرفت أعماقه، فعادت تهمس بإصرار ووهن والدوار يلف بها: «هل ستقتل طفلي؟ هل تستطيع أن تضعني تحت المشرط مرة أخرى يا سائد؟»

ظل صامتًا ورأسه محنيَّة فوقها، أي كلمة سينطق بها في هذه اللحظة لن تكون منصفة أبدًا وسط ذلك الإعصار الذي يزلزل كل ثوابته، شعر بجفنيها تعود للثقل فتقاوم هي ألا تستسلم مكررة سؤالها بإصرار: «هل ستستطيع رفع سكين وطعني؟»

استطاع أخيرًا مرغمًا أن ينحني ويطبع قُبْلَة على جبهتها وأخبرها بنبرة تائهة: «أنتِ محقة، هذا الطفل خطيئة لن أغفرها أبدًا لنفسي، خطيئة تماثل وقوعي معكِ يا دجوى.»

بذكاء ذئب وخفة فهد كان سائد يتسلق على مواسير المنور الداخلي، حتى استطاع أن يصل للدور الثالث، وعبر شرفة ضيقة استطاع أن يدفع بجسده داخل تلك الشقة العفنة مستغلًّا جنح الليل، مطمئنًّا تمامًا أن لا أحد منهم سيبقى الليلة، بخفة كان يدفع الباب ويخطو للداخل وليته لم يفعل، تجمَّد مكانه للحظات، وهاله ما رأى.

استطاع بصعوبة أن يسيطر على ارتجاف ساقيه وهو يندسُّ في غرفة صغيرة وضيقة تبدو أنها تُستخدم لخزين ما، أخرج هاتفه وقال بصوت متقطع يخرج من الجحيم بعينه: «الشرطة، بسرعة يا عمر، أنا وسط

مذبحة عديمة الرحمة، وقعت في مجزرة غير آدمية، أَسْرِعْ يا عمر أرجوك.»

أخفض هاتفه بينما يراقب بعينه غير قادر على إغماض بصره عن المشهد الماثل أمامه، رجلان يحملان أجسادًا صغيرة هزيلة يقومان بإلقائها داخل الغرف المقابلة، بينما هناك أكثر من ستة رجال مؤكد لن يستطيع أن يتعامل معهم بمفرده، كتم سائد فمه بكلتا يديه وموجة غثيان تهاجمه ودموعه تتساقط بصمت، بينما جسده كله يرتجف برهبة، لقد بدأت المجزرة، مجزرة مطابقة تمامًا لما رآه في الماضي.

ينتظر النجدة المتمثلة في الشرطة دون جدوى والدقائق تمر بسرعة البرق، هناك أرواح تُزهق هنا أبرياء يُقْتَلون ببشاعة، مع مرور الوقت أصابه اليأس، والأمل بدأ يخبو بخجل معلنًا عن جر أذياله بينما يراقب هو بعين الخيال، الجسد الصغير يُلْقَى على سرير عفن مليء بالدماء يمنح البنج، ثم مشرط دقيق يشق بحرص أجسادهم الصغيرة ليفتحه على هيئة شقين متباعدين كذبيحة عيد الأضحى، ويمد طبيب الرحمة مخالبه وبحرص على جودة غنيمته، كان يخرج عضوًا وراء الآخر، ليخزنه في حافظات عالية الجودة.

«عمر، افعل المستحيل لقد بدأت جولة السفاحين، ادفع لهم ادَّعي سرقتي للمكان، وجود حريق، أشباح، تصرَّف يا عمر.»

ليأتيه الرد معلنًا بصلف انتصارهم عليه في هذه الجولة أيضًا: «يرفضون التحرك دون دليل قوي يا سائد.»

لقد قرر أن يتحرك ويتصرف ولكن قدميه أَبَتَا أن تطاوعه، الروح تئن والجسد ينهار والقلب يموت بألف طعنة غادرة متذكرًا مشهدًا من الماضي، مشهدًا مطابقًا تمامًا لما يحدث.

وفي خلال لحظات كانت تتحول الصالة المقابلة لمكانه المحجوب لحاوية نفايات بشرية، جثث ملقاة فوق بعضها، العديد من الأجساد الفارغة تمامًا، لتتحول إلى مجرد جيفة خالية، دفن رأسه بين كفيه مذهولًا يئنُّ بصوت مكتوم، وإن كانت مشارطهم هي ما تقتل إنسانًا، فمؤكد أن القهر الذي يلون روحه والعجز الذي يكبله يئده حيًّا.

«هل أنت بخير؟ قل أي شيء، جمودك وصمتك مخيف.»

لم يأته الرد، كم مر على حالة التخشُّب التي وجده عليها ساعات ودقائق وأيام، أغمض إبراهيم عينيه لوهلة متذكرًا حالة الرعب التي تعرَّض لها هو الآخر عندما رأى تلك المقبرة الجماعية في غرفة استقبال تلك العيادة، ربما هي مجرد دقائق ما استغرقه حتى يخرج من حالة الذهول الممتزجة بالصدمة عند رؤيته للمشهد، وبعقل رجل أمن متيقظ استطاع أن يصرف عقله عمَّا يحدث، وسحب سائد بهدوء عائدًا من نفس الطريق الذي دخلوا به العيادة، لم يحاول التدخل في مواجَهَة أو إبلاغ الشرطة أو التحدث مع أحد زملائه القدامى، ماذا قد يجني من الأمر وقد وقعت المجزرة بالفعل إلا كشف أنفسهم؟

«لقد كانوا مجرد مراهقين وأطفال، كل خطيئتهم في الحياة أنهم وقعوا في أيدي من لا يرحم.» قالها سائد بصوت خافت متحشرج، وما زالت عيناه في توهانها وكأنه ليس معه ولا ينتمي لعالمهم، كأنه انعزل في عالم آخر أو حقبة أخرى.

«لقد رأيته وهو يمزق جسد زوجتي، وشعرت بمشرطه وهو ينغرس في جسدي نافذًا بقوة لجسد طفلي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

حاول إبراهيم أن يجد ما يواسيه به أو يستقطبه للحديث باستفاضة، ولكنه لم يستطع عندما قال سائد: «كان من المفترض أن أقتلهم وأريق دماءهم؛ لأنال حق الجميع منهم، ولكن لم أستطع وكأن الخمسة عشر عامًا الماضية لم تكن ولم أفعل شيئًا ولم تثمر حتى عن إنقاذ روح واحدة منهم.»

تقبضت يد إبراهيم على المقود وقال بصوت مشتد: «لم تكن لتستطيع وحدك يا سائد إن تهورت وفعلت، وربما كانت نهايتك أن تصبح ممددًا على طاولة التشريح، ما فعلته هو الصحيح تمامًا.»

صمت قليلًا قبل أن يهمس بشراسة: «هذا ما قاله لي عمر قبل أن يضربني بشيء حاد على رأسي لأفقد الوعي على الفور.»

صمت مجددًا وهو يحني رأسه لاهثًا، ثم تابع بحدة: «ليته لم يفعل، ربما كنت أنقذت أحدهم من الموت أو أخذوني معهم ورُحِمْتُ من الجحيم الذي أحياه، لم تعد بي طاقة للتحمل فأنا بشر.»

ختم جملته صارخًا ورفع قبضته ليضرب نافذة السيارة بجانبه فتهشمت بدويٍّ حاد جعل إبراهيم يجفل للحظة وهو يأمره بقوة: «اهدأ، وماذا كنت تتوقع من اقتحامكم لمقرهم؟ هل كنت تعتقد أنهم توقفوا منذ خمسة عشر عامًا وينتظرون قصاصك؟!»

ساد صمت مخيف في المساحة الصغيرة بالسيارة، لم يجرؤ إبراهيم على قطعه، ينقل نظره بينه وبين الطريق، كان سائد يشعر بأن الهواء لم يعد يسع صدره فحاول أن يتنفس عن طريق فمه بصعوبة فدخل إلى رئتيه مسببًا له ألمًا لا يحتمل، ربما هو لم يعانِ جسديًّا ولكن متى كانت معاناة الروح بالشيء الهين أو غير المرئي ربما لو طعنوه ألف طعنة ما شعر بكل

هذا الوجع، وجهه مكفهر شاحب، جسده كله ينتفض، بينما العَرَق يغطي جبهته بحبيبات تخرج ملتهبة نافرة.

علق إبراهيم: «يدك تنزف»؛ فهبطت دمعة أخرى من عينه دون وعي، هناك وقف الشيطان أمام عينيه مبتسمًا بتشفٍّ مخرجًا له لسانه وأعلن بصلف متهكمًا:

«لقد انتصرت، فأنا سيد الغابة من يقرر مصيركم، من يفرق جمعكم أو أحولكم لمجرد قطعان تنمو داخل حدود مملكتي لأشبع جوعي متى أردت.»

رد سائد بصوت أخذ في الارتجاف رغمًا عنه: «خذني لمنزلي، لا أريد الذهاب للشركة.»

أومأ إبراهيم دون جدال، ثم أخرج هاتفه ليخبر عمر القلِق باختصار: «لقد استطعت إخراجه لا تقلق، ولكنه لن يأتي كما اتفقنا، لقد طلب الرجوع لمنزله.»

أغلق إبراهيم الهاتف بينما ذبذبات الألم تنتقل له كشظايا زجاج تسفك دماءه دون رحمة ولا قدرة له على إخراجها، فكيف حال من يجاوره؟!

كان يقف على قدميه بصعوبة فلم يستطيع أن يكبح ترنُّح جسده وهو يتعثر بخطواته، متحاملًا على نفسه حتى وصل غرفته، وبنظرات عينيها الهلعة المراقبة وقفت منكمشة من منظر ثلاثتهم، فتركت لهم المكان منزوية وراء باب الغرفة التي أوهمها في البداية أنها ملاذها عندما اعتقدت بغباء أنه زواج مقدس عشقي بطريقة ما، تسللت لشفتيها

الحزينتين ما يشبه الابتسامة متذكرةً كل لحظة ضعف وهوان، وذكرى إجباره لها لمشاركته غرفته تطرف عقلها، حسنًا فلن تكون منصفة هو أمر وتجبر، وهي طاوعت بضعف أو ربما لشعورها بالذنب، وأنها يجب أن تكفِّر له عن ذنب والدها كاملًا، ابتلعت ريقها عندما التقت عيناها بعينيه، رجفة عنيفة أطاحت بها فتراجعت للوراء مغلقةً الباب خلفها بقوة، أصبحت عيناه أكثر رعبًا أو خُيِّل لها ذلك رغم جحيم عذابه، للحظات وضعت يدها على صدرها في محاولة مضنية للتهدئة مخرجةً الهواء لرئتيها، ثم ما لبثت أن وقع بصرها على باب خزانتها المفتوح، لم تفكر مرتين وهي تدرك أن سائد يعاني من شيء ما استدعى وجود إبراهيم وعمر سويًّا، لم تتوقف لحظة لتفكر ما سبب مصابه ولمَ اختارها هي رغم أنها هددته بالقتل منذ يومين وهو في قمة عنفوانه: «تبًّا له، لن تضعه الآن في تفكيرها، فلتستغلَّ الفرصة وتفر بطفلها هاربةً، ويحدث ما يحدث بعدها، مؤكدًا سيكون أرحم مما تعانيه على يديه.»

وصل سائد لانهيار حقيقي وهو يرفع الغطاء ليندسَّ تحته بكامل ملابسه، فحاول عمر الاقتراب منه، فأوقفه سائد قائلًا بإجهاد: «هاتفي، ستجد عليه مقاطع مسجلة لما حدث، حاولت على قدر استطاعتي أن أحصل على بعض الوجوه.»

تجنَّب عمر إبداء أي تعاطف مع حالته متذكرًا قواعده الأثيرة بكرهه لإبداء أي مشاعر إنسانية نحوه؛ لذا قال بجمود: «دليل جيد لصالحنا، نستطيع أن نجمعه مع البقية ونقدمه كمستند قوى للشرطة و...»

قاطعة سائد سريعًا بحدة شرسة: «هل إبراهيم أثر بك بطريقة ما ونسيت ما نفعله يا عمر؟»

أغمض عمر عينيه للحظات، أدرك المهاترات المرفوضة التي كان يخبره بها إذ إنه يعلم أن في هذا البلد كل المستندات أو حتى شاهد العيان ليس لهم قيمة تُذْكَر مع شخص كفهمي، فبسهولة يستطيع أن ينكر ويخبرهم أنهم مجرد أعداء للنجاح، كما أنه ينظف خلفه جيدًا ولا يوجد له علاقة مباشرة بهؤلاء القتلة، سمع صوت سائد يخبره مجددًا متجنبًا التوضيح: «هناك مقطع أريدك أن تعيده مرارًا، ستجد أن هناك طبيبًا يبدو أنه صغير السن، عديم الخبرة في «الشغلانة» ...»

صمت لبرهة يبتلع ريقه وبتحامل أكثر يضغط على نفسه بما يفوق قدرته في تلك اللحظة، ثم ما لبث أن قال: «لقد ارتعشت يده، لم يستطع أن ينفذ، لا أعلم أسبابه ولكن أنا أريده يا عمر بأي طريقة، غدًا يكون عنوانه وهاتفه وتحركاته من يوم أن حملت فيه أمه بملف على مكتبي.»

بهدوء قال عمر: «وأنت».

أغمض جفنيه بإرهاق ثم قال: «أنا بخير، الذكرى لم تُمْحَ من عقلي يومًا لأعود وأتذكرها، فأنا أعيش داخلها كل ليلة؛ لذا لا تقلق عليَّ.»

ببهوت اقترب منه عمر قائلًا: «أنت لم تر ما حدث كاملًا ليلتها، أنا أعرف سائد أنت لست بخير.»

المرارة بصوت سائد كانت كافية أن تعود بعمر لتلك الليلة المشؤمة قائلًا: «وها أنا رأيت، ونعم يا صديقي أنا لست بخير تستطيع القول: إني أتنفس من بين الأموات في تلك اللحظة.»

ابتلع ريقه ثم قال: «سأبقى معك وأوكل لإبراهيم المهمة حتى تكون أفضل.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وضع سائد ساعده على عينيه، ثم ما لبث أن قال بصرامة: «أنا بخير ولن تبقى معي، كل منا دوره مرسوم بدقة فإياك أن تفكر بإخلال شيء حتى لو مجرد معلومة بسيطة، تذكر أنا لا أثق إلا بك، أنت نفسي يا عمر.»

اعتدل عمر والعقل الصارم قد أعلن عن إطاعة ما يقوله سائد، ما يسعوا إليه ليس بهين ومجرد انهيار بسيط فقط بداية الأمر.

بهدوء كان ينسحب مغادرًا مدركًا أن صديقه في تلك اللحظة يحتاج للخلوة التامة بعيدًا عن أي تعاطف أو عين ما ترى ضعفه، لقد غذاه سائد من كبريائه جيدًا، ونزع كل مشاعره البشرية جانبًا أو هكذا تظاهر، وإن رأى أحدهم الآن حالته تلك سيزيد الأمر سوءًا، ولكن يبقى السؤال المحير لِمَ اختار مكان ابنة الهاشمي ليلجأ إليه وهو في أقسى لحظات انهياره؟ عندما خرج من الغرفة كان يدرك أن إبراهيم غادرهم، وأن الأخرى مختفية، لم يطل تساؤله عن مكان تواجدها، وهو يلمحها تفتح باب غرفة أخرى وتتلفت حولها، بينما تحمل حقيبة صغيرة وتبدو كمن يستعد للهرب، فور أن وقعت نظراتها عليه لم تهتز ولم تتراجع وخَطَتْ نحو باب الشقة بثقة فأوقفها عمر وقال بجمود: «إلى أين؟»

لم تستدر إليه وهي تجيبه بنفس الجمود: «إلى الشارع».

فأجابها: «هل تستغلين مرضه يا دجوى؟»

كانت يدها على مقبض الباب، فارتعشت أناملها على المقبض قائلةً: «مريض!»

ساد صمت قاتل، وعمر ينظر إليها بتعابير غريبة ثم ما لبث أن قال: «هل تريدين إقناعي أنكِ لم تستشعري هذا؟! إذن لماذا لم تهربي خلال الشهرين الماضيين؟ لِمَ اخترتِ تلك اللحظة؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أغلقت جفنيها للحظات تبتلع جروحها بصمت، ثم استدارت كلها إليه، ثم ما لبثت أن قالت بهدوء: «دعنا فقط نتخطى تلك اللعبة، أنت تعلم تمامًا ما صفتي هنا، مَنْ أنا وما الذي يفعله معي صاحبك تحديدًا.»

جفل عمر للحظات مرتبكًا كأنه لا يستطيع الإنكار أو التأكيد، فأكملت دجوى بمرارة: «هل تعرف ما شعوري وأنا أعلم كيف تروني جميعكم؟ ألا يملك أحدكم ذرة ضمير واحدة ليمنع ما حدث لي تلك الليلة يا عمر؟»

صدر عن عمر نفسًا خشن الصوت وقال متهربًا: «ما يحدث بينكِ وبينه لا يخصني أو يخص أحدًا، الأمر كان برضاكِ يا دجوى، أذكر أني أرسلت لكِ رفضًا صامتًا ومحذرًا وأنتِ تجاهلتِ الأمر.»

شهقت مستنكرة بينما تقول: «ماذا؟! هل تمزح؟ رسائل صامتة محذرة يا لضميرك المتيقظ!»

قال عمر محذرًا بهدوء حريص: «ما حدث قد حدث وأنتِ ارتضيتِ، لا تستطيعين أن تتركيه وتهربي الآن ونحن جميعًا نعلم الوحوش التي تنتظركِ.»

«هل تحب رابحة؟»

للمرة الثانية تربكه فأكملت ساخرة بمرارة: «ظننته وقع بغرامي مثلما كنت أراك تكتوي بغرامها، قصة حب أسطورية لرجلين عادا للوطن أخيرًا فيقعان بغرام السكرتيرة والموظفة البسيطة، أحلام وردية منحت نفسي الأمل متناسيةً الغابة التي يتحدث عنها صاحبك، متحايلةً على الهم الذي يثقل كتفي، وغضضت بصري عن كل الكلاب التي انطلقت حولي من كل اتجاه، تعشمت في الرجل الذي أحببته أنه سيحميني، سيكون الدرع لي، وبالنهاية لم أجد إلا السراب.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ابتلع عمر ريقه وهو يشيح بوجهه عنها مكررًا بإصرار: «لِمَ اخترتِ تلك اللحظة للهرب؟ لماذا لم تفعليها سابقًا؟»

أجابته بحرقة: «لأنه منعني وزاد إحكام السجن حولي؛ ولأني كنت أشعر بالذنب بالضعف، أرجوك أتوسل إليك اتركني أغادر سأختفي تمامًا، إن لم يكن من أجلى فمن أجل طفل صغير ليس له أي ذنب فيما يحدث.»

هز عمر رأسه رافضًا وقال: «لا أستطيع، أنتِ واهمة إن تركتكِ تهربين هو لن يتركك يا دجوى، وإن تناسى هو وسط دوامته، لن يرحمكِ فهمي النجار، ما أعرفه أن كلابه تنهش الأرض بحثًا عنكِ.»

أغلقت جفنيها سامحةً لدموع الألم تهبط مدرارًا من عينيها، فهمي وكلابه وقذارته، أوَلم تعلم أن هذا أحد الأسباب القوية التي كانت تصيبها بالوهن والتردد بإحباط؟ أي تمرد داخلها ومحاولة للهرب والرعب أن يجدها فهمي، إذ تعلم جيدًا أنها في مملكة سائد لن يستطيع كائن على وجه الأرض الوصول إليها، إذ لم يسمح له هو ورغم جنونه وساديته في التعامل، ولكنها تدرك أنه لن يسمح أبدًا أن تطالها يد أو أذى غيره، شبه «فأذيتها ودفعها لحافة الجنون هي ملك حصري له».

تأثر بها وتعاطف إنسانيته المتبقية معها من البداية، كان يراها ضحية بائسة أوقعها القدر في طريق من لا يرحم، فهمس مهادنًا لها مدركًا جيدًا لما تعانيه من تخبط ورعب: «أنا أتفهمكِ يا دجوى، ولكن ما تُقْدِمين على فعله هو الجنون بعينه، لن يرحمكِ أحد.»

تعالى بكاؤها بقوة وهي تخبره بقهر: «عجزت يا عمر، أشعر أن لا مكان عاد يسعني، فالجميع سَنَّ أنيابه لينهشني.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وجه عمر المتصلب، المتنازع ما بين تقديم العون لها وخيانة صديقه أو إجبارها على البقاء كما يريد سائد، تكلم بصوته الخشن الخافت بعد فترة طويلة: «نعم، لقد نهشكِ البعض بالفعل، والبعض الآخر أراه بعين الخيال يقف هناك ينتظر ظهوركِ ليأخذ نصيبه من لحمكِ!»

ارتعشت بقوة لا إراديًّا أمام عينيه وانتفض جسدها ذعرًا فأكمل: «لن أجبركِ على البقاء، الباب مفتوح أمامكِ.»

مد يده في جيب بنطاله وأخرج منه بطاقة إلكترونية ثم قال بهدوء: «هذه البطاقة مفتوحة، اسحبي منها ما يكفيكِ من المال.»

بصمت مدت يدها المرتعشة تتناولها مترددة، أعاد يده في جيبه، ثم ما لبث أن قال بهدوء محنك: «ولكن ما أريد إخباركِ إياه أنكِ جربتِ جنون سائد بالفعل وأنتِ من الذكاء لتوقني الآن أنه من المستحيل أن يؤذيكِ أكثر مما فعل، دجوى لا يوجد أب مثله يؤذي طفله القادم وقد قضى خمسة عشر عامًا من حياته يحرم نفسه من كل شيء فقط لينتقم لآخر قُتِلَ وهو مجرد جنين في أحشاء أمه.»

أصبح الاضطراب يعتريها، نقلت نظراتها بينه وبين الغرفة التي ترك سائد فيها منذ قليل، أخيرًا همست بجمود مشمئز: «حتى وإن كان كل ما تقوله صحيحًا، ما يحدث هنا يُدّعَى زنا، هل تعرف معنى تلك الكلمة أم كصاحبك لا تفرق معك؟»

عبس عمر للحظات بعدم فهم وتأملها بغموض، لم ينبس بشيء وتحرك نحو باب الشقة، ثم قال بِصلف ساخر: «نحن تربينا في وكر مجرمين، الشوارع بيوتنا والأرصفة أَسِرّتنا والسرقة والنصب هي الوسيلة الوحيدة لنجد ما نقتات عليه، لم يخبرِكِ أحد أننا نشأنا في الأزهر؛ لذا نعم أنا مثل صاحبي تمامًا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أظلمت عيناها ويدها ترتفع تمسح دموعها بعنف بينما التفت عمر يردف بهدوء: «الكرة في ملعبكِ، افعلي ما يحلو لكِ، ولكنه وللأسف الشديد يحتاجكِ.»

صمت لبرهة واحدة قبل أن يقول بتلاعب: «ربما هذه فرصتك لتحقيق ضربة عادلة يا دجوى وتظفري بانتقام مما فعله، ثقي بي هذا أَفضل من رمي نفسك في الشارع عائدة لمطاردة فهمي مرة أخرى، ما أعرفه أنه رصد مالًا مضاعفًا أمام فصل رأسكِ عن جسدكِ، تصبحين على خير دجوى.»

قالها مغلقًا الباب خلفه وتركها في صمت متبلد، الروح هائجة تريد الهرب من هنا على الفور أو التوجه إليه لتعرف مدى انهياره هذه المرة، وما الحدث الجلل الذي أثر في ذلك الذئب المجنون.

رفعت عينيها كبركتان من البؤس، وهي تطالع جسده الراقد أمامها مرتبكة وحائرة، والسؤال العالق داخل عقلها يفرقع كالألعاب النارية ليضعها أمام حقيقة نفسها المقيتة: «لماذا لم تهرب؟ لِمَ بقيت وسمحت لعمر أن يتلاعب بها؟»

ووجدت الإجابة فور أن لمحت حبات العرق المتساقطة عن جبينه وجسده المرتجف بشدة تحت الغطاء يتمتم بكلمات غير مفهومة يبدو أنها كوابيس يعاني منها، أنفاسه تخرج متصاعدة بلهاث فضحه تسارع دقات قلبه التي ارتفعت لمعدل غير مسبوق.

اقتربت بحذر يخالطه اللهفة، والقلب أخيرًا أصدر حكمه ليتغلب على أمر العقل، سمعته يهمهم بكلمات لم تكن أبدًا مبهمة: «اتركني، الشيطان يعتدي عليها، آية لا تستسلمي أنا هنا لن أسمح له بإيذائكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أبعدت دجوى دموعها بعنف عن عينيها لتستطيع الرؤية واقتربت بعزم نابع من شعور إنساني يخبرها أن أيًّا ما أوصله لحالته تلك مؤكدًا قد عاشه سابقًا، وما يحدث الآن ما هو إلا صدى قاتل لن يترك حتى بقاياه بخير أبدًا، بترت حديث النفس ورمت حقيبتها جانبًا، خلعت سترة صوفية كانت ارتدتها على ملابسها لتحميها من البرد، وبدون لحظة ندم أو تخبُّط كانت تتوجه إلى المطبخ لتأتي بقطع ثلج وإناء واسع، دخلت مرة أخرى تضعهم على الطاولة الجانبية وهي تحمد الله بداخلها أن تلك المرأة التي جاءوا بها لتضميد جرحها قد تركت بعض المضاد الحيوي ومسكن الألم وخافض الحرارة، سحبت أولًا قطعة قطن ووضعت بها قطعًا من الثلج، وبهدوء جلست بجانبه ومدت يدها بحزم وثقة وضعته على جبهته مباشرة، فخرجت منه شهقة قوية أشبه بالزئير وجسده الضخم ارتعد أشبه بزلزال بمعدل أربع درجات ريختر، وببرودة فعل لا إرادية اعتدل سريعًا ويداه تلتفَّان حول عنقها يطبق عليه بنوع من القسوة غير المؤذية، تراخت يدها عن جبهته وهي تصرخ فيه بتحشرج: «اهدأ أرجوك، إنه أنا.»

كانت أنفاسه تخرج بصعوبة متتالية وكأنه يستجدي بعض الهواء ليدخل رئتيه، لحظات مرت طويلة كادت أن تفقد الأمل، أن يتركها أمام عينيه المضطربة والتي أظهرت أنه فقد عقله، فهمست بأنين: «إنه أنا يا سائد، لقد وعدت بعدم أذيتي مرة أخرى.»

لم تبكِ هذه المرة ولم تشعر بالمرارة أو حتى الرعب رغم كفَّيها التي غطت أصابعه تحاول أن تبعده عن رقبتها، أطلَّت من عينيه نظرة مظلمة، هزت أعماقها وأنامله تتراخى عنها، أخبرها بنبرة غريبة وصوت غير صوته: «أنا لم أعدكِ بشيء يا ابنة غسان.»

ابتلعت غصتها بحرقة ورفعت يديها ولمست وجهه بين كفيها وأخبرته بهدوء: «في اللحظة التي اخترت أن تلجأ إليَّ فيها لم أعد ابنة غسان يا سائد.»

النظرة التي اعتلت عينيه الناظرتين إليها مباشرةً منحتها قوة لتصمد وتواجهه حتى وإن كان المنطق يخبرها بأنه وقت الانتقام والهروب، تلك النظرة الخاوية المتعبة جعلتها تخبره بقوة: «في تلك اللحظة أنا أنثاك، أنثى الذئب».

تراخت يداه من حولها وتراجع ببطء مرة أخرى إلى الفراش بملامح لن يستطيع ألف فنان أن يصف فيها مقدار الوجع وقال: «هي كانت أنثاي، طفلتي وآخر ما تبقى لديَّ من إنسانية وكرامة.»

حلَّ الجمود على ملامحها ولم تمنحه أي بادرة للرد، بسيطرة على الذات كانت تمد يدها نحو قطعة قطن أخرى تغمسها في الثلج وتعود تمررها على جبهته، أغلق عينيه جراء الرعشة التي تسببت بها برودة قطعة الثلج، كان مستسلمًا تمامًا بين يديها وكأن كل قدرة له على المقاومة نفدت، ما رآه تحت مشارط هؤلاء القتلة وهم يعبثون بالأجساد الهزيلة كان يفوق طاقته؛ إذ أعاده لذكرى أخرى كانت أكثر من احتمال أي رجل مهما كان صلبًا، شدَّد على جفنيه مانعًا نفسه بإرادة من حديد أن ينفجر في البكاء كالأطفال مرة أخرى، سمع صوتها يقول بتوتر: «جسدك كله ينتفض وملابسك مبللة.»

متحاملًا على نفسه قال بخشونة وهو يشعر بها تقف من جلستها بجواره وتميل بنصفها العلوي نحوه لتشرع في إزاحة الغطاء عنه: «ادعاؤك الخجل يثير السخرية، ما بيننا تعدى مجرد تغييركِ لملابسي أم لكِ رأي آخر؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أخذت نفسًا عميقًا تبتلع الإهانة قبل أن تخبره ببرود: «هذا صحيح، أنت لم تترك شيئًا للخجل أو التجربة.»

وبدون لحظة تردد أخرى كانت تفك أزرار قميصه بغيظ، سمعت أنفاسه تخرج بتأوُّه صعب عندما لمست أناملها الرقيقة صدره، تسمَّرت عيناها للحظات تتبع الجروح والحروق المتعددة في جسده، وخاطر مزعج يطرق تفكيرها، هذه أول مرة تلاحظ جروحه الجديدة بالطبع، لقد رأت بعضها يوم أن ضمدتها له قبل أن تدخل عرينه، بهدوء تشبثت ذراعاها بخَصره تحاول أن توازن جسده بينما تهمس: «ساعدني قليلًا، أنت ثقيل بعض الشيء.»

ابتسمت ملامحه من بين الألم وهو يتكئ على كفيه يحاول أن يساعدها في الاعتدال بجذعه كما طلبت، غير قادر عن إزاحة عينيه مراقبًا لملامح وجهها التي تحاول ادعاء الصمود، ولكن رغمًا عنها رماد عينيها يمنحها سحرًا يمس نبضة غادرة داخل قلبه، تجبره للاعتراف أنها جميلة وجميلة جدًّا، شهية حنونة وبريئة، متسامحة بطفولية عجيبة.

بينما هي منهمكة بتخليصه من ملابسه ارتفعت يده المصابة لتحيط وجنتها برقة وأنامله تداعب شعرها القصير تعيده خلف أذنها وقال بخفوت: «أنا أفوق حجمكِ مرتين ربما، ولكن أنتِ لديكِ شيء يفوقني أضعافًا.»

اضطربت وهي تلعق شفتيها التي جفَّت بلسانها غير قادرة على منع نفسها من سؤاله: «ما هو هذا الشيء؟»

قال بإجهاد ويده ما زالت تعبث بخصلاتها: «لا أعرف».

لم تردَّ وهي تتمالك أعصابها وتبعد كفه عنها وتفردها على كفها المرتجف وقالت: «يدك تنزف، مَنْ ضمَّد لك الجرح بتلك الطريقة العشوائية؟»

رد: «لا أذكر مَنْ».

شرعت في إزالة الضمادة العشوائية من كفه، ومررت شاشًا آخر تطهر به جرحه بإتقان، بينما يدها الأخرى ارتفعت وبأطراف أناملها كانت تتبع جروحه القديمة والحديثة، بهدوء أشعره أنها أصابع عازفة كمان تعزف بنغم رقيق هادئ جعله يسترخي مرغمًا مستسلمًا تحت يديها دون حذر، بينما هي تتابع انفعالته بألم متعاقب ومتعاطف همست بصعوبة والإدراك يضرب عقلها:

«تلك الجروح أنت المتسبب فيها لنفسك.»

عاد يسترخي بجسده على الوسادة وقال متهربًا: «ما تملأ صدري وظهري أو حتى ركبتي كانت من صنع حماد.»

«مَنْ حماد الذي تردِّد اسمه طوال الوقت؟»

أخبرها بضيق ساخرًا: «هل شاهدتِّ فيلم العفاريت من قبل؟»

هبطت من عينيها الساحرتين دمعة وحيدة وهي تجيبه مبتسمة وقد فهمت أنه لن يعترف بسهولة أنه يمارس المازوشية بنفسه: «ما من أحد في الوطن العربي لم يره.»

«الكتعة بجانب حماد حمل بريء وديع، ملاك طاهر بأجنحة.»

لم تحتج لمجادلته وهي تنهي وضع الضمادة على جرحه، وتمد يدها تجس حرارته مقرنة بقولها: «حرارتك مرتفعة جدًّا وسينهار جسدك بالتدريج، أنت تحتاج لحمام بارد على الفور.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال بإرهاق: «أنا كنت مرتاحًا ونائمًا بالفعل قبل أن تدخلي الغرفة.»

هادنته بالقول مردِّدة: «سائد، حرارتك ترتفع وجسدك كله ينتفض وأنت تجادل، من فضلك اسمع كلامي.»

فتح عينيه الملتهبتين بحدقتين محمرتين غضبًا وبدون مقدمات كان يجذبها نحوه، لم يمنحها حتى فرصة للاعتراض والصراخ، أطلق تأوُّهًا مكتومًا متحاملًا على نفسه، وهو يلقيها بجانبه يدفعها لتتمدد على الوسائد وبدون أدنى كلمة كان يكبل خَصرها بذراعيه ويضع رأسه على بطنها، ثم ما لبث أن قال بغضب مكتوم: «كنتِ تريدين الهرب، خطأ لن أغفره لكِ يا دجوى.»

فَغَرَتْ فاها للحظات ذاهلة قبل أن تقول بتقطع: «كيف عرفت؟!»

البريئة الغبية تعتقد أنه لمجرد تعب حلَّ به وسمح له أن يظهره أمامها، أنه سيفقد قدرته على الملاحظة ملابسها كاملة مع حقيبة مرمية أمام باب الغرفة وحذاء أنيق، هل يوجد أكثر من هذا أدلة؟ لم يُجِبْ، لم يستطع وجفنيه تعود للثقل التدريجي مهمهمًا: «أنتِ تحققين الإلهاء المطلوب.»

دوامة يغرق فيها، تسحبه بتيار هائج ثقيل مصمم أن يخطف روحه ويأخذ عمره، يُلقيه في الألم والتهلكة ليوئده حيًّا، دوامة مختلفة، متنازعة ومختلطة: إحداها حلوة دافئة حنونة تلف جسده لفًّا بحنان أُمٍّ قلقة لم يعرف معنى حبها يومًا قط، بل مجرد أساطير وخيالات سمع عنها، ولكن أي أم؟! ما أخبروه عنها لا يمثل أبدًا هذا الشعور اللذيذ من الدفء الذي يشعر به خلال تلك الغمامة، شعر بذراعيه تعتصر شيئًا ناعمًا طريًّا كحلوى المارشملو، ودوامة أخرى تُجبره بسطوة شرسة أن يبتعد عن ذلك

الاكتشاف المثير المريح وتُلقيه في غيمات شيطانية، يصارع الألم، يحارب تلك الذكرى السوداء، غير مدرك لتلك التي تحتضنه بقوة تهمس بجوار أذنيه بصوت مختنق بدموعها بكلمات: «أرجوك أفِقْ؛ سائد لا تستسلم، هذا كابوس حبيبي، أرجوك أفِقْ.»

ولكن لا هو سمع ولا هي استطاعت أن تخرجه مِن بئر الذكريات المخيفة، قبل خمسة عشر عامًا ليلته الأخيرة في وكر حماد بمنتصف الليل، كان يتسلل بهدوء بعد منتصف الليل كخفاش يلجأ إلى كهفه بعد ان كسر واجهة صيدلية وعاقب الطبيب المتدرب الذي يسهر فيها، بوصاية من أحدهم بعد أن أخبر حماد أنه يرفض التعامل معهم، لقد أنهى هو واثنين معه عقاب الرجل ومن معه، ولكنه رفض أن يبقى مع رفيقيه وعاد سريعًا لصغيرته الجزعة غير متناسٍ محايلتها إياه كي يأخذها معه، أحسَّ بالقشعريرة تزحف فوق جسده وهو يلمح سيارة دفع رباعي متوقفة أمام وكرهم ويقف أمامها سبع رجال، يتعاونون فيما بينهم على نقل أجساد رفاقه الساكنة، كاد أن يذهب إليهم يصرخ فيهم يستفهم عمَّا يحدث عندما شعر بأحدهم يأتي من ورائه ويكبله بقوة، التقطه من خلفه محاولًا أن يأتي به أرضًا ولكن أوقفه صوت عمر المرتعب ولكنه قوي صامد، وهمس: «إنه أنا، إياك أن تجرؤ وتتخطاهم، لو اكتشف المعلم أننا رأينا شيئًا سيسلمك لهم.»

سبَّ سائد نفسه وهو يطاوع عمر وهم يندسون خلف كومة قمامة من تلك التي تملأ الحواري الميتة، وسأله: «مَنْ هم؟ وهل تعرفهم؟»

هزَّ عمر رأسه نفيًا بالتضامن مع قوله: «لا، لو كنت أعرف عنهم شيئًا لكنت أخبرتك، ولكن أحد رجال المعلم ممن يعملون معه في تلك الناحية أخبرني دون أن يقصد أن هذا الأمر مَنْ يذهب إليه لا يعود أبدًا.»

استبدَّ القلق به فقام مغادرًا وقال لعمر بخشونة قلقة: «يفعلوا ما يفعلوه، آية بالداخل وأنا عدت من أجلها، كما أني ذئب المعلم ولن يحدث شيء.»

تنهَّد عمر بضيق قبل أن يتبعه مستسلمًا وقال: «رجلي على رجلك سأذهب معك.»

دوامة الذكريات تتوقف بمقاومة منه فيعود جسده للانتفاض بين ذراعي الساهرة التي تحتضنه بقوة وتهمس مهدئة وهي تبذل جهدًا خرافيًّا حتى لا تصرخ بكل ما يعتمل في صدرها لإيقاظه، لقد كان يهذي بكلمات واضحة يصف ما يراه في كابوسه بدقة، وكم كان مرعبًا ومخيفًا أنه يصيب كل جزء منها الذعر، إذ إنها تدرك أنه حقيقي، حقيقي جدًّا.

عاد ليغرق وهو يتذكر الصراخ المكتوم المقاوم المستنجد باسمه: «سائد، أنقذني أين أنت؟ سيقتلونني.»

لمح وجهًا مقيتًا أتى من الجحيم مباشرةً ليخبرهم على عجل: «كبلها جيدًا هذه بالذات تساوي ضِعْف كل من بصندوق السيارة لا أريد أن يصيبها خدش.»

هرع إليها صارخًا فلحقه عمر وهو يلتقط خشبة ملقاة في الشارع، ولكن هيهات وقد حسم القدر المصير، انطلقت السيارة، فجرى وراءها يحاول اللحاق بها، سقط مرة واثنان وعشر، وكان يصرخ باسمها محاولًا اللحاق بهم، ظهر عمر مرة أخرى بدراجة نارية وأمره بالصعود فقفز وراءه دون أن يتوقف يتابعون المجرمين، لم يفقد الهدف عندما توقفوا أخيرًا في المدينة الجديدة وسط عدة مبانٍ، وحملوا الأجساد التي خدروها

بالوجبات الوهمية بمأدبة أقامها سابقًا حماد على شرف ضحاياه قبل أن يُسَلِّمهم كرؤوس الغنم التي وقع الاختيار عليها.

لمحها أخيرًا والحقير الذي حفظ وجهه عن ظهر قلب يحملها بنفسه ليدلف بها إلى داخل مقرهم القذر لتقطيع الأجساد، وأخبرهم بنبرة شيطانية قذرة: «أنتم مع البقية أم تلك الحلوة لديها هدية لي قبل أن أحصل على كنزها؟»

شعر بقلبه يتوقف تمامًا عن الخفقان وهو ينظر لهم من بعيد بذُعر يُكبله عمر الذي نصحه: «إن ذهبت إليهم هكذا، سنصبح مثلها اليوم.»

زأر فيه بجنون: «تلك آية يا عمر، إنها زوجتي وطفلي، سيأخذونهم مني، أتسمع ما يقوله الحقير؟»

كان الأدرينالين يضخ في عروق كليهما بصخب مخيف، ولكن عمر جاهد ليخبره بحكمة: «اجعلهم يلتهون أولًا فيما يفعلونه وبعدها سنتسلل ونطلق سراح الجميع.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ربما هما أطفال شوارع، كلاب سكك كما يطلق عليهم، مجرد حيوانات جائعة للطعام والحنان والنظافة والتربية، ولكن مؤكد ورغم نضجهم المبكر جدًّا وإجادتهم التأقلم على كل شيء حتى يستطيعوا البقاء على قيد الحياة، ولكن لم يخطر بعقلهم أبدًا أن هناك وحوشًا على هيئة آدمية يَرْتَدُون معاطف بيضاء مليئة بدماء رفاقهم وأشقائهم الذين جاءوا من رحم واحد؛ رحم الشارع، لم يكن قادرًا على ازدراد ريقه وهو يتشبث في نافذة أطرافها من الزجاج العاكس في الضوء الداخلي، رأى بعينين هلعتين جَزّارين آدميين يُلقون بذلك الفتى على الطاولة، ثم يضربون مشرطًا في جسده فاتحين بطنه طوليًا، أغلق سائد فمه وهو يهبط عن الشباك: «هو يعرف هذا المراهق، لقد كان من أفضل رجال المعلم المستقبليين كما

كان يخبره حماد، يذكر جيدًا يوم وجده حسان وأتى به للمعلم ليخبرهم أن هذا الصغير طُرِدَ من منزله بعد أن طلَّق والده أمه وكل واحد منهم تزوَّج وأنجب من الزوج الجديد، وانشغلوا بحياتهم متناسين فلذة كبدهم الذي وجد الشارع مأواه، غصة ألم عنيفة وجنون متخبط كان يجعله يشب يبحث بجنون عن رفيقته، فوجد في الغرفة الأخرى فتاة يعرفها جيدًا، رآها تتعذب وتُسْتَغَل جسديًّا وروحيًّا من حسان القذر منذ أن كانت طفلة صغيرة عمرها لا يتعدى العشر سنوات، مجبرًا إياها على معاشرته الشاذة كالحيوانات، يعلم قصتها ويذكرها جيدًا لقد كانت مجرد يتيمة ألقاها القدر مع عم طامع أكل مالها وعذبها حتى هربت ووجدت الشارع مأواها، لم يرحم براءتها مطلقًا، الرحمة يا الله بعبادك الضعفاء، العدل أنْزِلْه بخلقك وأحْرِقْ بجحيم غضبك مَنْ تجرد من الإنسانية تاركًا للشيطان نفسه، تحركه أطماعه ليصل إلى الحضيض.

لم يكن يدرك أنه وصل إليها، يصرخ كحيوان جريح يقطعون من جسده الحي وهو على قيد الحياة، صوته كان هستيريًّا مجنونًا وكأنه فقد عقله بينما يخبط على النافذة بكل ما أوتيَ من قوة بالتضامن مع دموع الذل والإهانة وسحق الكرامة، وهو يراقب صغيرته ممددة على فراش قذر مغرق بالدماء يربط قدميها وذراعيها، بينما هي تطلق صرختها باسمه بصوت معذب، والقذر لا يتوقف ولا يتهاون عن اغتصابها بتلذذ، صراخه زلزل في ثوان كيان القتلة فلم يجد عمر بُدًّا من أن يخبطه على رأسه بتلك الخشبة مرة واثنان حتى جعله يصمت تمامًا، ثم سحب جسد صاحبه سريعًا واختفى في هيكل عمارة ما زالت تحت الإنشاء بجانب هذا المكان، مستغلًّا ارتباكهم ورعبهم أن يكون أحد عرف طريقهم، كان يدرك أن عمر وقتها بعقلية مراهق لم يبلغ السادسة عشر بعدُ، لم يكن بيده شيء آخر، معترف أنهم إذا وجدوه هو وعمر كان سيلحق بحبيبته،

انتظر يومًا واثنان وهو غارق في أحزانه غير قادر على تصديق هول الصدمة، ثم أصر أن يحفر المقبرة الجماعية بأظافره وأخرجها هي وصغيره، وأكرمهم بدفنهم في مثواهم الأخير.

في بعض الأحيان السماح للألم بالانتشار ليغزو الروح قبل الجسد وأن يغمر القلب يكون بداية للتحرر، أن نُوضع بطريقة موجعة أمام رؤية ماضينا، يكمن الحل والمحرك الأساسي البشع، تضحية صغيرة بعضو فعال في جسدك تمنحك القوة والإقدام لاستئصال ورم خبيث دون أن يَرِفَّ لك جفن أو يهزك شعور إنساني واحد، مؤلم أن تعيش كل تاريخك في كذبة، مؤلم الشعور الذي يتدفق في داخلك بتنازع متناحر قاتل ما بين الصراخ بصوت الحق وما بين الدفاع عن قاتل هو منك وأنت منه.

مؤلم أن تعيش الألم مضاعفًا كأنها ساحة حرب رومانية يصرخ الجميع بنهشك، ولا ترى الخلاص إلا بين يدي ذلك الأسد الذي ينطلق نحوك ولا نية لديه إلا أكلك حيًّا، وكم هو موجع وقاتل أن تدرك أن أفعال البشر هي أقسى أنواع الشراسة وتعدَّت استيعاب العقل والمنطق واللامنطق، مؤلم أن تدرك أن الحيوانات لا تجرؤ أن تفعل جزءًا من مئة من تصرفات البشر

مع بزوغ أول الصباح كانت تدرك أنها لم تمر في حياتها قط بليلة سوداء كالتي عاشتها معه، لقد ظنت من تنازعه وضعفه أنه لن يفيق منها والحمى التي أصابت جسده حتى أنها كانت تجفل من لمسه، الحرارة المنبعثة منه أصابتها هي بالتعرق، لقد حاولت الإفلات من بين ذراعيه ولكن بالنهاية لم تستطع واستسلمت لتشبثه المميت بها محاوِلَةً المحافظة

على انخفاض حرارته قليلًا عبر كمادات الثلج، وحبتين خافضة للحرارة دستها تحت لسانه، ويبدو أنها أخيرًا أتت بمفعولها.

كان قد اعتدل في نومته أخيرًا وبدأت ملامحه تسترخي، إحدى ذراعيه تستريح على خَصرها والأخرى تتسلل وراء ظهرها كأنه يرفض أن يتركها، يرفض أن يعيش جحيمه وحده فيشاركها به كما تَوعدها في السابق.

تسللَّت أناملها تتبع جروح ذراعيه برقة، هي على يقين الآن أن تلك الجروح من فعله، وكان يجاهد بالفعل لفتح عينيه وحواسه تعود إليه شيئًا فشيئًا، وحركتها الناعمة تتسلل لتوقظ عقله الباطن من دوامته الإرادية، قال بصوت أبح: «المسمى الصحيح مازوشية يا ابنة غسان».

شعر بيدها تتوقف على ساعده، لثوانٍ معدودة لم ترد، ثم ما لبثت أن قالت بقلق: «ولِمَ قد تفعل هذا بنفسك؟!»

تحرك من موضعه سامحًا لها بالتحرر أخيرًا من محاصرته، اضجع على جانبه وقال برتابة: «ابقي بجانبي».

عَضَّت طرف شفتيها، ثم بهدوء تمددت على جانبها لتواجهه وقالت: «لم أكن أنتوي تركك.»

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «أنتِ سلبية جدًّا أو ذكية جدًّا.»

لم تلف وتدور عندما أجابته بهدوء: «أو ربما أني أدركت أن لذة انتقامي تكمن في ضعفي إليك.»

التوى فكه بشبه ابتسامة وقال بغموض: «أكره الظلام، يرعبني كأني مجرد صغير أخبروه عن الأشباح التي تخرج في سواد الليل.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رمشت بعينيها للحظات بتعجب قبل أن تلتقط مبادرته وقالت ببساطة: «أو ربما النزاع بداخلك هو ما ينفره، فجزء منك غارق حتى النخاع في بؤرة انتقامك، وبقايا من إنسانيتك تعرف أن كل أفعال الشياطين المظلمة لا تخرج إلا في سكون الليل عندما تسدل السماء ستارها الأسود».

ماذا يكون رد فعله على حديثها؟ لقد كان متعبًا متألمًا مشوشًا، وحقده يتعاظم، حقد لم يكن موجهًا لها في تلك اللحظة، مؤلم أن يعترف أن ما بينه وبينها دمًا لم يجفَّ وثأرًا لم يؤخذ، وأيضًا هي نفسها من وجد معها جزءًا اعتقد أنه مات واندثر، فليعترف لنفسه حتى يتخلص من بعض تشوشه أن دُجَى تحرك فيه قلبًا كان قد مات، وهذا في حد ذاته منتهى الأنانية والظلم منه لحبيبته.

«دُجى تعني ظلمة الليل، هل لهذا أصبحت تلقبني به؟»

تنهَّد وهو يقول: «ودُجى القمر تعني أنه اكتمل ليقشع هذا الظلام، ودُجى السحاب تعني أنها توسعت لتتوغل وتنتشر.»

توتر فمها وقالت: «وهل هذا الفارق يعني لك شيئًا؟»

قال بجفاء: «لا بالطبع، أنا أخبركِ المعلومة كاملة فقط.»

عم الصمت الحذِر بينهما، بينما عيناه لم تتنازل عن النظر لعينيها المرتبكة يكتشفها يفهمها، استشعرت هذا عندما أخبرها: «الليلة الماضية لا تعني شيئًا».

أغلقت جفنيها، ثم ما لبثت أن قالت بسخرية: «بالطبع أفهم هذا، كما ليلة الأسبوع الماضي، هل أتوقع الكثير من تلك الليالي مستقبلاً؟»

كان التوتر من نصيبه هذه المرة، وأشاح بوجهه ليخبرها بصوت أجش: «ربما، ولكن أعدك أن كل شيء أوشك على الانتهاء.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لا إراديًّا اعتصرت يدها بطنها المسطح، متذكرة كل انتفاضة منه وكل صرخة كانت تخرج منه كطعنة سكين حادة لا ترحم، همست: «إخراج الألم عبر تعذيب نفسك لن يفيدك، ربما تحتاج للتحدث.»

ساد صمت من جانبه إلا صوت أنفاسه الثقيلة وكأنها أعادته بقسوة لما كان يتهرب من تذكره، همت أن تبتعد عنه تهرب من تلك الشياطين التي عادت تتراقص على ملامحه في هفوة، فسارع للإمساك بيديها، قبل أن يقول بخشونة: «للألم مفعول السحر لإخراج كل غضبك المتفجر، ليضمن بقاءك على قيد الحياة تحارب وتصمد، يعزز دوافعك ويغذي روح الانتقام، بلى كنت أحتاجه بشدة؛ لكي يريحني من الحمم التي تنفجر بداخل عقلي بغمامه سوداء سامة، إن تركتها ستحرق كل شيء.»

بقلب خافق سألته: «هل لهذا الحد أحببتها؟!»

شهقت برعب وعينيها تتوسعان هلعًا عندما رأته ينتفض مرة واحدة يمسك بعضديها بقوة يهزها بشدة، وهو يهدر كمغيب عن الوعي: «كانت جميلة حد الألم، بريئة حد الوجع، ملائكية حد الحسرة، رغم كل الحضيض والقذارة التي كبرنا فيها.»

الجمر المحترق في عينيه انطفأ فجأة ويديه تتراخى حولها بتضارب رد فعل مخيف ويده ترتفع تتلمس صفحة وجهه وهو يقول بمرارة: «كانت تأتي كل ليلة لتدخل بين ذراعي تحتمي فيهما من كل الوحوش الضارية التي كانت تتكالب عليها، تعرف عن يقين أني حاميها، تخترق كتل اللحم المتراصة ليلًا تتلمس الدفء من بعضها، تلتصق حتى أكاد لا أفرق الوجوه المليئة بالأوساخ من بعضها، فأضمها إليَّ وأسافر بها لعالم به بصيص من النور لم تعرفه مع سواي أبدًا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

صمت يلتقط أنفاسه، بينما ينحني عليها محاوطًا رأسها بساعديه وأردف بشرود: «إن كنتِ تعنين بسؤالكِ إن أحببتها، فالحب شعور باهت سخيف، أما ما كانت تعنيه آية لي ...»

ازدردت ريقها، ثم ما لبثت أن سألته باستسلام مدركة أنها ترمي بنفسها لألم مضاعف لم يعد قلبها المسكين يتحمله ولكنه يستحق، أن تجاريه وتخفف بعضًا من أوجاعه، رددت: «ماذا كانت تعني لك؟»

«أني بشر، بأني إنسان من حقه أن يحيا ويحلم ويعيش ويكون لديه كرامة».

قالت بحزن: «ما حدث لم يكن خطأك يا سائد، وأيًّا ما اكتشفته في رحلة بحثك خلفهم أيضًا هو ليس ذنبك، أنت مجرد بشر، فرد واحد أمام مافيا عالمية منظمة.»

شحب وجهه أكثر مما هو مرهق بالفعل، ثم ما لبث قال بصوت أجش: «هم مجرد سلسلة متصلة ببعضها إن أخللت بأحد حلقاتها سأقضي عليهم جميعًا.»

قالت بعاطفة عنيفة ونبرة مجروحة: «لم يرحمني فهمي، لقد أصر أن يجعلني أرى كل شيء في هذا المكان الذي أخبرتك عنه.»

قسا وجه سائد ويديه تتقبض بعنف ممسكًا بالفراش حولها، ثم قال: «كان يريد أن يضغط عليه ليواصل عمله معهم الحقير.»

ردت دجوى والتعقل يغادرها تمامًا: «لقد اختلفوا على مال بينهم في الظاهر ولكن الباطن أن غسان بدأ يضعف، وفهمي كبر وتفاقم دوره في تجارتهم، وأراد الاستيلاء على كل شيء، فكانت أول خطوة إخضاعه، عبر أن يرى كم هو ضعيف جدًا أمامهم، فقام بخطفي ليخبره أن تلك الحالة بالذات بجب أن يشرحها بيديه ليثبت حسن إخلاصه لهم.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم أجهشت بالبكاء وهي تردف: «لم يصدق عندما وجدني أنا ممددة وعارية على الطاولة وهناك جرح طويل في خاصرتي، لا أعرف ما حدث بينهم بعد هذا؛ لأني استيقظت في منزلي.»

تهدَّج صوتها وهي تتمسك بيديه في قوة تخبره: «قبل أن يمددني على الطاولة جعلني أشاهد جميع الأعضاء المخزنة في هذا المكان، وأخبرني أنه خلال دقائق سأصبح مثلهم.»

«ولِمَ فعل معكِ هذا؟»

هزت رأسها وهي تقول بسخرية: «كان يريد أن يضمن سكوتي على ما يبدو؛ لأن موت والدي كان مرتبًا له بالفعل كما استنتجت لاحقًا.»

اشمأزت ملامحه وقال: «والدكِ كان حقيرًا.»

عادت دموعها تسيل وهي تقول بصوت مختنق: «هذا صحيح؛ لذا أنا لا أدافع عنه معك، ولكن أنا لن أتقبل انتقامك مني يومًا، أنا لست مثله أو مثلهم، أنا ضحية مثلكم تمامًا.»

ارتسمت ابتسامة صغيرة وحزينة على شفتيه، بينما يده تعود تتلمس ملامحها بهدوء رتيب وكأنه متعود على فعلها منذ الأبد: «ربما ولكن اسمه الذي يذيِّل اسمك يظل جريمتكِ الأبدية، خطيئتكِ التي لن تتحرري منها يومًا يا دُجى.»

أطرقت برأسها دون أن تقول شيئًا، فتابع بسلاسة: «جريمته تبقى بالقلب غصة، غصة يعاني منها مجتمع بأكمله، وغصة سأذهب بها إلى قبري، وغُصَّة أصبحت أكثر ألمًا لعقلي وضميري؛ لأنها ببساطة أصبحت تتمحور حولكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ارتفعت يداها نحو صدره تتلمسه بنوع من الهستريا وهي تقول بصوت مرتجف غريب: «هل تملك قلبًا يا سائد؟ هل لديك ما يشعر هنا؟ أم أخذوه منك على حين غِرَّة مستبدلينه بشيء كل وظيفته ضخ الدماء في عروقك حتى تحقق هوسك بالانتقام؟»

تشنَّج وجهه بالمرارة تاركها تبحث عن غايتها، ثم قال: «لن تجدي شيئًا، أنتِ محقة لقد أخذوه معها، هي كانت كل شيء، أخبرتكِ مرارًا.»

أهذا صوت تحطم ما سمعته يدوي بين أضلعها؟ لقد كان قلبها يتهشم إلى شظايا داخل صدرها، صرخت فيه وهي تزيحه بعنف عنها: «أيها الحقير ابتعد عني، أنا أريد الخروج من هنا.»

أجفلت عندما أمسكها من خَصرها يثبتها تحته جيدًا ويحدق بعينيه السوداوين في رماد عينيها الهائج غضبًا وقهرًا: «ما بال ثورتكِ يا ابنة غسان؟ هل كنتِ تتعشمين أنكِ تمثلين أي شيء لي لمجرد سهركِ بجانبي في مرضي؟»

جمدت مكانها وهي تنظر إليه مبهوتة، فقالت بصوت متهدج: «أَطْلِقْ سراحي يا سائد، أو اقتلني وأرحني من تلك اللعبة، الألم أصبح لا يُحتمل ولم تعد بي قوة للمقاومة.»

جفلت ملامحه ثم أطلق ضحكة خشنة ساخرة لصدأ قلبه الذي انقبض: «لا أستطيع، لم أعد أستطيع دُجى، ليته كان لديَّ القوة لقتلكِ كما كنت أنتوي»، فَغَرَت فمها قبل أن تقول بصوت متقطع: «أنت مجنون غير طبيعي.»

«تائه، غارق بالانتقام، أُبقِي جراحي مفتوحة، ولن تندمل إلا بتحقيق العدالة.»

ردت بتهدُّج: «إذن أغلقها، وأرح نفسك.»

أظلمت ملامحه وهو يقول بقوة: «ليس قبل أن أحقق العدالة، الدم لا يغسل إلا بالدم، القصاص يجب أن يتحقق، فالمذنب يجب أن ينال من الأذى أكثر مما تسبب به.»

ابتلعت ريقها قبل أن تقول باستسلام: «إذًا لا تنهار، وتذكر أنك الأقوى لأن قضيتك عادلة، يجب أن تعدل كفة الميزان وتثبت أن الظلم لا يدوم.»

حل الصمت مرة أخرى بينهم بطيئًا رتيبًا ومرعبًا قبل أن يقطعه أخيرًا وقال من بين أسنانه، وجسده الضخم يرسل ذبذبات الخطر المألوفة تلك التي تحفظها عن ظهر قلب والتي يطلق فيها غرائزه، ويترك العنان لمشاعره غير المروضة، قاطعًا أفكارها زئيره الذي هدر بصلف: «ابنة غسان تشجعني لتحقيق العدالة، أي سخرية للقدر تلك دجوى؟!»

تشنجت بين يديه وعينيها متسعتان برهبة، ثم عادت لمحاولة الإفلات منه وهي تقول بتهرب مدعية عدم سماعها جنونه: «أنت أصبحت جيدًا، اتركني سائد من فضلك.»

كان قد وصل للحد الفاصل من كل شيء، فليعترف لنفسه ولجسده الذي يؤرقه منذ أن التصقت به وهي تؤجج شعور الحاجة بداخله كل ذرة في رجولته تصرخ مطالبة بها، دجوى الهاشم أصبحت ملجأ لغضبه، وبلسمًا يهدئ نار جروحه، عملية حيوية تعيد الحياة داخل عروقه بضخ الدماء الهادرة بصخب داخل شرايينه، لم يشعر بنفسه إلا وهو يطبق عليها بشفتيه ويديه تكبِّلها بحزم، لقد كان من المفترض أن تصرخ وتقاومه كالعادة، أن تغرس أظافرها في عنقه، أن تبكي ذُلًّا وقهرًا، أن تشعر بالخوف والذعر مثل كل مرة، ولكنها لم تستطع غريزة أخرى مقيتة كانت المتحكمة فيها عندما رفعت ذراعيها نحو كتفيه، دفعت نفسها إليه لتزيد التصاقًا به، أصدر زئيرًا مختلطًا بأنين الحاجة عندما ارتفع فجأة

ينظر لعينيها التي تحدِّق فيه بدموع القهر، ولكنها قوية مستسلمة تمنحه موافقه لإكمال ما بدأ، «لن أؤذيكِ، لا تقاومي دُجى.»

رباه، هي مريضة تستحق ما يفعله بها، تستحق الرجم حتى الموت، عندما مال ليلتقط شفتيها مجددًا سلَّمته قلبها قبل جسدها تبادله شغفه بشغف وحاجته بتوسل يائس لحبه، عندما استشعرت من قُبلته كم احتياجه هذه المرة، لم يكن غضبًا ولم يتملكه العنف، لقد كان كل ما يخرج منه يأس ورغبة وعشق حارق كذاك الذي أوهمها به يومًا، تلاشى كل منطق في عقلها وهي تسمح له بأن يحرقها معه في عشق بدائي، عشق متوهج بالعاطفة، عشق أدركت فيه أن سائد يسلم كل حصونه واحدًا تلو الآخر؛ فأغمضت عينيها وأغلقت عقلها مستمتعةً بشعور الانتشاء الذي غذَّاه داخلها أخيرًا.

وكما وصفت دجوى بالضبط، حوض ورود متنوع الأنواع، يحاصره شجرتي صفصاف ضخمتين، وباب لونه بني لا يوهم كل من يراه أنه مجرد باب لحجرات التبريد للمشفى تفحص المكان جيدًا، فلم يجد أحدهم وتلك الحمقاء اختفت تمامًا بعد أن استطاع أن يلهي عقلها بغيرة النساء، اقترب بخفة شاكرًا لدروس حماد القديمة.

«سرقة الليل هذه للهواة وأصبحت مكشوفة، تريد أن تسرق استَغِلَّ صخب النهار والتهاء الناس في عملها، لا حراسة ولا عين مفتحة عليك.»

وها هو ينفذ نصيحة معلمه داعيًا ربه أن يُعجل بنهايتهم ليرتاحوا أخيرًا، رفع قميصه قليلًا بحرص وأخرج حقيبة أدوات صغيرة للغاية، وبهدوء وحنكة كان يُدّخل أحد أدواته التي غمسها في الزجاجة الصغيرة لمية النار، ثم ما لبث أَن أدخلها في القفل، وسريعًا كان يحركه بطريقة

مدروسة ليُفتح أمامه باب خلاصهم، أم يا ترى جحيمه؟! دخل بهدوء وتفحَّص المكان كأنه أشبه بقطعة من القطب الشمالي، أيقن أن دجوى لا تكذب كما أخبره سائد، الفتاة زارت المكان بالفعل فها هي غرفة التمويه لمعدات عقيمة أو قديمة ملقاة فيها والجزء الخارجي لتكييف مركزي متصل بغرف المشفى، مشى في ممر طويل يزيح بعض الطاولات الوهمية، ليجد بابًا خشبيًّا مسنودًا كتمويه، أزاحه فوجد بابًا حديديًّا ضخمًا بقفل ذا شفرة عالية الجودة، لم يستغرق لحظات ليفرغ باقي محتوى زجاجة ماء النار عليها، ثم تفور لدقائق ويفتح آخر باب للجحيم، قطب جليدي آخر لعديمي الرحمة، أجهزة عالية الحفظ، وثلاجات أعضاء بشرية معلَّق فيها العديد من قطع الغيار البشرية، وضع عمر يده على قلبه محاولًا أن لا يصطدم بشيء وأن لا ينهار، نزع عينيه نزعًا بينما كله يرتجف، ضم سترته جيدًا حوله وحدقتيه تضطربان، ورغمًا عنه دمعة حائرة طرفت من عينيه، المرارة ترتسم على وجهه بفرشاة فنان متوحش تحفر حفرًا داخل قلبه وعقله تطبع صورة تراجيدية لما حدث لأصحاب تلك الأعضاء المحفوظة.

«سترى ما لن تتخيله يومًا فاحذر يا عمر وركز على ما نريده فقط، إياك والانهيار فهو لن ينفعنا أو ينفع العديد من الضحايا التي تنتظر مجازرهم»، خبط صوت سائد عقله بمطارق من نار فأيقظ كل عضلة فيه بتحفز، أدرك نفسه سريعًا والوقت الذي ينفذ فتوجه مباشرةً للمكتب الصغير حسب وصف زوجة صديقه الدقيق، لحسن حظه لا مزيد من الأبواب المغلقة، بهدوء توجَّه للمكتب، وأخرج أدواته من حقيبته وشرع في فتح أدراج المكتب، بينما فتح شاشة الحاسوب وشرع في وضع فلاشة صغيرة به، قبل أن يُدْخِلَ كودًا ما وينتظر العديد من الأوراق والصفقات والمستندات التي يأخذها فهمي على العديد من الأطباء، منها ذلك

الطبيب الذي طلب سائد كل المعلومات عنه، افترَّ ثغره عن شبه ابتسامة ميتة وهو يلملم كل تلك الأوراق التي مضى عليها الطبيب الشاب وغيره كمستندات ابتزاز، فتح جهاز الحاسوب، فضرب بعض الأزرار وعينيه تجري على ملفات مشفرة، أدخل فلاشة أخرى وبدأ في الطباعة بينما ابتسامته تتوسع بانتشاء متذكرًا عند هروبه هو وسائد، وبعد أن تذوق أهوال الغربة ثلاثة أعوام كاملة، بدأت أمورهم تستقر نسبيًّا وأخذا أوراق الإقامة الشرعية والتي كان شرطها الوحيد أن يتقن كل منهما لغة البلد، فأُجْبِرَا على الالتحاق بمدرسة ليلية، وأحيانًا نهارية حسب ما يسمح وقتهم آنذاك، ولكنه أحب الأمر وبرع في استخدام الحاسوب، فأنهى الثانوية، وبعدها درس الحاسب الآلي بتوسع وأجاد عن قَصد طرق احترافية لتهكير أي حاسوب، أنهى كل شيء سريعًا. وأخذ بعض الأوراق المهمة ووضعها أسفل قميصه، نزع الفلاشة الإلكترونية وخرج مسرعًا بينما مرغمًا عادت عيناه للأعضاء المحفوظة في سؤال فأسرع في الخروج المتخبط كأن شياطين الأرض تلاحقه هامسًا لنفسه: «إن شياطين الإنس أصبحوا أكثر رعبًا وشرًّا مما يفعله أولاد الجن.»

فور أن أصبح في ساحة المشفى مجددًا وبإرادة من حديد تمكَّن من كبح مشاعره وإخفاء أَلمه، خوفه الذي أصبح يتملَّك قلبه وعقله على مَنْ ملكت وجدانه، تحوَّلت ملامحه للاشمئزاز عندما أتاه صوت سمر وهي تقول بخفوت غاضب: «أين كنت؟ وما معنى ما سمعته منك؟»

سيطر على موجة غثيان بشعة ومظهرها المبالغ فيه يذكره بكل القذارات التي وطئهنَّ سابقًا قبل أن يقول بتلاعب: «ما سمعتِهِ يعني أني لا أُحب لعب الأطفال أو ادعاء المشاعر، من تريد أن تلاعب عمر الناصر فلتقفز لفراشه مباشرةً.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شهقت مدعية الخجل متراجعةً للوراء فاستمر مرغمًا يلهي عقلها حتى إن طرأ أمر ما تكون سندًا يعينه فمال إليها يهمس بإغواء جانب أذنها: «لم أجدكِ مستعدة لي بعدُ فاختفيت قليلًا مع إحداهنَّ، من لديها الشجاعة لتبادلني غرامًا متقدًا في جراح المشفى.»

ملامحها التي جفلت مع احمرار طفيف للغضب طمأنه أن كل شيء بخير، فربَّت على وجهها بكفه، قبل أن يتركها في غيرتها المدعية، وتحرك على الفور منصرفًا من ذلك المكان الموبوء.

بعد وقت كان يتصل برابحة مرة أخرى يخبرها باختناق: «أين أنتِ؟»

ردت بقلق: «ما بك؟»

كرر: «رابحة، أين أنتِ؟»

تنهدت وهي تخبره: «ما زلت ببيت أمي كما طلبت مني.»

أغلق هاتفه دون وداعها ثم استمر في طريقه نحو بيت صفية، لقد طلب منها اليوم أن تذهب لصفية كإجراء احترازي ربما يكشف أو يُحدِث شيئًا، رغم ثقته أن سائد وراءه ولن يجعل أحدهم يقترب منها ولكن يعلم أن شقيقه لاهيًا هو الآخر في أمر مهم.

بهدوء دخل الحي السكني للطبقة المتوسطة في المدينة الجديدة ما يُدّعَى مدينة الشباب، توجه إلى شقة في الدور الثالث تحديدًا بعد أن أغلق الهاتف مع عمر ليمنحه آخر معلومة عن الطبيب الشاب: «حمدي عثمان طبيب شاب في مقتبل العمر يبلغ ثمانية وعشرين عامًا، أنهى سنة الامتياز في مستشفى حكومي قبل أن يتوسط له أحدهم ليلتحق بمشفى فهمي النجار.»

التفت حوله قبل أن يفتح الباب بطريقة إجرامية كانت معتادة، مظهره المتوحش منحه الهالة المناسبة، خطا إلى الداخل بهدوء، من المعلومات المجمعة عنه، يعلم أن الشاب يعيش بمفرده، بنية ضعيفة لشاب يمشي بداخل الحائط لا بجانبه كما يقولون، فما الذي رماه مع فريق جزارين فهمي كما رآه؟ الأمر لا يحتاج منه كثيرًا من التفكير ليستشفَّ أن هناك خطأً ما استغله فهمي أو فريقه ضد الشاب ليكون معهم؛ لذا قليل من التخويف لن يضر؛ منها ينتقم منه على سكوته وربما إن ساعده فيما يريد يستحق فرصة للحياة وغفرانًا لما صمت عنه، خرج حمدي من الحمام متوجهًا إلى غرفته عندما صدمته قبضة قوية في منتصف صدره أردته أرضًا وقبل أن يتفوه بكلمة طالبًا النجدة كان سائد يلحقه بأخرى في مناطق مدروسة يعلم جيدًا أنها لن تترك آثارًا يلاحظها الغير، مال سائد وجذبه من ملابسه وسحب كرسيًّا خشبيًّا قديم وأجلسه عليه ثم ثبته عليه وأخبره بشراسة: «أنت ستغلق فمك تمامًا ولا تفتحه إلا عندما آمرك أن تجيبني.»

أومأ الشاب بعين مرتعبة، فمد سائد يده وأخرج هاتفه ودون مقدمة قام بفتح الفيديو الذي أخذه له سابقًا، توسعت عينا حمدي ذعرًا ووجهه تحول لكتلة من السواد عينيه تحكي ألف توقع للرعب وكأنه يقف في وجه عزرائيل بحد ذاته، فلم يترك سائد فرصته وهو يميل بوجهه وقبضته تلعب بأعصاب الشاب لواها بشراسة وقال بخفوت شرير: «نعم، اعتبرني مرسال الموت قد أتى ليمزق أحشاءك كمن تراه في الهاتف تمامًا.»

فور أن فتحت له الباب خفق قلبها بألمه، فرغم هدوئه الظاهر وتحكمه في انفعالاته لكنها كانت تُطلُّ من عينيه تلك النظرة التي باتت تعرفها

جيدًا، تلك النظرة التي تهدد بطوفان كاسح يدمر كل شيء في طريقه إن سمح له هو بالخروج، فلدقائق طويلة كان عمر يقف أمام شقة أهلها يسند أحد كفيه على إطار الباب بتعب، بينما يده الأخرى تستند على خصره، وعينيه تطل منها آلاف الطلاسم المبهمة، تقدم للداخل بخطوة بطيئة لا تخلو من التعب وهو يقول: «أين أمكِ وقُصَيٌّ؟»

ارتبكت بطريقة لولا ما يعانيه لكان انقلب على ظهره ضاحكًا: «أمي عند إحدى الجارات خرجت منذ قليل، وقُصيٌّ في العمل.»

تحرك ناحية الحمام وهو يخلع معطفه قائلًا بتعب: «جيد، أغلقي باب المنزل واتبعيني.»

رمشت بعينيها مجفلةً ثم استنكرت بتلقائية: «ماذا تفعل؟ هل جُنِنْتَ؟ ارتدِ ملابسك وتحرك نحو غرفة الضيوف إلى أن تأتي والدتي.»

استدار نحوها وهو يلقي معطفه جانبًا، ثم مد يده يفك أزرار قميصه بنوع من العصبية، ثم ما لبث أن مد يده نحو ذقنها؛ كي يرغمها على النظر إليه والتواصل معه، وقال ساخرًا: «عندما يأتي أحد منهم أو يتهمكِ أحد الجيران بوجود رجل عاري في شقة أمكِ أخبريهم أني زوجكِ يا رابحة.»

سمحت لعينيها أن تلتقي بعينيه قبل أن تقول مجفلةً: «الأمر ليس هكذا، ولكن هذا لا يصح.»

اعترض: «رابحة».

عَضَّتْ شفتيها متسائلةً عن سبب تقلُّب مزاجه مؤخرًا وبقلبها المحب الحنون كانت تدرك أنه يحتاجها، فقربت كفَّيها الدافئتين لتتسلل من جانبي قميصه المفتوح تتشبث بخصره وتريح رأسها على صدره، إدراكه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لتفهمها لحاجته دون جدال ودون الاستغراق في كثير من الاستفسارات بثَّ مشاعر عنيفة وقوية داخله، مشاعر كانت أكثر جموحًا من أن يسيطر عليها، فلفَّ جسدها بذراعه بقوة رفع وجهها مرة أخرى بين يديه سامحًا لشفتيه بغزو شفتيها وجبينها وعينيها، دقائق مرت كان يسمح لنفسه بالغرق فيها، بينما تهبط يداه نحو جلبابها يحاول رفعه حتى يستطيع لمس بشرتها، فِعْلته هذه جعلتها تدرك وضعها في منتصف شقة والدتها فأبعدته عنها مجفلةً لتخبره من بين أنفاسها المنهكة: «عمر، توقف أرجوك قد يأتي أحدهم.»

عاد يجذبها نحوه وشفتيه تكمل طريقها فتهبط على جيدها مباشرة وهو يقول بصوت مبحوح: «لن أستطيع، أرجوكِ أنتِ رابحة أريدكِ.»

رغم جسدها الذي اشتعل بغريزة مطالبًا به، ولكنها ابتعدت عنه مرة أخرى وهي تقول بحزم: «لا، ليس في بيت أمي.»

ابتعد خطوة واحدة وهو يمرر أصابعه في شعره بتعصب، قبل أن ينظر لها تلك النظرة المعتادة مراقبًا لكل تفصيله منها، كل كلمة، كل حركة وابتسامة، وكأنه يدرسها أو يريد أن يطبعها دائمًا داخل قلبه وعقله، أبعد عيناه عنها، وهو يقول: «أنا أريد أن آخذ حمامًا، أعتقد أن صفية لن تعترض على هذا إن علمت.»

كان قد تخلى عن قميصه وبنطاله ووضعه على أحد المقاعد بالفعل، ولم ينتظر حتى رأيها وهو ينفذ ما قاله.

رفعت وجهها لسقف الغرفة متنهدة بضيق، لقد أصبحت أكثر من متفهمة لتقلباته وما يعتمل بداخله حتى وإن كان ما زال يضع أمامها الكثير من علامات الاستفهام رغم معرفتها الوثيقة بأنه يخطط هو وصديقه لشيء يفوق طاقتهم، ولكنها لا تعرف ماهيته وهو يرفض أن يمنحها

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أكثر مما استشفَّت بالفطنة، هي تحبه وهذا يكفيها حتى اللحظة، فعمر زوج الأحلام الذي قد تتمناه كل امرأة رغم ترديده بسخرية أن لا نسب ينتمي إليه وبأنها مجرد حمقاء لارتباطها برجل لا يحمل إلا هوية وهمية، الأحمق لقد كانت على استعداد للزواج منه حتى وإن لم يحمل اسمًا من الأساس، إن لم يحمل جنسية بلد واسمًا مكتسبًا بأوراق قانونية منحتها له «أمريكا» والتي علمت أنه دخل إليها متسللًا بعد أن وصل لشواطئ الموت في أوربا ونجا منها: «رابحة، أريد منشفة.»

صوته أتاها بغضب مكتوم، فأخذت نفسًا عميقًا تفيق من أفكارها، ثم توجهت إلى باب المنزل تغلقه خلفها، حتى لا يأتي قُصَيٌّ فجأة من العمل الذي وفره له عمر قبل ثلاثة أشهر كما وعده من قبل.

كان يجلس في حوض الاستحمام الضيق بالكاد يستوعب جسده، يشعر بكل شيء يتشابك داخله محققًا فوضى لم تكن مطلوبة في تلك المرحلة، الآن وبعد شهور من تحقيق حلمه في امرأة بريئة مثل رابحة في طهر وفرصة للحياة كانت من حقه، شعر بالندم الذي يعود يغزو داخله ويضرب بمطارق الرعب عليها إن حدث خلل في خطتهم وكُشِفَت حقيقتهم، من يبقى بعده لحماية حبيبته الاندفاعية والتي ما زالت تعيش في فقاعة الحياة الوردية مثل أي شابة في مقتبل العمر؟ أخذ نفسًا طويلًا قبل أن يكتم أنفاسه وينزل تحت الماء برأسه، دقيقة اثنان وثلاثة مروا عليه قبل أن يشعر بيديها تهبط تحت الماء تدلِّك صدره بهدوء وهي تميل عليه تهمس بحنان: «ما بك؟ تكلم يا عمر ربما أخفف عنك بعض همومك.»

أخرج رأسه بحركة سريعة أجفلتها وكادت أن تجعل وزنها يختل فتمسَّك بيديها الاثنتين جيدًا قبل أن يشدَّ ذراعيها لتصبح بسهولة بين

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ذراعيه ﻓﻲ حوض الاستحمام فهتفت به ساخطة: «كيف تفعل هذا بحق الله؟! أنت جُننِتَ وأصبحت تتصرف بغوغائية.»

ضحك بخشونة: «لا بأخلاق أولاد الشوارع التي تُصري أن تتناسي أنني منهم.»

التفتت وهي تحدق ﻓﻲ وجهه الخالي من التعبير إلا تلك الضحكة التي وصلها معناها الساخر جيدًا، ثم هتفت من بين أسنانها: «أيها الأحمق، وأنت كُفَّ عن تذكيري بشيء أنا أثق أنه لم يعد فيك، لقد هذبت الخمسة عشر عامًا أخلاقك جيدًا.»

وضع يديه داخل خصلات شعرها التي تبللت وقال: «وما الذي أدراكِ بهذا؟ ربما هي مجرد واجهة لأصل لما أريده، ولكن بداخلي ما زال أصلي هو من يحكم على تصرفاتي يجعل ذلك الوحش يزأر بداخلي لأحرره.»

عادت لهز رأسها بالرفض قائلةً: «الإنسان من يصنع حاضره ومستقبله يا عمر، أما ماضيه المخزي كما تشير دائمًا، فهو فرض عليه ﻓﻲ لحظات ضعفه البشرية الطبيعية، ومن مثلك كافح بكل السبل ليصبح أفضل، لن يعود أبدًا لنقطة ما تحت خط القذارة بمراحل.»

تقبضت يداه حول خَصرها ثم قال بغضب غير مفسر: «وإن كانت تلك القذارة جزء لا ينفصل عني، جزء أنا منه وأستحق أن أعود إليه، وإن كنت أشتاق للوحل يا رابحة حتى أطلق للثعلب بداخلي حرية التصرف، وينتقم من الجميع بعيدًا عن تلك المعايير الإنسانية الخانقة.»

شَحَبَ وجه رابحة وهي تحدِّق ﻓﻲ وجهه المتشنج بغضب لم تره من قبل وهي ترد بتلقائية: «أخبرتني أنك كرهت الوحل، وشغفك بتلك العلاقات المحرمة متخوفًا من الأمراض الجنسية المجهولة التي تحملها من ...»

طفرت عيناها بدمعات حارقة غيرة مختلطة بلوعة وهي تتخلص من ذراعيه تستند على الحوض واقفة، فتبعها هو الآخر يعيد لفَّ خَصرها بذراعيه مثبتها على الحائط البارد، همس ونظراته تنحدر نحو شفتيها: «لم أعنِ هذا الأمر يا أميرة عمر، وإن كنت أشتاق جدًّا لبعض من بريتي ولكن لن أمارسها إلا معكِ، كما أني توقفت اشمئزازًا وقرفًا ليس خوفًا فقط.»

وكأنها لم تسمع مبرراته الكاملة عندما رددت باضطراب: «بريتك!»

أطلقت شهقة قصيرة عندما أدار وجهها للجدار وثبت يديها للأعلى: «نعم، أشياء حرمت نفسي منها قاصدًا ولكني لم أعد أستطيع السيطرة عليها معكِ، كوني فتاة مطيعة ولا تخافي.»

ردت بصوت غير مستوٍ: «اتركني يا عمر أنت غير طبيعي اليوم، تحاول إخافتي والتلاعب بي لشيءٍ مجهول لا أفهمه.»

قال بصوت أجش: «أي تلاعب؟! أنا ألجأ إليكِ فقط، أريد أن أبقى معكِ، أن تتعرفي إلى كل جزء مني بالطريقة الصحيحة.»

حاولت أن تعترض وأن تستدير إليه، ولكنه لم يمنحها الفرصة.

بعد يومين، كان سائد قد شرح للطبيب الشاب المطلوب منه وانتظر الاعتراض أو محاولة التهرب إلا أنه لم ينطق بل وافقه على الفور مطيعًا أوامره، وهو الآن يقف في منطقة أمان بعيدًا عن وكر حماد ينتظر، فالطبيب الشاب حظه الأسود وضنك المعيشة وعدم اهتمام الدولة بتوفير الرواتب التي تُناسب مؤهله، هو ما أوقعه فريسة لزلته السابقة التي ألقته في طريق فهمي النجار بالتتابع.

من المرايا الخلفية رأى الشاب يقترب منه بأقدام مرتعشة وجسد مضطرب فتفحص سائد وراء الشاب جيدًا كإجراء احتياطي أن يكون أحد يتبعه من أبناء حماد، عندما اطمأن أنه بمفرده ثم بهدوء أخرج هاتفه، دقيقة واحدة هي ما مرت قبل أن يأتيه الصوت المرتبك: «حمدي عثمان معك».

متجاهلًا رد فعله قال: «تقدم مباشرةً إلى السيارة السوداء التي أمامك، افتح الباب الخلفي واصعد دون تأخير.»

لم تمر دقائق، حتى كان حمدي ينفذ الأمر فانطلق سائد دون تأخير، ظل كل منهما صامت، سمح له أن يلتقط أنفاسه قبل أن يقول سائد بهدوء: «هل أخبرته ما اتفقنا عليه؟»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وضع حمدي أصابعه في شعره بحركة عصبية قبل أن يمد كفَّه ليمسح جبينه المتعرق وهو يقول: «نعم، اطمئن لم أغير كلمة واحدة ولكن أنا خائف أن يكتشف الدكتور فهمي أمري.»

أخذ سائد نفسًا مسيطرًا وعينيه الحادة تنظر للطريق الذي أخذ في التكدس وسط المدينة وقال:

«لا تقلق، ما أعرفه أن آخر عملية كانت منذ ثلاثة أيام وتلك البضاعة لا يقومون بها بعشوائية بل بناءً على طلبيات معينة، وما أنا متأكد منه ربما يحتاج فهمي لأسبوع على الأقل حتى يقوم بأخرى.»

صمت لبرهة قبل أن يضيف ساخرًا:

«من المفترض أن تكون أكثر مني دراية في هذا الأمر، فتلك البضاعة عمرها الافتراضي قصير ويجب أن تتم بخطوات منظمة وعالية الدقة.»

تمتم بخفوت مضطرب: «نعم، أعلم هذا ولكنني أخبرتك أنني لم أشاركهم قط.»

عم الصمت مجددًا قبل أن يسأله سائد بجفاء: «هل شعرت أنه تشكك في حديثك أو حاول مراوغتك أو استجوابك بطريقة ملتوية؟»

حرك عويناته قبل أن يزدرد ريقه وقال ببساطة: «لا أعتقد، عندما أخبرته بأني مرسال من الدكتور، وحدثته عن الطلبية بأسلوب معتاد مبطن، وبأن المرسال الآخر لم يعد متوفرًا حاليًّا وبأني المرسال الجديد، ومنحته كلمة السر المتفق عليها كما أخبرتني أنت؛ رحَّب بي على الفور، خاصةً بعد شكري له على لسان الدكتور بكشف ذلك المدعو حسان والخلاص منه.»

صمت لبرهة ملتقطًا أنفاسه، ثم أردف ذاكرًا: «كما أن الأهم من هذا كله أنه رآني في المرتين السابقتين مع البقية كما أخبرتك؛ لذا بالتأكيد هو لم يشك في الأمر.»

عَمَّ الصمت الحذر مرة أخرى في أرجاء السيارة قبل أن يتوقف سائد على جانب الطريق وأخبره ببرود: «انزل هنا، ومارس حياتك بطبيعية، إلى أن أتصل بك مرة أخرى.»

هبط حمدي قبل أن يستدير ناحية سائد ويميل على شباك السيارة مستندًا عليها بكفيه يسأله بيأس: «ألم ينتهِ دوري هنا؟ لقد قلت أساعدك وتمنحني ما أخذه فهمي ضدي.»

أبعد سائد يديه عن النافذة وقال بتشدق: «أنا من أقرر متى ينتهي الأمر حمدي؛ لذا لا تتعشم في أي شيء قبل أن أُحِلَّكَ أنا منه.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وبدون كلمة إضافية كان ينطلق بسيارته حتى ينفذ باقي خطته، إن كثر أعداؤك واستفحلت قواهم إذن ليس أمامك إلا حل واحد «فرِّق تَسُدْ»، حكمة بسيطة بحروفها وكم هو كبير إنجازها إن نفذتها بدقة دون خطأ واحد، في لعبته هو لا يعتمد أبدًا على الحظ الجيد أو الصدف وإن كان خدمه القدر مرتين: أحدهما بدجوى الهاشمي التي منحته أشياءً سهَّلت عليه معرفة نقطة ضعف خصمه، والأخرى وجود هذا الطبيب الشاب الذي كان سيضيع في وحلهم وضمائرهم المظلمة.

ليلًا بعد منتصف الليل، موعد خروج خفافيش الظلام والثعابين من جحورها، كان حماد يرتب للصفقة الجديدة كالعادة، وجبة دسمة للجميع، عادة عن ثلاثين بها مواد مخدرة حتى يستطيع تسليمهم بهدوء، كانت مملكته تعج بالهرج المعتاد، بعد أن أمر أن يتجمع جميع من تحت رعايته الليلة حتى يستطيع الانتقاء من بينهم، وقبل أن يقوم بتوزيع الطعم المعتاد للضحايا، كان سائد يتصل به ليخبره بتعجل قلق: «معلم حماد، احذر لقد نُصِبَ لك فخٌّ الليلة.»

شحب وجه حماد على الفور وهو يهبُّ من مجلسه، موقفًا رجاله بحركة من يده، ولكنه لم يثق في سائد تمامًا عندما سأله بتشكك: «عن أي فخ تتحدث؟!»

سب سائد بلفظ بذيء ثم ما لبث أن قال بتعجل: «ليس وقت الحديث ولكني سأخبرك، لقد أبلغني أحد رجالي أن الكبار قرروا الخلاص منك خاصة بعد وشايتك بحسان لهم، فقرروا الخلاص منك؛ لأنك أصبحت خطرًا يهددهم.»

أحس حماد بالنار تنتفض بين عروقه وهو يلف في شبه دائرة بين رجاله، هاتفًا بغضب أعمى:

«مؤكد أنت تكذب لمصلحتك الخاصة، ما الذي يجعلني أثق بك وأنا أعرف هدفك الأساسي؟»

هتف سائد مدَّعيًا الاختناق والقلق المتعجل: «وما الذي يدفعني للكذب عليك ونحن شركاء؟ يا معلم أنا ذئبك المخلص هل تذكر أم نسيت؟»

كان حماد ينظر حوله بعجز متحير، فعاجله سائد بالقول: «أنا أخبرتك ما عرفه رجالي، وأنا الآن متوجه إليك فِرَّ بجلدك يا معلم أنت ومن يخصونك، سيهدمون المكان فوق رأسك خلال دقائق.»

لم يردَّ عليه حماد بشيء فقط صوته الصارخ كان يأتي آمرا لرجاله بالانتفاض، أغلق سائد الهاتف بهدوء، وعينيه تطلق شررًا معتادًا، قبل أن يلتفت لإبراهيم يخبره بشر بارد: «الآن، ابدأ في ضرب الملتوف، لا تنس يا إبراهيم فقط فوق النقاط التي حددتها لك، ولا تنس رجالك يدخلون فور أن يبدأ الارتباك؛ ليُخرجوا الأطفال، لا أريد أن أفقد نفسًا بريئة واحدة.»

أخذ إبراهيم نفسًا مكتومًا قبل أن يقول: «عُلِمَ».

القاعدة بسيطة وهذا ما يتبعه، اكسب ثقة عدوك من أهم نقاطه العمياء، امنحه غنيمة ثمينة يلتهي فيها ويطمع في المزيد، شكِّكه في أهم رجاله، ونقطة اتصاله مع عدوك الآخر، اقطع ذراعه ببرود، وهذا ما فعله مع «حسان»، ثم بهدوء اضرب على الحديد وهو ساخن، أربكه وشتته، ولا تمنحه الفرصة للتفكير، ولا تنس أن تظهر في الوقت المناسب لتصبح بطله المغوار والابن الروحي المخلص.

خلال لحظات كانت قنابل دخانية تُلْقَى على مملكة حماد، ثم يتبعها الرجال بزجاج الملتوف على الأماكن التي رصدها سائد سابقًا والتي يعلم جيدًا أنها تبعد نهائيًّا عن وجود الأطفال والمراهقين الأبرياء.

تحرك إبراهيم على الفور بعد أن رأى حماد وبعضًا من رجاله يهرعون للخارج هلعًا وبعض من الأطفال يتبعونهم متخبطين، من الجيد أن تربك عدوك وأن يكون لديك رجال متخصصون، اقتحم إبراهيم المكان وفي أقل من عشر دقائق كان يخرج كل من فيه دون أدنى تفرقة، وعندما تأكد نهائيًّا من خلو المكان، كان يخرج هو ورجاله مسرعًا، خلع القناع الواقي الذي كان يرتديه، وبكُمِّ قميصه كان يمسح بعض بقايا الركام التي علقت في جبينه، ثم ما لبث أن أخرج هاتفه مرسلًا الرسالة التي كان متفقًا عليها بتخطيط مسبق: «الآن شريف تحرك».

في دقائق كانت سيارات الشرطة تعجُّ بالحارة العفنة الضيقة؛ مما جعل الهلع يضرب في قلب حماد بشكل أكبر وأصبح موقنًا أن الأمر مؤامرة مدبرة للخلاص منه، هرع إلى الخارج بخطوات مسرعة، فوجد سائد آتيًا من أول الطريق يخبره: «أخبرتك يا معلمي، إنهم خونة ليس لهم أمان، ماذا فعل الكلاب؟»

شعور الغدر المختلط بالغضب الأعمى والحقد الأحمق لم يمهل عقله دقيقة للوقوف والتفكر فأخبر سائد بغضب: «لن أكون حماد أبو الرووس إن لم أمثل بجثثهم جميعًا، ما بيني وبينهم أصبح انتقامًا لن يحله إلا الدم، انتظرني يا فهمي الكلب.»

شده سائد من ذراعه وهو يخبره: «دعنا نختفي من هنا قبل أن يرانا أحد، فبالتأكيد أحدهم هنا ويراقب مع الشرطة.»

نفض حماد ذراعه بغضب متوجهًا إلى السيارة التي أشار نحوها سائد، بينما التفت سائد من عدة أمتار ينظر إلى صرح حماد التي اشتعلت النيران في كل جزء منه، حتى أصبح كبركان متفجر متخيلًا كل قذارة حدثت فيه لسنوات، متذكرًا كم روح فقدت فيه أنفاسها، مدركًا أن كل ما يملكه حماد بداخله من مال ومخدرات وحشيش، كل ما تَحصَّل عليه يومًا يُزيد النار في توهجها حتى أصبحت كتلة حمراء لم يستطع أحد السيطرة عليها، فشعر بداخله أن جزءًا من نيرانه هو تنطفئ ببطء، راضيًا همس بانتشاء: «اشتعلي حتى تحيلي تلك الخرابة أطلالًا، ربما رمادكِ المنطفئ يكون هو أول طريقي للخلاص.»

بعد ساعات، استطاعت فرقة الإطفاء بصعوبة دخول تلك الحارات الخربة الضيقة للقضاء على الحريق قبل أن يمتد ويصل بعض المنازل معدمة الحال والتي يسكنها الغلابة ممن هم تحت خط الفقر ولم يجدوا بديلًا للفرار، للسكن في منطقة أخرى غير مجاورة، مرتع البلطجية والقتلة.

وقف إبراهيم بعيدًا يراقب بشيء من القسوة المكان الذي تحوَّل لمجرد أكوام من الرماد، عندما قطع صمته صديقه القديم وهو يقول: «حتى الآن أنا لا أفهم ما علاقتك بهذا المكان؟ وكيف اكتشفته وعرفت ما يجري فيه؟»

التفت إليه وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ثم ما لبث أن قال بتهكم: «هذا على أساس أن جهاز الشرطة لا يعرف بكل ما يجري هنا ويصمت عنه قاصدًا.»

لم يردَّ شريف لبرهة، وهو يتفحص ملامحه الجادة المتجهمة، ثم قال بهدوء: «وإن افترضنا أن كلامك صحيح، يبقى سؤالي: ما الذي أوصلك لهؤلاء؟ وكيف علمتَ عنهم؟ عملك دائمًا كان يقتصر على حماية الطبقة العليا من المجتمع.»

مال وجه إبراهيم بقسوة قبل أن يقول: «يمكنك القول أني قررت فتح عينيَّ بعد أن أغلقتها طوال أعوام قاصدًا مثل الكثيرين في هذا البلد.»

بدأ الهرج يهدأ تدريجيًّا من حولهم، فبدأت الأصوات في الظهور والصورة تتضح أمامه كاملة، فنظر لهؤلاء الأطفال المتراصِّين على حائط بأول الشارع ملتصقين به حتى كادوا أن يكونوا جزءًا منه، وعساكر الأمن تحاوطهم حتى لا يهرب أحد، فأصاب قلبه الحسرة من تلك الملامح المتعبة والمنتهكة والنظرة التي لا تحوي إلا الضياع.

فعاد شريف يخبره بلا مبالاة: «لا تتأثر هكذا من مظهرهم، هؤلاء إن أتتهم الفرصة أو أرخيت لهم قليلًا سيأكلونك حيًّا دون أن يرمش لهم جفن.»

التفت نحوه وهو يقول من بين أسنانه بصوت كالفحيح: «كيف تجرؤ على اتهام أطفال بهذا الشكل؟! هؤلاء الوحوش كما تحاول أن تشبههم هم أخطاؤنا نحن ونتيجة تكاسلنا وصمتنا، سمحنا لمشكلة صغيرة أن تتفاقم حتى أصبحت قنبلة موقوتة، ستنفجر لا محالة وتحوِّل هذا المجتمع إلى مجرد ركام كالذي أمامك بالضبط.»

تجاهل شريف انفجاره، زفر بضيق وهو يخبره: «هذا ليس مسار جدل بيننا إبراهيم، وعدك لي كان أن تسلمني مجموعة من المجرمين وعلى رأسهم حقير أرهق الداخلية لأعوام، وعندما وصلت لم أجد إلا حريقًا وبعض البلطجية، بالإضافة لمجموعة الأطفال.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

حدَّق فيه إبراهيم بصمت طويل جدًّا، متفحصًا ملامحه مؤكدًا لنفسه بيقين، أن شريف رغم قسوته في بعض الأحيان وسهام كلامه الجارح إلا أنه يعلم جيدًا بنقاء تاريخ صديقه، إنه الوحيد القادر على مساعدته في القادم، ولكن مؤكد لن يخبره الآن مطلقًا بل ربما عند انتهاء الأمر، فنزوله أرض الواقع ورؤية ما يحدث حقيقةً جعل ثورة جنونية بداخله توازي براكين سائد، تريد الانفجار والانتقام من القتلة وتجار الدماء بأبشع الطرق.

تنازل أخيرًا متمتمًا بهدوء: «هل تريد تحقيق العدالة أم صفقة تزفها لرؤسائك حتى تحصل على ترقية أو ميدالية؟»

اكفهرَّت ملامح شريف، ثم ما لبث أن قال بغيظ: «أنت ترتب لأمر ما ولن تخبرني بشيء إلا عندما تريد.»

حرك إبراهيم رقبته بكسل قبل أن يجيبه برتابة مؤكدًا: «هذا صحيح، وكما أخبرتك سابقًا أنها قضية رأي عام، صرخة لمجتمع ربما يستفيق ولكن كما قُلت لن تعرف شيئًا إلا في الوقت المناسب.»

بخطوات واسعة تحرك شريف نحو أفراد الأمن الذين يحيطون الأطفال، قبل أن يقول: «حسنًا أنا أنتظرك، لن أبحث وراءك لأن ثقتي بك على درجة ثقتك التي جعلتك تختارني أنا من وسط الجميع.»

أومأ إبراهيم برأسه شاكرًا دون أن يعلق بكلمات، ثم غَيَّرَ الأمر كليًّا وهو يقول باهتمام: «ما مصيرهم؟»

أجابه ببساطة: «الأحداث أو ربما دور الأيتام، ولكن أغلبهم تحت السن القانونية وبما أن القبض عليهم لم يكن بسبب جريمة وصورهم لم تُدْرَج في السجلات، فسيكون لدور الأيتام النصيب الأكبر.»

أشار شريف بكفِّه لأحد رجاله وقال آمرًا: «هيا أَدْخِلهم السيارة وتحرك ناحية القسم.»

ثم التفت لإبراهيم متابعًا بتجهم: «أتعرف ما المشكلة؟ الحقيقة أن بعد كل هذا عندما يصلون لدور الرعاية يهربون خلال أشهر بسيطة وربما لا يستغرق الأمر أسابيع.»

كتف إبراهيم يديه قبل أن يقول ببرود: «هذا على أساس أنك لا تعلم ما يلقاه هؤلاء على يد معدومي الرحمة في هذه الدور؟»

ضيَّق ما بين حاجبيه قليلًا وكأنه يدَّعي التفكير قبل أن يردف بنفس النبرة: «أتذكر منذ شهور بسيطة قرأت تقريرًا صحفيًّا عن أحد الأطفال الذين بُتِرَت ساقه بعد أن قفز من نافذة دار أيتام حكومية بغرض الهرب من جحيم مشرفيه، والذين كانوا لا يتوانون عن تجويع الأطفال بقصد سرقة الطعام وبيعه في السوق السوداء، ويُقسم فيما بينهم مال جميع التبرعات.»

قاطعه شريف وأكمل حديثه بتأكيد: «وتعريتهم في ليالي الشتاء، وإغلاق منافذ الهواء في الصيف، وحرمانهم حتى من دورة مياه نظيفة.»

صمت شريف عن قَصد قبل أن يكمل ببطء: «مشكلة هذا المجتمع لن تصلح بالصراخ أو مقالة مزلزلة، أو حتى رفع يدينا محتسبين فيهم وندعو اللّٰه أن ينتقم من الظلمة.»

حرك عينيه مراقبًا الأحداث من حوله مدركًا أن نقاشه وصديقه ليس في مكانه أو وقته، ولكنه أكمل بصوت مكتوم: «فرد أو اثنان أو عشرة من الصالحين، لن يغيروا مجتمعًا يا إبراهيم الأمر يحتاج إصلاحًا داخليًّا، يقظة من الضمير أن يتذكر هؤلاء أن اللّٰه يراقبهم، إن الإنسانية تجبرهم على الترفق بالضعفاء وإصلاح الكارثة التي أصبحنا فيها تحتاج

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لعمل حقيقي وخطة مُحكمة فعَّالة مباشرة وحازمة وليس مجرد متاجرة إعلامية.»

أغلق إبراهيم جفنيه لبرهة وهو يقول بصلف ساخر: «ضمير في مجتمعنا! أعتقد أن من الأسهل تمني أن تطير الأفيال، أتذكر مؤخرًا - في الأحداث السياسية للبلاد - هؤلاء الخطباء والثوريين والجماعات وغيرهم وغيرهم، لم يتورعوا لحظة لاستغلال أطفال الملاجئ في مظاهراتهم، مدَّعين أنهم أطفال الغلابة.»

للمرة الثانية قاطعه صديقه بالقول: «وأيضًا تم استغلالهم كمصدر للرصاص المتبادل في بعض المظاهرات، أتذكر هذا المشهد لأطفال يحملون أكفانهم؟»

أومأ إبراهيم موافقًا، فأكمل شريف بسلاسة: «ادّعوا أنهم من ذويهم الأحرار ولم يكونوا إلا مجرد أطفال ملاجئ والثمن لعبة ووجبة، وبالطبع لن تحتاج أن أخبرك أن الجماعات الإرهابية تستخدم هؤلاء الأطفال لتسيطر على عقولهم تمامًا، فلا تتعجب يومًا إن وجدت أحد الأطفال يرتدي حزامًا ناسفًا مفجرًا به مسجد أو كنيسة وهو مقتنع تمامًا أن هذا لنُصرة كلمة الحق.»

صمت ملتقطًا أنفاسه قبل أن يردف بتشدق: «وبالطبع لا تنس تجارة الرقيق الأبيض بالفتيات الصغيرات.»

إذن نحن متفقان أن الجميع يستغلهم وكلٌّ حسب مصلحته وجد فيهم الصيد المناسب.

نظر شريف لساعته التي كانت تُشير للساعات الأولى من الصباح قبل أن يقول بقوة جازمة: «الجميع مذنب ولا أستثني أحدًا، أطفال الشوارع ليسوا إلا خطيئة مجتمع بأكمله حوَّلها لقنبلة موقوتة، وها هو يجني ثمار

انفجارها عبر معدل الجريمة الذي زاد وتفشي الفساد والسرقة وخطف الأطفال أو حتى الشباب والنساء للمتاجرة فيهم.»

«اطرق الحديد وهو ساخن»، ليس سيئًا أن تأخذ من أقوال القدماء خطوات تتبعها، ولكن لا تنس أن ترتب نقاطك جيدًا، فعدوك ليس سهلًا وإن منحته وقتًا للتفكير أو جمع شتات نفسه فأنت ستفقد كل شيء، وهذا ما لن يسمح به أبدًا، لقد اقترب جدًّا من تحقيق عدالته الخاصة.

اتكأ سائد بكتفه على الجدار، بينما ينظر لحماد وبعض من رجاله الذين نجوا من الهجوم المرتب بعد أن ساعدهم، أمره حمادٌ بأن يتوجه لمنطقة نائية ليطالب بالمأوى والدعم من أحد البلطجية أشباهه، مالت زاوية فمه بابتسامة ساخرة، من المثير للعجب دعمهم لبعضهم وقت الشدائد ولِمَ لا وهم أولاد مهنة واحدة.

ما زال حماد على اهتياجه ووعيده، يلقي ألفاظه الفاحشة بغير حساب، يهدد ويتوعد فهمي وكل من معه، كان عشوائيًّا تمامًا كعادته، فتدخل سائد بهدوء حازم وقال: «الجزع والصراخ لن يوصلنا لحل يا معلم، نحن الآن في أمان، يجب أن تهدأ لتمنحنا خطواتنا القادمة كعادتك يا كبير.»

بعض التملق لن يضر حتى يرضي غروره حتى وإن كان هو من سيوجهه لما يريد في النهاية.

كان جسد حماد ينتفض بغضب من نار، سامحًا للحقد أن يسيطر عليه، تاركًا للهيب الانتقام حرية التفكير، ليعمي عينيه تمامًا عن حقيقة

ذئبه عندما قال بعنجهية: «نعم، يجب أن أعيد تنظيمكم، لآمركم بما أريد، لقد أحسنت تربيتك يا ولد.»

أومأ سائد برأسه بنوع من الإجلال لمعلمه مسيطرًا على سخريته التي لا تنفصل عن طبعه عندما قال ببساطة مباشرةً مدعيًا الجهل: «ما حدث من الواضح جدًّا أنه مرتب له، مَنْ فعلها أراد الخلاص منك، ولكن ما وصلني من أحد الرجال أن الليلة بالذات أرادوا القضاء عليك، فهل من سبب؟»

كان كل ما يصدر من حماد عنيفًا وهو يلفُّ حول نفسه يخبط يديه على الحائط تارة، وتارة يفتح المدية ليبرز سكينه الحادة وهو يقول بفحيح: «الآن عرفت وتأكدت أنه هو من يريد الخلاص مني، الكلب فهمي «الوسخ» أرسل لي رجلًا جديدًا يريد طلبية.»

قاطعه سائد بالقول مستفهمًا بلؤم: «رجل جديد! وهل هذا الأمر يحتاج لمزيد من كشفه أمام أحد وجديد أيضًا، الأمر به لعبة خطيرة معلمي.»

هز حماد رأسه بالرفض وقال: «لا، لقد رأيته معهم، هو أحد رجال فهمي.»

اقترب منه سائد ووضع يده على كتف حماد في حركة مؤازرة وقال: «لا تقلق، أنا في ظهرك وجميع رجالك أيضًا، حقك سيعود، ورقبتي سدادة أنا وكل مالي لك.»

التفت إليه حماد برأسه وملامحه الإجرامية تتوهج قائلًا: «عندما اخترتك لتكون ذئبي ومنحتك اسمك هذا والذي جهل به جميع الأغبياء وقتها كان لديَّ حق، أنت أذكاهم وأقواهم، وكما جهزتك لوقت حاجتي وجدتك، أنا اعتبرتك ولدي الذي لم أنجبه.»

علق سائد بحديث نفس ساخر: «نعم، ولدك الذي طاله منك الأذى كما لم يَطَلّهُ أحد رجالك قط، وجسدي المشوه يشهد، ومعدتي التي لم تعرف معنى الشبع يومًا تؤيدها، هذا إن تجنبت ذكر قلبي الذي قُتِل وكرامتي التي سُحِقَت.»

لم يستطع سائد أن يبتسم أو يعلق بشيء يُفخمه أكثر فاكتفى بهز رأسه موافقة قبل أن يقول: «يجب أن نصل للفتى الجديد هذا، أو أحد رجال فهمي، سيكون أول خيوط انتقامنا الحقيقة لنصل للرأس الكبيرة.»

هتف حماد بغضب متوعدًا: «ولِمَ نلفُّ حول أنفسنا؟! الآن سنتوجه لشفاه نحرقه فوق رأسه، ثم أقطعه َحيًّا.»

تحرك سائد خطوة للوراء وقال بحكمة: «نعم، ستفعل هذا وتلتقطنا الشرطة وتعدمنا بسبب كلب وبعدها تُمَلأ الصحف بالخبر العريض حشرات المجتمع ومجرميه يقتلون ملاك الرحمة دون أن يعلم أحد حقيقة أنه من اعتدى علينا أولاً.»

سأله حماد بجفاء: «إذًا ماذا تقترح؟»

أجابه بحزم: «نصل إليه خطوة خطوة، نوقِع برجاله أولًا ونفهم ماذا يخطط لنا، مؤكد لن يكتفي بهدم الوكر فوق رؤوسنا، وحتى نتأكد أن فهمي من فعلها.»

زفر حماد بضيق وعاد يصرخ في رجاله بغضب: «أريد حمدي عثمان الليلة، وأيضًا الطبيب الذي كان يسبقه علاء نبيل.»

لم يعلق سائد مرة أخرى بشيء، بينما يسيطر على زفرة ارتياح تريد الخروج؛ لإقناع الغبي بأول خطواته ولكن عليه أن يتحرك الآن ليجهز علاء كما يجب.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بعد ساعات من تركه حماد وصل سائد إلى ذلك المنزل الصغير المهترئ الواقع خارج المدينة، والذي قد اختاره كمكان احتياطي إن أراده في أمر ما، وها هو يستخدمه أخيرًا منذ يومين متذكرًا عندما طلب من حمدي مساعدته ليصله بهمزة الوصل بين حماد وفهمي؛ «علاء نبيل»، وهو طبيب في بداية العقد الخامس من العمر، وُجِّهَت إليه من قبل تهمة سرقة قرنية عين المتوفين في المستشفيات الحكومية وسُجِنَ لمدة عامين فقط وبعدها خرج، ليواصل عمله الحر بعقد صفقة مع الشيطان فهمي النجار بعد رفض أي مشفى محترم تعيينه، هو على يقين أن هذا الرجل فعل الكثير في حياته طمعًا وقتل أعدادًا لا تُحْصَى من الغلابة والأطفال؛ لذا يستحق مصيره.

قبل أن يدلف إليه سائد رفع هاتفه وهو يقول باقتضاب: «كما أخبرتك يا حمدي أريدك أن تختفي تمامًا حتى عن عائلتك، والمال الذي معك سيساعدك على هذا.»

صمت يستمع لجزع حمدي الذي لا ينتهي، قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ويخبره بسيطرة عنيفة: «اسمع يا فتى، أنا وعدتك بالأمان والمال، فقط اتبع أوامري ولا تجادل، وإياك والظهور قبل أن أسمح لك أنا بهذا.»

أغلق الهاتف دون كلمة إضافية، ثم فتح الباب الحديدي ليصبح في مواجهة علاء مباشرةً.

رجل بملامح غير مريحة يملأ الشيب رأسه، يرتدى نظارة طبيبة بزجاج سميك، مقيد في نصف الغرفة على مقعد خشبي.

أشار سائد بصمت لأحد رجاله بالخروج، ثم ما لبث أن اقترب منه فهتف علاء بذعر: «إن اقتربت يداك مني مرة أخرى سأجعل الشرطة تسلخ لحمك عن عظامك فور خروجي من هنا.»

سحب سائد كرسيًّا صدئًا يجره على الأرض محدثًا صريرًا مزعجًا مقصودًا، ووضع الكرسي أمامه في وضعية مقلوبة قبل أن يجلس عليه مربعًا ساعديه أمامه وهو يقول ببرود مخيف: «إن استطعت الخروج من هنا يا دكتور افعلها، لقد أخبرتك أني سأدفنك هنا حيًّا ولن يشعر حتى كلب بافتقادك.»

ارتعش الرجل الجبان من رأسه حتى أخمص قدميه وجسده المترهل قليلًا يَصب عرقًا عندما قال: «ما الذي تريده مني؟»

الضغط النفسي وحرب الأعصاب التي تعرَّض لها الرجل جعلته جاهزًا تمامًا لما يريد، فأخبره سائد ببساطة: «الأمر بسيط، صفقة، اختياران لا ثالث لهما.»

بلهفة سأله: «ما المطلوب؟ أي شيء سأفعله.»

رفع رأسه ببطء شديد حتى وقعت عيناه في عيني سائد الغامضة والمليئة بنظرة حاقدة مجنونة ومتفجرة كأنها آتية من عمق الجحيم؛ مما جعل توتر الرجل يزداد، ثم ما لبث أن قال بصرامة مرعبة: «أن تنفذ ما أطلبه منك دون نقاش أو سؤال، أو ترفض عرضي ويكون اختيارك الآخر فصل رأسك عن جسدك وتقطيعه لأجزاء صغيرة تُعَبَّأ في أجولة قبل أن أرميها لكلاب السكك.»

توسعت عينا الرجل خوفًا فوق خوفه، وقال كالمجنون حين يفقد كل الخيوط التي تربطه بالتعقل: «سأفعل أي شيء، ولكن ما الذي يضمن لي صدق كلامك؟»

وقف سائد من المقعد فجأة مما جعله يسقط بدويٍّ صاخب، ثم اندفع يقطع الخطوات بينهما بخطوة واسعة وحيدة ليمسكه من ياقته بشدة وهو يقول من بين أسنانه: «أنت لن تطالبني بأي ضمانات، لقد رأيت

عصير الكتب للنشر والتوزيع

في اليومين السابقين ما فعلته بك، ولن أتوانى عن تكسير عظامك مرة أخرى؛ لذا أمامك خمس دقائق لتقرر ما الصفقة التي ستعقدها معي.»

انكمش علاء في كرسيه وهو يَشْخَصُ بعينيه متذكرًا إجرام مَنْ أمامه وهو يمنحه ضربات جعلت صراخه يهز أركان هذا المنزل دون أن يترك أثرًا ظاهرًا للعيان، لقد ظن في مبتدأ الأمر أنه متخصص تعذيب بطريقة ما أو ربما ينتمي للشرطة: «الاختيار الأول، سأنفذ كل ما تطلبه.»

اعتدل سائد مرة أخرى وهو يخبره بابتسامة شرسة مربِّتًا على وجنته: «جيد، طبيب مطيع».

تحرك يدور حوله في دائرة مربكة وقال ببطء: «مطلبي بسيط للغاية، وبعدها لن ترى وجهي وأنا سأمحوك من ذاكرتي تمامًا.»

راقبه يبتلع ريقه الجاف يوافقه بصمت، فأكمل سائد: «بالطبع أنت تعلم أني أملك ضدك هذا الفيديو الممتع وأنت تقوم بتفريغ الصغار.»

جزَّ علاء على أسنانه بجنون وهو يشتم ببذاءة، فوجه له سائد لكمة سريعة تحت الحزام وقال ببرود: «لا تسبَّ أمامي، أكره هذا.»

تأوَّه الرجل بصوت مكتوم وهو يقول بصوت أشبه بغرغرة: «أعلم كل ما تقوله، ما الذي تريده وسأنفذه فقط أخرجني من هنا.»

كان يتفحص وجهه الذي زاد احمراره غضبًا وألمًا ولكن مستسلم تمامًا، استسلامه منحه الهدوء والسكون الشديد مسيطرًا على نفسه يذكرها أن كل هؤلاء ما هم إلا أدوات تُدار من رؤوس الأفاعي وهم ليسوا أبدًا هدفه، قال بهدوء: «حماد مكانه احترق، ويبحث بجنون عن الفاعل، أنت ستخبره أن فهمي هو المسئول عن الأمر، فبعد بيع حسان له أصبحتم لا تأمنوا جانبه.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

زمجر علاء بالرفض وقال: «هل تريد مني أن أضع نفسي بين فكَّي حماد وفهمي؟! إن عَلِما سيقتلاني حيًّا»

أجابه ببساطة: «وأنا أيضًا أخبرتك أنني سأنزع أحشائك من جسدك، فاختر الآن.»

«وهل هذا اختيار؛ أحدهم موت والآخر انتحار؟!»

عاد سائد لأخذ نفس مهدئ قبل أن يقول بسيطرة ذاتية: «اسمعني، ملجأ حماد احترق بالفعل وما أنا متأكد منه أن هناك أمرًا ما يجري، وفهمي قرر الخلاص منكم جميعًا، إن أخبرت حماد أن فهمي من قام بحرق وكره، وتطلب منه الحماية لأنك ساعدته سينقلبون على بعضهم ولن يلتفتوا إليك أو لغيرك.»

ضيَّق علاء بين عينيه بغير اقتناع فأكمل سائد: «أنا أتعهد بحمايتك، إن لم أرِدْ مساعدتك ونجدتك لم أكن آتي بك إلى هنا من الأساس.»

سأله علاء متشككًا: «وما الذي يجعلني أثق فيك؟ ولماذا تريد حمايتي؟»

عاد سائد يخبره ببرود: «مساعدتك لا تهمني، بل كل ما هناك أنه لديَّ ثأر قديم مع فهمي فلا أنت ولا حماد ولا حتى تجارتكم تهمني في شيء؛ لذا هنا مصلحتنا واحدة ساعدني وأنا سأقدم لك مساعدتي.»

لوقت طويل جدًّا لم يردَّ، كان يُقلِّب الأمر في رأسه جيدًا، يحاول أن يحسبه في عقله الذي توقف عن التفكير، عندما يأسرك الخوف، يصبح أسوأ مستشاريك وأعظم مأوى لجرثومة القرار الخطأ والضلال.

«أعتقد بأني سأختار التعاون معك، ولكن شرط الحماية قائم وستخلصني من كل ما يحدث.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أومأ سائد بموافقة بارده قائلًا: «بالطبع يا طبيب الرحمة، أعدك بالخلاص فور أن تنفذ مطلبي.»

عندما عاد سائد بكنزه الثمين لمعلمه، كان يشعر بالنفور والبغض لتلك العظمة والتفاخر الكاذب الذي يصدر من حماد، وذلك التملق والتحذلق وهو يخبر رجاله أن يتعلموا التخطيط والتحرك السريع مثل ذئبه مغمى عينيه تمامًا عن حالة علاء المطمئنة التي أتى به، والآخر الذي يثق فيه دون توجس وكأن سنوات من التعامل مع سكان العالم السفلي الغارق في البشاعة والقذارة قد ألغت عقولهم وقلوبهم، ألغت إنسانيتهم ولم يهتموا سوى بأن ينالوا مبتغاهم من مال أو دم.

حرك عينيه على حماد الذي يناور علاء ويحاصره بعدة أسئلة يتهمه أنه من أرسل له حمدي ليوقِعوا به فيجيبه علاء بالقول المتعسر: «الدكتور فهمي هو من أرسله، أنا لم أكن أعلم بما يجري إلا عندما أخبرني حمدي برسالة.»

صفعه حماد بقوة جعلت الرجل يسقط على الأرضية القذرة تحت أقدامهم قبل أن يرفعه حماد من ملابسه ويخبره بصوت عصبي غاضب: «ولماذا لا تكون لعبة منك أنت كما أقنعت حسان بخيانتي؟»

صرخ علاء وعينيه الحمراوان واسعتان، بينما اتسعت فتحتا أنفه وهو يلهث بجنون: «تبًّا لك سأقطع يدك هذه.»

عاد حماد يلكمه في معدته بقوة وهو يقول بمجون: «يبدو أنك نسيت مع من تتحدث ويجب أن أذكرك.»

أشار لأربعة من رجاله بفرقعة إصبع، وفي ثوان كان لاصق يوضع على فم علاء الذي حرك عينيه نحو سائد مستنجدًا منتويًا أن يصرخ فيه مطالبًا، ولكن السلسلة الحديدية التي هبطت من السقف لم تمنحه الفرصة حتى للاستيعاب عندما علقوه من قدميه وجذبوها للأعلى.

تدخل سائد قائلًا لحماد: «يبدو أنه لا يكذب يا معلم ولم يقل أكثر مما نحن متأكدين منه، فهمي هو من وراء حرق كل شيء ومحاولة القضاء عليك.»

زمجر حماد بغضب وصدمته ما زالت تعمي بصيرته: «حسنًا يا فهمي، نهايتك على يدي.»

أشار حماد بيديه علامةً على الانتهاء من علاء، فقام رجاله بتحريك السلاسل الطويلة نحو برميل ضخم فسأله سائد بتوجس: «على ماذا تنوي معه؟»

توسعت ابتسامة أشبه بوجه الشيطان على ملامح حماد وهو يقول: «النار التي أحرقوا شقى عمري بها سينالونها جميعًا وبأبشع الطرق.»

راقب بعينيه المظلمة محاولة علاء الخرقاء باستنجاد للتحدث، فلم يشعر إلا بالبرودة الشديدة ناحيته حتى ذلك الانهيار الذي تلقاه يوم قتل حسان، لم يأته وهو يرى جسد علاء يهبط في برميل «مية النار» فيصدر على الفور رائحة شيٍّ لحم بشعة، والبخار يتصاعد من حوله مغطيًا قدميه الظاهرة دقائق من اهتزاز جسده بحركات جنونية، ثم سكن تمامًا مخلفًا وراءه فقط رائحة العفن.

أشاح سائد بوجهه بينما حماد يخبر رجاله بتشفٍّ: «اتركوه إلى أن يتحلل تمامًا ثم احفروا أي بقعة أرض وألقوا بقاياه بها.»

«إن ربك لبالمرصاد»، يا ترى كم عدد ضحاياك يا طبيب علاء؟ وكم نفس حفرتَ لها ووضعتَ بقاياها بين التراب؟

بهدوء كان يخرج من المكان، ثم أخرج هاتف علاء الخاص وضغط على رسالة موجهة لفهمي: «حماد يحاول كشفنا انتقامًا منا، لاستغلال حسان من خلف ظهره وغشه في المال؛ لذا قد أخذت خطوتي وحرقت مكانه، ثم أبلغت عنه الشرطة، الرجل جُنَّ وهدد بقتلي، علاء.»

يومان من الجنون مع حماد أكثر من كافيين ليفقدوه صوابه ويحتله الإرهاق قليلًا رغم أنه يعلم جيدًا أن هذا ليس وقته أبدًا.

زَفَرَ بضيق وهو يضع طبق الطعام مكانه وقد فقد شهيته تمامًا رغم أن الجوع تمكَّن منه في الأخير، واستسلم لطلب وجبة من بين يديها، حسنًا ليعترف لنفسه أنه ربما يريد تحريك المياه الراكدة بينهم، فمنذ آخر مرة ذابت دجوى بين ذراعيه برغبتها الكاملة، وهي تغيرت تمامًا لا غضب لا مرارة ولا حتى عتاب، فقط نظرة فارغة مستسلمة تحيط بكل تعاملاتها معه، وكأن كل شيء فيها انطفأ.

يعلم أنه حمَّلها فوق طاقتها بكثير، كما أن كل كلمة لعمر جلده بها يستحقها، هل عتاب عمر يعنيه أو عذابها الداخلي الذي يعلمه جيدًا يؤثر فيه؟ هل إدراكه أن دُجى تتعذب بخطيئتها التي تظنها معه، يجعله يثور على نفسه في محاولة لفعل أي شيء ليخلصها من نار الخطيئة التي تتوهم.

لم يكن يعلم أنه وصل لغرفتهم بالفعل، نظر للفراش فوجده خاليًا، فأخذ نفسًا عميقًا مجهدًا، وهو يلتقط معطفه متوجهًا إليها، وجدها تجلس على أرض الشرفة تنظر إلى الفراغ بنظرة خاوية، تحمل عيناها

من العذاب ما يفوق طاقة البشر، ورغم برودة المكان يبدو أنها فقدت الشعور به تمامًا، انحنى يجلس على ركبتيه يحرِّك ظهرها قليلًا من التصاقه بالحائط، ثم دس كفه بطرف المعطف ليحاوط به كتفيها ويعود يغلقه جيدًا من الأمام حولها وهو يقول بخفوت:

«الجو بارد، وأنتِ لا تكفِّين عن الجلوس هنا حتى مطلع الفجر كل ليلة، إن كنت أزعجكِ بنومي جانبكِ فأنا على استعداد لأنتقل لغرفة أخرى.»

وكأنه لم يتحدث ولم يأت من الأساس، عقلها غارق في ظلماته والمرارة والحسرة تسكن قلبها، آلاف من السكاكين تمزق فؤادها وأمومتها وجنينها منذ ساعات وهي فقط ستسمح للألم أخيرًا أن يقضي عليها، علَّها تدفع ثمن جُرمها معه، علَّها تدفع ثمن خطيئتها، ولكن هل سيغفر لها الله يومًا؟! هل ستسامح نفسها يومًا على ما أوصلت نفسها له؟ الصور تتلاحق داخل عقلها المسكين؛ لتتوقف بجلدها مرارًا مكررة لقطتها الأخيرة بين ذراعيه تلتفُّ به لفًّا منتشية متخمة بالمشاعر شاعرةً بالرضا والتوهج والغرام، غرام محرم وعلاقة تشمئز لها الأبدان.

«دجوى، هل تشعرين بالتوعك؟ أخبريني ما الأعراض وسأجد لكِ ما يساعدكِ.»

رباه، هي لا تحتمل وجوده، لم تعد تريد أنفاسه، بل في تلك اللحظة بالذات هو يجب أن يبقى بعيدًا ليترك قلبها ينزف دمًا حتى تموت قبل أن تفقده.

«فصل روحك عن جسدك، سرقة قبس النور بعد أن كنت مستعدًّا لفعل كل محرم لتحميه، ليس بسهل أبدًا، ما الذي تسمحين له بالحدوث دجوى؟ إنه قطعة من قلبكِ يا غبية.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تمتمت بصوت أشبه بغرغرة الموت: «أنا جائعة جدًّا، وأشعر بالظمأ الشديد.»

مرر سائد يده فوق صفحة وجهه شاعرًا بالتخبط وعدم فهم ما يحدث معها، عاجزًا حتى عن السماح لنفسه بالعودة لقسوته معها، فقال برفق وبصوت غير صوته وبنفس حانية كانت فيه قديمًا: «سآتي ببعض الشرائح الشهية، أنا أيضًا لم أستطع تناول شيء منذ الأمس.»

هزت رأسها سريعًا بموافقة دون أن تعلق بشيء، وعادت لتتأمل الشارع والناس والأضواء من تحتها بصمت، «تُرَى يا سكون الليل كم تخبئ من أسرار بين جوانب شوارعك؟»

لم يغب عنها دقائق عندما عاد بطبق دائري وكوب من عصير البرتقال، وضع الطبق أرضًا قبل أن يجلس قبالتها، وضع الكوب في يدها، لاحظ تألم ملامحها وبعض حبات العرق التي تغطي جبهتها في هذا الجو البارد، وجهها كان متعبًا مرهقًا نظرة البريق في رمادها اختفت؛ مما جعل قبضة من الندم تعتصر قلبه بقسوة.

«هل كنت تطعمها وتغطيها أيضًا؟ بالطبع لا أقصد مقارنة ولكني أتعجب من هذا الاهتمام المفاجئ.»

وكأنها منحته الهرب المثالي حتى لا يظهر تعاطفه أو نوع من المشاعر نحوها فأخبرها بهدوء شارد: «أول مرة سرقت بعض الملابس كانت من أجلها عندما لاحظت أنها ترتجف بردًا ولا أحد يهتم.»

ابتسم بألم، وأردف: «أخذتها يومها إلى حارةٍ ما كانت في نظري وقتها تضم أغنى البشر وهم في الحقيقة ليسوا إلا أُناسٍ متوسطي الحال، ولكن الستر والدفء والجدران التي تأويهم كانت في نظر محروم مثلي كل كنوز الدنيا.»

صمت للحظة كي يمنع صوته من أن يتهدج تأثرًا، ثم تابع بشيء من الثبات: «قمت بتسلق سقف سيارة وقصصت حبل غسيل في الدور الأرضي، وفررت بها هاربًا، ظلت هذه الملابس معها طوال الشتاء تحميها من برده القارس، وهكذا ظللت معها مرة سرقة ومرات أخبئ بعض المال من المعلم أشتري لها شيئًا للستر من على الأرصفة، أما مصدرنا الدائم القمامة فكانت كنزًا ثمينًا لأمثالنا.»

تمتمت وكأنها لم تكن تستمع لما يقوله: «أبي كان يأخذني منذ صغري لأفخم المحلات أنتقي منها كل شهر، ربما خزانتي كانت تبدل تمامًا كل عام، سيارة آخر طراز أحضرها لي وأنا في المرحلة الثانوية فقط.»

تبدلت ملامحه للبرود التام فلم تهتم وهي تكمل بصوت كان يخفت تدريجيًّا: «أتعلم ما المؤلم في كل ما يجري لي؟ هو أنني جربت رغد العيش والاحترام، جربت أن أكون من عِليَة القوم وفجأة أجد نفسي على الأرصفة بأم مريضة، فاقدين الأمان مهددين بالقتل، أصابع الاتهام تشير لنا من كل جانب، الأقارب جميعهم لم يعترفوا بنا، خمس سنوات أقاوم الألم، أحاول أن أحافظ على روحي من القتل وشرفي من الضياع وطهري من العهر، وعندما أسمح لنفسي بالحلم أخيرًا ببيت يسترني وزوج يحميني، أجد كل ما جاهدت للحفاظ عليه يضيع في سراب.»

رفعت إليه عينين متعبتين مجهدتين خاويتين وقالت: «فأخبرني أنت من منا حياته مأساوية أكثر؟»

في تلك اللحظة أزاح سائد الطبق الذي بينهما جانبًا وهو يقف بهدوء من مجلسه يخبرها بجفاء: «ما حدث لك في الماضي لم يكن خطئي دُجى، ومقارنتكِ بآية غير منصفة لكِ على الأقَل.»

بللت فمها الجاف بطرف لسانها غير قادرة حقًّا أن تقترب من المشروب الذي أتى به، وضعته بجوار الطعام ووقفت بهدوء بطيء ملصقةً نفسها بالحائط وهي تخبره: «نعم، أعلم هذا أيضًا وكيف لي أن أقارن نفسي بها أو بك أو أن أطالب بأقل حقوقي الإنسانية، أنا هنا مجرد غانية.»

وقف سائد بقرب سور الشرفة الحديدي يتمسك به بشدة، والألم يعود يسكن جنباته، التفكير بطفل سيأتي منها بعد رحيله الذي اقترب؛ يرهبه ويجعله يسأل نفسه ألف مرة: ما الذي فعله بها؟ وما الجريمة التي ارتكبها ليأتي بهذا الجنين لتلك الغانية؟!

قال بهدوء: «المرأة التي تنتمي لي لا تحمل لقب غانية دُجى.»

أحست بالدماء تتجمد في عروقها وبشرتها تقشعر وبقلبها يخفق بصخب مجنون وهي تقول: «منذ أسبوع فقط أنا كنت عاهرتك في فراشك، أنفذ رغباتك دون اعتراض، أم استسلامي أخيرًا منحك الغرور المثالي والانتقام الأحمق لتجعلني أرتقي لمرتبة نسائك؟»

هز كتفيه ببرود وهو يتأمل انتفاض جسدها الذي فقد نصف وزنه، سألته فجأة باضطراب: «أنت تخبرني دائمًا أنها كانت زوجتك، هل رغم كل ظروفكم تزوجتها؟»

ضيَّق ما بين عينيه ولم يفهم معنى سؤالها ولكنه أجابها ببساطة: «نعم، كانت زوجة بطريقتنا الخاصة وعُرفنا، كان يجب أن تحصل على الاحترام وكرامتها أمام الجميع بزواجي منها.»

صفعتها الإجابة رغم أنها توقعتها مسبقًا، أجابته: «تزوجتها رغم كل شيء وأنا من أجل انتقامك الأعمى أخذتني بذنب آخر مات وانتهى؛ لتدمرني وطفلًا ليس له ذنب إلا تاريخ جده.»

قال بجمود: «لم أعد أريد منك شيئًا، وأتيت لأخبركِ بأني لا أراكِ عاهرة، أما ما حدث بيننا كلانا أَراده وإن كنتِ أنتِ الطرف الضعيف فيه، فتوقفي عن جلد ذاتك، ولصحة عقلكِ الذهنية لا تقارني نفسك بآية، انسِها من الأفضل لكِ.»

توتر قليلًا وعينيه تطلق شررها المعتاد قبل أن يسيطر عليها ويضيف بخشونة: «أنا لم أعد أراكِ إلا أنثاي، امرأة تنتمي لي رغم كل شيء؛ لذا سأحميكِ من كل من يهددك كما وعدتكِ.»

ضمت معطفه بكفيها المرتجفتين كسائر جسدها الذي لم تعلم سبب برودته؛ هل هو بسبب سهام كلامه؟ أم بسبب برد الشرفة؟ ثم ما لبثت أن قالت بخفوت: «ومع كل هذا أنت تحترمها أكثر مني، تزوجتها بينما أنا ...»

تقبضت يداه المتكئة على سور الشرفة، ثم قال بهدوء: «مشكلتي معكِ لم تكن في الاحترام من عدمه دُجى، بل في نيران تركها أبوكِ مشتعلة بداخلي وهرب بموته، ولم أجد غيركِ أمامي لأحرقكِ بها.»

تهكمت وهي تخبره: «ووصلت لما تريده، سائد ما الذي تبقى بعدُ؟ أن تقتلني وطفلي أليس كذلك؟ كيف أنسى؟ يا لغبائي! كيف لعاهرتك أن تنسى؟!»

التفت إليها أخيرًا سامحًا لنفسه بأن يلمسها عندما جذب طرف المعطف بقوة لتصطدم به، رفعت وجهها نحوه تنظر لعينه نظرة فارغة لا تحمل أي أثر للحياة فيها، لا أثر لخوفها ولا جزعها المعتاد منه ولا لعشقه التي أقسمت يوما أنها لن تستطيع الخلاص منه، خفق قلبه بقوة وإحساس بالقلق والخوف يجتاحه، فحثته غرائزه كلها على القتال، قتال النفس التي أمرته بالسوء نحوها، قادته لجنونه لإدخالها حربًا نفسية،

شنها عليها بغير إنصاف، ضم خَصرها بذراعه بقوة سامحًا لنفسه أن يحتضنها، ربما يصلها ما يشعر به والذي لن يستطيع أن يعترف به يومًا، مستخدمًا أبجدية العناق كما علمته هي إياها.

همس بخشونة: «ابكي دُجى كعادتكِ، صمتكِ سيقتلكِ.»

لم تتنازل عن النظر إليه بقوة وصلابة وهي تقول: «لم يعد هناك ما يستحق البكاء من أجله، السيد أمر عاهرته بالطاعة، وها هي أخيرًا منحته ما يريد، ويتبقى فقط أن يغرس نصل سكينه في صدرها وطفلها ربما يصل لسلامه ويريحني منه.»

عاد يضمها إليه بقوة مرغمًا، وهو يهمس: «أنتِ امرأتي ولستِ عاهرتي كُفّي عن ترديد ما ليس فيكِ.»

لم يبدُ عليها أي نوع من رد الفعل وهي تقول: «هل هذه حرب جديدة تشنها لجنوني؟ أم أن ضميرك المعدوم استيقظ فجأة؟! أفِقْ يا سائد وتذكر من أنا ومن أنت.»

ما يخوضه كثير ومتتابع ولا ينقصه تشتت عقله وقلبه معها الآن، فقال بحزم: «حروبي انتهت معكِ وأحرقت جميع سفني، قد أتفهم انهياركِ الآن، رغبتكِ في الشعور بالحضيض والاستسلام، ولكني لن أسمح لتركِ طفلي مع أمٍ ضعيفة خانعة أقل هَبَّة ريح تدمرها.»

لم تتمالك نفسها عندما نظرت إليه بذهول غير مستوعبة حماقاته، مؤكد أنه يهذي، هناك شيء خاطئ يحدث.

أبعد أحد ذراعيه عنها مخرجًا مستندًا من جيبه، رفعه أمام عينيها التي ما زالت تغرق في دهشتها، لحظات طويلة جدًّا، كان يغمض عينيه وأنفاسه تخرج بصعوبة وكأنه يسيطر على نفسه لفعل أمر لم يكن يريده، ثم فتحها فجأة وأخبرها بصوت مكتوم وهو يبتعد عنها قليلًا: «اقرئيها».

عصير الكتب للنشر والتوزيع

هزت رأسها بذهولها الذي لم يختفِ، وهي تسحبها بيديها المرتجفتين، أصابعها تهتز بوجل، تدمع عيناها في ردة فعل إنسانية أخيرًا، وتجري حدقتاها على السطور بغير تصديق.

ثم انفجرت مرة واحدة ببكاء هستيري يعلو بصخب مصاحب لأنفاسها التي حُجِزَت داخل صدرها: «أنت حقير».

تقبضت كفَّاه بجانبه بقوة ولم يعلق، عندما رفعت رمادها نحوه بجمود جعله يدرك إلى أي حد تتألم، إلى أي حد قد وجه إليها طعنته الأخيرة.

هزت رأسها بالرفض قبل أن تفقد سيطرتها تمامًا فتقطع الخطوة التي بينهما ويديها ترتفع دون تفكير تنوي صفعه.

فيمنعها سريعًا ممسكها وهو يقول: «لا تتطرفي دُجى وتذكري مع من تتعاملين.»

صرخت فيه باهتياج وهي تُفلت يديها من بين يديه تدبُّ على صدره بقوة: «بالطبع أعرفك، مجرد مخادع حقير، لا يستحق أيًّا من شفقتي ولا من جَلدي لنفسي، تبًّا لك، أكرهك يا سائد أكرهك.»

لم يفكر وهو يمسك بكتفيها بأصابعه القاسية، يهتف مزمجرًا: «لا تنسي نفسكِ يا ابنة غسان، من أجل طفلي أشفقت عليكِ.»

هل يحق لإنسان أن ينهار في لحظة كتلك؟ هي قاومت، قاومت أكثر من أن يتحمل بشر، قاومت فهمي ومرض أمها، وقاومت عشقًا مسمومًا غزا أوردتها مثل مرض فتاك لا شفاء منه يومًا.

غصَّت نبراتها وهي تخبره بصوت يضيع في مغبات الوجع: «ليس طفلك، لم يعد هناك ما يُدّعى طفلك.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم يسمح لعقله أن يحلل ما تتفوه به، بل سمح فقط للذعر أن يجتاحه كما لم يفعل منذ زمن بعيد، عندما سقطت فجأة فوق صدره ليمسك بها قبل أن تصل الأرض فاقدة للوعي، ذراعه تصرفت بتلقائية ليضعها تحت ركبتيها ويرفعها نحوه، ولكن الإحساس باللزوجة جعله يحاول أن يُلقي نظرة خاطفة ليفهم سبب ذلك الملمس الكريه وما رآه جعل خوفه منطقيًّا؛ فنقل عينيه لتلتقط لأول مرة منذ دخوله بقع الدماء التي تغطي مكان جلستها التي حرصت أن تحجبها عنه طوال حوارهم؛ فترجم عقله الآن معنى حديثها، فأصبح كل شيء مخيفًا، مدمرًا في الوقت ذاته.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أسرع عمر مهرولًا تجاهه تتبعه رابحة فور أن التقط وقفته المتصلبة في ممر المشفى أمام غرفة الطوارئ، بلهفة كانت رابحة التي بادرت بالسؤال: «ما الذي حدث؟ ما بها دجوى؟»

أغلق سائد جفنيه للحظات قبل أن يتمتم بصوت مختنق: «أجهضت».

همست رابحة وهي تتراجع للوراء ووجهها يزداد شحوبًا: «رباه».

أسرع عمر يسندها إذ خشي أن تفقد وعيها وقد بدأت أنفاسها تتسارع، جلست بينما أسند عمر ذراعيه حولها، لعن نفسه بصمت أنه سمح لها بمرافقته عندما أتاه اتصال سائد المستنجد وكأنه تائه مجذوب ولا يعرف كيفية التصرف.

«هل دجوى كانت حاملًا؟ لهذا كان يخبئها ورفضت أن أزورها!»

قال عمر بحزم: «رابحة بالله عليكِ ما علاقة هذا بما تقولين؟ أرجوكِ تمالكي نفسكِ حتى أفهم منه.»

جمدت وهي تحدِّق به مصدومة، تتذكر ملامح سائد التي لم تتقبلها يومًا، مظهر دجوى الضعيف الواهن والمرتعب في المرة الوحيدة التي رأتها فيها بعد الزواج تمتمت هامسةً: «لأنه هو السبب، صدقني يا عمر نظرة واحدة لوجه صديقك وستعلم أنه أكثر من آذاها، المسكينة.»

اعتدل عمر على الفور ينظر لصديقه دون أن ينبث بكلمة، بينما ملامح سائد ترسم خط البؤس كما لم يرسمه فنان من قبل، الألم ضياع وجع هستيري، حرك حلقه الجاف وهو يقول بضياع: «حلم أفقده للمرة الثانية وبيدي وبسببي.»

ساد الصمت ولم يجد عمر في قاموسه ما قد يخبره إياه، فمد يده يربِّت على كتفه يؤازره حقًّا، في حين لم تتغير ملامح سائد قيد أنملة وهو يقول: «ما كان يجب أن أعاند القدر وأن أحلم، فنحن مجرد عابري سبيل، نأتي إليها غدرًا ونعيش فيها ظُلمًا ونتركها صمتًا وكأننا لم نمر فيها أبدًا.»

ساد صمت آخر، كانت الدماء تنسحب من وجه عمر هذه المرة، والتفت يقلب عينيه على رابحة التي كتمت بكاءها بكلا كفَّيها تنظر له بخوف غريب، في حين اعتلى ملامحه الجمود وكأنه يحصن مشاعره، يقيدها يعيد هيكلتها، ليهبط لأرض الواقع وهو يقول: «نعم، كان يجب أن نلتزم بخطواتنا الأولى، لقد انغمسنا جدًّا في حياة ليست لنا، وأدخلنا فيها أناسًا لم تكن من حقنا، نحن مجرد وجوه ستُنسى فور التفاتك بعيدًا عنها ولن يذكر أحد يومًا أنها مرت من هنا، فلِمَ نعاند القدر؟ خفافيش الليل لن ترى نور النهار يومًا وإلا احترقت.»

عم الصمت الثقيل المصاحب للسواد مرة أخرى أمام غرفة الطوارئ بعد وقت ليس بقليل، فتح باب الغرفة لتطلَّ منها طبيبة في منتصف العمر

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بوجه بشوش مريح، توجهت لسائد تخبره بهدوء: «هي بخير الآن تستطيع أن تراها، ولكن كما أخبرتك قبل ساعات حالتها النفسية سيئة جدًّا، فأرجو منك ألَّا تتحدث في الأمر من الأساس، ستُنْقَل بعد قليل لغرفة عادية.»

لم يكن سيطر على نفسه بعدُ، وهو يغلق عينيه موافقها دون صوت بينما الذاكرة تلسع عقله بسياط من نار متوحشة متذكرها بين يديه يحتضنها بقوة، بينما الدماء تتدفق منها وهي في عالم آخر، قتلته ابنة غسان ووجهت له طعنة منتقمة توازي كل ما فعله فيها، فور أن شرعت الطبيبة في فحصها عَرَفَا سويًّا أن دجوى كانت تضع حاجزًا للدماء في ملابسها، أي إنها تعلم بأنها تخسر طفلهما منذ ساعات مضت، أخذ طعنتها في صدره بصمت بينما الطبيبة تخبره بعد دقائق طويلة تملَّكه الذعر فيها بالنتيجة المنطقية والحتمية لكل ما يحدث: «لقد أجهضت بالفعل، وانتهى أمر صغيره الثاني.»

كانت الطبيبة تركته وابتعدت عنه عدة خطوات عندما أتاها صوته الذي تلوَّن سريعًا بغريزته المتوحشة والكره الدفين بداخله لكل معطف أبيض: «أريد طفلي».

التفتت الطبيبة إليه بصدمة: «سيد سائد، ماذا؟ هل أنت ...»

قاطعها وهو يقول بحزم: «طفلي، يبلغ ما يقارب الثلاثة أشهر، أي إنه بدأ في تكوين جنين يا دكتورة، ألم تسمعي بالأجنة من قبلُ؟»

للحظات حدقت فيه الطبيبة ذاهلة، بينما عمر لم يعلق بشيء فتدخل طبيب التخدير الذي خرج من الغرفة يتبع الطبيبة: «هل تعي ما تقوله يا سيد؟ عن أي جنين تسأل؟ هذه الأشياء يتم التخلص منها بطريقتنا.»

قاطعه سائد جازًّا على أسنانه بغضب صارخ: «طفلي ليس أشياءً ولا يخضع لطريقتك، إنه بني آدم كان يتكون، إنسانٍ مثلك، ولا أعتقد أني الوحيد الذي يطلب هذا الأمر، أم أن لديك مخططًا آخر له؟ أريد ابني.»

تقدمت الطبيبة بهدوء وابتسمت ببشاشة مهدئة في وجه سائد وهي تقول: «الدكتور سامح لم يقصد، خانه التعبير من فضلك اهدأ وسأحضره لك بنفسي.»

لم يشكرها حتى وهو يقول بخشونة: «وهي متى تستطيع الخروج من هنا؟ أريد أن أصطحبها فور أن تُفِيقَ، وسأوفر لها كل ما يلزمها في المنزل.»

«وما مشكلتك مع هنا؟ المكان هنا أفضل وبه رعاية، وكما أخبرتك حالتها النفسية سيئة وبالتالي تؤثر على حالتها الجسدية؛ لذا لن أمنحك أبدًا تصريحًا بالخروج.»

عاد بغضبه يحاول مجادلته كثور هائج فأمسكه عمر يهادنه بالقول: «هل يمكن أن تهدأ وتسيطر على نفسك وبدل هذا الجنون اجعلنا ندلف إليها أو ادخل أنت لتراها.»

للحظات طافت عيناه على وجهه عمر بجنون، قبل أن ينطفئ كل شيء من حوله فجأة متمتمًا بصوت جاف: «لقد قُتِلْتُ للمرة الثانية يا صديقي، أشعر بأني أعود لإمساك جسد طفلي البارِد، طفلي الذي قُتِلَ، ألا من نهاية لألمي؟»

الدموع الحارقة تطفر بعينيه في لحظة ضعف إنسانية نادرة، فأغلق جفنيه سريعًا مكابرًا بينما دمعة وحيدة غالبته فهبطت من تحت رموشه المطبقة.

كان عمر يتمدد على الكرسي بعدم راحة، بينما تمتد قدماه أمامه على الأرض: «كنت أريد أن أراها، ما الذي يفعله هذا المخيف منذ ساعة معها؟»

حرك عمر كتفيه اللتين تيبَّستا وقال: «ارفعي أنفكِ من شئون الغير لا يخصنا، نحن هنا للدعم فقط، أو بمعنى أدق: أنا هنا من أجل صديقي، أما أنتِ مجرد حمقاء تسبب لنفسها المزيد من الألم.»

احمرَّ وجهها وهي تشيح بعينيها عنه قائلة: «ما بك تهاجمني هكذا منذ يومين؟!»

أحست به يعتدل وأمسك بوجهها ويديره إليه وهو ينظر لعينيها قائلًا: «ما الذي تحاولين أن تخبئينه عني؟ ولماذا تختبئين في بيت صفية منذ أسبوع مضى وكأنكِ تريدين أن تخفي شيئًا ما أو تحمي نفسكِ مني يا رابحة؟!»

رائحته المسكية أسكرتها، كما عبثت حرارة جسده القوي بتماسكها، إدراكها إلى أي حد يؤثر بها يضعفها، إلى أي حد تصبح بين يديه بلا حول ولا قوة جعلها تنتفض من بين يديه تخبره: «لا شيء، أنت من تحاول صنع وهم ما في عقلك وعقلي، اشتقت لأمي وأخي، هذا كل ما في الأمر.»

أمسك يدها وأجلسها بجانبه مرة أخرى وهو يقول من بين أسنانه: «ومرافقة صفية لغرفتكِ وصنعها لضجيج مقصود، كأنها تخبرني أو تحذرني من ملامستكِ، ما الذي يحدث يا رابحة؟ أنا ليس لديَّ وقت لألاعيب النساء.»

هل تستطيع إخباره الآن وتستغل ضجة المشفى ووجود أطباء؟ هل تستغل ضعفه وتعاطفه مع حال صديقه وتخبره عن فعلتها ربما تأخذه شفقة بها؟ رباه هي بشعة تستغل موت طفل لتخبره عن ...

وقفت فجأة أمامه وقوة غريبة تسري في جسدها وقالت في وجهه مباشرة: «ما فعلته معي من صفقات متكررة لم يكن منصفًا لي؛ لذا أنا قررت من تلقاء نفسي أن أغير بعضًا من بنودك.»

رفع حاجبًا واحدًا متوجسًا وهو يقول ببطء مكتوم: «وبعدُ سيدة رابحة الثائرة، ما الذي تغير؟»

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول: «طفل، أنا أريد صغيرًا، من حقي أن تكون لي أسرة حلمت بها منذ كنت مراهقة، من حقي أن أكون أمًّا يا عمر.»

قال بصوت غضب مرير: «لقد خيَّرْتُكِ منذ البداية، وأنتِ اخترتِ ألَّا تكوني لسواي يومًا حتى وإن مت، أنتِ لي وحدي.»

صمت لبرهة بينما يزداد بكاؤها بنشيج فصرخ فيها: «يا إلهي، لا أصدق أنكِ تخبريني بهذا وهنا والآن.»

فبادلته صرخته المهتاجة: «تبًّا لك يا سيد الدهاء الغبي عن أي آخر تتحدث؟ أنا حامل يا عمر، حامل بطفلك الذي رفضت أن تسمح لي أن أحمله، ولكني رميت بكلامك عرض الحائط، أنا أريد أن أكون أمًّا ولن يمنعني حتى جنونك من حقي الطبيعي.»

هز رأسه رافضًا لدقائق معدودة وكأنها ألقت عليه قنبلة مثيرة للتبلد أو الجنون، عيناه الملونتين تتحركان في كل مكان بصدمة مخالطة للذهول، بينما أطلَّت من عينيه نظرة جرح عميق، نظرة لن تنساها ما عاشت.

اعتدل واقفًا أمامها تمامًا ثم مال بجذعه ليساوي رأسها الذي نُكِّسَ عاجزًا عن مواجهته وقال بصوت بارد: «أعتقد أن فكرتكِ وصلتني تمامًا، من حقكِ أن تكوني أمًّا ومن حقي قول لا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

صمت لبرهة قبل أن يقول بصوت مكتوم خافت مخيف: «لن تخرجي من هنا على قدميكِ، هذا الطفل سيُجْهَض وفي الحال، أنتِ لعبتِ مع الشخص الخطأ، وظننتِ أن ضعفي نحوكِ حجة تستخدمينها ضدي، مرحبًا بكِ في عالمي المرعب رابحة والذي لا يعرف قانونًا إلا قانون الغابة.»

كانت الطبيبة تصر ألَّا تنظر إلى كليهما، لدقائق تحاول أن توازن بعقلها ما الذي يجري تحديدًا معهما؟! فوجْه عمر الجامد رغم النيران التي تستشعرها تنبعث من كل جزء في جسده، ورابحة تقف بتصلب ناحية باب الغرفة المغلق وكأنها تخاف التقدم، تنازلت أخيرًا لتخبر كليهما بهدوء متزن وقور: «إن ما تطلبه مستحيل أن يحدث، لا أعرف ما الذي دفعك إليه تفكيرك لتظن أن من الممكن أن يوافقك أحد هنا على جنونك هذا؟!»

تجنب عمر السخرية من أصحاب المعاطف البيضاء، ومن حقيقتهم البشعة التي جربها هو وصديقه، فقال بتشنج: «وإن أخبرتكِ أن هذا الطفل يهدد حياتكِ ألا تسمح لكِ كل الشرائع والقوانين أن تجهضيه؟»

أغلقت رابحة جفنيها للحظة قبل أن تسارع هي في الرد بالقول الساخر: «يا فرحتي بك، وهل قمت بتنفيذ كل فرائض الدين ولم يتبقَّ إلا حرصك على حياتي المهددة بالطفل؟!»

التفت إليها بشره فذكرها بوجهه القديم المهدد الذي رأته مرتين قبل زواجه منها وقال: «اخرسي، ليس لديكِ الحق للاعتراض أو السخرية.»

تقدمت منه خطوة بعد أن نفضت عنها وَهَنَ الاستسلام الدائم لكل ما يطلبه وقالت بشراسة: «بل لي الحق بفعل كل ما أريد، وسأدافع عن طفلي بكل ما أملك يا عمر.»

لم تحتج «لمياء» لكثير من التفكير لتفهم أن ما بين هذين الاثنين معقد وصعب فهمه، ولكن إقناعه ليس بالشيء المستحيل، بابتسامة على وجهها البشوش المريح قالت بهدوء في محاولة لفض النزاع بينهما: «بالطبع سيد عمر، إن كان يهدد حياتها سيُجْهَض ولكن أنا لا أرى أمامي ما تقوله.»

لم يلتفت إليها ودون أن تترك عينيه عيني رابحة المتمردة بعنف لم يره فيها من قبل، قال من بين أسنانه: «هناك أمراض خبيثة، مختبئة وراء الصور الجميلة والمثالية، يغض البعض عنها بصره بقصد، والبعض الآخر يتحامق ولا يراها من الأساس.»

ردت رابحة بقهر: «وهناك مَنْ يدَّعي الشهامة والفداء، وهو مجرد إنسان أناني، يبحث عن كل ما يريد تحقيقه وينهل من أحلامه المبتورة كما يدَّعي، وبالنهاية يريد التهرب من دفع ثمن جزء بسيط لما أخذ.

ساد الصمت ثقيلًا ومتوترًا في أرجاء غرفة الطبيبة، قبل أن يقف عمر على قدميه ليتقدم ناحيتها حتى واجهها كليًّا وقال بصوت مكتوم: «ثمن! وهل ما قدمتهِ لي يحتاج مني لدفع فاتورة؟»

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه وقالت: «إن كنت تسمي نطفتك في أحشائي ثمنًا فلا مشكلة لديَّ، نعم أنا أردت طفلًا منك مقابلًا لما منحتك إياه، فهل هذا كثير عليَّ سيد عمر؟!»

تنحنحت الطبيبة ببعض الحرج وقالت بود حنون: «لديَّ بعض المرضى أريد المرور عليهم، خذوا وقتكم لن يزعجكم أحد.»

التفت لها عمر بحدة وأخبرها من بين أنفاسه العنيفة: «لن تتحركي من هنا قبل أن تجهضي هذا الطفل.»

تحاملت لمياء على نفسها مستمرة في رسم ابتسامتها الهادئة وقالت ببساطة: «لن يحدث ودون حتى أن أفحصها، أنا أرى الأم قوية متمسكة بجنينها.»

هتف غاضبًا: «هي ليست لديها السلطة لتحدد شيئًا كهذا، سأمحنكِ ما تريدينه من المال.»

هنا فقط أخذت ملامح لمياء تتبدل كليًّا للجدية الشديدة وقالت بحسم: «سأراعي حالتك النفسية وذعرك الواضح للجاهل حتى، كأني لم أسمع عرضك المشين والمرفوض كليًّا سيد عمر.»

توجهت نحو الباب بخطوات حاسمة، وقبل أن تغادر التفت تخبره: «لا أعلم ما مشكلتك أنت وأخيك تحديدًا مما عانيتُماه من أحد أبناء مهنتي، ولكن أيًّا ما كان في عقلك أريد أن ألفت انتباهك أن كل مهنة بها الطالح والصالح، الأخيار والأشرار، ولكني مؤمنة بمقولة: «إن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة»، فالنفوس الرديئة لا محالة سيأتي عليها يوم لتنتهي ونتخلص منهم.»

انسحبت الدماء من وجه عمر ورغم عدم معرفتها بمعاناته حقًّا ولكن كلماتها البسيطة أتت على الجرح تمامًا فقال بتوتر: «أنتِ لا تفهمين، فهذا الطفل خطأ ستدفع هي عواقبه وحدها ولن تتحمل.»

أخذت لمياء نفسًا عميقًا قبل أن تقول بهدوء: «وهل تريد إصلاح الخطأ بجريمة؟»

ردد بتخبط: «جريمة!»

قالت بملامحها البشوشة التي تُدْخِل في النفس الراحة والطمأنينة:

«بالطبع، هذه جريمة قتل مع سبق الإصرار منك، ومؤكد أنا لن أشارك في قتل روح منحها الله لكم.»

اهتزت ملامحه للحظة فقط قبل أن يعود لتصلبه وقال بصوت مكتوم: «وجوده هو الجريمة في حقه.»

اختفت ابتسامتها قبل أن تخرج من الغرفة وهي تقول: «إذن ابحث عن شخص آخر معدوم الضمير بعيدًا عن هنا.»

خرجت لمياء مغلقةً الباب خلفها بقوة وكأنها تعلن عن غضبها المكتوم، قالت رابحة أخيرًا بيأس ولكن بغير تنازل عن رأيها: «أنا سأذهب من هنا».

قال بصوت بارد أتى مِن جبل جليد غُلِّفَ قلبه وعقله: «لا تعتقدي أن ما تفوهَتْ به تلك المرأة سيغير رأيي في شيء، معدومو الضمير كُثُر وسأجد أحدهم بالتأكيد.»

تقابلت عيناهما لفترة طويلة قبل أن تضم كِلا كفَّيها على بطنها وقد تلاشى كل شيء من عقلها، اعترافه بالحب، وعده إياها بعدم جرحها يومًا، موافقتها له بعدم تركه، لقد هبطت رابحة أخيرًا من فوق سُحب السعادة وانقشعت غيماتها الوردية التي توهمتها معه، ثم ما لبثت أن قالت بروح قوية صلبة: «إذن ستفعلها على جثتي يا عمر، لن أسمح لك بالاقتراب من طفلي إلا بقتلي أولًا.»

هتف من بين أسنانه معلنًا مخاوفه بعد أن فك عقالها أخيرًا: «أنتِ امرأة غبية، أخبريني أي مستقبل ستمنحينه إياه؟ هل تعلمين ما أنتِ شخصيًّا مهددة به وأقحمتِ عائلتكِ فيه فقط لأنكِ اخترتِني؟!»

ازدردت ريقها ولكنها لم تتنازل عن قوتها، إذ علمت في هذه اللحظة أنها تحتاج إلى كل روح قوية مثابرة مدافعة كانت تتحلى بها قديمًا لمواجهته فقالت: «تزوجتك، أحببتك وتزوجتك، وافقت على شروطك لأقترب منك، لم أفعل شيئًا حرامًا أو يسيء لي، أما عن ذلك الخطر الذي تجزم به فهو أنانية منك؛ لأنك لم تكن على مقدار تضحيتي تلك التي تدَّعيها.»

«لم أجبركِ على شيء، أنا قاومتكِ ودفعتكِ بعيدًا.»

ردت: «إن كان هذا وقت العتاب دعني أذكرك أنك أتيت من تلقاء نفسك عارضًا عليَّ انتمائي إليك.»

هتف غاضبًا: «وعرضت شروطي عليكِ وأنتِ وافقتِ ومن ضمنها أنني شددت عليكِ، لا للأطفال.»

صمت ملتقطًا أنفاسه قبل أن يقول صارخًا: «لقد كنت أمنحكِ الحبوب كل ليلة بنفسي، كنت أعلم مدى غبائكِ، كيف استطعتِ غشي؟»

هزت كتفيها ببرود لا ينبع أبدًا من انصهارها الداخلي وألمها المخلوط بالوجع: «هذا سهل، إنها عملية بسيطة للغاية، أضع الحبة تحت لساني وبمجرد التهائك أنت في رغباتك المحمومة أقوم أنا بإلقائها تحت السرير، بالمناسبة ستجد الكثير منها هناك، أنا لم أنظفها.»

اقترب منها ممسكًا عضديها بعنف سبَّب لها الألم وأجابها بصوت حاد كسكين يطعن كلاهما دون رحمة: «بالطبع أعرف تلك العملية، ولكن دعيني أشرح لكِ كيف عرفتها أنا، على حسب ذاكرتي وأنا مجرد طفل في الخامسة، إنها عملية تخرج مصحوبة برذاذ البشر المشمئزين من مظهري المقرف أو من إلحاحي في الشحادة كما كانت تدفعني تلك المرأة التي وجدتني واستخدمتني في التسول، بعدها وجدني آخر وظللت في تلك

المهنة بعينين ضائعتين وجسد هزيل ووجه متسخ لا اسم لي ولا أهل، لا مكان لي حتى بين أطفال الشوارع؛ لذلك نعم أعرفها جدًّا لأني جربتها من الجميع دون استثناء حتى اشتد عودي واستطعت أخيرًا أن أجد ظهرًا حاميًا لي أستند إليه، ولكن هذا لم يمنعهم من معاقبتي بشيء آخر أكثر قسوة.»

شَحَبَ وجه رابحة حتى تحوَّل للون أبيض يشبه كفن الأموات فقالت بضعف: «اصمت».

عاد ينظر لعينيها وهو يقول بقهر موجع: «ولمَ أصمت؟ هل تؤلمكِ الحقيقة؟! ابنكِ سيولد حتى بدون اسم حقيقي أمنَحه إياه.»

أشاحت بعينيها التي ترقرقت بها الدموع تنظر لأي مكان عداه وهي تقول بخفوت: «لديك اسم ذلك الذي تزوجتني به، أنا وهو سنكون أكثر من ممتنين لحملنا إياه.»

هدأت ملامحه قليلًا وقال بصوت مكتوم: «والناس عندما يكتشفون أن ابنكِ بلا أصل ويحمل عدة أوراق لا تعني شيئًا للمجتمع هنا.»

تماسكت وقالت ببساطة: «ولكنه لديه جنسية حصل عليها والده بتعبه وسعيه، جنسية منحتها لك دولة يحلم بها الكثير، ويُدفع مقابلها الغالي قبل الرخيص.»

تمسكها المستميت بطفله برغم كل المخاوف التي يحاول أن يقحمها في عقلها قد تجلى تأثيره عنيفًا ومؤلمًا داخل عقله وقلبه منعكسًا على صفحة وجهه، فقال بمحاولة سجال يعلم أنه عقيم معها: «أنتِ تخدعين نفسكِ، تعلمين أن ما تفوهتِ به ليس بهذه البساطة.»

عادت إليه بعينيها وقالت بهدوء: «أعرف ولكني لن أكررها لك يا عمر، أنا من حقي أن أكون أمًّا، وسأفعل أي شيء لأحافظ على ابني.»

رفع يديه عن عضديها وأنزلهم جانبه بانهزام كابحًا لرعدة جسده الرافضة لما تتفوَّه به قائلًا: «حتى إن كان ثمنه أنا!»

فَغَرَت فَاهَا للحظة وعينيها تتوسع بذعر مصدومة غير مستوعبة فقالت: «ماذا تعني؟!»

استحال وجهه لقطعة من الحجر، عيناه الملونتين كانتا أشبه ببركتين ساكنتين بدون أي شعور تستطيع أن تتبينه وهو يقول: «كلامي واضح رابحة، لو خيرتكِ بيننا مَنْ ستختارين؟»

دارت رابحة حول نفسها لثوانٍ وهي ترفع كفيها تضم أعلى رأسها بقوة تمنع نفسها من البكاء أمامه بقوةٍ، لقد سلمت لعمر بما يكفي وهي راضية ساكنة مستجدية منه أملًا قريبًا في حياة طبيعية معه، ولكن عند طفلها يجب أن تحاربه حتى يستفيق من جنونه وما يحاول أن يقتله بينهم وتعلم جيدًا أنه سيندم عليه لاحقًا، أحست بوجوده أخيرًا وراء ظهرها، فأدارت رأسها لتنظر إليه والتقت نظراتهم بصمت، لغة جسدها كانت تنبئه أنها اكتفت منه وأنه على وشك فقدها، ابتعدت عن مرمى محاصرته إياها وكأنها ترفض التعاطف معه ليترك أثره المعتاد عليها، نطقت أخيرًا بثبات: «أَبَعْدَ كل ما بيننا تقف لتخيرني هكذا، ملقيًا بقلبي تحت قدميك، إذن آسفه يا عمر سأختار قطعة منك، ستتمسك بي كأني الحياة ولن تهدد بتركي يومًا، سأختار روحًا ستمنحني الحب دون شروط مثلما فعلت أنت معي.»

بهت وجهه لدقائق مدركًا أن كل ما تتفوه به الحقيقة المُرَّة، هي قدمت كل شيء منذ معرفته بها، تنازلت دون أن تشعره بشيء أو حتى تشعر

هي بتنازلاتها معه، ولكن ما الذي قدمه هو إلا رصيدًا في البنك لم تمتد يدها نحوه، وبعضًا من الترتيبات لتأمينها في حالة حدوث خطأ ولم تتم صفقتهم التي عقدوها! أخيرًا عندما لم يردَّ أنزلت رابحة يديها وهي تقول بهدوء: «لقد بقيت هنا وطاوعتك في التحدث مع الطبيبة رغبةً مني أن أرى إلى أي حد قد تتطرف معي وتجور عليَّ بجنونك، رغبت في معرفة إلى أي حد قد تضحي بي يا عمر!»

تحركت نحو الباب وأخبرته بصوت مكتوم: «تمنيت بداخلي أن تعود من تلقاء نفسك لا أن تهددني بك، أنا سأغادر من هنا.»

خرجت بدون تباطؤ، بينما وقف هو عاجزًا ضائعًا تائهًا متألمًا ويائسًا، هل مكتوب عليهم حقًّا كما قال سائد أن يعيشوا مظلومين ويموتوا مغدورين دون أن يحصلوا على شيء واحد عادل حقيقي؟!

كانت عيناه تبرقان غلًّا وشرًّا وهو يدور حول نفسه صارخًا باسم أحد من رجاله ممن يملكون نفس القذارة مثله: «ما الذي يعنيه هذا الغبي علاء يهدمها فوق رؤوسنا ويهرب؟! ومن قبله غدر حسان بنا، ثم اقتحام غرفة التخزين وتخريب كل ما تحتويه وبالنهاية لا أحد منكم لديه تفسير، هل يعمل معي أغبياء؟!»

ارتبكت سمر ووجهها يمتقع خوفًا بينما تفرك كفيها تعرقًا إثر التوتر، إن اكتشف فهمي أنها شكت بعمر وتغاضت عنه ولم تخبره فلن يرحمها بالتأكيد، الماكر كان يُعشمها بحب وعلاقة غرامية معه بمغازلته الجريئة التي تعصف بكيان أي امرأة لاعبًا على كل أوتارها الحساسة، فقط لتسلمه ما يريده كما يبدو، هنا انتفضت بوجل وهي تسمع هدر فهمي النجار ليخرجها من أفكارها التي غرقت فيها عندما قال بعصبية:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

«هناك مخطط يجري لمحاولة الوصول لي أنا شخصيًّا، ولن تحتاجوا لأخبركم أن أحدهم زُرِعَ بيننا.»

نطق أحد رجال فهمي يخبره بتوتر: «اهدأ يا دكتور، وعدتك سنصل إليهم قريبًا، وسنخرسهم إلى الأبد طالما أنهم ليسوا من الشرطة نحن في أمان.»

التفت إليه فهمي يجز على أسنانه غيظًا، قائلًا: «ومن أخبرك أنه ليس بأحدهم؟»

أجابه رجله ببديهية: «نحن انتظرنا ما يقارب الأسبوع بعد أن نظفنا الغرفة جيدًا من أي أثر كان فيها بعد أن دمر المتسلل محتوياتها، وببساطة إن كان أحد رجال الشرطة لماذا لم يهاجم حتى اللحظة واكتفى بخرابها وحصل على بعض المعلومات فقط؟!»

صمت فهمي لدقائق وأنفاسه تخرج كبراكين من نار يكاد يُجَن بعد أن ربط كل ما يحدث بتتابع سريع ليجعل إمبراطوريته السرية تنهار، مهددة بكشف سوقه السوداء، ومض بعقله اسم واحد فقط منذ ظهوره وكل شيء حوله أصبح يوشك على الانفجار: «عمر الناصر وشركاه»، والذين لم يرهم أبدًا، بالطبع هو حريص مع من يتعامل معهم؛ لذا عندما وجد أحد الرسائل الإلكترونية الدعائية لأجهزة طبية من النوع الذي يستخدمه بأعماله السرية بثمن يكاد يكون خياليًّا، والشركة تطالب أيضًا بموزع رسمي في الشرق الأوسط، بحث جيدًا عن موقعهم الإلكتروني والذي وجد أن كثيرًا من الأطباء ذوي الأسماء المهمة تتعامل معهم من جميع أنحاء العالم، فراسل أحد المشافي المذكورة بشكل عشوائي يستفسر عنهم ليطمئن قلبه، فأكد الجميع أنهم من أفضل شركات الأجهزة التي تعاملوا معها يومًا رغم أنهم لا يملكون تاريخًا طويلًا في سوق العمل، فقام

بمراسلتهم بإلحاح وقدم أفضل العروض وبعد مماطلة ظنها هو ممانعة منهم وبحث عن جديته وتاريخه الطبي أرسلوا موافقتهم التي اشترطت أن يكون أحد مندوبيهم مشرفًا على استخدام تلك الأجهزة وكيفية سير العمل في المشفى، على أمل أن يشارك معهم بنسبة ما تؤهله أن يكون مندوبهم الرئيس هنا، هذا سيكون غطاءً جيدًا لأعماله من جهة ومزيدًا من كسب الأموال من جهة أخرى، نظر فهمي لسمر بملامح متوعدة وقال من بين أسنانه: «أريد تحركات عمر الناصر بالتفصيل، وإن اكتشفت تلاعبكِ مرة أخرى يا سمر ستكونِين الجانية على نفسك.»

سيطرت سمر على ارتجافها مدركة أنها لن تستطيع الصمود أمامه أكثر من هذا عندما قالت بصوت مذعور لم تسيطر على حروفه: «كان عمر الناصر يتحرك بخفة في أرجاء المكان متحججًا بمطالعته، وكثيرًا ما اختفى دون أن أعلم أين بالضبط وكأنه يبحث عن شيء مفقود.»

همس فهمي بصوت أشبه بالفحيح: «أريد أن أعرف كل شيء عنه هو وشريكه الذي لم نقابله حتى اللحظة.»

قال رجله بامتقاع يائس: «لقد حاولنا من قبل يا دكتور، وكل سعينا ينتهي عند نقطة فاصلة لتدخل أحد ما مجهول الهوية قاطعًا الطريق علينا، فلم نستطع أن نصل أبعد من أنهم مندوبون لتلك الشركة الأجنبية لا شيء عن خلفيتهم، لا شيء عن سيرتهم الذاتية ولا حتى حياتهم الأسرية، وكأنهم أشباح يظهرون متى يريدون ويختفون دون أثر واحد عندما يرغبون.»

استدار فهمي يُشعل سيجاره بهدوء وأخذ نفسًا منها وآخر قبل أن تلمع في عينيه نظرة تقشعر منها الأبدان بشيء لم يسبق لإنسان سوي أن يعرفه في حياته حتى في أحلك أوقاته، لقد كان الانحطاط التام

والحضيض عندما يرمي الشخص إنسانيته داهسًا بقدميه ومتناسيها، لقد وصل إلى القاع في بئر لا يحتوي إلا على كائنات أسطورية نهضت من الجحيم لتقضي على الفطرة السوية والإنسانية.

«لا أهتم، مؤكد لديهم حياة زاخرة بنقاط الضعف، هؤلاء لم يخططوا لكل هذا من أجل مال بل لشيء أكبر بكثير مما نعتقد أو يصل إلينا واضحًا؛ لذا أريد أن أحصل على أرواحهم تلك في أقرب وقت، ويا ليت مع نسائهم، فالأمر وقتها يصبح أكثر متعة في تحطيمهم تمامًا.»

حدَّق سائد في إبراهيم بملامح صلبة اعتاد عليها عندما نطق إبراهيم باقتضاب: «يبدو أن فهمي النجار كشف اللعبة وأننا من وراءه.»

تصفَّح سائد عدة أوراق أمامه وبعض الأقراص المدمجة والتي تحتوي على آخر ورقة سيلاعب بها فهمي ليقضي عليه تمامًا، ولكن مؤكد ليس قبل أن يقطع جميع أذياله، نطق أخيرًا بهدوء: «وما المشكلة في هذا؟ هو يبحث منذ اعتقاده أن الشركة الأجنبية للأجهزة الطبيبة عقدت صفقة معه ولم يصل لشيء.»

قال إبراهيم بحزم وهو يجلس على المقعد المقابل: «هذا صحيح، وأنا ما زلت قادرًا على قتل أي محاولة للوصول إليكم عند نقطة محددة.»

أخذ سائد نفسًا عميقًا وسأله: «ما المشكلة إذن؟»

رد إبراهيم بصوت مكتوم: «لقد كثَّف جهوده هذه المرة ويبدو أنه مُصِر أن يصل إلى أي شيء يخصكم متوجهًا إلى أماكن حكومية في البلاد، وطالما فعل هذا، إذًا هو قد ...»

قاطعه سائد بتجهم: «معناها أنه كشف عمر أخيرًا!»

توتر إبراهيم للحظة وقال: «وهذا سيهدد كل ما فعلناه في الفترة السابقة، أن يتم اكتشافنا سريعًا هكذا.»

وقف سائد من مكانه وتوجه إلى نافذة المكتب يراقب الشارع الذي يعجُّ بكل أنواع البشر الغافلين اللاهين في لقمة العيش ومصاعب الحياة، غير مدركين للدمار الذي يجري من حولهم والبعض يصمُّ أذنه عنه متبعًا سياسة «نفسي أولًا»، متناسين أننا جميعًا في سفينة واحدة وحتى القفز منها لن ينجينا من الغرق، نطق أخيرًا وقال ببساطة: «بالعكس تمامًا يا إبراهيم، هذا ما أسعى إليه تحديدًا، وكنت أتوقَّع أن نُكْشَفَ عند هذه النقطة، عدونا ليس غبيًّا وإلا كان كُشِفَ منذ زمن.»

هزَّ إبراهيم رأسه بحيرة وقال عاقدًا حاجبيه محاولًا أن يفهم: «هل قصدت أن تمنحه فرصة ليأخذ احتياطاته، وربما يتفوق عليك بنقطة؟»

لم يلتفت إليه سائد عندما قال: «ما هو الشيء الذي ليس واضحًا في كلامي؟ ظننتك رجل أمن محنَّك تفهم خطتي التي أتبعها تمامًا.»

قال إبراهيم بدون تفكير: «العذر منك، رجل أمن قلتها بنفسك، أي وظيفتي كشف المجرمين لا التفكير بعقولهم الإجرامية.»

أرجع سائد رأسه إلى الوراء ضاحكًا بقوة، ضحكة خرجت متحشرجة وكأنه يبحث عن أي شيء يخفف عنه ذلك الألم الذي يمزقه لأشلاء صغيرة منثورة منذ أيام منذ فقدانه طفله الثاني، مَنْ زرع الحنظل يجب أن يحصده مرًّا.

وهو ذاق أكثر مما يجب، حاول إبراهيم ادعاء أنه لا يفهم حقيقة الألم الذي يمزقه مكتفيًا بحدود العلاقة التي رُسِمَت بينهما، فقال بمحاولة واهية للمزاح: «أنت تضحك مثلنا يا رجل، لقد ظننتك مصنوعًا من صخور الجبل!»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

صمت فجأة كما بدأ في ضحكته المبتورة وقال: «تخيل أنك رأيت تلك المعجزة أخيرًا.»

عاد من جديد لوجهه الصلب المصر على هدفه عندما قال بجدية حازمة: «لا تقلق، لم يمنحني حماد اللقب منذ طفولتي عبثًا، فهمي على وشك الحصول على إلهاء أكثر من مناسب وبيديه هو ستتم خطوتي القادمة.»

استفسر إبراهيم: «حسنًا، وما هي تلك الخطوة؟ ومتى تنفيذها؟»

رد سائد بجمود: «الليلة جهِّز نفسك لنُذيق فهمي من نفس كأسه.»

قال بتوجس: «ما الذي تقصده تحديدًا؟! هل تنتوي أن تفعل ما فعله بك وبنفس الطريقة؟ لهذا جعلتني أجمع المعلومات عن أولاده؟»

لم يرُدَّ سائد بشيء، بل عاد ينظر إلى الشارع وعينيه تومضان ببريق مخيف، ثم ما لبث أن قال: «صفقتي معك أنت وصديقك كانت واضحة، لا أسئلة ولا تدخُّل في كيفية تنفيذ الأمر؛ لذا ببساطة إن لم تفعلها أنت الليلة دعني أقوم بها بنفسي.»

فرك إبراهيم وجهه بعصبية مفرطة، ثم قال بانفعال: «لم نتفق على دم بريء.»

قال سائد بابتسامة ميتة: «كلهم أبرياء يا إبراهيم، فلماذا تأخذون أنتم هذه الصفة فقط بينما نحن ...؟!»

«ليس ذنب الجميع ما يفعله البعض يا سائد.»

قال سائد بوجه استحال للحجر: «إذن دعنا نعلمه بالطريقة السليمة أن أبناء الشارع والمخطوفين لديهم أهالي أيضًا حُرِقَت قلوبهم على أبناء قام بتقطيعهم فهمي بمشرطه.»

ضغط إبراهيم بيده علي يده الأخرى بغضب مكتوم وهو يقول: «أنا لا أصدق أنك قادر على فعلها.»

مال جانب فمه بتهكم وقال: «نفِّذ الليلة فقط كما أخبرتك، المهم أن تكون الفتاة في قبضتك قبل غيرك.»

عاد إبراهيم لتوجسه وسأله بتشكك: «ماذا تعني بغيري؟!»

قال سائد باقتضاب: «حماد سيستعمل الفتاة كورقة للضغط على فهمي منتقمًا منه فيها.»

قال إبراهيم بغضب: «المجرمين!»

تحرك سائد من أمام النافذة وقال ببرود: «ليس تمامًا، أنا من أدخلت الفكرة في رأسه من الأصل.»

قال إبراهيم بيأس: «أنا لا أفهمك.»

هزَّ رأسه بتفهُّم دون أن ينطق بكلمة أخرى في الأمر، ثم التفت برأسه قبل أن يخرج ليخبره بإصرار: «عمر توقف عن الذهاب إلى مشفى فهمي منذ أيام، وجعلته يختفي تمامًا، إبراهيم لن أخبرك مرة أخرى عمر أفديه بحياتي فهو آخر ما تبقى لي، وأنا لست على استعداد لخسارته.»

كان سائد يراقب خطط حماد المعتادة دون أن ينطق بحرف واحد، لقد توحَّش حماد فأصبح ككلب مسعور ينهش كل مَنْ حوله في محاولة مستميتة لتعويض ماله ومكانه الذي ذهب مع الريح، وهو يستغل الأمر على أكمل وجه كما خطط تمامًا، يمنحه المال ويوسوس له ببعض الحيل يتلاعب به ويوهمه الغرور المناسب ليعتقد أنه هو المخطِّط لكل شيء وهو

مجرد بيدق على طاولته، وجَّه حماد الحديث له عندما قال بغضب: «حاول فهمي إقناعي أكثر من مرة بأنه ليس له علاقة بما فعله علاء.»

أسند سائد قدمه على الحائط واضعًا يده في جيبي بنطاله البسيط، مرتديًا ملابس كئيبة لتمنحه مظهرًا أكثر من إجرامي، قائلًا بجمود: «هذا متوقَّع منه تمامًا، بالتأكيد لن يخبرنا أنه حاول القضاء علينا يا معلم.»

برقت عينا حماد الخبيثتين فأصبحت تشبه عينا ثعبان كُبرى يطيح في البشر بلدغاته السامة، ثم قال: «أعرف هذا، لو خطط علاء من نفسه كيف علم فهمي من الأساس أنه الفاعل؟»

صمت قبل أن يضيف بتهكم وهو ينظر للبرميل الذي قُضِيَ على علاء فيه سالخًا لحمه عن عظامه: «أنا أعرف علاء جيدًا إنسان طامع لا يهمه إلا المال ويخاف حتى من خياله، ولن يستطيع أن يتجرأ ويقتلني إلا إذا أخذ أوامره من سيده.»

أومأ سائد برأسه مطيعًا مصدقًا على كلامه، فأكمل حماد بشرر متطاير: «حسنًا، هذا لا يهم، كلها ساعات وتصبح ابنته تحت يدي وسأذيقها من المرار جرعات ولن أرحمه، وسأحرمه من رؤية كل ما يحدث بنفسه عبر رجالي.»

أخذ سائد نفسًا عميقًا محركًا أنفه يمينًا ويسارًا، فأصبحت ملامحه أكثر خطورة وقسوة عندما قال بشرر مماثل: «لا، الطفلة لي، وأبوها وانتقامك لك.»

فار الدم في عروقه وقال بانفعال: «ما الذي يعنيه هذا؟ هل تخرج عن طوعي وتتحداني؟»

ألقى سائد نظرة سريعة نحو رجال حماد المتحفزين بملامحهم الخطرة، والتي لا تعكس إلا أنهم كما يقولون: «شمامين منتهكين»، ولن يتورعوا في اغتصاب الفتاة، هذا إن لم يفعلها حماد بنفسه كانتقام من فهمي، لم تتحرك منه شعرة واحدة وهو يقول بنفس الصوت المتحدي: «أنا طوع يدي معلمي بكل شيء إلا هذه يا حماد هنا سينتهي تعاملنا معًا.»

تراجع حماد قليلًا عن غضبه، مدركًا أن سائد حصانه الرابح الأخير وهو غير مستعد بعدُ لخسارته، فقال بنفاد صبر: «لماذا؟ هل تريد أن تفعلها بالفتاة بنفسك؟»

سيطر سائد على ملامحه وانفعاله بصعوبة يستحق عليها جائزة في ضبط الانفعال، بينما داخله يكاد أن ينفجر سابًّا إياه بأبشع الألفاظ: «القذر، ألا يملكون تفكيرًا آخر غير هذه القاذورات؟!»

نطق أخيرًا بصوت مكتوم: «لا يهم ما مصيرها معي طالما سترب أنت ورقة، تجعل فهمي بين يديك كالصلصال تشكله كما تهوى.»

شوَّح حماد بيده وقال: «حسنًا، لا يهم الآن ما مصيرها، سنفكر في الأمر لاحقًا طالما ستبيت ليلتها في ضيافتي.»

حرك سائد رأسه يمينًا ويسارًا بنفي، وقال بهدوء مسيطر: «لا أعتقد هذا أيضًا يا معلمي.»

هتف حماد فيه بنزق محذرًا: «هل هو يوم ألغازك واعتراضك؟ احذر يا سائد ولا تخرج عفاريتي.»

تكورت قبضتاه إلى جانبه وهو يكافح رغبة أليمة بضربه وضربه حتى يهده التعب، ربما يخرج فيه وجعه المكتوم، تمكن بصعوبة أن يجيبه بنبرة مكتومة: «أعني أن الفتاة ستؤخذ من بين يدي فهمي، هذا لا جدال فيه ولكنها ستبقى معي أنا.»

جز حماد على أسنانه بلونها الأصفر البشع وقال: «لماذا؟ لقد وعدتك أن شرطك سيكون نافذًا.»

رفع سائد رأسه للأعلى محدقًا في السقف المهترئ، بينما طيف الألم يلون نظراته، يقول بهدوء لا يعبر عن جحيمه: «كما وعدتني بحماية طفلي وامرأتي، وأنا كلي ثقة بكم، وأنظر الآن للنتيجة.»

قديمًا كانت مخلفات البشر ومجرموه ترتدي الأثمال القذرة مثلهم، فيصرخ فينا مظهرهم بوجوب الحيطة والحذر، مؤلم أن نصبح في غابة نعيش مأساة مرعبة بفقد فلذات أكبادنا وقد أصبح الآن حثالة البشر ترتدي أفخم الملابس متخفية خلف وجه الود الزائف، منتهجةً سحر وبراءة الحملان.

لم يحتج الأمر من إبراهيم إلا امرأة أنيقة الملبس جميلة المظهر ولبقة الكلام وبين يديها سيارة من أفخم المركات، اقتربت بلطف من الفتاة ووالدتها، أمام باب النادي الذي علم إبراهيم من خلال مراقبتهم إياهما أنهما يذهبان إليه يوميًّا لتدريب الفتاة، بهدوء استغلت المرأة انشغال الأم في البحث عن مفتاح سيارتها، وهي تقول: «هل تحتاجين لأي مساعدة عزيزتي؟»

ردت زوجة فهمي بحيرة: «مفاتيحي كانت هنا، أنا وضعتها بنفسي داخل الحقيبة.»

ابتسمت السيدة بلطف وقالت بهدوء وسكينة وهي تربِّت على رأس الفتاة التي تتثاءب بتعب: «ربما نسيتِها في الداخل، لقد أخذنا الكلام كثيرًا اليوم.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تنهدت بتعب وهي تقول: «أعتقد هذا، حسنًا سأعود لأبحث عنها بالداخل.»

تململت أسماء بنزق وهي تقول: «لن أعود معكِ ماما سأنتظركِ هنا، أنا لن أستطيع أن أقطع كل تلك المسافة عائدة.»

تبدلت ملامح والدتها بصرامة وهي تخبرها: «تأخر الوقت يا أسماء، بضع خطوات لن تتعب، أنا لن أتركك هنا.»

هزت أسماء رأسها برفض قاطع: «فتدخلت المرأة ذات الملامح العذبة قائلةً وهي تمسد على شعر الفتاة برفق أمومي يسحر أيًّا كان: «اتركيها معي واذهبي أنتِ سريعًا.»

انقبض قلبها للفكرة لبرهة واحدة ثم عادت للطمأنينة التدريجية وهي تتذكر المرأة التي تعرفت عليها منذ أسبوعين مضوا، سيدة لطيفة من نفس طبقتهم الاجتماعية المخملية برقي واضح وود كبير، فقالت ببعض الخجل: «ولكن ربما أعطلكِ».

هزت رأسها نافيةً بلطف وقالت بخفوت: «ليس بيننا هذا الكلام، الأصدقاء لبعضها أليس كذلك؟ هيا أسرعي ولا تضيعي الوقت.»

دقيقة واحدة واختفت زوجة فهمي داخل النادي وخلال برهة كانت أسماء قد اختفت تمامًا بصحبة المرأة اللطيفة الودودة إلى الأبد.

أرجع عمر رأسه للوراء بتعب وهو يغلق حاسبه، مدركًا أنه استغرق الكثير من الوقت على عمل ما كلفه به سائد ومراقبة موقعه الإلكتروني الذي أنشأه منذ عامين مضيا للإيقاع بفهمي متعمدين بذكاء وخطة مدروسة إنشاء الكثير من المواقع الوهمية لأعظم الأطباء حول العالم

ليطمئن فهمي إليهم، الخداع الإلكتروني يصبح أمرًا بسيطًا وسهلًا عندما تتعامل مع أحد عمالقة الغرف الحمراء الإلكترونية، وتقديرًا لأنه واحد منهم لم يحاول أحدهم نقض الاتفاق معه، ربما خسروا الكثير من المال ولكن أمام ما يسعيا إليه كل مال العالم يصبح لا شيء، فهمي أصبح خطرًا ويتعامل ببحث جنوني يحاول أن يقتحم موقعهم كما فهم، ولكن لا مشكلة هو له بالمرصاد.

صوت الضجيج الذي أتى من خارج الغرفة نبَّهه وجعل كل حواسه تستفيق بتصلب، متذكرًا كمَّ الألم الذي يعانيه من جفاء امرأته، لقد عاد إلى منزله ليلة جدالهم الأخير محطَّم الروح خائفًا مذعورًا من أمر لم يحسب حسابه، معتقدًا أنها ذهبت لصفية تحتمي فيها كما كانت تفعل خلال الفترة الماضية، ولكنه صُدِمَ بوجودها، وهي تخبره بصرامة أنها لم تهرب من مشاكلها يومًا، مؤكدة ومردِّدة للمرة التي لم يعد يدركها أنها أكثر من قادرة على المواجهة وعدم الخضوع لمطالبه، وهو لم يجادل معها، اكتفى بإغلاق باب منزلهم على كليهما، متابعًا عمله من خلف الحاسوب، ملتزمًا بأمر سائد الصارم باختفائه، من الجيد أن هذه الشقة في منطقة بعيدة وعادية رغم رقيها فلا تلفت نظر أحد إليها، كما كانا من الذكاء ألا يسجل أحدهما أي شيء باسمه إلا مقر الشركة.

تحرك عمر نحو المطبخ، ووجدها تعمل بآلية، تُحضر الطعام وتقوم بكل شئونه بصمت، ثم تعتكف بعيدًا عنه في غرفة خاصة.

«العشاء جاهز»، قالتها رابحة بأَنَفَة عجيبة جعلت ابتسامة حزينة تسكن قلبه، تقدم يجلس على الطاولة وهو يقول بهدوء: «المرأة المطيعة بهذا الشكل لا تهجر زوجها في الفراش.»

مطَّت شفتيها وقالت ببرود: «ومَنْ أخبرك أني مطيعة، أنا مخادعة كاذبة كما ذكرت.»

راقبها وهي تضع بعض الأطباق أمامه، ثم جلست على المقعد المقابل بهدوء بينما هو يحترق في تنازعه، يموت ألف مرة لمجرد أنها تحمل قطعة منه معرضة لخطر انتقام الأفاعي الذي يلعب معهم بالنار، يكاد يموت رُعبًا كل دقيقة عند تخيله إياها وطفله بين يدي من لا يرحم: «لِمَ لا تفهميني؟»

أغمضت عينيها لبرهة وقالت بتحشرج مَنْ توشك على بكاء قد كتمته في صدرها حتى أصبح عذابها لا يُحتمل: «ولِمَ لا تفهمني أنت؟! كما قلت سابقًا أنا مهددة بالخطر على كل حال، فَما الفارق بوجود الطفل أو عدمه؟!»

قال سريعًا: «وهل هذا مبرر لأزيد من خلفي الضحايا وأترك جزءًا مني يعاني دون أن أكون قادرًا على مساعدته رُغمًا عني؟»

كورت قبضتها وخبطت على المائدة بقوة صارخةً فيه: «هل تعني أن كل مشكلتك ألا تعاني قطعتك تلك؟ وماذا عني سيد عمر؟»

«تعلمين جيدًا أني أحببتك، وأني أفعل المستحيل حتى لا تتعذبين من بعدي.»

قالت بمنطقية: «اسمع يا عمر، أنت لم تلتقيني في أحد الأماكن الفخمة، بل أتيت إليك أطالب بقوة بحقي في وظيفة جيدة، الخوف لم يعرف طريقه لي أبدًا، حاربت الناس والمجتمع الذي لم يبالِ حتى بفتاة تكافح للقمة العيش، تعمل لتسدَّ حاجة أمها المريضة وأخيها المراهق، كنت الرجل والمرأة منذ وفاة أبي ولم يقدِّم لي أحد يومًا يد مساعدة أو يشفق على ظروفي، ولم يهزمني أحدهم يومًا أو أنصاع لأمره، ولكن معك

اتبعت قلبي؛ لأني أحببتك بصدق، رأيت فيك الحياة، صممت أن آخذ حقي منك وأنتشلك من ضياعك وجنونك وسوداوية أفكارك، وتأتي بعد كل هذا تريد سرقة الأمل الذي يسكن أحشائي، أنت واهم يا عمر إن اعتقدت أني سأُهْزَم بسهولة.»

كان وجهه صلبًا أشبه بلوح من الرخام وهي تناظره بقوة، عكس عينيها الجميلتين الدافئتين والتي كانت تناشده رغمًا عنها الاحتواء والتفهم والأمل، رغم تحديها الذي نطقته للتو، أخفض رأسه يخفي عنها ألمه وذُعره، يحجب ما عاناه من وجع وقلق وشعور بالفقد بعد أن تركته واختفت غاضبة ومهددة بتركه، وكأن روحًا جديدة تلبَّستها روح شرسة محاربة تنفض عنها وهن عشقه، فبادرته قائلة بإصرار: «ما هو لي يبقى دائمًا لي أدافع عنه بكل ما أملك، أضحي بكل شيء مقابل سلامته.»

لم يرفع وجهه عندما همس دون أن يفكر مرددًا: «حتى إن كنت أنا المقابل!»

اهتزت يديها بالتتابع مع نبضات قلبها التي تصارعت بوجل فأغلقت جفنيها بقوة للحظات لتنساب منهما دموع غزيرة أخيرًا عندما قالت بتهدج: «نعم، أخبرتك أمام الطبيبة فلا تضغط عليَّ بتكرار سؤالك مرة أخرى؛ لأنك مهما فعلت لن أقتل قطعة منك يا عمر.»

ساد الصمت للحظات أخرى، ثم ما لبث أن قال بصوت عميق وأنفاسه تعاود الاهتزاز: «هذا غير منصف منكِ، أنتِ خدعتِني وحصلتِ عليه بالحيلة.»

تهكمت قائلةً: «هذا على أساس أني منحتكِ مشروبًا أصفر وقمت باغتصابكِ، أذكر أن كل ما حدث كان بإرادتكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان على كلماتها أن تجعله يُجَنُّ مرة أخرى وتجعله يهذي وينقضُّ على ما حوله مثلما فعل معها من قبل، إلا أن صوتها المتألم ومظهرها الضعيف رغم القوة التي سكنتها من جديد جعلته يبتسم وهو يرفع وجهه أخيرًا يتأملها وقال بهدوء: «لا، ربما أنا مَنْ غررت بكِ واستغللت سذاجتكِ، ولكن هل تشعرين أنكِ منصفة معه؟ إن فقدتني ماذا قد تخبرينه؟»

لم تفتح عينيها لتواجهه، لم تستطع أن ترى ملامحه المصرة على مصيره وكأنها داخل أعماقها، اكتفت من تأكيده على فقده، نطقت أخيرًا ببساطة متهدجة: «سأخبره وقتها أنك لم تكن أنانيًّا بما يكفي لجعلي أحصل عليه، سأزرع في عقله أن والده رغم كل مخاوفه المريضة امتلك من الشجاعة ما يكفي ليمنحني قطعة منه أعيش على ذكراه وأتشمم رائحته فيها.»

قال بصوت مكتوم وهو يشيح بوجهه عنها كأنه يقاوم النظر إليها، فيضعف قلبه نحوها كعادته: «أنتِ تطلبين ما يفوق تحملي.»

جاوبته دون تفكير: «وأنت تطالب بنزع تحمُّلي نفسه، كأنك تمد يدك وتخلع قلبي من مكانه وترميه في الأرض لتدعسه بحذائك.»

قال بخشونة معاندة رغم انهيار كل حصونه: «إذًا أنتِ مُصرة على جنونكِ، تَعَقَّلي يا رابحة واجعلينا نتخلص منه هذا لمصلحتكما معًا.»

قالت سريعًا مكررة بصوت قاطع باتر كحد السيف: «بخروج روحي، سأقتل قطعة منك.»

هزَّ رأسه برفض مستدركًا عواقب زلة روحه، محاربًا نبضات قلبه الثائرة، يجاهد ألَّا يتوجه إليها يضمها بين ذراعيه معتذرًا ومطمئنًا، فاستطردت هي بوجع: «لا تكن أنانيًّا معي للنهاية، أريد هذا الأمل الذي ينمو بين أحشائي، أريد أن أكون أمًّا، هذا حقي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لحظات طويلة، لم يتكلم أيٌّ منهما فقط اكتفيا بنظراتهما التي تلاقت بعتاب وتوسل وتحدٍّ مُصر، انهارت آخر حصونه عندما أطلقت شهقة قهر وهي تكرر قولها بإصرار: «إن كنت تُصر على المغادرة والتضحية بحبي لك، إذن اترك لي جزءًا أتشمم فيه عطرك، جزءًا أضمه لأتذكر عشقك، أنت غير عادل يا ثعلب.»

افترَّ فمه عن شبه ابتسامة حزينة قبل أن يقف من مقعده متوجهًا إليها يزيح مقعدها بعيدًا عن المائدة لتواجهه، ومال نحوها، اتكأ بكفيه على جانبيها محاوطها وقال بصوت خفيض: «لم يخبروكِ أبدًا عن غدر الثعالب، عن خداعهم وحياكاتهم المؤامرات ليصلوا لما يريدون دون أن يكشفهم أحد؟»

رفعت إليه عينين متوسعتين دافئتين وهمست: «أخبروني بهذا، كما أخبروني أن الثعلب أب جيد يحمي امرأته وطفله حتى يشتد عوده.»

همس مؤكدًا: «يحميه بنفسه».

ابتسم أخيرًا لعينيها تلك النظرة الحالمة التي تجعلها أسيرة لعشقه، فبادلته الابتسامة من بين دموع المرارة وهي تقول بإصرار: «كما أخبروني أيضًا أنه يمكن ترويضه والعيش معه إن منحته الأمان والدفء المناسب ولن يغدر بك يومًا.»

تنهَّد دون أن تُمحى ابتسامته التي تحولت لتعاطف وهو يرفع كفه نحو وجهها يمسح دمعها برقة وقال: «هل تعتقدين أنه سيكون طفلًا جيدًا لن يعذبكِ كوالده؟»

هدر قلبها بصخب داخل أضلعها، مدركةً موافقته الضمنية وتنازله عن جنونه أخيرًا، فقالت بتوسل يحمل بين طياته الأمل: «إن رأى والده كيف يعامل أمه كأميرة لن يفعلها، سيكون هادئًا مطيعًا و...»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أمسك ذقنها بطرف أصابعه وانخفض برأسه أمام شفتيها وقال مقاطعًا: «أنا كنت مشاغبًا جدًّا واكتسبت الكثير من الأعداء، بالتأكيد لن يشبهني فيما تطلبين، ماذا عنكِ؟»

أشرقت عيناها وهزت رأسها بين أنامله قائلةً بخفوت: «كنت مطيعة أتحمل المسئولية منذ نعومة أظافري.»

لامس طرف شفتيها بفمه وهمس باختناق: «جيد، إذًا أتوقع «هجرسًا» قويًّا يتحمل تنشئتي إياه.»

ازداد خفقان قلبها المرتعش وقالت بصوت مختنق مترجٍّ: «حقًّا، ستفعل هذا معه لن تتركنا كما تنتوي؟»

اشتبكت شفتاه مع شفتيها أخيرًا وضمها بين ذراعيه بقوة مغمض العينين، وصوت يأتي من بئر سحيق داخل ظلمات نفسه ينهاه عن أمل ضعيف، بل معدم قد يمنحه لها، مع كل ضربة ألم خفية تعصف بأنحاء جسده متسللة بمرارة داخل روحه كان يطلق آهة خافتة من بين شفتيها مرافقة لأنين روحها بين ذراعيه، انخفض جالسًا على ركبتيه أمامها، رفع طرف منامتها ليكشف بشرة بطنها مباشرةً، أحنى رأسه مرة أخرى وطبع قُبْلَة طويلة على بطنها المسطح وقال بعاطفة جياشة خنقته، متجنبًا وعده إياها: «هل سترهقيني بدلالكِ عندما تنتفخين مثل كُرَة «شراب» رديئة الصنع والمظهر؟»

تهدجت وهي تخبره بذات الاختناق: «نعم، وأنت تهرب مِن وجهي تشتكيني لكل من يقابلك بأني أصبحت عصبية كريهة نزقة لا أُطَاق.»

لم يكن عمر في تلك اللحظة بالقوة الكافية ليخفِّف عنها ليمنعها من البكاء لينهاها عن جذبه لحياة سليمة ومحاربته، فجاراها بالقول:

«وتوقظيني بعد منتصف الليل تطالبين بأشياء ليس وقتها أو رائحتها بشعة، وأهرول باحثًا عنها وأنا أرتدي ملابس النوم فقط.»

رباه، الألم لا يُحْتمل ورغمًا عن هذا ضمَّت رأسه بقوة نحو بشرتها العارية تخبره بعجز: «أنت لا ترتدي أي ملابس عند نومك؛ لذا على الأرجح ستخرج عاريًا، وسيقبضون عليك متهمينك بالجنون أو بفعل فاضح في الطريق العام.»

رفع وجهه ينظر لوجهها المنخفض دون أن يترك إحاطته لجسدها بقوة وقال من بين دقات قلبه التي كانت تؤلمه: «إذن ترفَّقي بي، ولا تفعلينها، لن أستطيع أن أفتقد دفء ذراعيكِ.»

حاوطت وجهه بكفيها المرتعشتين ودمع عينيها الساخن يسقط مباشرةً على وجهه، شعرت رابحة بألم حارق في أحشائها وهي تهمس باستسلام: «سأفعل، أعدك ألَّا أعذبك، لن أكون زوجة خانقة، سأمحنك كل ما تريده مضاعفًا، ولكن فقط لا تتركني يا عمر أرجوك، عاند الدنيا مرة واحدة كن أنانيًّا كما تدعوني، واغتصب منها حقك رغمًا عنها.»

شعر عمر بطعم صدأ في حلقه، فضمها إليه أقرب رافعًا يده ليجعلها تنخفض لتسند جبهتها على جبهته، وقال في لحظة ضعف: «أعدكِ سأفعل ما بوسعي لتأمينكِ معه، ولكن لن أستطيع أبدًا أن أبيع سائد في منتصف الطريق، حتى ولو كان من أجل ذلك العدل في حياة معكِ بعد ما قاسيته.»

لم تستطع أن تخبره أكثر أو تجادله كي تمنعه، فانهارت بين يديه، هبطت من المقعد لتصبح بين ذراعيه في لحظة تتعلق بعنقه بقوة دافنةً رأسها بين ضلوعه هامسةً بتعب: «أنا أحبك وسأظل أحبك، وكل ما تقوله لن ينزع مني الأمل يومًا بأن يولد ابني بين ذراعيك.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رفع وجهها بعيدًا عن صدره دافنًا أصابعه بين طيات شعرها من الجانبين ليسمح لشفتيه أن تلتقط فمها برقة متحدثًا من خلال قبلاته المهادنة: «أحبي نفسكِ وقلبكِ، وثقي بهما وستجديني دائمًا بينهم، حبكِ هو الحقيقة الوحيدة التي عرفتها في هذه الدنيا، حبكِ هو تاريخي الكامل يا أميرة عمر.»

سمح سائد لنفسه بالدخول إلى غرفتها ككل ليلة، منحها نظرة صامتة متذكرًا تصميمه لنقلها للمنزل مع توفير كل الرعاية اللازمة لها فور أن علم بإمكانية نقلها وإن كانت منحته الطبيبة موافقتها على مضض مؤكدةً على ضرورة تجنبها لأي انفعال، توجه إلى حمام الغرفة ليأخذ حمامًا سريعًا يزيل عنه إرهاق يومه.

وتحت الماء المنساب على جسده المتشنج سمح لأفكاره أن تجرفه معها، مُقرًّا ومعترفًا لنفسه بالحقيقة المُرَّة: «دُجى تفرق معه، بل إنها أصبحت تعصف بداخله أشياء لا يستطيع حتى أن يفسرها لنفسه، فقط يشعر بالتخبط بالألم بالذنب الكبير نحو حبيبته الأولى، كيف يخون ذكراها مع ابنة قاتلها؟! كبح ارتجاف جسده الضخم بينما يخبط رأسه بالحائط في رتابة: «بل كيف أستطيع نسيان أنكِ قتلتِ ابني يا دُجى بعد أن أوهمتِني بتمسككِ به أكثر من حياتك نفسها؟!»

أغلق جفنيه بقوة والنار تأكل أحشاءه، تجبره عروقه على الانتفاض محطمًا، أن يذوق من نفس كأس الفقد مرتين، كم قاتل شعوره بأن يعرف الآن كم كانت تطوق روحه لذلك الطفل الذي منعه غضبه الأعمى أن يترفق بأمه، يجتاحه الإحساس بالخيانة والغدر والفجيعة، حتى أصبح لا يعرف كيف يستمر في خططه وانتقامه كأن شيئًا لم يحدث بينما كل شيء

بداخله يحترق بحمم القهر؟ ورغم كل هذا هو لا يلومها مدركًا جيدًا أنه السبب الرئيس في قتلها طفلهما.

أغلق الماء وخرج من كبينة الاستحمام يجذب منشفة كبيرة ليحيط بها جسده، بعد عدة دقائق ارتدى ملابس بسيطة، وبهدوء تسلل للنوم بجانبها ككل ليلة مراقبًا اختلاجات وجهها الذي يتعاقب عليه الألم مدركًا جيدًا أنها مدركة لكل ما يحدث وتدَّعي النوم عندما قال بهدوء: «حالة الصمت لن تحل شيئًا ولن تعالج ما تشعرين به.»

لم تفتح عينيها مدركة لصوته الذي يتسلل إليها كل ليلة متحملة إياه بعذاب، ولكنها ببساطة لم تتقبل اقترابه منها، لولا وهن جسدها المتخاذل لكانت غرست فيه سكينها هذه المرة بقوة وقاتلته حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يرفَّ لها جفن واحد.

بشفاه مرتعشة أخبرته: «اخرج من هنا، رائحتك تثير غثياني.»

قال سائد بصوت خشن من فرط الألم: «من المفترض أن تشعري بأكثر من هذا، ورغم شعوركِ أنا لن أستطيع تركك.»

الصمت أعقب كلماته، وجوده كثير على تحمُّلها قتل أمومتها دون رحمة عندما تتذكر أنها عانت لأشهر من وهم، سمحت لطفلها بالموت من أجل ذنب لم يحدث، فتحت جفنيها تدريجيًّا بثقل، فصعقته النظرة الخاوية فيهما وكان رماد عينيها قد تحول لتراب عديم اللون خالٍ من الروح فاقدٍ بريق كل شيء، سألته وأسنانها تصطك ببعضها: «أخبرني فقط أن تلك الورقة غير حقيقية بأني لست زوجتك.»

اعتدل سائد في مكانه جالسًا أمامها مجبرها أن تستقيم من نومها وهو يجيبها بصوت أجش: «الصفعة المُرة لكلينا أنها حقيقية، أنتِ زوجتي.»

كان جسدها يرتعش بتتابع وهي تستفسر: «كيف وأنت قُلت لم يحدث؟! وأنا صدقتك لأن ذلك المأذون الشرعي الذي اتفقنا معه في الشهر العقاري لم يكن نفسه.»

قال سائد وهو يشعر بصدره يضيق: «بعد أن أتممت معكِ الإجراءات المطلوبة، ذهبت إليهم وطلبت تغييره ببعض المال.»

هزت رأسها برفض وقالت من بين أنفاسها المتهدجة: «كيف وأنا لم أستلم أي عقد للزواج؟!»

قال وهو يعقد أصابعه التي ترتجف مثلها: «وأنتِ متى خرجتِ من هنا؟ أنتِ كنتِ غارقة في الشعور بالذنب وجلد الذات، استسلمتِ للأمر دون مقاومة، فمن أين لكِ أن تعرفين؟!»

أي ألم كانت تعانيه وأي عذاب كانت تراه زوجته بينما يُشْعرها بالحضيض، يغرقها بشعور الحرام، يجلدها بخطايا لم ترتكبها، في محاولة أخيرة لرفض تصديق حقيقة زواجهم التي رأت قالت: «وكيف لي أن أثق بك؟ ولماذا لا تكون هذه خدعة أخرى؟»

أخذ نفسًا عميقًا كي يرغم أعصابه على أن تهدأ، كشف جميع أوراقه وأحرق كل سفنه كما أخبرها في ليلتهم المشؤومة، ثم قال: «وما الذي يجبرني أن أخبركِ أنك زوجة، وأنا أحصل منك بالفعل على كل ما أريده دون أن تعرفي بحقيقة زواجي منكِ.»

صمت لبرهة قبل أن يضيف بصوت مكتوم: «أنا تزوجتكِ شرعيًا، وكنت أحاول توثيق زواجنا في السفارة بعد معرفتي بحملكِ، حتى أؤمِّن لكِ هروبًا مناسبًا بالطفل في حال حدوث أي شيء خارج عن إرادتي، ولكنهم أرادوا مقابلتك، فكان يجب أن تعرفي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وكأن ما قاله صبَّ الزيت على النار بالفعل، استفزها وأحرقها داخليًّا، حطمها مسببًا لها صدمة ذاتية متأخرة، وفى لحظات زاد جسدها ارتجافًا بين يديه، وصوتها أخذ في الهستيرية، تصرخ بجنون هاتفةً بعَبَرَات غامضة لم يفهم منها إلا قولها: «أيها السافل عديم الأخلاق».

كانت تتألم عندما رفعت يديها تسدُّ أذنيها وهي ترتعد، علم سائد على الفور أنها دخلت في حالة الانهيار الذي كانت تنتظرها الطبيبة منها منذ ليلة خسارتها الجنين، لم يفكر مرتين وهو يكبل جسدها الذي أخذ في التخبط مع استمرار هذيانها الصارخ.

ما حدث خلال دقائق كان جنونيًّا معها، يداها تقاومه صوتها المنحور يحرقه، جسدها ينتفض بعزيمة تحاول إزاحته، فلم يجد طريقة إلا أن يرغمها على التمدد واضعًا ساقيها بين وركيه، ممسكًا يداها في قبضة واحدة ورفعهم للأعلى.

لم تكن في حالة تسمح لها بتبين ما يفعله أو أن توقف يده التي أزاحت بنطال منامتها، كاشفًا عن فخذها من الأعلى شاكرًا الحظ الذي جعله يجهز الحقنة مسبقًا ككل ليلة مُنتظرًا انهيارها، مدَّ يده وهو يتحامل على نفسه من صراخها الذي صَمَّ أُذنيه، قرَّب الإبرة من فمه ونزع الغطاء بأسنانه وتأكد من تفريغها من الهواء بأنفاس متلاحقة عنيفة، ثم بثبات وضعها بخط عمودى أعلى فخذها، لم تشعر حتى بألم الإبرة التي غُرِسَت فيها.

أخرجها أخيرًا منها وألقاها بعيدًا قبل أن يعود يضم جسدها البارد بقوة مدركًا أنها ستستغرق وقتًا حتى يأخذ المهدئ مفعوله ويرسلها للنوم، لم يتحرك قيد أنملة مِن تكبيل جسدها بجسده حتى عندما قرَّب فمه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

جنب أذنها يهمس بصوت رقيق حنون غير صوته: «اهدئي، كل شيء سيكون بخير.»

هزت رأسها بالنفي وهي تقول بهوس: «حقير تزوجتني وأشعرتني بالرخص، لماذا تزوجتني من الأساس؟ كنت لأتخلص منك بسهولة الآن كما تخلصت من نطفتك القذرة.»

أغمض عينيه مبتلعًا جنونها مدركًا أنها تتحدث بلسان صدمتها: «لم أكن أنتوي الزواج منكِ، ولكني لم أستطع عندما وُضِعْتُ في اختبار التنفيذ.»

استمر تخبطها نحوه لدقائق أخرى قبل أن يسيطر المهدئ أخيرًا على جسدها الذي ارتخى تحته فاستطاع أن يلفتها مستندًا على كفيه حتى يخفف ضغط جسده عنها، ابتلع ريقه وهو يقول باعتراف مرير مبتلعًا غصته الأصعب عندما قال لعينيها التي تتوه في بئر الهروب من واقعها: «لم أستطع، من أجلكِ أنتِ بعض ما حدث بيننا كان حقيقيًّا جدًّا، جزء صغير بداخلي كان يريدكِ زوجة تخفف عني بعض جروحي.»

قالت بتيه من بين شفتيها المرتعشة: «مبارك لك اعترافك؛ لأني لا أحمل لك ذرة واحدة لرحمة أو تسامح، أنا أكرهك يا سائد والفضل كله لك.»

وضع جبهته على جبهتها مواجهًا رماد عينيها مباشرةً وقال: «إذن لقد قدمت لكِ شيئًا واحدًا جيدًا لتمحو أثري بسهولة من حياتكِ يا دُجى، وكأني كنت مَجرد سراب، صورة مهزوزة ومشوهة لشبح انتقام مررت عبركِ.»

قبل أن تغلق عينيها مباشرةً رفعت يدها بصعوبة تشير نحو قلبها وهي تقول باختناق: «مررت من هنا، تاركًا في القلب غصة ستبقى به دائمًا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الغُصَّة الأخيرة

جدالهم وصلها كاملًا من خارج الغرفة، فتحاملت على جسدها المرهق الذي لم يسترد عافيته بعدُ، وقفت من الفراش فضربها الدوار للحظات فجلست على طرف الفراش مغمضة العينين تلتقط أنفاسها وتستعيد روحًا جديدة قوية، لتصمد في وجهه لتدافع عن روح أخرى لم يكن ذنبها في هذه الحياة إلا اسم رجل أغوى روحه شيطان لعين، فعقد صفقته في لحظة ضعف ممنيًا نفسه بالاسم الكبير والمال الوفير، ولكنه لم يدرك أنه خسر كل شيء، لن تعوضه كل أمواله أو سلطته يومًا.

جمعت قوتها بعزم لتقف أخيرًا على قدميها، توجهت للخزانة تجلب شيئًا عمليًّا محتشمًا تستر به نفسها بدل ملابس النوم، فالأصوات الخارجية مؤكدًا تعني أن عمر وإبراهيم معه، يبدو أن المظلوم الظالم أصبح أكثر شراسة، أكثر جنونًا وتسلطًا، لكنها لن تستطيع أن تصمت حتى وهي تعلم أنها لا تملك سُلطة عليه لتجعله يأخذ دفاعها طَي الحسبان.

فتحت باب الغرفة وتقدمت بهدوء إلى مكتبه وهمست مباشرةً بصوت متعب: «ألا يكفيك ضحايا يا سائد؟ هل زوجتك وابنك سيكونان راضيين عمَّا تفعله بمن يماثلهم ضعفًا وقلة حيلة؟»

تحولت الوجوه الثلاثة المتناحرة نحوها، ما بين متفاجئ ومصدوم، وما بين متجهم رغم ترحيبه بالتدخل، همس عمر راضيًا: «ربما رؤيته إياك في تلك اللحظة يجعله يبتعد عمًّا ينتويه.»

أغلقت جفنيها للحظات أخرى تحاول إعادة ثباتها الانفعالي متجنبةً تعليق عمر ومبتعدة تمامًا عن تلك الجمرتين اللتين ترمقانها بمشاعر متأججة مختلطة لم تعد تفهمها، عادت تكمل حديثها بخفوت: «هناك شعرة تفصل بين الظالم والمظلوم، بين الجاني والمجني عليه وأنت طالك من الأذى ما لن يتحمله بشر، ولكن بتجنيك على أرواح بريئة فأنت ستضيع كل حق لك وستتحول لشيطان لا يرحم، الانتقام سلاح أحمق وجلاده أعمى.»

وكأن الكون توقَّف لثوان فلم يعد فيه إلا هي، نظر إليها في وقفتها الهشة تلك بصمت يستوعب كل كلمة منها بينما لا يراها إلا أقوى، أقوى من أي يوم مرَّ بحياتها المُهينة التي رأتها على يد فهمي ويده من بعده، وكأنها تستعيد ببطء تلك القوة والعزم وروح المحاربة التي أجزم بوجودها داخلها من قبلُ، نطق أخيرًا ليخبرها بصوته المهيب: «الانتقام وسيلة الجبناء، وأنا لم أكن جبانًا يومًا يا دُجى.»

فتحت عينيها تنظر له نظرة عميقة عنيفة تسللت إلى أعماقه فجعلته يشعر بشيء آلمه في صدره، بينما تقول بصوت أَسَرَه الحزن: «إذن أخبرني بماذا تسمي ما فعلته معي وتريد تكرار فعله مع أسماء؟!»

وكأنها داست على الزر الخطأ وولجت من نافذة روحها إلى روحه لتكشفه أمامها وتجعله عرضة للخطر، استدار سريعًا يبتعد عن عيون ثلاثتهم غير مستعد بعدُ للإجابة، غير قادر على الاعتراف بالحقيقة المُرَّة يومًا، لقد كان يحاربها، يحاول قتل كل نبضة لعينة تتسلل منها إليه،

يحاول نكران سلطة ابنة غسان على قلبه وروحه بمجرد النظر لرماد عينيها المحترق، لقد أحبها.

اهتز جسده الضخم أمام النافذة بينما تقبضت يداه بقوة جانبه وتفضَّل بالقول المتسلط أخيرًا: «أسماء هدف مختلف ووسيلة فعالة لشيء داخل نفسي فلا تقارني قصتكِ معي بها.»

برق رماد عينيها بحدة، واتخذت نبراتها سخرية مريرة: «كما كانت زوجتك شيئًا آخر لن تصل امرأة لمرتبة المقارنة بها يومًا.»

تنحنح إبراهيم مقاطعًا يقول بخفوت: «يمكننا أن نمحنكِ بعض الوقت وننتظر أنا وعمر خارجًا.»

عندها فقط تَعَالَى صوت دجوى وهي تقول بعينين محتنقتين رغم القوة التي ومضت فيهما وكأنها عنقاء احترقت من المرض وعادت لتنهض من جديد من بين رمادها قوية عنيفة ثابتة: «إن اقتربت من ابنة فهمي بأي طريقة يا سائد سأقتلك بنفسي، أسماء بيني وبينك.»

التفت إليها بعينين مهتاجتين بينما يهدر فيها بصوت مرعب: «هل هذا تهديد؟»

لم يحاول أن يهينها ويهاجمها كالسابق، أن يعيدها لمكانتها الحقيقة التي ظن وتوهم أنها لا تمثل شيئًا في حياته.

رغم اضطرابها لكنها قالت بنبرة بَدَتْ خشنة واثقة: «نعم، دم طفلي لم يجف بعدُ، لن أسمح لك بقتل طفلة أخرى بغير حق.»

يكفيها ذكر طفله ليعود الألم يضرب على أوتاره الحزينة، يضرب قلبه الذي انتعش على يديها بخنجر حاد سام، وليته يكون قاتلًا ليعود إلى جليده، بل جعله يحترق بتوهج لم يعرفه إلا على يديها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أكملت بعزيمة: «أنت لن تلوث يدك بمزيد من دماء الأبرياء، أسماء أعرفها منذ أن وُلِدَت قبل أن ينقلب الكلب على أبي، أعرف أمها، أعرفهم جميعًا وأنا لن أسمح لك بدماء أخرى إلا على جثتي يا سائد.»

ضغط على أسنانه بقوة وهو يغمض عينيه، لدرجة أنهم سمعوا صوت صرير تلك الأسنان، حينما قال بعينين غاضبتين: «أنا لست مصاص دماء ولا تاجر أعضاء لتظني بي أني قد أفعل بها مثلما يفعل هو.»

شعرت دجوى بغُصَّة تؤلم حلقها بشدة والدوار يعود يضرب رأسها، اهتزت وقفتها لتمد يدها سريعًا تستند على إطار الباب فسارع عمر بمد يديه لتسند بيدها الأخرى عليه بصمت، بينما تقول: «أنت انتقامك متطرف يا سائد، ليته يحمل رائحة الموت، مؤكد سيكون أهون من دحر الكرامة الذي يتبعه.»

لم تكد تكمل جملتها إلا وشعرت بجسدها يتهاوى بين ذراعين صلبتين دافئتين بشعور لم يطرق قلبها معه من قبل، انسحب عمر وإبراهيم مغادرين، بينما هي لم تُبْدِ أي ردة فعل وهو يهمس متجنبًا حقيقة ما قالته: «لا يستحق فهمي أو ابنته أن ترهقي نفسكِ من أجلهما.»

حاولت أن تتملص من محاوطته إياها بعنف، ولكنه لم يمنحها حتى الفرصة وهو يريح ظهرها على صدره فتجنبت ما يفعله وكأنه لا شيء وكأنه لا يجعل كل عضلة في جسدها تصرخ استجابة، تحارب بجوع لإشباع ما حُرِمَت منه لخمسة أعوام ذليلة، سيطرت برباطة جأش على حربها الطاحنة حتى وهو يتراجع بها إلى أريكة واسعة ليجلس بها دون أن يفلتها، ارتعاش جسده المتوتر تحتها منحها الرضى القليل لأنوثتها المهدرة، نطقت أخيرًا بجفاء مكررة: «إنسانيتي استحقت، ابتعد عن

الطفلة افعل ما تريد بفهمي، عذِّبْه وانزع أحشائه بيديك حتى، لن أوقفك ولكن دماء أبرياء لا يا سائد يكفيك انتقام.»

مضت بضع دقائق قبل أن يمد يده يمسك بذقنها مديرًا وجهها إليه وقال بجحيمه المعتاد: «ليس انتقامًا».

سألته: «ما الذي تفعله إذن؟»

أجاب بصوت قوي قاطع: «عدل».

قالت بصوت قاتم وهي تنظر إلى عينيه بغير تنازل: «بل تَجنٍّ بغير حق، سيحرقك ولن تنال منه الراحة يومًا، الانتقام نار تشتعل لتأكلك أنت عقب خرابها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شدد على خصرها بذراعه وأنامله ترتفع يدفنها في خصلات شعرها القصيرة وهو يقول بقوة: يقولون: إن الثأر طبق من الأفضل أن يقدَّم باردًا، وأخبرونا أيضًا أن الانتقام ميزان الأعمى، ولكن الاعتراف بالثأر هو الإقرار بالألم، ودائمًا الألم يحتاج لعلاج ليسكنه، وفي غابتنا علاجي هو الانتقام الفعَّال لكل آلامي، وانا أتألم يا دجى، لديَّ ثأر لن ينطفئ إلا عندما أذيقهم جميعًا من كأس جحيمي.»

ابتلعت ريقها بتوتر ولكن رمادها المتأجج لم يطله اهتزازها لحظة وهي تقول بهدوء: «إذن علاج ثأري أنا أيضًا هو الانتقام منك وعدم غفراني لك يومًا.»

ابتسم بسخرية عصبية لم تكن موجَّهة إليها بل لنفسه عندما قال بخشونة: «إن استطعتِ لن أمنعكِ أن تُطفئي نيران قلبكِ.»

تحجَّرت الدموع في عينيها رافضة أن تذرفها أمامه مرة أخرى بينما تهمس بصوت ممزق فضح آلام صدرها: «لا تلوث يدك بالدماء يا سائد، يكفيك تحطيم الأبرياء.»

همس بتثاقل: «وإن كنت لوثتها مسبقًا بدمكِ ودم طفلي».

اهتزت عضلة في فمها بينما تردِّد بتهكم: «طفلك!»

لم يردَّ فأكملت بهدوء عكس عاصفتها التي تعاني: «لن يسامحك الله عني وعنه؛ لأنني أنا لن أغفر لك يومًا، سيظل دم طفلي مادة صلبة قوية سأستعين بها يومًا وراء يوم لأشيد بيننا سدًّا لن ينهار يومًا، مذكرةً نفسي أنك قاتله وقاتلي.»

أخذ نفسًا طويلًا جعل جسدها الملتصق فيه يستشعر تصلبه، قبل أن يزفره أخيرًا وهو يقول بصوت أجش:

«إن كان في العمر بقية لن أتوانى عن العودة ومحاربتك لأهدمه حتى يصبح بحيرات دافئة لم ولن يغوص فيها غيري.»

شهقت دون إرادة وهي تقول: «افعل شيئًا جيدًا أخيرًا ولا تؤذِ الطفلة.»

دفع رأسها ليصبح وجهها على بُعد إنش واحد من وجهه وقال بخفوت: «يجب أن يذوق فهمي من نفس كأسه، ليتني أستطيع مقاومة إغراء رؤيته يتعذب ببطء يُنثر أشلاءً تحت قدميَّ يتوسلني الرحمة التي لن أمنحه إياها.»

عندما هبطت دمعة وحيدة أخيرًا من عينيها همس بألم وكأنه يراضيها: «إكرامًا لك، لن أقربها بسوء، لن آخذ بريئة أخرى بذنب غيرها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شعرت دجوى بقرصة لوعة في قلبها الذي تمرد، أخفضت جفنيها لتهرب بعيدًا عنه وهي تقول بتهدج: «وإكرامًا لي لا تموت، نفِّذ ما تريده وعُدّ من مكان ما أتيت».

«هل لي أن أضمكِ؟»

توسعت عيناها المتألمتين للحظات وهمست: «أنا كلي بين ذراعيك بالفعل.»

أخبرها بصوت أجش: «قلبكِ ليس بينهما، أريد أن أحتضنكِ بطريقتكِ الأمومية.»

أبعدت رأسها عنه وقالت: «لا، لا يمكنك هذا لقد انتهى كل شيء هنا يا سائد، فقط أوفِ بوعدك الأخير، وادعُ الله أن يغفر خطاياك؛ لأني لن أفعل أبدًا.»

كانت عينا حماد تلمع بظفر وهو يقلِّب الصور المتعددة في الهاتف، إلا أنه قال بعدم رضا: «لو كنت أتيت بها وطاوعت معلمك كنا حصلنا على صور أكثر قيمة لتضربه في مقتله وتجعله كالمجذوب.»

ظلت عينا سائد فاقدتا الحياة يرمقانه ورجاله بصمت غامض، ثم تنازل أخيرًا ليخبره بتصلب: «ما أعرفه أنه ينبش الأرض عليها، فَقَدَ عقله تمامًا ولن يميز أي وضع يراه فيها، المهم أن الجزاء من جنس العمل وهو أكثر الناس معرفةً بماذا يعني جسد بشري تحت رحمة مشرط شيطان.»

التمعت عينا حماد الشبيهتين بعيني أفعى سامة وأخبره بشجاعة: «لا يهم، افعل ما تريده وكما تفكر طالما سيصلنا لما نريده.»

صمت لبرهة قبل أن يحاول أن يتعاطى مع الهاتف الذي بين يديه مقلبًا فيه وضاغطًا على أرقام فهمي السرية والتي يحفظها عن ظهر قلب وأردف: «المال، الكثير من المال».

هنا فقط تدخَّل أحد رجال حماد الصامتين ليخبره بخبث: «ولماذا نتبع كلام هذا الرجل يا معلم ونتعب أنفسنا بالمساومة مع فهمي أو غيره، معرضين لكشف أنفسنا، بينما لدينا المال بالفعل؟ «البنت» تبدو قوية ونظيفة وصغيرة قد يدفع فيها أحد الأثرياء أموالًا لا تُعَد مقابل أن تمتعه.»

توقفت يد حماد عن الإرسال لبرهة، بينما يقترب الشاب يكمل بخبث: «إن منحناه الفتاة عاقدين صفقة معه قد يخون ويبلغ عنا الشرطة متهمنا أننا مجرمون «نتبلى» عليه، ثم يعود هو بابنته وماله منتصرًا علينا ورابحًا لكل شيء ونحن نتعفن بالسجن.»

«تفكير شبه رجل يحمل قرونًا فوق رأسه، وماذا أتوقع منك غير هذا؟!»

نطقها سائد بصوت قوي وكأنه لن يقبل جدلًا بعده، رغم الهرج الذي ساد مجلس حماد، وانتفض رجله بثورة ناحيته مشهرًا مطواة في وجه سائد صارخًا فيه بفحيح: «مَنْ تقصد يا هذا بالقرون؟ سأمزقك وأنت واقف مكانك لتعرف مع من تتحدث.»

رفع يده سريعًا ووجهها نحو سائد الذي انحنى بجسده برشاقة متفاديًا الضربة، ثم التف بسرعة ذئب استحق لقبه حول جسد الشاب، وفي أقل من برهة كان يمدده على بطنه على الأرض القذرة، ووضع قدمه على ظهره لاويًا يده التي تحمل المطواة خلفه، مال بوجهه ليخبره بصوت قاتم: «عندما تقرر اللعب يا فتى اعرف قدر عدوك جيدًا ونقاط ضعفه،

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تعلم جيدًا حجم قدراتك، فحشرة مثلك لن أستغرق فيها خمس دقائق حتى أدعسها، ولكن احترامًا للمعلم سأتركك.»

تدخَّل حماد هادرًا بحزم: «سائد اتركه، لن نأكل في بعضنا ونحن على وشك مواجهة عدونا جميعًا.»

لم يلتفت إليه وهو ينظر للشاب نظرة جامدة، الغبي كاد أن يُضيع كل مخططاته في وهلة، ببساطة لو وُضِعَ بين الاختيارين لن يستطيع أن يسلم الطفلة لجنون حماد بعد أن وعد بعدم أذيتها، سيكون مجبرًا وقتها أن يصفيهم جميعًا بيديه.

لم يستغرق بتفكيره كثيرًا عندما قطعه حماد يكرر هدره بصوت غريب: «سنكمل ما بدأنا ونأخذ بثأرنا منه، وبعدها نرى في أمر ابنته ما يرضينا ويدر علينا مزيدًا من المال، لن نرجعها له، صحيح يا سائد.»

«اعرف مقدار عدوك، وإن أمسكت لجامه يومًا، إياك أن تحاول استفزازه وتفقده؛ لأنه لن يتردد أن تكون أول ضحاياه.»

بهدوء ترك سائد الشاب الذي كان يلهث بانفعال قوي واعتدل مهرولًا عائدًا إلى جانب حماد الذي أخبره بنبرة مظلمة: «حسابك أصبح ثقيلًا يا حلمي، وبعد انتهائنا من صفقتنا حسابك عسير.»

عاد بعينيه نحو سائد منتظرًا إجابته عن سؤاله السابق، وقال بسرعة وبلهجة حذرة كأنه يروض وحشًا يكاد أن يفيق من غيبوبته ليَفْتِك به: «بالطبع يا معلم، الفتاة لا تهمني في شيء، وفور أن أحقق قصاصي من أبيها فهي لك.»

عندها فقط زفر حماد نفسًا طويلًا راضيًا وهو يرسل لفهمي صور صغيرته وابتسامة متلذذة سادية مقيتة تزين ملامحه.

تبكي منذ الأمس ولا تتوقف بينما الندم يفتك بأوصالها فتكًا، ندم بعد حماقتها وغبائها وتسليم صغيرتها بيدها.

لم يَرِقَّ قلب فهمي لها ولم يتأثر بلوعة قلبها، بل لو كان الأمر بيده والشرطة التي تملأ منزله منذ الأمس غير متواجدة؛ لكان فتك بها تمامًا دون أن يرِفَّ له جفن.

اهتزاز هاتفه الخاص بعمله «الأسود» أيقظ حواسه على الفور ليترك المحققين ملتهين ويلج سريعًا نحو غرفة صغيرة.

فتح الهاتف بسرعة وضربات قلبه تعلو على الفور حتى كاد يقف خوفًا وهلعًا.

سقط فهمي على أقرب مقعد بأنفاس لاهثة عنيفة، عيناه متوسعة بصدمة ووجهه شاحب وكأن الحياة خُطِفَت منه فجأة وبغير إنذار، نَفَس وآخر كان يستجديه بخزي للخروج بأن يتنفس بينما يُقلِّب صور ابنته في وضع يحفظه عن ظهر قلب، عملية مارسها على العديدين بيدين باردتين قاسيتين وقلب مات ولم تنبض به الحياة مجددًا أبدًا.

ولكن على ما يبدو المشهد المكرر بنفس الطريقة والهدف جعله يتذكر جسد أخرى كان الأخير على طاولته، جسدًا فتيًّا مغويًا لينًا، استخدمه للضغط على معلمه الأول والشيطان الأكبر الذي فتح له نافذة ذلك العالم السفلي، لم يحتج الكثير وقتها ليقنعه أنهم يقدمون للمجتمع خدمة،

ينظفونه من تلك الحثالة، وينقذون أسياد المجتمع وأبناءهم الذين سيخدمون البشرية حقًّا، ولكنه جاء في آخر الطريق ويبدو أن ضميرًا ما ظهر له وأراد أن يتوب، يتوب! كم كانت كلمة مضحكة مستفزة، يريد أن يجعل تلك المؤسسة تنهار، يريد أن يتخلى عنه بعد أن كاد يصل للقمة، يعود به لنقطة الصفر مجرد طبيب مساعد ينتظر منه بعض البقايا يلقيها له، حقده تعاظم مع انقلاب الرؤوس الأعلى على غسان فلم يجد بُدًّا من استخدام «دجوى» كورقة تضعفه وتقتله، وهذا ما حدث، سلَّم غسان على الفور، جثا ذليلًا مكسورًا وتنازل عن كل شيء أمام حياة ابنته.

قبضت يد فهمي بقوة على الهاتف قبل أن تطلق عيناه شرارها، وضغط على الهاتف يطلبه، فور أن أجابه حماد، قال فهمي بقوة: «ماذا تريد؟ ضع الرقم الذي تريده وسيكون لديك خلال ساعات ولكن إن وضعت إصبعًا واحدًا على ابنتي، سأجعلك أنت ورجالك مكانها.»

ضحك حماد بقسوة ساخرة وقال: «أنت لست في محل قوة لتهدد «يا دكترة»، أنا هنا من يأمر وينهى.»

اشتداد صوته بصلابة مرعبة عند جملته الأخيرة؛ جعل فهمي يبتلع ريقه الذي أصبح كصحراء مقفرة لم تطأها المياه يومًا، قبل أن يقول بخذلان مرتعش: «أنا لم أقترب من بيتك يا حماد أكررها لك للمرة الألف، ما الذي يدفعني أن أغدر بك بعد كل تلك الرحلة الطويلة بيننا؟ افتح عينيك وعقلك أرجوك هناك من يتلاعب بكلينا.»

الْتَوَتْ شفتا حماد بتقزُّز على الطرف الآخر، بينما يرمق سائد بنظرة غامضة قاتمة غير مفسرة، ثم قال بهدوء غلَّفته الحكمة: «ربما أنت محق، ولكن ما بيننا قائم على الغدر من الأساس، أنا وأنت ومن يتبعنا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لسنا مثالًا للشرف يا فهمي؛ لذا نعم أنا متأكد أنك غدرتَ بي لشيء في نفسك.»

حاول فهمي أن ينهاه بأي طريقة، أن يمنعه ويقنعه، ولكن رأس حماد كان صلبًا كالحجر لا يفكر إلا في الشماتة به، لقد زادت أخطاء فهمي في حقه أضعافًا مضاعفة، ويجب أن يدفع الثمن الذي تأخر كثيرًا؛ لذا قال بصوت متلذذ محتقر باتر كمشرط حاد لا يقبل الفصال أو الجدال: «أريد رقمًا مكونًا من ستة أصفار مقابل رأس ابنتك.»

بُهِتَ وجه فهمي وهتف فيه بغضب: «ماذا؟ هل فقدت عقلك؟ من أين لي بكل هذا المبلغ؟!»

كأنه لم يسمعه فقال ببرود جليدي: «أنا لا أساومك ولأني أكرم منك سأمنحك عشرين رأسًا جديدة بينهم رأس ابنتك؛ لتقطع منهم من تريد وتترك من تريد.»

صرخ فهمي بقهر: «أنا لا أريد إلا أسماء يا حماد، تعقَّل ولا تزد النار بيننا.»

تابع حماد بلا مبالاة: «ما لديَّ قلته، وستأتي إلى حارة «...» لتتسلم الشحنة بنفسك أنت وأطباءك كالأيام الأولى يا دكترة، فكِّر مع نفسك لديك أربع وعشرون ساعة فقط للتفكير، وإلا سأبيع ابنتك لأحد الرجال الذين يتلذذون بتعذيب الصغيرات قبل أن يستبيحوا أجسادهم البضَّة، مؤكد أنك تعرف هذا النوع حق المعرفة فأنت واحد منهم، أليست هذه الصفقات هي المتداولة في التليفزيون بين العصابات يا باشا؟»

لم ينتظر رده وأغلق الهاتف بشكل نهائي، نظر لسائد بملامح قاتمة، بينما سائد يبادله تلك النظرة الميتة المماثلة لصوته عندما قال: «أنت تعرف بنجاسته.»

وقف حماد من مجلسه أخيرًا، وملامح وجهه المقيتة بَدَا عليها العجز مضاعفًا وكأن كل شيء أصبح يأخذ من قوته، صحته وكل شيء، نطق أخيرًا بخفوت متصلب: «بتلك المهنة مر عليَّ جميع أنواع البشر وأخطرهم وأنجسهم، وفهمي النجار كان من حثالة الحثالة نفسها، خَدَمَه الحظ ليصبح سيدهم، أنا لا أعرف كيف أصبح يقضي رغباته العفنة ولكن ما أنا أعلمه عن يقين أنه كان يدفع في بعض الفتيات مالاً مضاعفًا ليأخذهنَّ بعيدًا عن باقي زملائه، ولن أحتاج لمعدل ذكاء لأعرف أنه كان يضاجعهنَّ.»

شعر سائد بالذهول للحظات برغم كل قذرات فهمي التي يعرفها، ثم أخذت ملامحه تسلك طريق العذاب التدريجي، كم بَدَا في تلك اللحظة لوحة لن يستطيع أعظم الفنانين رسم البؤس والذل والألم فيها بدقة.

أجلى حنجرته يحاول ابتلاع غصته ومرارته فلم يستطع، فترك لملامحه حرية التعبير أخيرًا، ومن يلومه وجميع من في هذه الغرفة أصبح يعلم بفجيعته: «هذا مبرر اختياره آية، فبجانب معرفتها لعملهم واحتواء أحشائها على كنز ثمين ربما لاقت هوى في نفسه.»

التف حول نفسه ونظر بعيدًا عنهم بينما عقله وقلبه يدق سويًّا بمفرقعات قاسية مزقته.

دجوى كانت بين يديه عارية كما أخبرته، هل الحقير لامس شيئًا فيها، سيقتله وسيذيقه من كأس جحيمه بتلذذ، مستحيل أن يتركه ينجو من القتل بين يديه، أغلق عيناه للحظة وابتلع حرقته وحارب أن يسيطر على ما تبقى من أعصابه متذكرًا بيقين أن جسد دجوى لم يعرف رجلًا قبله أبدًا، لقد رأى هذا بنفسه، مؤكد هناك شيء منعه، ربما هدفه الضغط على الحقير الآخر كان هو الأهم لديه وقتها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

من وراء ظهره نطق بصوت غريب خافت على حافة الخطر مشددًا: «على كل حال، لا أريد أن أعرف شيئًا، لن تريحني إلا دماؤه عندما تغطي ملابسي.»

لم ينتظر الرد وهو يندفع مغادرًا، فوقت الاستعداد الحقيقي قد اقترب.

عاد ثلاثتهم للاجتماع ووضع مخططهم الأخير عندما تدخَّل إبراهيم قائلًا بهدوء: «ألا ترى أن وقت شريف قد حان لنكشف له ورقتنا الأخيرة؟»

التفت سائد بتجهم لوجه عمر الذي كان منكبًّا على حاسوبه يسأله: «هل توصلت لشيء؟»

رد عمر وعينيه تجري على جهازه الخاص المحمي بأعلى سبل الحماية حتى الكاميرا الخلفية والأمامية للجهاز مغطاة بالكامل: «لقد استعان فهمي بأحد أفراد «الويب دارك»؛ ليصل إلى مؤسس موقعنا الحقيقي بعد اكتشافه أن المقر في أمريكا مجرد وهم مثل المقر على الشبكة العكنبوتية.»

التفت سائد يجيب إبراهيم على سؤاله المعلق: «سمعت بنفسك عدونا ليس بسهل وتوجيهنا له ضربة الآن لم يقتله، بل زاده جنونًا وتوحشًا فوق توحشه؛ لذا سيتصرف كالمجنون قبل أن يفقد أعصابه تمامًا ويبدأ في التخبط، عندها فقط نستطيع أن نُدْخِلَ شريف في معركتنا بكل أريحية.»

«ها نحن ذَا»، هتفها عمر بانتصار جعل كليهما يلتفت إليه مستفسرين، فقال على الفور بثقة: «استطعت الدخول لجهاز فهمي الخاص أخيرًا.»

كان عمر يجلس على المكتب الرئيس عندما استدار كلٌّ من إبراهيم وسائد ليحاوطا جلسته، تجوَّل عمر لدقائق بين عدة ملفات يفتحها وينظر

فيها بتمعُّن، رفع سائد إصبعه مشيرًا للحاسوب وقال بصوت خفيض: «انسخ هذا الملف، سيكون أداة جديدة وفعَّالة في ملف فهمي مدمرًا كل ذيوله.»

اكفهرَّ وجه عمر للحظات وهو يقرأ عدة أسماء بعضها مهمة جدًّا في هذا البلد وبعضها أسماء أجنبية: «هؤلاء السادة ورؤساؤه الأعلى من يساعدونه على ترويج بضاعته دون أن يُكشف.»

قال سائد بملامح غير مفسرة: «ما فهمته من دجوى أن الأمر في البداية كان مقتصرًا على تجارة داخلية محدودة لطبقة الأغنياء أو بعض ممن يأتون بغرض السياحة العلاجية.»

تدخَّل إبراهيم وهو يقول بقتامة: «تقصد سياحة تجديد الأعضاء الهالكة على حساب أرواح أبناء البلد.»

رد سائد بخفوت: «لن يفرق المسمى طالما النتيجة واحدة، أما عن أرواح أبناء البلد، تلك ليست غلطتهم بل غلطة حكومة فرَّقت بين طبقاته ولم تضع حدًّا رادعًا لهؤلاء القتلة وتجار البشر.»

«يا الله»، نطقها عمر بحلق جاف وأنامل ارتعشت رغمًا عنه على أزرار الحاسوب، بينما شحب وجهه وكأنه رأى شبحًا خطير ظهر أمامه فجأة.

تجمَّد جسد سائد كاملًا مكانه وكأن العالم كله وقف في لحظة من حوله بينما ملامحه في تلك اللحظة بَدَتْ وكأنها نُحِتَت من الصخر: «كيف وصلوا إليك؟ كل المعلومات لديهم وهمية ما عدا اسمك.»

همس عمر بصوت ساخر يتلبسه الفظاظة ليداري ارتعاش قلبه واختناق صدره: «كما نحن وصلنا لأدق المعلومات عنهم، يبدو أن اسمي كان أكثر من كافٍ.»

استفسر إبراهيم بتوجس: «نحن نعرف أنك مكشوف لديهم بالفعل ويبحثون بجنون عنك، ما المشكلة في هذا؟»

لم يردَّ عمر بشيء، أغمض عيناه للحظة بألم بينما من خلف جفونه المغلقة لا يرى إلا وجه رابحة الحنون وبطنًا مسطحًا يحمل كل أمل الدنيا بداخله، يحمل طفلًا وحلمًا وحياةً كانت من حقه بعد سنين من العذاب والقهر والظلم.

قطع أفكاره من نفسه بينما يتابع عمله قبل أن يكشف أحد تهكيره لمعلومات فهمي وقال بصوت جاف: «يبدو أنهم وصلوا لبعض الحقائق عني؛ اسمي وسني وهويتي الحقيقة.»

صمت ليتابع سائد بصوت خفيض احتلت نبراته نوعًا من الندم: «هذا يعني أن عمر أصبح مكشوفًا بالكامل لهم حتى إن تخلصنا من فهمي ومَنْ معه سيظل هناك من يتبعه ممن هم أشد خطورة.»

عَمَّ الصمت القاتم بظلاله على رؤوس ثلاثتهم، بينما يواصل عمر جمع المعلومات دون أن ينبس ببنت شفة، انتهى من تخزينها على الفلاشة الأخيرة وناولها لسائد بصمت ثم أغلق الحاسب بهدوء وقال: «أعتقد إلى هنا انتهى دور هذا الجهاز.»

أومأ سائد موافقًا فأخرج عمر فلاشة أخرى تحوي فيروسًا مدمرًا لقاعدة البيانات، أدخله في الجهاز وانتظر بصبر بملامح مغلقة، ثم وقف بعدها متجهًا ناحية الحمام الداخلي لمقرهم متمتمًا بصوت خفيض: «هذا أضمن للجميع في الوقت الحالي، سأضعه تحت المياه لأتلفه تمامًا ويصبح بعدها غير صالح لأي استخدام لو وصل له أحدهم.»

اختفى عمر، بينما انهار جسد سائد على المقعد واضعًا رأسه بين كفيه، لم يستطع التفكير وعقله متوقف تمامًا، كيف انفلت الأمر من يده؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لقد كان يغطي عمر جيدًا حتى اللحظة، كان مخططهم الأول أن يصلوا إلى هذه النقطة وبعدها يبعد عمر تمامًا في المواجهة الأخيرة دون ضرر يُذْكَر.

ضاقت عينَا سائد بشدة، وبصره يقع على هاتف عمر الذي أنار لوصول رسالة نصية، لم يستطع أن يقاوم الأمر وهو يمد يده يمرر الرقم السري والذي يعرفه بطبيعة الحال بينهم.

«لقد رأيت الصغير لتوي ولم أستطع أن أنتظر لجعلك تراه، إنه تلك النقطة البيضاء الصغيرة وسط ذلك السواد الذي يحيط الصورة التي أرسلتها لك مسبقًا، أحبك لا تتأخر الليلة، أنتظرك.»

اشتعلت بين عينيه حرب غير متنازلة تتقاذفه بنزاع، بينما الحل يومض من دهليز عقله: «عمر يجب أن يبقى للجميع، يجب أن يحقق حلمًا فشل فيه هو وربما لن ينجح فيه حتى إن أراد.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مرت ليلة طويلة يترقب كلٌّ من أفرادها الخطر القادم المهدد، لا يعرف من أين قد تأتيه الضربة، من أين قد يأتي قضاؤها المحتوم إلا مَنْ غَرَّته الدنيا بالمال والجاه وسلطة لم تكن من حقه يومًا.

«يمهل ولا يهمل»، «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، وقف سائد من نومته القصيرة التي قضاها على كنبة في غرفتهم التي شاهدت رحلتهم الطويلة، في قصاصه العادل، في صرخته التي سيبذل آخر قطرة في دمه لتصل لمجتمع يُصر على صَمِّ أذنيه ووضع غشاء حريري على عينيه مستترًا خلفه، محتميًا خلف جدار هشٍّ من الأمن والأمل الزائف.

«لقد حان الوقت، يجب أن أبقى مع حماد خطوة بخطوة حتى لا يتهور ويزيد جنونه.»

قال عمر بتشديد: «ستذهب من الآن، إنهم كخفافيش الظلام صفقاتهم تتم ليلًا.»

قال سائد بغموض: «أعرف ولكن لديَّ شيء هام يجب أن أفعله قبل أن أتحرك، كما أن اليوم بالذات يجب أن أبقى بجانب حماد أدعمه وأسيطر على عقله بطريقتي.»

«حسنًا إذن إنه وقتنا جميعًا لن أتركك، أعتقد أنه حان وقت ظهوري.»

التفت إليه سائد ورماه بنظرة جامدة، وهو يقول ببرود: «لا، أنت ستذهب لدجوى في منزلي تصطحبها بأمر مباشر مني لبيت صفية مع زوجتك، ولا أريد أن أرى وجهك أو تتصل بي حتى آتي أنا بنفسي إليكم.»

قال عمر بصوت خالٍ من التعبير: «ما الذي يعنيه هذا؟ هل هذه محاولة لتنحيتي بعيدًا لأجلس مع النساء؟!»

استدار إليه سائد بكليته هاتفًا بقوة صارمة: «أنا لا أنحيك من شيء، إن أردت ابتعادك لن ألتفَّ حول الأمر ولكن ما تحاول دفع نفسك إليه مبكر جدًّا، جولة الليلة هي مجرد محاولة تجريبية فمؤكد أن فهمي لن يجازف ويظهر فيها، أما عن ملاحقتك فهذا أكيد يجري الآن على قدم وساق، وبيت صفية في الأحياء الشعبية وسط أبناء البلد على حق هوَ الملاذ المناسب لنسائنا، وبالطبع أنت ستكون متواجدًا معهنَّ كجدار حامٍ، حتى أقرر أن أضرب ضربتي القاتلة والأخيرة.»

تحرك شيء ما بحلق عمر قبل أن يقول بجمود أجوف غير مقتنع: «وأنا قلت لا».

اشتعل شيء ما في عين سائد، شيئًا أشد عمقًا وقتامة، ثم استدار أخيرًا قائلًا بحزم: «أنت لا تملك حق قول لا، ولا تحتاج أن أذكرك أني أنا من يقرر دور كل واحد منكم في تلك اللعبة.»

صوت عمر أتى من خلفه هاتفًا بقوة مذهولًا: «لعبة! هل تسمي هدفنا الذي أخلصنا له خمسة عشر عامًا لعبة؟!»

انخفضت نبرات سائد وأخذ في السكون الجزئي قبل أن يقول بصوت خافت بسيط: «عندما نُدخِل فيها أرواحًا بريئة نحرقها بجحيم ما عانيناه تُصبح لعبة، ونحن حكام غير منصفين.»

كالمجنون الذي يفقد كل الخيوط التي تربطه بالتعقل، كانت عينا حماد تدور بشر خالص وهو يتفحص العربة التي وصلت بسبعة من رجال فهمي، ستة أطباء وحارس واحد كما هو متبع دائمًا في شحناتهم، هدر بجنون ورجاله تخرج من كل جحر كالزواحف السامة ليطوقوا السيارة ويصبح كل واحد منهم يثبت أصحاب المعاطف البيضاء معدومي الرحمة والضمير كسيدهم، هدر حماد متسائلًا: «أين فهمي؟ لقد كان أمري واضحًا هو قبلكم.»

تقدم أحد الأطباء وذراع فهمي اليمين يخبره بصوت مرتعش مرتعب مما يراه حوله: «وماذا تريد منه؟ أعطنا الطفلة وباقي البضاعة وخذ مالك ودعنا نرحل من هنا.»

جز حماد على أسنانه ورفع هاتفه يطلب فهمي على الفور، أجابه وقال بصوت شرير: «إن لم تأت بنفسك ليس لديك بنات ولا بضاعة عندي.»

برقت عينا فهمي البغيضتين بالكره المخالط للغرور وقال مترفعًا: «أنت أصبحت غير مؤتمن الجانب، لن آتيك بنفسي إن كنت تريد المال فهو لديك، وإن كنت تبحث عن تعويض سأمنحك المزيد، والآن تعقل وقم بجانبك من الصفقة، واعلم إن طاوعتك فبسبب العشرة القديمة بيننا.»

التفت حماد لسائد الذي سمع المكالمة كاملة كأنه يطلب منه العون أو التفكير، فأشار إليه سائد بغلق الهاتف، فلم يتوانَ حماد عن فعلها، مستمعًا لسائد الذي همس على الفور: «هناك شيء غير طبيعي يحدث يا معلم، أشُمُّ رائحة الغدر في كلامه، يبدو أننا أخطأنا التقدير، فالحيوان فهمي لا تهمُّه ابنته كما اعتقدنا.»

بتوجُّس سأله حماد: «فيمَ تشك؟»

قال سائد صارخًا بصوت جهوري فجأة: «خيانة يا معلم، خيانة مرة أخرى.»

تلاشى تفكير حماد ورجاله كليًّا عندما سمعوا صوت «سرينات» سيارات الشرطة التي تأتي من بعيد، مقتربة عليهم شيئًا فشيئًا، صرخ سائد مرة أخرى: «هي يا معلم، دعنا نهرب من هنا.»

أخذ وجه حماد ينقلب بخطورة، خطورة مؤذية شرسة كحيوان دموي لم يذق طعم اللحم منذ أعوام وخرج من سباته أخيرًا ليتذوق بتلذذ، وتملكته في تلك اللحظة رغبة جارفة ومؤلمة في الانتقام عندما أخرج «سنجة» كبيرة حادة وباترة من قاطعة من جنبه، وهو يقول بنبرة مظلمة: «ليس كل مرة سأهرب تاركًا حقي وأنا بيدي سأناله في لحظات.»

لم يسبق لسائد من قبل رغم كل ما رآه في حياته، أن رأى مجزرة سريعة كالتي يراها تحدث أمامه، لم يقترب ولم يشارك معهم، بينما

في أقل من دقيقتين، كان حماد ورجاله يهجمون على كبش الفداء الذي أرسله فهمي دفاعًا عن روحه.

السنج والسكاكين بل أيضًا وسيوف حادة تلمع أطرافها من شدة تجهيزها، تقطع في أجساد هؤلاء الدكاترة دون ذرة رحمة بصراخهم المتعالي، لطخت الدماء المكان والجثث المتفرقة أصبحت تعمي عينيه، فلم يعد يعرف مَنْ فيهم ذُبِحَ ومن تلقى طعنات مباشرة نحو قلبه أو أعضائه الحيوية، كل ما استوعبه تلك البِرْكَة الواسعة من الدماء التي أصبحت تعوم بها أشلاء بشرية.

وإنما الأمم - أفرادًا وجماعات - تفعل ما تفعل، وتترك ما تترك، لكنها يومًا ما ستقف أمام ربها، وستُواجَه بما فعلت، وستُحاسَب بما تركت.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾.

وقف حماد ورجاله يلهثون من فرط جنون اللحظة قبل أن يهتف حماد به: «هل ستظل ضيف شرف تُصورنا بعينيك أم ماذا؟ هيا تحرك، الشرطة على أبواب الحارة.»

للحظة فقط تعلقت عينا سائد على تلك الأرواح التي زُهِقَت سائلًا نفسه كم روحًا قد أنهوها هنا ببرود دون ذرة ندم أو رحمة؟ ما بالك يا سائد أصبح الأمر لا يهزك وكأن ما تراه تستعيد حياتك التي سُلِبَت منك ببطء عبر القضاء على جميع أشباحك؟!»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عندما استلَّ فهمي هاتفه كان يتحرك بتعثر مجنون في موقعه غير البعيد عن الصفقة التي تجري، همس أحد رجاله في أذنه بعد نصف ساعة بما جرى، صرخ بغضب وحقد وجنون، خيوط اللعبة تنسلُّ من بين يديه كالماء الجاري: «وابنتي، أين هي يا غبي؟ لا يهمني ما حدث لهؤلاء القطيع.»

صرخها بلهاث مجنون، بعينين حمراوين متوعدتين بالويل: «لم تكن معهم، لم يكن أحد معهم، لقد كان فخًّا كما خمنت أنت.»

صرخ فهمي وهو يخبط بكلتا كفيه على السيارة بجنون أتلف تلابيب عقله وأفقده المنطق، الحنكة والخبث الذي أوصله للكثير مما هو فيه، خرج أحد أعوانه مهرولًا من السيارة وهو يقول بشحوب: «وصلتنا رسالة أخرى مصحوبة بصورة لابنتك يا ريس.»

تجمدت الدماء في عروق فهمي وهو يفتح الملف المرسل من إميل مجهول الهوية، انتفض داخله بذعر تلقائي ووجهه يتحول لبشرة الأموات، بينما يصرخ الملف أمامه بصور ومستندات إن عُرِفَت سيُقضى عليه لا محالة.

أرسل إميل تصرخ حروفه بجنونه: «مَنْ أنت؟ وفي أي شيء تسعى؟»

مرت دقيقة واثنتان وعشرة قبل أن يأتيه اتصال من هاتف علاء المختفي منذ أسابيع، أتاه الصوت من أعماق الجحيم: «أنا مرسال الجحيم الذي سيأخذك معه.»

تصاعد بقوة غضبه متحدًا مع غروره قائلًا: «أنت الشريك السري للغبي عمر الناصر، أنت لعبتَ مع الشخص الخطأ، ووعد مني لن تمرَّ ليلة أخرى عليك إلا وأنا مغرق يدي بدمك نازعًا أحشاءك.»

قال سائد ببرود جليدي: «لقد فعلتها من قبلُ بزوجتي وطفلي، فدعنا فقط نتفق أن من الغباء أن تتخيل أني سأمكنك من لدغي مرتين.»

صمت عن قَصد ثم تابع بآتون الغضب: «ولكن الصورة الجميلة لفتاتك الممددة على طاولتي تؤكد أنها من ستراق دماؤها هذه الليلة.»

نظر فهمي حوله بعينين مجنونتين صارختين: «ما الذي تريده؟ المال وأرسلته اليكم.»

بروده وغروره تعمله على ذكرى زوجته وطفله وكأنه يترفع عن الإجابة، منحه الهدوء الشديد، والسكون الأشد وما الذي توقعه من تاجر نفوس؟! نطق بصلابة منهيًا الأمر: «رأسك، لن أتنازل عن رأسك أو ابنتك.»

قال فهمي بتوعد: «سأقتلك».

رد سائد بجليده المقتضب: «أنتظر لقاءك هذا منذ زمن طويل، إن كنت تخاف على سُمْعَتك وابنتك قابلني وحاول معي.»

باستخفاف وازدراء قال فهمي: «وما الذي يجبرني على هذا وأنا قادر على أن آتي برأسك تحت قدمي؟!»

قال سائد بهدوء مصطنع: «ابنتك وكل المعلومات التي بين يديك مقابل نزال أخير بيننا، ستكون الكلمة النهاية فيها قطع رأسك أو رأسي.»

زمجر فهمي بغضب والصدمة تعمي بصيرته: «أيها السافل، وما الذي يجبرني على ما تتفوه به من غباء؟»

قال سائد بصرامة: «كل ما أُهْدِرَ من الدماء أنت لجشعك وحقارتك، لأصل إليك كي آخذ ثأري، ببساطةَ أنا لن أسلِّم نفسي للشرطة بل هدفي هو أن تأتي بكامل رغبتك، أو عليَّ وعلى أعدائي وسأسلمهم كل شيء لديك بجانب أحشاء ابنتك.»

صرخ فهمي بينما اتسعت فتحتا أنفه وهو ينفث اللهب، توقَّف للحظة ورجله يعرض أمامه اسم وصورة يعرفهم عن ظهر قلب، صورة أوقدت النار المجنونة بداخله، وتمنى لو كانت أمامه الآن ليمزقها حية.

«العاهرة»، غلطته الوحيدة أنه تركها على قيد الحياة.

«أنت متزوج من العاهرة بنت غسان هي من دفعتك نحوي.»

برقت عينا سائد بقوة مجنونة وفلتت أعصابه لحظة وهو يقول من بين أسنانه بوعد مهما كلفه لن يخلفه أبدًا: «سأحرق لسانك، صدقني سيكون أول ما أحرقه قبل أن أُشَفِّيَك مثل صغيري، سأجعلك تتمنى الموت ولا تناله.»

ضحك فهمي بتعصب قبل أن يقطعها بنفسه وهو يقول بغرور مستفز: «يبدو أنك تتكلم فقط، التففت كل هذا لتصل إليَّ وهذا ما لن تناله، أسماء لديك إن كنت قادرًا على شيء افعله، أما أنا سآتي بك يا سائد العوضي خلال ساعات لا أكثر.»

«الغبي فقط من يعتقد نفسه أذكى البشر يا فهمي النجار، وأنا انتظر منك مكالمة أخرى خلال الست ساعات القادمة، إما أن تأتي برأسي أو تكون مطيعًا وتأتي لمقابلتي في وكر حماد القديم، وإلا سيصل خبر وقوعك لأسيادك قبل الشرطة، وبالطبع أنت تعلم نهاية أن تُكْشَفَ حشرة مثلك لديهم.»

بعد وقت طويل كان يتجول في الشارع كما عاداته القديمة، ينظر لكل زقاق، لكل جسر آواه يومًا أو ستره من برد شتاء قارص كاد أن يقتله

بردًا، ليقوم هو وأقرانه بإشعال نار لن تؤثر بشيء ولكنهم كانوا يتمسكون بالوهم والقوة، تاركين أمرهم إلى الله بالفطرة.

وقف سائد أمام حي زوجة عمر يلتقط أنفاسه، ينظر لنور الفجر الذي بدأ في الانبلاج هُوينًا هُوينًا كأنه يُخبره أن شعلة الحق التي أقسم أن يحملها يومًا صارخًا أوشكت على الظهور كما شمس الصباح التي تُصر على الولادة كل يوم بعد أن يغتالها ظلام الليل الطويل.

أخرج هاتفه بهدوء ينظر إلى مواقع الأخبار المحلية نظرة فارغة جامدة خالية من أي شعور، مرت عيناه على السطور فلم يشعر لا بالتشفي ولا الشماتة بل فقط العدل لكل مَنْ زهقت روحه في الخفاء ولم يعلم عنه أحد شيئًا، لكل نفس وُئِدت بغير حق، لكل قلب أم مكلومة، ولكل قلب أب احترق على فرعه الذي قطعوه فعلًا وقَولًا.

بالخط العريض على واجهة كل الصحف والمواقع: «مجزرة الأطباء وسائقهم في أحد الأماكن المشبوهة والتي تُعرَف بأنها مرتع للبلطجة والإجرام، لم يعرف أحد حتى الآن ما سبب تجمعهم أو ذهابهم هناك، ولكن يشك المحققين أنه فخ نُصِبَ لملائكة الرحمة، وغُدِرَ بهم من قبل آفات المجتمع.»

مال خط فمه بما يشبه الابتسامة، بينما احتلت عينيه السخرية المعتادة، تجنب الخبر باحثًا عن خبر آخر بعينه فوجده هناك في إحدى الأخبار الصغيرة مهملًا غير مرئي كأنه لا شيء حتى خبر موتك مجرد حشرة، حشرة وأفعى سامة، لدغت آلاف الأبرياء وحرقت قلوب عشرات الأُسَر.

«العثور على جثة مجهولة الهوية نهشتها الحيوانات الضارية تمامًا ولم يبق منها إلا مجرد بقايا جيفة.»

أغلق عينيه وبصعوبة أخذ نفسًا متمالكًا لأعصابه قبل أن يضغط رقم إبراهيم، الذي أجابه على الفور فقال سائد بهدوء: «أخبر شريف أني مستعد الليلة، ولكن لن يهاجم المكان إلا بعدما أنتهي أنا.»

قال إبراهيم بصوت باهت: «سائد، أريد أن أخبرك أن فهمي وصل إلى اسمك أنت أخيرًا.»

أغمض سائد عينيه وقال بخشونة: «لم يعد مهمًّا أنا أسبقه بخطوات وغروره سيمنعه التصديق، وهذا ما ألعب عليه ولا تنس ابنته ما زالت بين يدي.»

رد إبراهيم بهدوء: «وهذا يعني ...»

قال سائد بنفس النبرة: «يعنى كما أخبرتك، ليس لديه الوقت للتحرك كل شيء سيتم الليلة.»

قال إبراهيم: «هل وصلك خبر حماد؟»

«نعم، رأيته الآن، صف لي كيف حدث؟»

قال إبراهيم بتوتر واصفًا بشاعة ما رآه: «بعد أن أخذه رجله وفرَّا معًا بتلك السيارة دون أن يتوقف لك أو لباقي رجالهم، ساد الهرج بينهم مع صوت سيارة الشرطة التي جئت بها أنا وشريف كما اتفقنا معك مسبقًا.»

قاطعه سائد بخشونة: «إبراهيم أعرف ما تقوله كنت هناك، ماذا حدث بعدها؟»

تمالك نفسه قبل أن يجيبه: «أعني تابعتهم من بعيد، بعد أن دخلا في طريق صحراوي مخيف وبعد دقائق قليلة من شجار يبدو أنه حدث بينهما فُتِحَ باب السيارة ليهبط منه ذلك الشاب ويلقي بجسد حماد الجريح والذي يبدو أنه أخذ أكثر من طعنة.»

صمت إبراهيم فحثه سائد: «وبعدُ، كيف وصلت إليه تلك الحيوانات؟»

قال إبراهيم بحيرة: «لا أعرف، لم أكد أستوعب ما يحدث، وقررت طلب الشرطة والإسعاف وانصرفت، ولكن يبدو أنهم وصلوا متأخرين كما عادتهم، وبعدها قرأت الخبر مثلك.»

صمت للحظة قبل أن يقول بصوت مكتوم: «لقد تمت مهاجمته وأكله حيًّا، كما كُتِبَ في تفاصيل الخبر.»

أخذ سائد نفسًا آخر عميقًا ثقيلًا مشبعًا بهواء الفجر النظيف، ثم ما لبث أن قال ببساطة: «الأمر كان أسهل مما توقعت، رجله هذا كان يدافع عنه باستماتة، ولم يحتج مني إلا دفعة بسيطة وإغواء بالمال لا يُذْكَر.»

استفهم إبراهيم بشك: «هل منحته مالًا ليقتله؟»

قال سائد بتهكم: «بالطبع لا، لن أكشف نفسي لأحمق طامع يماثل حماد وحسان قذارة، بل مجرد تلاعب بالكلام واللعب على نقاط ضعفه البشرية الطامعة.»

صمت لبرهة قبل أن يقول بلا اهتمام: «بلِّغْ عن السيارة أنها سُرِقَت منا، يجب أن يجدوه ويُزَج في السجن، كلب مثله إن أُطْلِقَ في الشارع لن يكتفي بمجرد عضة.»

رفعت رأسها مجفلةً عندما شعرت بكيانه يحتل المساحة الصغيرة لغرفة «قُصَيٍّ».

سيطرت على رجفة قوية من الحاجة لأن تقف الآن راكضة إلى ذراعيه للتأكد أنه يقف أمامها، لا كما ظنت بالأمس عندما أتى عمر ليصطحبها إلى هنا بإلحاح وصرامة لم تقبل حتى المجادلة، لن تستطيع أن تنكر يومًا

أنه برغم كل الحرب التي طُحِنَت فيها معه غير أن سائد مَثَّلَ لها أمانًا لم تشعر به لوقت طويل جدًّا، منذ أن اكتشفت حقيقة والدها المخزية منذ أن طعنها غسان الهاشمي باعتراف قتلها حية حطم مثلها الأعلى وصورة الرجل المثالي والأب الرائع والطبيب الرحيم الحنون التي ظنت.

كان يسير نحوها مباشرة دون أن يمنحها الفرصة لإبداء أي رد فعل، نظراتها إليه كانت مرتبكة مهتزة، وصل أمام الفراش الضيق، جلس على حافته ومنحها ظهره الذي تشنَّج عندما لمح بطرف عينيه كيف لملمت نفسها بين ذراعيها، بالتضامن مع صوتها الذي خرج خافتًا متصلبًا: «اخرج من هنا، لم أعد أريد رؤية وجهك.»

رد بصوت أجش مشحون بمشاعره المرهقة: «بضع دقائق فقط وبعدها سأختفي من حياتكِ إلى الأبد.»

قالت بصوت باهت أظهر مدى كذب ادعائها: «ظننت أنك قُلت كل ما لديك آخر مرة في مكتب شقتك.»

التفت إليها برأسه، فشحب وجهها على الفور عندما رأت في عينيه السوداوين ذلك الألم الأشبه بذلك الناتج عن طعنه بسكين متزامنًا مع قوله بهدوء معاكس لما يعاني: «وأنتِ طلبتِ لأجل خاطركِ أن أبقى حيًّا، ظننتكِ ستهللين لرؤيتي.»

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه قبل أن تقول بضياع شارد: «لا تطلب من الشاه أن تحب ذابحها.»

اقترب منها في لمح البصر يجذب وجهها بإصبعيه نحوه وقال بخشونة: «ولكنكِ تحبيني، لا يمكنكِ أن تكرهيني بين ليلة وضحاها.»

نطقت بصعوبة من بين أنامله المطبقة على فكها: «نعم، وكم هذا يشعرني بالاحتراق والقهر والظلم.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

للحظات عَمَّ صمت ثقيل متوتر بينهما قبل أن ترتخي أصابعه المتشددة واستبدلها بكفه التي غَطَّت جانب وجهها وقال بهمس حارق: «لو كان القهر رجلًا لقتلته حتى لا يتطرق إليكِ أبدًا مرة أخرى، ربما هذا يخفف عنكِ بعضًا من أثقالكِ.»

أغلقت جفنيها لبرهة وقالت بصوت أجش مشحون بمشاعرها المشوشة: «لماذا؟ هل أحببتني فجأة؟»

ابتلع ريقه الجاف، قبل أن يقول بهدوء: «ربما أنتِ عصفتِ كالإعصار بداخلي كما لم يفعل قبلكِ أحد قط.»

قالت من خلف جفنيها المغلقين بتهكم: «ربما لا تمثل إجابة شافية، وللحقيقة لم تعد حتى إجابتك تمثل شيئًا لداخلي، اذهب من هنا وأكمل طريقك الذي بدأت، وامسحني من ذاكرتك إن نجوت.»

رنين هاتفه المتواصل لم يمنحه الفرصة للحديث معها للتفاهم فتركها أخيرًا وهو يقف على قدميه وقال بهدوء بسيط: «لا تتحركي من هنا حتى يأتي إبراهيم ويعلمكِ أن الوضع أصبح آمنًا وإن لم يحدث أرجو منكِ أن تتبعي ترتيباتي لهروبكِ من البلد بأكمله.»

لم تمحنه شرف الإجابة فطرق ببصره بعيدًا عنها مبتعدًا عنها جسديًا وفكريًا، منح كل مشاعره لجانبه المتجمد المظلم، أخرج هاتفه وكتب: «اجلب ابنة فهمي النجار وقابلني عند نقطتنا التالية.»

أتاه اتصال آخر فأجاب على الفور: «لديك دقيقة واحدة تمنحني إجابتك.»

أتاه صوت فهمي متمتمًا من بين أسنانه: «سأشرب من دمائك وأقطعك إلى الأشلاء التي تتحدث عنها.»

فقال سائد بصوت فاض كراهية واشمئزازًا: «دعنا نرى من سيرقص رقصته الأخيرة يا فهمي، رقصة الموت.»

ثم أضاف باقتضاب وإيجاز مدركًا أن أيًا من مراقبي الهاتف الذي يستخدمه يحتاجون إلى أكثر من ستين ثانية لتحديد موقعه: «إذن إن هذا موعد بيننا أنتظرك في وكر حماد القديم.»

أغلق الهاتف سريعًا متخلصًا من الشريحة التي كسرها لأجزاء صغيرة، ثم أتبعه بإغلاق الهاتف بشكل نهائي ووضعه في جيبه، لم يلتفت إليها وهو يتحرك ناحية الباب ويخبرها: «وداعًا دجوى كوني بخير دائمًا، وحاولي ألَّا تقعي في فخ السراب مرة أخرى، تذكري دائمًا أن أخطاء العالم ليست ذنبكِ لتحمليها على عاتقك مجبرةً نفسكِ على دفع الثمن.»

أطلقت ضحكة مقهورة من خلف ظهره ممزوجة بالألم والصدمة، بالغضب والثورة صارخةً فيه: «هل أنت صادق مع نفسك؟ لماذا لم تنصح نفسك أولًا؟»

توتر ظهره دون أن يحاول الاستدارة نحوها مجددًا، وكأن رؤيتها بحد ذاتها توجعه وتضعفه عندما قال: «لن أعيد عليكِ الآن معاناتي وآلامي، ولكن بما أنكِ جربتِ الظلم أخبريني عن طعمه في حلقك.»

قالت ببساطة: «مُرٌّ كالعلقم».

تولى الرد بصوت خافت أتى من عمق معاناته: «مُرٌّ كالعلقم في حلق مسلوب الإرادة، يدوم سنين وسنين ولا يذوب، يلقي في القلب غُصَّة أشد وأعنف من أن تذوب، تاركًا في الروح نُدْبَة أبدًا لن تزول، تمنع حواسك عن العمل ويُجمد عمرك في مفترقات الزمن، فلا علاج ولا خلاص منها إلا عندما تستردين حقكِ.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شعر بها تقف خلفه مباشرةً، لمست كتفه بتردد قائلةً بحشرجة لم تستطع أن تمنعها: «إذن أنا لا أريد التخلص من ظلمك لي يومًا أفضل أن يظل مذاقك في حلقي لما تبقى لي من عمر.»

التفت إليها برأسه مانحًا لها ابتسامة حزينة وقال بخفوت مستفسرًا: «لماذا دُجى؟»

ابتسمت فكانت أجمل ابتسامة قد رآها يومًا في عالمه البائس وبصراحة مرتعشة أجابته: «لأني أحببتك».

لم يجبها بالكلام، لم يستطع، والتفَّ إليها بكليته وغمرها بين ذراعيه وفي لحظة دفن وجهه في عنقها واضعًا كفيه خلفها، تشبَّث فيها بعنف وقوة حتى سمع قرقعة ضلوعها التي تألمت، رفعت ذراعيها دون تفكير ضامَّة جسده الملتحم فيها، وضعت رأسها فوق كتفه بنعومة، استكانت بين ذراعيه للحظات متنعمة بنعيم ذراعيه بطعم جديد بين أحضانه، بمشاعر لن يمنحها القدر أن تجربها، ولن تسامح هي نفسها إن أعادتها معه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أخذ نفسًا عميقًا مستنشقًا رائحتها سامحًا لنفسه أن يستلذ بدفئها، أن تجتاح هي قلبه وعقله دون أن يقاومها، أن ينكرها على نفسه، قال بهمس حارق بصوته العميق الذي يهز أعمق أعماقها ويجتاح أنوثتها فيحتل نبض حاجاتها: «وأنا أحببتكِ، ربما كانت بدايتنا خطأً، ولم تمنحنا الدنيا العنيدة الفرصة للقاء عادل، لو تواجدنا في عالم آخر ودنيا أخرى لم أكن لأترككِ لحظة، ولن أسمح للقهر أن يعرف طريقكِ.»

قبل أن تستوعب اعترافه وأن تفهم كان يفلتها سريعًا محاوطًا وجنتيها بكفيه وأحنى رأسه يقبِّلها بجوع ولهفة جعلاها تنتفض بين يديه، أنفاسها المبهورة لم تمنحها القوة لمنعه ورفضه، أن تستوعب اعترافه الذي لم

تأمل أو تتعشم يومًا أن تسمعه، دفعها ليسند ظهرها إلى الحائط خلفها، يحاصرها بجسده، يقمع أنوثتها اللينة برجولته، يخرس كل أصوات التمرد والعقل نازعًا كل سُور تحاول بناءه بيديها، انفصل عنها للحظة مدركًا أن وقته قد نفد، فقال بعذاب وأنفاسه متلاحقة متسارعة: «رباه، لم أعتقد أن قولها سهل ووطأها حارق مؤلم، ولكني أحبك ولعدم عدلي الأخير فيكِ تمنيت لو كان بإمكاني في هذه اللحظة أن أضع فيكِ بذرة أخرى.»

لم يتوقف مرة أخرى، لم يستطع أن ينظر إليها وهي بهاتين العينين الرماديتين المذهولتين، فحررها أخيرًا وهو يفر من الغرفة هاربًا، بينما بقيت هي للحظات تتنفس بصعوبة بنفس الملامح الذاهلة غير المستوعبة، إلى أن أطلقت أخيرًا شهقة طويلة وكأنها أخيرًا تعود لاستيعاب ما يحدث حولها، انزلقت على الحائط ببطء محاوِلَةً استعادة نفسها، تستعيد كلماته في عقلها قبل أن تشهق بذعر متوسل: «رباه، أنت ناصر المظلومين وَعَدتَّ في كتابك الحق أن تعاقب المجرمين.»

ما حدث خلال دقائق كان ضربًا من التسارع المجنون، توصَّل فهمي لهاتف عمر، يطلبه مرارًا وتكرارًا بجنون، إبراهيم يدق عليه بتواصل مضطرب، حتى شريف لم ينجُ من رسائله، رفع سائد عينين حمراوين بلون الدم لعمر وقال بشراسة حيوان جُرِحَ سابقًا على يد صياد أحمق، لم يعمل حسابًا لعودته يطالب بأكله حيًّا: «لقد حان الوقت، إلى هنا وانتهت رحلتنا.»

اتسعت عينا عمر قبل أن تشتعلا بجنون انفجر في لحظة، وهو يرى سائد يُخْرِج سلاحًا ناريًّا كاتمًا للصوت وهو يقول ببرود جاف مهددًا

بخطر لن يتراجع عمَّا ينتويه أبدًا: «أنت ستبقى معهنَّ، وأي خطوة منك أو محاولة للحاق بي، ستكون زوجتك إحدى ضحايا رجالي.»

تحولت ملامح عمر للصدمة التامة، بينما يشعر بجسد رابحة الذي اختبأ وراءه ينتفض بذعر، بينما يقول عمر بذهول: «هل هذا وقت مزاح الآن؟! هل خدعك أحد وأخبرك أنك تملك حس فكاهة ما؟!»

أشار سائد بسلاحه الذي يشهره في وجه أربعتهم وقال بنبزة حازمة قاطعة لا تقبل جدالًا أو فصالًا: «أنت من أدخلت أرواحًا بريئة في صفقتنا رغم أني حذرتك منذ أن لمحت عيني تلك الأنثى خلفك؛ لذا لا تلُمْني إن كنت أنانيًّا مثلك وضحيت بأحدهم حتى أحافظ على روحك أنت.»

صرخ عمر فيه وهو يقترب منه حتى ثبت فوهة السلاح في صدره مباشرة: «هذا سخف وجنون لم أسمعه منك يومًا.»

ضغط سائد فوهة السلاح في صدره قاصدًا إيلامه وقال من بين أسنانه بعنف: «وأنت إنسان أناني، الغباء يعلو عندك في كثير من الأحيان، تضحي بامرأة أحببتها وأمل يكبر بين أحشائها مِن أجل ماذا؟ دورك انتهى، خذ زوجتك واهرب من هنا، دع أحدنا ينجو يا عمر، أحدنا يحمل راية الأمل ويُخبر العالم أننا مررنا منه يومًا.»

هتف عمر بقوة وصدق وهو يغطي السلاح بكفه: «لم نسر على خيط رفيع كل هذا العمر بين النار وأشباح الموت لأتركك هنا، هذه اللحظة كانت حلمنا سويًا، لماذا تُصر بجنونك المفاجئ أن تحرمني منه؟! هذا ثأري أيضًا، إن كانت شعلتك آية وطفلك، فأنا ثأري كل روح شاركتها لقمة عيش سدت رمق جوعنا سويًّا، كل واحد مما قتله فهمي لديَّ معه ذكرى أو ضحكة خرجت من باطن الوجع، نوم ساعات ملتحفين ببعضنا بعد

عصير الكتب للنشر والتوزيع

يوم منهك طويل هاربين من أشباح الموت، كل طعنة مشرط ضربت في أجسادهم لي ثأر فيها يا سائد.»

شعر بها تنضم إلى الوجوه المصدومة غير المستوعبة لما يحدث، فمنحها نظرة من خلف كتفه كانت شاحبة خائفة، ولكن كما أمل فيها يومًا، قوية تخطو نحو الصمود بمهل.

عاد بعينيه لعمر، ثم قال ببطء: «صرختك وصلت، وكلها ساعات وستكون قضية رأي عام تتفجر بين أطياف المجتمع، هدفي أنا كان ثأرًا أحتاجه، جوعًا عنيفًا للقتل، سيطر عليَّ حتى أصبحت أملك ما يقومني، وها أنا أتشرب ما تاقت إليه روحي خمسة عشر عامًا وأوشكت على ري ظمأي، أما أنت كان هدفك صحوة لمجتمع مات ضميره وحكومات تتغاضى عن قَصد، وأتممت أمرك على أكمل وجه.»

أغمض عمر عينيه بيأس، بينما صمت سائد ينظر من فوق كتف عمر يمنح رابحة نظرة خفيفة ثبتت على بطنها بغموض جعلها تحاوط جنينها بذعر مجهول، رفع عينيه يبتسم لوجهها ابتسامة خفيفة في عينيه وقال بصوت أجش مكررًا: «أنت تستحق فرصة معها، لا تكن أنانيًّا، لن أسمح لك بارتكاب خطأي الذي كررته مرتين.»

قال عمر من بين أنفاسه بعنف مماثل لعنفه: «وأنا لن أسمح لك بتنحيتي وأنت في أمسِّ الحاجة إليَّ، أنا كُشِفْتُ وانتهى الأمر، سأخوض معك تلك الجولة كما كنت دائمًا، إما أن يُكتب لنا النجاة سويًّا أو ...»

لم يستطع عمر أن يكمل جملته؛ إذ شُلَّت جميع أطرافه فجأة وانهار كجدار ضخم على أرضية الشقة البسيطة، بينما صرخت صفية أخيرًا

بعنف فرمقها سائد بنظرة ذئب مفترس جعلتها تندب خديها بخوف وتُلجم لسانها في لحظة، هرولت رابحة ناحية عمر صارخة: «ماذا فعلت يا مجنون؟»

انحنى سائد نحو جسد عمر يُبعد يدي رابحة عنه، ثم سحب منه هاتفه ومفتاح سيارته، كل شيء قد يساعده على اللحاق به بينما يقول ببرود لاذع: «اخرسي يا امرأة، واعتني به جيدًا ليس هناك خطورة مجرد صاعقة كهربائية مرت في جسده ستشله لبعض الوقت الذي أحتاجه لأبتعد تمامًا عن هنا.»

اعتدل أخيرًا ينظر لقُصَيٍّ الذي يرمقه بتعجب يخالطه الاستسلام فأخبره: «قُصَيُّ، أنت رجل كما تعشمت فيك، حافظ عليهنَّ حتى يستيقظ الأحمق.»

أومأ قُصيٌّ له بفهم متذكرًا مقابلته معه بالأمس، شارحًا له باختصار غامض رفض أن يفصح عن ماهيته الحقيقية أن كليهما مهدد بالخطر، ولكن عمر يجب أن يبقى بعيدًا حتى ينهي هو الأمر، ثم يصطحب رابحة من هنا هاربًا بها وطفلهم.

تركهم على حالتهم ما بين الهلع والجمود والتفهم، وتلك النظرة في عينيها بلون غيم السماء لاح شبح ابتسامة على شفتيه، لم تفهم معناها قبل أن يفتح الباب ويغادر أخيرًا.

«سنذهب»، قالها باقتضاب لوجه إبراهيم الذي لاح له على أول درجات السلم، بينما وقف رجلان شديدان كسدٍّ منيع أمام شقة أهل رابحة المتواضعة، قبل أن يقطعا السلم مهرولين كان إبراهيم يلتفت

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إليهم ليخبرهم: «الأوامر لا تقبل الفصال، إن أُجْبِرْتم فلا مانع بتهديده وتقييده، ولكن إياكم واستخدام العنف.»

هز الرجلان رأسيهما، بينما اختفى كل أثر لهم.

بعد وقت قصير فتح عمر عينيه ببطء يستعيد وعيه الغائب بتشوش، وشعر بجسده الذي شُلَّ لمدة لا يعلم مداها يعود للعمل مع الشعور ببعض بقايا تشنج، للحظات كان يقلب نظراته في وجه رابحة الباكي التي تسند رأسه على قدميها، وحماته التي تلطم خديها تمتمت بهمس: «ما الذي أوقعتِ نفسكِ فيه يا معدومة البخت؟ ترى ما الذي ينتظركِ ووليدكِ؟»

استغرق حوالي عشر دقائق أخرى، ليستطيع أن ينطق لوجه قُصَيٍّ المشرف عليه ببهوت: «منذ متى خرج؟»

رد قُصيٌّ سريعًا: «ربما نصف ساعة على أقصى تقدير، ولكنه يوقِف رجالًا خارج المنزل، وقال: إنه سيفعل أي شيء حتى يمنعك من الوصول إليه.»

اعتدل عمر بترنح بسيط وبدون تردد كان يفرد ذراعه يجذبها من خلفه ليدفنها على صدره يهمس بجانب أذنيها: «تعرفين أني أحببتك».

هزت رأسها مع ازدياد بكائها حدة، فأكمل دون حرج بصوت هادئ رزين: «وأعرف أني غبي وهو أحمق، ولكن يجب أن ألحق به، لن أسمح له بأذية نفسه، كلانا درع حامٍ للآخر يوقفه عند أي تهور أحمق منه، يحيده عن طريق الهلاك.»

رفعت عينيها الباكيتين أخيرًا تحيط وجهه بكفيها الدافئتين، ثم قالت بنبرة رغم تهدجها ولكن واثقه تشع حبًّا وتفهمًا: «فقط تذكر أني

أحتاجك وأنت هناك، احفظ لي روحك، لن أستطيع أن أعيش لحظة أخرى من بعدك يا حبيبي.»

استسلم ليدها دون حرج وقال بصوت أجش: «أنتِ قوية أعرف هذا.»

ردت ببساطة: «بل أنا من بعدك أشبه بكائن هش ضعيف لا يملك حتى قوة ليدافع عن نفسه، لا تغتر في تسلحي بالقوة للدفاع عن طفلك، أنا أقوى بك.»

لم يستطع أن يجيبها وقراره محسوم لصالح رفيق عمره منذ زمن ماضٍ لم يعد حتى يذكر عدد سنواته، دون أن يمنحها إجابة شافية أو ينتظرٍ منها حجة أخرى مقنعة كان يدفن يده في شعرها من الخلف يسحب رأسها إليه، يقبِّلها بنَهَم وجنون لا يمتُّ لشهوة أو رغبة قط، بل اعتراف بكل معاني الحب والحنان والاحتواء والدفء لم يجربه مع إنسان سواها يومًا.

انفصل عنها ودفعها برفق، قفز على قدميه التي استعادت اتزانهم أخيرًا، أخبر قُصَيًّا بنبرة آمرة متسلطة: «ما النافذة التي تُطل على المواسير الداخلية لمنور المنزل؟»

بصمت أشار إليه قُصيٌّ وهو يقول بنبرة خفيضة: «هنا، ولكن هذا لا يعني أنك ستلحقه لقد أخذ كل شيء.»

نظر إليه عمر يهز كتفه بلا مبالاة وهو يتوجه للنافذة مكان ما أشار وقال: «لم يأخذ دراجتك النارية، امنحني المفتاح يا فتى.»

لم يتردد قُصيٌّ في إخراجه ومنحه إياه، بينما قفز عمر برشاقة متعلقًا بأحد المواسير، لم ينس أن يطلَّ بوجه يخبر رابحة بنظرة حاول وضع كل حنان العالم فيها وهو يهتف: «سأعود يا حالمة، لا تشعريني أني ذاهب للحرب.»

التفتت إليه برأسها وقلبها يقرع كالطبول بجنون وهي تقول بنبرة متوسلة بأمل: «أعرف يا عمر أنا أثق بك، وتلك ليست مرتك الأولى لمحاولة إرعابي.»

أغلق جفنيه للحظة كأنه يطبع ملامحها في عقله وهو يقول بألم: «أعدكِ لن تكون الأخيرة، يا أم ريان.»

مصيبة ألَّا تدرك خطأك، وكم مُرْضٍ أن تعترف بجريمتك، وكم هو مزلزل نازع كل ذرة بشرية ألَّا تبرر لنفسك بإقناع أن جريمتك فقط خدمة لمجتمعك، فلا تترك مجالًا للشك أننا فعلًا أصبحنا نعيش «بغابة»، غابة أكثر توحشًا وفتكًا حتى من تلك التي تسكنها حيوانات قد تكون أكثر رحمة وعدلًا منا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

في نفس المكان، وبنفس أجواء التخبط والخوف الغريزي الذي يغذي شرايين من أمامه من مجهول لا يفهم أسبابه على حق، لا يدرك حتى إلى أين ينتهي، رعب عاشه هو وانهيار كل بادرة أمل وذرة كرامة، شعور أنه بشري، إنسان مثلهم يستحق فرصة وهم أنهوه لأنهم قرروا فقط، لأنهم كانوا من القوة لتحديد مصيره.

ورغم كل هذا كان فهمي يستطيع أن يسيطر عليه بقوة جرَّاح بارد جليدي يُحافظ على هدوئه، متمكن من كل عصب في جسده، وقف أمام سائد بسيطرة يتأمله بتمعن، يرمقه بنظرة غرور مستخفة ومهينة، وكأن مَنْ أمامه يهدده ويمسك برقبة ابنته بين يديه، يمثل في فيلم شديد الهزلية.

صرخت أسماء صرخة صغيرة مذعورة: «بابا، أنقذني يا بابا.»

نظر فهمي حوله بعجز للحظات مدركًا أنه يقف وحده كما طلب منه هذا المجرم سابقًا بعد أن أجاد صنع الفخ ومراقبته، وهو استسلم للأمر بعد أن وازن ما يحدث في عقله جيدًا فوجد أن كلا الخيارين خسارة، فلو استعان برؤسائه وأخبرهم أن كل شيء قد كُشِفَ فلن يترددوا لحظة في الخلاص منه كما تخلص هو من غسان قبلًا، ولكنه قد يجد فرصة ما في مواجهة هذه الحشرة، يساومه على ما يريد، يهدده بابنة غسان التي علم أنها كانت تعمل عنده ثم تزوجها، لقد ظن أنه مجرد انتقام أحمق مع ابنة غسان، ولكنه عاد ليتذكر كل شيء متى بدأ وكيف ومتى اختفت دجوى تمامًا دون أثر، وأيضًا ما تفوه به هذا الرجل ولم ينتبه إليه هو زوجته وطفله، لا يذكر أنه استخدم جسد امرأة من طبقة تملك نفوذًا أو مالًا، دائمًا يحرص على استخدام تلك القذِرات التي تملأ الشوارع ليخلص المجتمع من أعبائهن.

«سأخلصكِ منه حبيبتي، لا تخافي، بابا هنا.»

شدد سائد يديه حولها، بينما يُخْرِج سلاحه من جيبه، وفمه مال بقسوة، بينما عينيه أقل ما يقال عنها في تلك اللحظة: إنهما تفقدان أي أثر للرحمة.

«الضنى غالي يا فهمي أليس كذلك؟ إذن كيف يكون شعورك إن فقدت طفلك وسُلِبْتَ كرامتك؟»

ظل فهمي مكانه صامتًا لا يتحرك، لم يهتز بينما كانت عيناه شديدة البرود والغرور لدرجة تثير نفور الناظر إليهما، ثم ما لبث أن قال بصوت جامد: «مَنْ أنت؟ وإلامَ تسعى خلف كل ما تفعله؟»

قال سائد بصوت حاد كالسيف المصقول: «دمك، كما سال دم زوجتي وطفلي ظلمًا.»

تحرك فهمي مقدار خطوة منه وهو يقول ببرود: «أنا حتى لا أتذكر عن من تتحدث، وكل ما تقوله كذب، مجرد مجرم جبان يتخفى وراء جسد طفلة.»

كانت أسماء ترتعد رعبًا وذعرًا حتى شعر بابتلال جسد الفتاة بين ذراعيه، لم تهتز ملامحه ولم يفقد ذرة تعقله رغم الوحش الكامن بداخله، ذلك الذئب القابع فيه ويزأر مطالبًا بالهجوم والقصاص، هز رأسه نفيًا مقاومًا نفسه.

وهو يفلت الطفلة منه ببطء، ثم قال بخفوت بَدَا كساطور بارد يقطع الأوصال: «لم أكن جبانًا يومًا، ولم أهرب من مواجهة وإلا كنت قضيت عليك بطلقة واحدة لا تعرف حتى من أين أتت.»

قطع كلامه وهو يقول بأمر حاد: «مُرِ ابنتك تهرب من هنا قبل أن أُرديها معك.»

تردد فهمي للحظات، فلم يمنحه سائد فرصة للتفكير وهو يأمره بصوت كالجليد: «أنت لست في موقف قوي هنا لتفكر، قرِّر إما أنت أو ابنتك.»

صرخ فهمي بخوار مجنون: «ألم تسمعي؟ اركضي من هنا وإلا عاقبتكِ.»

ترددت الطفلة المنهارة برعبها بينما تتوسله بنبرة ضعيفة لم تستوعب ما يجري حولها، حاول سائد أن يحجم جحيم عينيه وقلبه عنها، عن وجهها الرقيق المصدوم غير المستوعب وغير المدرك إلا أنها ستفقد

أباها، فذكره بوجه أخرى عاشت صدمتها وانهار جدار حمايتها وفقدت فيه مثالها المقدس مثل كل فتاة.

ارتمت أسماء في حضن أبيها للحظات قبل أن يبعدها فهمي وأمرها بشراسة: «اهربي من هنا».

قالت بطفولية: «سأذهب للشرطة يا بابا».

ركضت مسرعة بينما عرفت الضحكة أخيرًا حنجرة سائد فخرجت ساخرة متشفية وهو يقول: «الشرطة! صغيرتك البريئة، أتساءل ما جريمتها هي وأمها لينتميا لحقير مجرم مثلك؟!»

ظلت عينا فهمي في عيني سائد على ثباتهم المغرور قبل أن يقول بصوت منفر مقزز: «هل فعلت كل هذا لتستنكر فقط علاقتي بأهل بيتي؟!»

«حسنًا وبعدُ لآخر مرة أسألك ما الذي تريده؟ جرذان وماتا.»

دون مزيد من التفكير أطلق سائد رصاصة بجانب قدمه فخرج صوتها مدويًا ومُرعبًا جعل فهمي أخيرًا يصرخ وهو ينتفض من مكانه يحاول الوقوف دون أن يجد ثباته مرة أخرى، بينما قال سائد بصوت جامد مخيف: «روحك بالطبع فعلت كل هذا لأرى الرعب في عينيك، الذل فيهما وأنت تتمزق أشلاءً تحت قدمي، حلم لطالما داعب صحوي ومنامي.»

تراجع فهمي للخلف بوجه شاحب ملامحه ترسم الرهبة بأبشع صورة وهو يقول: «تبًّا لك مَنْ أنت؟ أنا حتى لا أتذكر ما تتحدث عنه.»

لم يشعر سائد بشيء لا الزمان ولا المكان ولا حتى شريف الذي تحرك أخيرًا محاوطًا المكان حوله يصرخ فيه آمرًا بسطوة جبارة: «اخفض سلاحك يا سائد دورك انتهى إلى هنا، وحصلنا على كل الأدلة.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لم يتحرك أنملة واحدة، ملامحه بَدَت مرعبة أكثر، زادت عيناه خطورة وإجرامًا، خرج صوته مدويًا بنبرة أشد سطوة: «من الأحمق الذي أخبرك أني سأصل لهذه النقطة ثم أتخلى عنها؟ دم فهمي سيُهدر هنا، أو دمي أنا كما وعدته.»

هتف صوت إبراهيم قائلًا بقوة: «وعدت ألَّا تلوث يدك بالدماء، يكفيك ما أهدرته من عمرك، لن تذهب لحبل المشنقة من أجل كلب عديم الرحمة.»

إلا أن سائد بَدَا كمن فقد السمع والشعور وانتقل إلى عالم يخصه وحده، محاطًا بالحقد والنشوة، بالقوة والسادية وهو يراقب ملامح فهمي التي تنتفض بشحوب، رجل فقد كل شيء في لحظة بغير حساب أو تخطيط، التقت عيناهما أخيرًا مرة أخرى، اقترب منه سائد مع حرصه أن يكون على بُعد خمسين مترًا فقط، ثم قال: «جرذان! هل تنظر لنا على أننا مجرد زواحف قارضة ضارة تُخلِّص المجتمع منها، هل وأنت تغتصبها كنت تراها بهذا الشكل؟ أم حيوان قذر مثلك لا تفرق معه إن كان يعاشر جرذًا أم حتى مجرد كلب في الشارع؟!»

أخذ فهمي يقلِّب عينيه في الجمع المحيط وأنفاسه تلهث بتحشرج، عيناه تتسعان حتى ظهر بؤبؤهما كمن غادرت روحه جسده، بينما تابع سائد بنبرة بدأت تأخذ روحه لحضيض ما رآه: «طفلتي التي حميتها من كلاب الشارع، وطفل وضعت فيه كل أملي أن أحيا مثلكم، فأتيت أنت وغسان الهاشمي لتقررا أنهما مجرد حفنة من مالكم العفن، ثم لتزيد أنت ذبحي تقرر أن تسرق كرامتها وعزتها التي منحتهم أنا إياها.»

قال فهمي وهو يعتدل أخيرًا بصوت خشن كريه دون مزيد من التفكير: «الآن فقط تذكرتك وتذكرتها؛ عسلية العينين، الفضولية ذات

البطن المنتفخ بمزيد من الحيوانات الضارية مثلكم، لطالما تساءلت هل هي حتى تعلم من هو المسئول عن هذا الطفل أم تجهله من كثرة عددهم؟ أرى أنك تبالغ قليلًا في تقدير تلك الع...»

طلقة أخرى أصابت ساقه مباشرةً فَخَارَ على الأرض مثيرًا الأتربة من حوله، بينما ساد الهرج من حول سائد مرة أخرى وشريف يصرخ فيه مكررًا أمره بحدة: «سلِّم نفسك يا سائد وإلا سأتعامل معك.»

لم يلتفت ولم يفكر وهو يرفع سلاحًا يصوبه بدقه ناحية قلب فهمي الذي يتلوَّى أرضًا بجراحه، «توقف يا سائد، لم نتفق أن تلوث يدك بدمائه القذرة.»

جاءه الصوت الهاتف كقصف مدفع في صدره، بينما اخترق عمر المكان دون تردد يقف حائلًا بينه وبين فهمي.

تسمرت عيناه على عمر لحظة، لكنه قال بصرامة: «كيف أتيت هنا يا غبي؟ ابتعد عن وجهي.»

هز عمر رأسه وهو يقول بجمود: «يبدو أنك رغم كل شيء نسيت أننا في الأصل تربية شوارع، العام الواحد نكبره نحن عشرة أعوام، هل اعتقدت يا أحمق أن رجلين تدربا في النوادي الرياضية قادرين على إيقافي؟!»

لم يبدُ على سائد أي انفعال، وهو يقول: «ابتعد يا عمر عن طريقي، لقد انتهى طريقنا يا صديقي.»

بإصرار قال عمر: «لن يحدث، إن ضربت رصاصة أخرى يا غبي، لن يتردد هذا المتعالي شريف أن يُرديك قتيلًا ويتخلص منك كما تفضحه عيناه برغبته منذ أن رآنا أول مرة.»

هنا فقط أدرك فهمي لخسارته كل شيء مع ألم ساقه الذي لا يرحم وأعضائه التي تحترق وتتفتت كألف وألف طعنة سكين حادة تضربه في الثانية الواحدة، لقد كان يحترق، بحسبة بسيطة أدرك أنه لا محالة مُنْتَه ذليلًا وخاسرًا شرفه واسمه وشهرته، كل شيء دون بادرة أمل أراد الموت، ولكن ليس قبل أن يأخذ هذين القذرين معه، أتاهم صوت فهمي أخيرًا من وراء ظهورهم وهو يقول بضحكة مستفزة خائبة: «عرض هائل أسفلت الطرق يتعازم عليَّ أنا، هل يؤلمك أني شرفت تلك العاهرة بمضاجعتها، لا أذكر أنها كانت مستاءة؟!»

صرخ سائد بجنون وهو يزيح عمر من أمامه: «اخرس يا نجس يا حثالة.»

لم يتوقف فهمي وهو يقول باستمتاع سادي حتى وعمر يعود يحاول أن يقف حائلًا بينهما: «طفلك تقصد جنينك، كم كان ملمس كليتيه الصغيرتين ممتعًا، وقلبه الصغير الذي نبض بين يدي يمنح شعور الانتشاء واللذة وأنا أقضي على صرصور سيزعجنا إن سمحتُ له بالحياة، بينما أمنح كنوزه لأسياده ولمن يستحق!»

ساد التوتر الشديد عقب كلمات فهمي المنتحرة، بينما كل عضلة متشددة في وجوه ثلاثتهم؛ إبراهيم وعمر وشريف، نطق إبراهيم بصلابة: «اتركه يا سائد يحاول استفزازك أنت بهذا ستمنحه رصاصة الرحمة بدل أن تترك مصيره مع القضاء لينال ما يستحقه.»

سحب سائد الزناد وبعينين شديدتا السواد مرعبة وقال بملامح صلبة: «أتركه للقضاء سنينًا وأعوامًا يتنعم بهواء الدنيا حتى يُبَتَّ في أمره أو حتى يجد له رؤساؤه مخرجًا، لا، لن يحدث.»

عَمَّت رائحة الموت والخراب في لحظة، بينما الدنيا تظلم أكثر وأكثر من حولهم حتى صار ظلامًا دامسًا في عينيه لا يبصر صورة منهم إلا صور فهمي الذي يقف الأحمق عمر حائلًا بينهما.

«ومن أجل خاطري، ابقَ حيًّا»، لا يعلم من أين أتى صوتها الناعم يهمس لخلاياه، بينما يتبعه همسها المقهور تحكي عن العذاب والذل الذي رأته على يد من أمامه، فأصبح جرمه جرمين وموته خلاص واجب لن يستطيع أن يتحرر منه.

«أخطر الأصدقاء من يأتي في موقف كارثي مجنون كهذا ليمنعك من الفتك بعدوك فيمنحه نقطه قوة ضدك.»

وهذا ما فعله عمر تمامًا في محاولة ليست في محلها تمامًا، كان يقف أمامه محاولًا منعه بإصرار، بينما صوت إبراهيم وشريف يهدر به يكرر الأمر، استند فهمي على سيارته وهو يحترق ذاتيًا بعذاب، بسبب مادة «الثرميت» الحارقة والتي تجعله يشتعل داخليًّا كأنه أُلقِي في بركان هائج بحممه المنصهرة والتي استخدمها سائد بقصد في نوع الرصاص الذي جهزه لضرب فهمي.»

بصوت ميت قال سائد: «للمرة الأخيرة ابتعد يا عمر، بدل أن اقترب منه لأقتله وأحرق نفسي معه.»

فتح عمر فمه ينتوي أن يقول شيئًا ولكنه لم يُمْنَح الفرصة، عندما جحظت عيناه بتوسع مصدوم وتحول وجهه كلوح رخام أبيض هاربة منه كل نقطة دماء بالترافق مع صوت رصاصة الغدر.

«عمر!» عواء صوت سائد كأنه صوت ذئب حقيقي ينعى رفاقه في ليلة غاب القمر فيها فغدر بهم على حين غِرَّة.

خرَّ جسد عمر في ثوان صريعًا بينه وبين فهمي الذي كان يقف نصف مستقيم بملامح باردة وعينين تنفسان شررًا كعيني التمساح الذي ظفر بفريسته للتو بعد أن نجح في إغوائها.

كان سائد يلهث بفقدان سيطرة، لم يدرك أن دموعه تهبط وقد أعطى شريف أخيرًا إشارة لرجاله للهجوم فقط، رفع سلاحه يركز على هدفه ودوى صوت رصاصه أخيرًا في صدر فهمي النجار مباشرة مفرغًا فيه ثلاث طلقات متتالية.»

ثم هبط أخيرًا على ركبتيه جارًّا رأس عمر على صدره رافعًا وجهه للسماء يصرخ بعذاب يقطع نياط القلب ويقتل الروح يحرق الضمير بعذابه، يقول: «لماذا أنا الذي أحترق؟!»

كان يئن دون حرج، دموعه تهبط دون أن يحاول أن يمنعها يكرر بجنون وهذيان: «إلا أنت، أنا لم أملك أهلًا ولا سندًا إلاك، لماذا يا غبي؟»

لم يلتفت أحدهم إلى فهمي الذي كان جسده كله يحترق، أنفاسه وحنجرته أعضاؤه الداخلية تنفجر لشظايا صغيرة عبر هذا الرصاص الحارق الذي يتفتت، فمه تخرج منه غرغرة الموت دون أن يطوله يشعر بالسكاكين والخناجر تطعن فيه حيًّا دون أداة حقيقية، حمم النار تصهره بدخان غير مرئي وكأنه ذهب لجهنم وبئس السّعير دون أن يفقد أنفاسه بعدُ.

شهقات سائد المتتالية كأنه عاد طفلًا صغيرًا مذعورًا خُطِفَ من أمام بيته وأدرك هول ما أُلْقِيَ فيه للتو جعلت تلك الجدران وكتلة العضلات من الحنان المسمى إبراهيم يبرك أمامه يبكي دون صوت لا يصدق هول الموقف، بينما ظل شريف يخبط رأسه في جدار سيارة الشرطة بعذاب

يهمس: «لماذا قضيتما على كل ما بنيناه وخاطرت أنا فيه من أجل قضيتكم؟»

«أقبح ما في سلاح الانتقام أن ينقلب ضدك، فلا تحقق غايتك إلا بفاجعة تخسر فيها آخر ما تبقى من روحك.»

نهاية العالم أن يموت كل جميل، أن نصحو كل صباح ولا نجد الحبيب، نهاية العالم أن تفارقنا روح كانت تتوق للخلاص لحياة جديدة لأمل لحلم، أن تعيش بكرامة، أن تطال ما سلب منها بغير حق، من قال: إن المفقود الذي استراح هو الميت، بل الميت هو الحي الذي يتلقى الخبر في قلبه، فيحترق ويموت ليصبح ألمه لا يوصف ولا حتى يستطيع أحد أن يتخيل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ما أقسى حروف إبراهيم التي تخرج مترددة متحشرجة بقميص ملطخ بالدماء، دماء أحد الرجلين الحبيبين، وضعت دجوى كفيها على فمها بقوة بتعصب بتشدد تكتم شهقة ألم وذعر، تكتم صرخة قهر تريد أن تخرج تخبره لا تخبرنا عن اسم المفقود.

بينما صَمَّت رابحة أذنيها بكفيها المرتعشتين تهز رأسها نفيًا عنيفًا ورفضًا مصرًّا تخبره تمتم بحسرة بعذاب: «بالطبع ليس والد ابني ليس أميري الذي أحببت، لا يمكنه أن يكون عمر، لقد وعدني بالعودة لِمَ لم يأتِ معك؟!»

هل ستكون أنانية لو تمنت أن مَنْ فُقِدَ لم يكن سائد، توالت دموع دجوى بقهر لتغرق كفيها، بينما تراقب رابحة التي كانت تترنح بعدم

اتزان، تدور عيناها في كل مكان رافضةً أن تنظر لعيني إبراهيم الذي أجاب سؤالهم المعلق دون أن ينطق حقيقة.

صرخت رابحة بصوت ملتاع صرخة تتبعها صرخة بقلب جريح شق سكون الليل الحزين، تنادي باسمه بينما تحاول صفية ضمها بقلة حيلة دون جدوى، فشاركتها نعيها للحبيب بعجز.

إحساس قاسٍ، هذا وكأن الفقد جمرة تحرق القلب، سارق يسرق العقل، وعين كففها الدمع: «أنا أحترق أمي، أنا مت يا أمي.»

كان هذا آخر ما نطقته رابحة قبل أن تسقط بين أيديهم في إغماء لا يعلم أحدهم كم سيطول.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بعد أربعة أشهر أغلقت الصحيفة بعنف وألقتها جانبًا وهي تستند على ركبتيها، فركت يديها بتعصب في بنطالها الجينز الأسود، الذي يماثل بلوزتها سوادًا، للحظات كانت عيناها تتحجر كالياقوت الأحمر عاجزة عن رؤية كل شيء إلا السطور التي قرأتها.

رمقت رفيقتها بنظرة أخرى جعلت كل ملامحها تضعف في لحظة بتعاطف، أربعة أشهر ولم يتغير شيء، لقد فقدت صوتها وسمعها ودخلت في حالة صدمة ونكران، فقط دمع عينيها المقهور المتواصل وبعض لقيمات تدخل جوفها من أجل طفله الذي يكبر بين أحشائها، تلك هي العملية الحيوية الوحيدة التي تخبرهم أنها ما زالت بينهم تتنفس وعلى قيد الحياة.

سألتها صفية بصوت حزين: «اليوم هو يومه الأخير».

ساد الصمت طويلًا قبل أن تقول دجوى بسخرية مريرة: «نعم، اليوم هو نطق الحكم على ذئب الليل قاتل أطباء الرحمة في قضية العصر الضخمة، بعد كل ما قدمه لهم بعد كل هذه الأدلة ما زالوا يتكتمون على صرخة فارسينا مصرين أن سائد هو قاتل العصر!»

«من أقبح أنواع الاستبداد: استبداد المال على العدل، والسياسة على رقاب البشر، والأمان المزعوم على أجساد الضعفاء.»

الاستبداد يقيد الحقائق في الأذهان، ينكر حق الفقير لصالح جهة لا أحد يعلم حتى من هي.»

أَيُعْقَل بعد كل هذا أن يضع الشر كلمته الأخيرة، أن ينجح الظلم في أن يرسو بأشرعته وأن يبحر بحُرية وسبات في بحر من الظلمات؟!

«كيف يُعقل أن ينتصر الشر على الخير في معركتهم الأبدية؟!»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تمت

الخاتمة

عند الإغريق أسطورة تقول: إن «شابًّا» حبسوه في إحدى «المتاهات»، ولكن حبيبته قد وضعت في جيبه خيطًا طويلًا يتركه وراءه يتدلى لعلها تهتدي إلى إنقاذه بعد ذلك، وهذا ما فعله الشاب الحبيس، وهكذا أنقذته حبيبته الفتاة.

«أريان»، هذا «الخيط الهادي» دخل التاريخ تحت اسم «خيط أريان» الذي يهدي من بالسجن إلى الحرية، ومن الظلام إلى النور، ومن الظلم إلى العدل.

أنيس منصور

عصير الكتب للنشر والتوزيع

«هدوء»، نطقها القاضي بصوت جهوري وهو يخبط بمطرقة عدله في محاولة واهية للسيطرة على حالة الهياج إثر تلك القنبلة التي ألقاها شريف في وجه الجميع ودعمه إبراهيم بتلك الأدلة والمستندات والفلاشات الإلكترونية.

وأمر شريف بصوته الجهوري: «هدوء يا حضرة الضابط، لو لديك أدلة فلتقدمها للمحكمة وتنتظر دورك.»

فَقَدَ شريف السيطرة وبركان غضب مكبوت عبر شهور طويلة من جمع الأدلة ومن السير وراء كل خيط لجمعها، من تلقِّي الصدمات من هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم «آلهة» تحكم بالموت والحياة على من تريد، ومن ينال عندها مرتبة بشرية ومَنْ منهم ينظرون إليهم نظرة عديمة الرحمة؛ فيشحذون أسنانهم كاشفين عن خسة نفوسهم، وهتف بتعب: «لقد قدمت كل ما لديَّ وأدليت بشهادتي، إنه لم يقتل وهؤلاء لم يكونوا مثالًا للرحمة وهم عار على مهنة ينتمون إليها، لقد اتخذوا من أسمائهم ومهنتهم ستارًا مشين لتجارة الموت.»

وقف وكيل النيابة الذي قام بالتحقيق مع سائد وهو يقول برفض محتدٍّ لما يتفوه به شريف: «إن المتهم لم ينكر.»

التفت إليه شريف يخبره من بين أسنانه: «ولم يعترف، فالمتهم صامت تمامًا، لم يعلق على شيء منذ حدوث تلك المهزلة.»

صمت لبرهة قبل أن يخبط على المنصة أمامه ويتابع بانفلات: «وإن كان قتله حتى، هل تريد أن تقول: إن العالم سيتأثر بموت كلب مثل فهمي وحماد والبقية؟!»

عاد القاضي يخبرهم: «هدوء وإلا سأكون مجبرًا أن أتهمك بعدم احترام محكمتي يا سيادة المقدم.»

عم الصمت التام بعد حالة الهياج التي كانت، شريف ينفث اللهب، الصحافة متحفزة لأي خبر جديد تَغْزِل منه حكايات وروايات كذبًا وصدقًا حتى تحقق أعلى إيرادات، ليس مهمًّا من الظالم ومن المظلوم، من الصادق ومن المدَّعي، طالما تلك القضية مستمرة ويستطيعون كتابة العديد من المقالات من مكاتبهم المكيفة وبنهاية كل مقال كم كلمة منددة

بالسياسة وحالات الفقراء، وآخر الليل يذهب لينام ببال مرتاح في منزله وبين أولاده، ناسيًا أو متناسيًا بل لا يخطر بباله من الأساس حفنة من البشر تموت بردًا وجوعًا أو حتى تحت مشارط ملائكة الرحمة!

اقترب إبراهيم من سائد الذي يقف داخل القفص الحديدي يهتف فيه بتشدد: «تكلم، قل أي شيء، دافع عن نفسك، أطلق صرختك التي كنت تتشدق بها.»

ما زالت حالة الصمت المصاحبة للتحفز ونظرة ضباع جائعة وجدت فريستها هي ما يرتسم فوق وجوه كل الحاضرين، لوقت طويل جدًّا كانت عينا شريف تصرخ بنيرانه وكل أماني العالم بداخله تُختصر في أمنية واحدة فقط: «القفز داخل القفص وتمزيق مَنْ أمامه إربًا حتى لا يبقى منه شيء».

بينما سائد يراقبهم بصبر لم ينفذ منه خيوطه بعدُ، وماذا قد يخسر بعد لعبة كان مُقدِمًا عليها بروحه وللأسف نجا، كان يعلم أنه إذا تحدث الآن سينال التكذيب وعدم التصديق والمحاربة؛ لذا صَمَتَ حتى يجذب أكبر عدد ممكن، وفي الوقت المتفق عليه تمامًا بالتعاون مع شريف قرر أن يتحدث أخيرًا ملقيًا بما في جعبته، فخرج صوته صلبًا باردًا قاسيًا: «سيادة وكيل النيابة عندما علم بخلفيتي الحقيقية عاملني كمجرم، ولم يشفع لي سجلي التجاري النظيف ولا حتى هويتي الأجنبية، فبالنهاية أصولي طفل شارع مجهول النسب.»

هتف وكيل النيابة بتصلب: «أعترض سيدي الرئيس، ها نحن بدأنا في محاولة إلقاء التهم.»

نطق القاضي بصوت جهوري: «اعتراض مرفوض، فليكمل المتهم.»

أكمل سائد بنفس الصوت: «والصحافة لم تنتظر فأغرقت البلاد بتُهَم حتى لم تخرج من النيابة نفسها وبدلًا من تهمة قتلٍ واحدة؛ أصبحت أنا سفاح العصر ومطارد الأطباء، قاتل معاطف الرحمة.»

«إذن أنت تحاول أن تنفي أي تهمة موجهة إليك.»

هز سائد رأسه مبتسمًا بسخرية وقال: «لا، لا أنفي شيئًا ولا أعترف بشيء ولا حتى حكم اليوم يفرق معي، بل كل ما يهمني أن تنشر الأوراق التي بين يديك كما هي دون تأويل أو قلب للحقائق.»

صمت وهو يراقب القاضي يقلِّب ما بين يديه قبل أن يصرخ بعلو صوته: «هدفي واحد أنا ورفيقي الذي أُزْهِقَت روحه هباءً ضحية لكلب قتل الكثيرين، أن تصل صرختنا أن تروها بعين الرحمة الإنسانية، أن تكفُّوا عن الرؤيا من برجكم العالي وتتذكروا مَنْ يموتون بردًا وجوعًا في الشوارع، أن تتغير قوانينكم وتُنَفَّذ قوانين الإعدام لكل من يحرق قلب أُمٍّ ويدمر أسرة بحرمانهم من أطفالهم، أن يتذكر كل مسئول منكم عندما يضم طفله ليلًا آمنًا ودافئًا، إن هناك عشرات الأُسَر تعيش كالأموات وهم يجهلون مصير أطفالهم، إن هناك بُطُونًا تُفَرَّغ من أعضائها وتُباع من قِبَل عدماء ضمير يستغلون نفوذهم ويبيعون هذه الأعضاء، إذا غاب العدل، ساد الفساد وعم الخراب، ويُصبح العالم ساحة للقتل وإزهاق الأرواح، وتُباع النفوس بأبخس الأثمان.»

«هل تعلم بكم اشترى فهمي رأس جنيني في أحشاء أمه يا سيادة القاضي؟»

قَلَّبَ القاضي الأوراق أمامه بحيرة وهو يستمع للأقوال الجديدة التي تغير كل شيء وتطيح بتلك القضية من أساسها ليصبح لديه قضية العصر حقًّا، لم يردَّ القاضي بشيء، بينما هَمَّ سائد بإكمال حديثه اقتحمت شابة

في منتصف العشرينات قاعة المحكمة وهي تجيب بتصلب: «اشتراه بمئة دولار، أما أمه لم يدفع فيها حتى خمسين دولارًا سيادتك.»

قبض سائد على حديد القفص بشدة حتى ابيضَّت سُلامياته بينما يهمس بنَفَسٍ مبهور: «دُجى، يا غبية ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟!»

سمع القاضي يأمر الجميع بالهدوء مرة أخرى قبل أن يقول بصوت مسيطر: «أَفْسحوا للشاهدة الطريق، ماذا لديكِ؟ تحدثي.»

تقدمت دجوى دون تردد وهي تزيح نظارتها عن عينيها لتضعها فوق شعرها، التفتت تنظر إليه أولًا فحبست أنفاسها بصعوبة حتى لا تنهار على منظره الموجع والذي بث فيها القوة والجراءة سابقًا كي تأتي، لم تستطع الصمت أكثر أو الخوف ورقبته مهددة بحبل المشنقة، حبه الذي ما زالت تحمله في قلبها كان أقوى من أن تستمر في صمتها؛ لذا قررت ببساطة أن تقدم كل ما لديها حتى إن اتُّهِمَت بإخفاء أدلة عن العدالة، ثم ما لبثت أن التفتت إلى القاضي وهي تقول بحزم غير متنازل: «أنا دجوى غسان محمود الهاشم ابنة المتهم الأول في تلك القضية والمسئول الرئيس عن شبكة تجارة الأعضاء، وقبل موته نقل الراية لفهمي النجار، ولديَّ أدلة ومستندات وفيديو مسجل من أبي قبل موته يعترف فيه بكل شيء.»

بعد شهر، «وبعد الاطلاع على كافة الأدلة والمستندات وحيثيات القضية والاستماع لكافة الشهود وشهود العيان، والذين أقروا تحت القسم بعدم إطلاق المتهم الرصاص على «فهمي موسى النجار» وعدم تواجده في أماكن القتل الأخرى والتي ادُّعِيَ بوجوده فيها سابقًا؛ حكمت المحكمة حضوريًّا على المتهم سائد العوضي بالبراءة من كل التهم المقدَّمة ضده.»

بعد يومين، كان سائد وإبراهيم يقفان وسط أرض صحراوية كبيرة على أطراف المدينة الجديدة، بينما سائد يقول بصوت جامد خالٍ من الحياة رغم إنسانية ما يتفوه به: «لقد ابتعتها أنا وعمر منذ فترة، ولمْ تُتَحْ لي الظروف لأوصيك بما أريده.»

رفع إبراهيم يده يشدد على كتف سائد وقال: «سائد، امنح نفسك فرصة لأربعة أشهر أنت كنت تتعذب في ظلمات حبسك، حاول أن تتخطى ما حدث؛ لأنه لم يكن ذنبك، هذا قدره الذي كتبه له اللّه وحده.»

تصلب جسده وهو يبتعد عن يده إبراهيم متابعًا كلامه وكأنه لم يسمع ما قاله: «لن يشعر بهؤلاء المشردين أحد إلا مَنْ ذاق من كأس مرارتهم؛ لذا أنا أريد أن نفتتح هذه المؤسسة حتى وإن كانت مجرد مأوى واحد يضم عشرة أطفال نوفر لهم حياة آدمية، ونحميهم من الوحوش التي تمتلئ بها الغابة.»

قال إبراهيم بصبر: «وهل برعايتك لعشرة أطفال ستقضي على مشكلة الألف؟ تلك القضية تحتاج لملف كامل ووعي شعب ومؤسسات كاملة.»

سخر سائد وهو يخبره: «إذن ننتظر يوم الساعة أقرب!»

تحرك سائد وهو ينظر أمامه للبعيد يقول بنبرة باردة معتادة: «ابدأ بنفسك، وإنقاذ عشرة أفضل من تركهم يُقتّلون، نحن سنقوم بكل ما في وسعنا، وعام وراء الآخر سنصبح قادرين على إنقاذ العشرات وربما الألوف، ومن يعرف! ربما يتحفز غيرنا ويقلدنا، وبدل أن يهدر أمواله في رعاية لاعب كرة أو مطرب، يرعى براعم وبتلات من التلوث.»

قاطعه إبراهيم قائلًا: «في ماذا تفكر تحديدًا؟ ما تقوله صعب.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال سائد بعينين تبرقان تصميمًا: «لا شيء تسعى إليه يكون صعبًا، تلك المؤسسة ستكون تكافلية اجتماعية، سنبدأ ببناء بسيط يستوعب أكبر عدد ممكن منهم، وبعدها سنفتح بعض الورش البسيطة، وهؤلاء المراهقين والأطفال يعملون فيها بأنفسهم ونحن سنتولى التسويق، جزء سيذهب لتكبير بيتهم هذا وجزء سنوفره لهم حتى عندما يشبُّون ويخرجون من هنا يجدون ما يستطيعون مواجهة العالم به.»

تسلَّل الخوف لقلب إبراهيم رغمًا عنه وهو يسأله بتشكك: «هل تعتقد أننا نستطيع؟»

رد سائد ببساطة: «بالطبع إن أردنا الأمر، فهو لا يتطلب إلا الصبر والضمير النظيف والرحمة يا عمر.»

تبدَّلت ملامح إبراهيم وهو يصحح: «إبراهيم، سائد أنت يجب ...»

نظر إليه سائد بصدمة للحظات، ثم ما لبث أن فرك وجهه بقوة متمتمًا باستغفار وقال: «آسف، لساني اعتاد على مناقشة كل خططي معه هو فقط.»

«أنت تفتقده؟!»

ضحك سائد بعصبية وقال باختصار وكان تعبيره يشمل كل شيء: «إنه أخي، قطعة مني لا تنفصل منذ حميته منهم ونجاني هو من الموت.»

أغمض عينيه للحظات يلتقط أنفاسه قبل أن يتابع حديثه السابق بهدوء: «كما أخبرتك، المشروع غير ربحي ولن تُقْبَلَ فيه أي تبرعات إلا من جهات موثوقة لن تطالبنا بأي إعلانات ودعايا يأخذون من خلفها شهرة معينة، ولا مشكلة في بعض الشباب المتطوعين للمساعدة في تهذيب أخلاق هؤلاء المراهقين والأطفال.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال إبراهيم بحيرة: «إنه مشروع اجتماعي ضخم ويحتاج ...»

هز سائد كتفيه قبل أن يقول ببرود: «لا تلُمْني إن أخبرتك أن المجتمع لا يهمني، أنا لم أر فيه لا عدلًا ولا إنصافًا؛ لذا فليحترق بظلمه، كل همي أن أجد أكبر عدد ممكن من الملاجئ لهؤلاء الصغار، أنت لا تعلم ماذا تعني لنا بطانية دافئة في قرصة برد الشتاء ولا مجرد كسرة عيش يابس تسد جوعنا.»

ساد هدوء جزئي بينهما قبل أن يقول إبراهيم بانتصار: «لديَّ خبر ربما يبهجك.»

عاد سائد إليه بعينيه مستفسرًا، فتابع إبراهيم بابتسامة نصر: «ذلك الطفل الذي وجدته قبل شهور مَنْ سُرِقَتْ كِلْيته، هل تذكرته؟»

قال سائد: «بالطبع، أنا لا أنسى شيئًا في العادة.»

بسط إبراهيم كفَّه مُظْهرًا صورة ما وقال: «لقد قام شريف بزيارتي عدة مرات بسبب قضيتك، وبالطبع كان يرى الفتى، بالمناسبة يُدْعى «مازن»، تشكك في شكل الفتى، وعندما أخبرته عن قصته عاد بعد يومين يخبرني بعدم تصديق أن هذا الفتى طفل متغيب عن أهله منذ خمسة أعوام خُطِفَ من أمام منزله وهو في الرابعة، والدته طبيبة ووالده مهندس وهو صغيرهم الوحيد، كانت حياتهم مدمرة كليًّا ومتوقفة تمامًا لمدة خمسة أعوام كاملة.»

لم يسبق أبدًا أن رأى إبراهيم سائد بهذه اللهفة وهذا الفضول وهو يتفحص الصورة العائلية للفتى وسأل: «وبعدها ماذا حدث؟ هل عاد إليهم؟»

قال إبراهيم: «بالطبع عاد، الأم من أول ما رأته تعرفت عليه على الفور ودون أدنى تردد، ولكن خيبات أمل الأب الكثيرة جعلته غير

مصدق يتنازع ما بين ضم الفتى أو الإنكار فقام بفحص الحمض النووي DNA، وتأكد أن الطفل بالفعل هو مازن.»

ابتسم سائد قليلًا وهو يسأله بشرود: «هل تعتقد أن هناك بالفعل أملًا، أن وسط كل هذا الظلام والكوابيس مكانًا للحلم؟»

قال رفيقه بنبرة واثقة: «ستعرف يومًا ما أن الأمل دومًا موجود وأن كلمة الحق مهما طال الاستبداد والقهر هي الباقية.»

وقف سائد أمام النافذة يقاوم كل عضلة في جسده ألَّا تنتصر عليه وتجبره ليهرع إليها ويضمها بين ذراعيه، يَشْتَمُّ رحيقها، يملأ صدره من أنفاسها، ربما يستطيع أن يخزن في عقله ذلك الشعور الذي لم يكن يعرف له تفسيرًا من قبل فيُعينُه على قرارها بالبعد والجفاء، رفع سائد كفَّه وتتبع زجاج النافذة بنفس شاردة وقال مجبرًا نفسه: «ورقة الزواج الموثق والموافقة على الإقامة وعقد هذا البيت بين يديك، هذا ما أستطيع أن أقدمه لك بجانب هدنة، هدنة طويلة غير محددة تستعيدين بها نفسكِ، وبعدها نستطيع أن نتحدث بتروٍّ وعقل.»

ابتلعت الغصة المتورمة في حلقها وهي مسمرة في مكانها تنظر إلى الملف الذي دسَّه بين يديها، وعقلها أبعد من أن تدرك ما يحويه، ثم ما لبثت أن قالت بصوت خافت ولكنه قوي النبرات: «أنا لن أتنازل عن طلب الطلاق يا سائد، كل ما بيننا انتهى، وآخر دين عليَّ نحوك سددته يوم المحكمة.»

شعر بأنفاسه تختنق في صدره وتطبق على رئتيه متذكرًا كل ما فعله بها، ثم ما لبث أن قال بصوت خشن: «أنتِ لستِ مَدِينة لي بشيء فقط فلنحمد الله أن القاضي أخذ الأمر بعين الرحمة وتفهَّم رعبكِ منهم

وتهديدهم لكِ آنذاك، وبالطبع صدَّق حجتك بأنكِ لم تعرفي بالأمر إلا قريبًا.»

هتفت دجوى متسرعة بصوت متشنج: «كان دينًا في رقبتي لكل هؤلاء ضحايا المجتمع لقضية ستهز الرأي العام لسنوات آتية، لا تنس أن القضية لم ولن تنتهي هنا، أنت فقط من أبعِدت عنها.»

استدار سائد يتحرك نحوها فابتعدت، لم يهتم وهو يتقدم خطوة تلو الخطوة حتى تشكل صدره مع جسدها الدافئ، لم يتردد ولم توقفه شهقتها الرافضة وهو يحيط خَصرها بذراعه ورفع الكف الأخرى يتخلل خصلات شعرها القصير، ومال برأسه يلامس بشفتيه وجنتها مطلقًا تأوهًا مضنيًا متوحشًا بافتقاده دفئها، لم يُرِد الضغط على أعصابها ولكنه لم يستطع أن يبتعد عنها دون أن يضمها، انخفضت يده بعيدًا عن شعرها ورفعها قليلًا.

دفع جسدها نحوه ليزيد التفافها داخل دائرته وهمس: «لا تتهربي من حديثنا الأساسي، سأتركك ولكن ليس لشيء إلا للعودة إليك، أنتِ لي أنثاي، سأخاطر بتركِكِ لأنكِ تستحقين موازنة نفسكِ وأن تختاري عودتكِ لي تلك المرة بإرادتك، ولكن عندما أعود إليكِ مطالبًا في المرة القادمة لن أسمح لكِ بالهرب أو الرفض أبدًا مرة أخرى.»

همست: «أنت تتوهم، الابتعاد حل شافٍ لكلينا ستنساني في فترة قصيرة.»

أراح جبهته على جبهتها، ثم همس: «إن لم يزدك البعد عشقًا فأنت لم تحب من الأساس، دُجَى»

عندما رأته يدخل إلى غرفتها بعد أن دخل قُصيٌّ أولًا وساعدها على أن تضع حجاب رأسها؛ توجست منه وحاولت أن تُفْهِمَ قُصيًّا بكل الطرق أن يجعل هذا الرجل يغادرهم، كانت تشعر بالحقد واللوعة، «كيف يجرؤ؟! ألا يشعر بالخزي من نفسه بعد أن دمر حلمها وقتل حبيبها وقتلها معه؟!»

تجنب سائد القسوة المطلة من عينيها وهو يقترب منها وقال بتثاقل أمر معتاد: «السفارة الأمريكية ساعدتني لاستكمال كل إجراءات سفركِ، وأنا قمت بالفعل بالحجز على طائرة اليوم.»

نظر إلى ساعته لبرهة ثم عاد يخاطب عينيها الذاهلة وكأنها تنظر لكائن فضائي أو شخص ما فقد عقله ويهذي، قال بعملية: «يجب أن نتحرك خلال ساعة لم يتبقَّ إلا ثلاث ساعات على الطائرة.»

هزت رابحة رأسها بجنون رافض وهي تسحب إبريق ماء ضخم بجانبها ودون تردد ألقته نحوه وهي تشير بتشدد صارخ: «أن اخرج من المنزل».

تفادى سائد ما رمته وهو يرفع عينيه ببرود متأملها، ثم ما لبث أن قال ببساطة: «احسبيها بالعقل، هذه وصية زوجكِ، وولدكِ في خطر ولن يصبح آمنًا إلا معي أنا.»

وقفت رابحة بحملها الثقيل ناوية على أن تستنجد بجميع البشر وتلفق له مصيبة تعدٍّ ربما تتخلص منه للأبد، فهز سائد كتفيه بلا مبالاة وقال ببرودة جراح إنجليزي: «حسنًا كما توقعت، أنتِ لم تتركي لي فرصة وأنا متعب وبالتأكيد لن أضيع الوقت معك.»

وقبل أن تدرك معنى كلامه كان يُخْرِج حقنة من معطفه، جهزها في ثوان وقبل أن تهرب لخارج الغرفة كان يمسك بذراعها ويغرسها في عضلة

ذراعها على الفور، ظلت تصرخ بصوت مبحوح لدقائق حتى شعرت بثقل رأسها وترنح جسدها، فتلقاها سائد بصمت وتحرك بها نحو الخارج، أوقفه قُصيٌّ وهو يقول بشعور بالقلق والذنب: «ألا يوجد هناك حل آخر؟ أنا ما زلت لا أستطيع جعلك تأخذها.»

نظر سائد لوالدتها الباكية، وهي تغرق وجه ابنتها بالبكاء تخبره بحشرجة: «انتبه إليها، إن لم يخبرني أن أثق بك لم أكن أوافقك.»

هز سائد رأسه بتفهم، ثم ما لبث أن قال لقُصيٍّ بنبرة مريحة: «هو لن يضرها، ولولا حالتها النفسية كنت أخبرتها لكنها لن تصدقنا، لا تقلق يا بطل، هي وجنينها عهدتي حتى أوصلهم لبر أمانهم، وأنت أوراقك ووالدتك ستُجَهَّز خلال أشهر قليلة وتلحقا بنا وتطمئن بنفسك.»

اقترب قُصيٌّ يطبع قُبْلة على رأس أخته، ثم ردد بيأس مصدوم: «ما زلت لا أصدق ما سمعته خلال دقائق، أنا متحير هل أفرح أم أبكي.»

أخذ سائد نفسًا عميقًا وقال: «المطلوب منك حاليًّا الحزن التام، الاستسلام للرثاء، وعندما تأتي إلى هناك افعل ما يحلو لك لن يمنعك أحد.»

وافقه قُصيٌّ قبل أن يقول بقلق: «هل تلك المادة المخدرة آمنة؟»

أجابه سائد بتلقائية: «تلك الثرثارة زوجة إبراهيم بارعة في عملها، وقالت: إن المادة آمنة تمامًا على الأقل حتى أستطيع - بمساعدة شريف وأحد مسئولي تأمين طفلها - وضعها على متن الطائرة.»

سأل قُصيٌّ بتعجب: «ولِمَ هذا الاهتمام كله بمجرد جنين؟!»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فردَّ سائد ساخرًا: «يكفي أنه يحمل الجنسية الأمريكية يا فتى حتى يعامَل بآدمية حتى وهو مجرد جنين حياته في علم الغيب، هذا ما يُدْعَى بالكرامة الإنسانية.»

دخل سائد غرفته داخل الفندق في الولايات المتحدة التي وصل إليها بعد طول سفر بصحبتها، وهو يخلع ملابسه عند الباب بتعب وتوجَّه إلى حمام الغرفة مباشرةً سامحًا لعقله أن يشرد في قاسية القلب التي رغم إنقاذها إياه وتعريض نفسها لخطر السجن لم تسمح له بفرصة للتكفير، للتسامح أو الغفران، مُصِرَّة على الطلاق وشطبه من حياتها تمامًا مؤكدة أن طرقهم لن تلتقي سويًّا مرة أخرى، وتحت الماء المنساب ألقى برأسه على الزجاج وهو يُخرِج زفيرًا حارًّا وحارقًا من صدره متوعدًا إياها: «أبدًا دجى، لن أسمح لكِ بالابتعاد، لن أسمح لكِ بدفن نفسكِ والغرق برثاء الذات وبإجبار نفسكِ لدفع ثمن أخطاء لم تكوني أنتِ المسؤولة عنها، سامحيني عزيزتي ولكن أنتِ لي وأنا لا أتخلى عمَّا هو لي مهما طال الزمن.»

الطَّرْقُ الحاد المتعجل، جعله يتناول منشفة سريعًا يلفُّ بها خَصره وتوجَّه إلى الباب بقلق أن تكون تلك المصيبة فعلت شيئًا ما بنفسها ولذا لجئوا إليه، تبًّا لتلك الحمقاء ستسبب له نوبة قلبية لا محالة، ولكنه عندما فتح الباب اضطرب كليًّا وصاعقة من المشاعر الإنسانية القوية هزته هزًّا، مشاعر أخوية سامية.

«هل أكل القط لسانك؟ ألن ترحب بي على الأقل؟» لم يستطع أن يتجنب ما يشعر به وينكر أنه بشر يخاف ويشعر ويفتقد، وبذعر انحنى على الفور نحو الكرسي المتحرك محتضنًا من يحتله بقوة، وقال بصوت

أجش مختنق: «أنت هنا يا أحمق، متى تكفَّ عن التهور؟ ألم نتفق أن تبقى في مكانك حتى نصل إليك نحن غدًا؟»

رفع رفيقه ذراعيه يحتضنه حضنًا رجوليًّا قويًّا وقال بنبرة ساخرة مرحة: «إن كان عليك أنت لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى، ولكن لم أستطع أن أصبر وأنا أعلم أنها معي تحت نفس السماء.»

لم يتخلَّ سائد عنه وهو يقول بخفوت: «إنها في غرفتها، سوف أساعدك لتصل إليها ولكن احذر في تعاملك معها بجانب فقدها للنطق أيضًا لن يحتمل حملها أي مفاجأة أخرى.»

أحس بالألم يمزق قلبه مرة واحدة وهو يتذكر عجزه الذي عاناه بسبب وضعه الصحي، مضافًا لعجزه في ضمها إليه أو طمأنتها أنه سيحافظ على وعده، نطق بهدوء: «أوصِلْني إليها، إنها لن تخذلني في التعامل معها.»

ابتعد سائد وأحس بالدموع تعود تحرق عينيه، فلم يستطع أن يمنع نفسه من تذكر صورة مَنْ أمامه على الأرض غارقًا في دمائه وفاقدًا لأنفاسه على الفور، الذنب يقتله ويجلده بينما يراقب ما آل إليه حاله، قاطع رفيقه تفكيره: «فترة وسوف تمر، كلٌّ منا دفع الثمن بطريقته يا سائد»

لم يستطع أن يكبح نفسه وهو ينحني ينظر لعينيها المغلقة، وجهها الخمري كان غارقًا في الدموع وقد تبدَّد لونه ليحلَّ محله شحوب بشرتها والسواد تحت عينيها، جسدها الذي يُخْرِج شهقات مكتومة حتى في نومها كان قد فقد نصف وزنه رغم انتفاخ بطنها التي كبرت بوضوح، قرَّب

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كرسيه المتحرك حد الالتصاق، ثم تحامل على نفسه موازنًا جسده كما تدرب خلال الأشهر الماضية، دفع حذاءه بيديه بصعوبة، عندما استقر على الفراش أخيرًا تمدد إلى جوارها، عندما لمستها أصابعه؛ ارتعدت، فتجرأ أن يدفع يده تحت جسدها ويده الأخرى تحاوطها من فوقها ثم شدها إليه، أخيرًا أطلق تأوهًا متوجعًا محترقًا وكأن جسدها وقلبها الذي دق بصخب مجنون تحت هدير شرايينه هو الأوعى في التعرف على رائحته، استكانت دون أدنى مقاومه متشبثة به بقوة دافنة وجهها في طيات قميصه، وبدأت في البكاء بحرقة، أخفض وجهه نحو أذنها وهمس بحشرجة مهدهدًا: «اهدئي يا أميرة فأنا هنا، لقد انتهى كل شيء سنكون بخير منذ تلك اللحظة، لن أتركك مرة أخرى، غلطة لن تتكرر مهما حدث يا حبيبتي.»

وكأنها ترفض الوعي أن تفيق وتقر بوجوده فاستسلمت لتلك الغيمة الوردية الجميلة التي تظنها أحلامًا تلفها بوجوده جانبها، فتشبثت به بأظافرها وكأنه الحياة ومن خلال نافذة اللاوعي استطاعت أن تنطق أخيرًا، وبعد صمت دام أربعة أشهر وبضع أسابيع، قالت بصوت مبحوح خافت: «لا تتركني مرة أخرى، أنا راضية بالأحلام طالما أنت متواجد بها، لقد وعدت ولم تعد يا عمر كيف استطعت أن تقتلني بموتك؟!»

لم يستطع أن يسيطر على دموعه التي خانته وهو يرفع وجهها نحوه يغرقه بقبلات مجنونة متلهفة مختلطة بطعم دمعه المالح الذي استطعمته هي ليفيقها من غفلتها، ولصحة عقلها اعتقدته منحة من السماء، حلمًا من رب العالمين ليخفف عنها أوجاعها، لم تسيطر هي الأخرى على نفسها وهي تمد يديها تحاوط وجهه بكفّيها تبادله قبلاته المتلهفة بجنون وبحرقة يائسة، همست ببحة محترقة: «أنت هنا، لقد ناجيتك أربعة أشهر يا عديم القلب، أردت أن أرى وجهك في أحلامي حتى هذا تحرمني

منه يا عمر، أنا مِتُّ من بعدك، لماذا تركتني وخاطرت بي وبصغيري؟ هل كان كل هذا يستحق أن تؤذيني معك؟!»

لم تتوقف قبلاته المحمومة ولا دموعه التي تنساب من تحت جفونه المغلقة وهو يهمس بصوت أجش متلهف: «وكيف آتي إليكِ يا حالمة؟ هل ظننتِ أني لم أتعذب مثلكِ؟ كنت أُجَنُّ في الساعة ألف مرة لمعرفتي عذابكِ وأنا عاجز عن التخفيف عنكِ، عن ضمك إليَّ وهمسي بجانب أذنك أنيَ معكِ، عن رعبي إن تعرض صغيرنا لخطر الفقد وأنا بعيد عنكِ، كنت مقهورًا كما لم أشعر في حياتي.»

كانت أنفاس كليهما تلهث بتسارع ودقات قلبيهما تسد أسماعهم، توقفت عن مبادلته احتراقه، تمسكت بكتفيه وعينيها تفتح أخيرًا من غيوبتها ونظرت إليه بذهول مخالط بعدم استيعاب، فَغَرَت فمها بصدمة تحاول أن تجد صوتها، أن تقول شيئًا، فلم تجد فيها نفسًا آخر.

ارتكز هو على مرفقيه ومسح طول خدها بكفه وهز رأسه بالإيجاب وقال بقلق مؤكدًا: «ليس حلمًا حبيبتي، أرجوكِ التقطي أنفاسكِ ولا تقومي بأي ردة فعل قد تضرك، إنه أنا ليس حلمًا ولا خيالًا، ما تبادلناه خلال تلك الدقائق كان حقيقيًّا، صوتكِ الذي خرج كان حقيقيًّا، كل شيء هنا يحدث طبيعيًّا يا رابحة.»

توسعت حدقتاها أكثر وهي محافِظَة على نظرة الذهول والصدمة، هل هوسها بعمر وشعورها بالقهر والخوف وتمنيها أن كل ما عاشته من حزن لم يكن إلا كابوسًا قد خلط بين الواقع والخيال؟! هل تخطت دون أن تدرك الحد الفاصل بين التعقل والجنون فتتوهم وجودها بين ذراعيه في تلك اللحظة؟ كانت تشعر بدوامة مشابهة لتلك التي غرقت فيها عندما سمعت خبر موته تزحف إلى عقلها فقاومتها بإصرار وعادت

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ترفع أطرافها بتردد وخوف أن يتسرب حلمها مرة أخرى من بين يديها، مررت بخفة فراشة أناملها فوق وجهه تحدد عينيه وأنفه وفمه وشعره الأسود الكثيف، وتعود تتلمس وجهه الوسيم، كفَّاها هبطا نحو صدره لتشعر بنبض قلبه الحي تحت أناملها التي ارتعشت رهبة، أخيرًا ارتفع أنينها مع بكاء حاد لم تستطع السيطرة عليه مفجِّرة كل ما يُعتمل في قلبها من ألم، انخفض عمر سريعًا يتلقى جسدها الذي ارتفع ليندفع في صدره وقَبَّل جبهتها وهو يقول بهوس محاولًا تهدئتها ففشل تمامًا: «اهدئي يا حالمة أرجوكِ لا وضعي ولا وضعكِ سيتحمل أي جنون أو آلام.»

من بين بكائها الهستيري استطاعت أن تنطق بتقطع متأوه: «رباه، أنت هنا، أرجوك أكِّد لي أنك هنا حقًّا، أنا لا أتوهم وهذا ليس خيالًا، أنا أشتمُّ رائحتك أملأ نفسي وقلبي منك يا عمر.»

ضمها إليه أكثر وأكثر حتى لم يسمح المجال للمزيد ومحتويًا إياها بكل ما فيها، أغمض عينيه وهو يتشرب قربها ونعومة جسدها ودفئها وحنانها، مدركًا أن هذا العناق لم يكن يعني لكليهما لقاء حبيبين افترقا قصرًا عن بعضهما، بل كان لقاء روح واحدة انقسمت نصفين فنزف كلاهما حد الموت وبمعجزة إلهية عادا للالتحام برابط أقوى وأعنف من أن ينفصل يومًا: «آه، تخرج من قلبي أنا يا أميرة، لم أكن أعلم بمقدار ضعفي ووجعي أني ميت حقًّا وأني بدونكِ لا شيء إلا عند إفاقتي ولم أجدكِ بجانبي.»

تحول بكاؤها الهستيري لضربات مقهورة منهارة تخبط في صدره وهي تصرخ فيه: «كيف استطعت؟ كيف أتتك الجرأة للتضحية بي وإيلامي؟! هل تعلم كم مرة مِتُّ منذ ذلك اليوم الأسود؟»

لهث من أثر جرح جسده الذي ما زال ينبض بالألم بالترافق مع لوعة اللقاء، ولكنه تحامل ليسيطر عليها فأمسك بكلتا كفَّيها وهو يريح ظهرها للفراش، وأراح جبهته على جبهتها ناظرًا لعسل عينيها الغارق في أوجاعها وقال بصعوبة: «لم أعلم بأي شيء ولا حتى سائد، بعد أن ضرب الحقير الرصاصة بظهري دخلت في غيبوبة مؤقتة فورًا فاستغل إبراهيم وشريف الأمر وتوجَّها لمسئولي السفارة الأمريكية على الفور وأخبروه باختصار عن تلك القضية الكبرى وبأني متورط في الأمر وحياتي بخطر؛ لأنني كُشفت لمن كنت أطاردهم، وأيضًا لم أفعل جريمة وسجلي الجنائي في كلا البلدين نظيف تمامًا، فتولت السفارة خلال أقل من ست ساعات رجوعي إلى هنا ولم أُفِقْ إلا بعد أسبوع كامل، وعلمت أن إصابتي خطرة قد تكلفني قدماي بجانب تهديد حياتي والتي بالتالي ستهدد حياتكِ، فكان من شريف تزويره لجثة وادعاء أنها أنا، وترك الأحزان عليَّ تغزوكم.»

صمت ملتقطًا أنفاسه التي تلهث، ثم ما لبث أن أطلق زمجرة متمردة على كل جروحه فهي تستحق توضيحًا واعتذارًا: «لقد حاولت التواصل معك رغم كل هذا ورغم التشديد الأمني عليَّ حتى أني غيرت هوية اسمي ومكان تجارتنا والولاية التي عشنا بها سابقًا، ورغم هذا لم أستطع الوصول إليك.»

ازدردت ريقها وقد هدأ بكاؤها تدريجيًّا، وقالت بلهفة متناسية لدقائق عذابها: «أي إصابة؟ هل لحق بك ضرر؟»

هز رأسه وقال بألم: «الرصاصة أصابت أسفل ظهري ودمرت أعصاب الأرجل.»

حاولت إلقاء نظرة نحو قدميه ففشلت فعادت لسؤاله بتهدج: «لا أفهم».

رد بهدوء: «أعني أني لن أستطيع يومًا أن أعود للمشي بشكل طبيعي أبدًا.»

ربما يتلاعب بالحقيقة محاولًا أن يخفف وطأة رفضها إياه أو تهدئة عصبيتها بإلهاء عقلها، سوف يؤجل إخبارها أنه مر بعدة عمليات معقدة، وأن شلله هذا مؤقت وسيعود ليمارس حياته بعد بضعة أشهر أخرى وإن كان بعرج خفيف ودائم، عاد يضيف بحرقة: «أنا آسف لعدم إنصافي معكِ ولكني لن أستطيع أن أخيِّرَك بقاءكِ معي حتى وأنا بهذه الحالة.»

لم تستطع منع يدها من التحرك فوق صدره وهي تقول بلوعة: «يا أحمق، أنت رددت لي نفسي الآن، أنت هنا يا عمر بين يديك ليس خيالًا ولا أماني لم أكن أحلُم يومًا بتحقيقها أنت وابني معي، طفلي سيولد بين ذراعيك.»

ارتعدت وهي تضيف بصوت مرتجف يشوبه عدم التصديق: «أنت هنا!»

رفع كفَّها التي تتلمس صدره وكأنها تريد التأكد من وجوده المادي، قَبَّلها بعمق باعتراف ضمني أن لا امرأة أَسَرَتْه وهزت رجولته وأرضخته بوجود كل شياطينه إلا هي، «نعم، أنا هنا».

همست: «لماذا لا أصدق إذن؟»

«صدِّقي من أجلي».

ابتسم لعينيها فخفق قلبها ببريق معتاد عادت لتزهر داخل أضلعها: «أوجاعنا انتهت يا أميرة وإن منحتِني الفرصة والغفران أعدكِ أني سأمحو من عقلكِ كل مرارة تسببت لكِ فيها.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

«أنت عدت، بعد وعدك لي آخر مرة وفيت به؛ لذا نعم أمنحك، ونعم أخرى سأسمح لعقلي بأن يستريح ويلجأ إليك ويقر بأنك معي.»

أخذ نفسًا حادًّا وهو يُرْغِم نفسه على أن يكبح مشاعره المتضخمة، متعجبًا من نفسه كيف استطاع أن يبتعد عنها كل هذه المدة؟! ثم ما لبث أن قال بصوت أجش: «أنا أحبكِ يا رابحة، أتعلمين ما الذي يعنيه هذا؟»

هزت رأسها دون أن تبعد عينيها المتألمتين عنه: «لا أعلم إلا أنك تركتني وأنك غدرت بوعدك لي، أنك وعدت أن تربي صغيري وغدرت بنا.»

كتم صراخًا مجنونًا كتمرد بداخله قبل أن يقول بمهادنة مدركًا حالة التشوش التي تغرق فيها ما بين الإقرار بوجوده مرة ونكرانها مرات: «أحبكِ يعني أن أتغلب على كل شياطيني وأشباحي، أن أغلب الموت نفسه، أن أعرف طريقي إلى الله أخيرًا، ألجأ إليه ليرحمني ليغفر لي وليجمعني بكِ مرة أخرى.»

ساد الصمت بينهما للحظات حاولت أن تتشرب وجوده وكلماته، معنى اعترافه، فأحس كلاهما بحرقة مألوفة من الفقد، ثم انهار كل شيء مرة أخرى وهي تعود للبكاء المتهدج تُمرغ وجهها في صدره، أغمض عينيه كابحًا نفسه عنها، ثم انحنى وطبع قُبْلة دافئة رقيقة على جبينها كانت أعمق معنى وأكبر عاطفة من أي قُبْلَة جامحة أو تواصل عاطفي قد يقوم به ليؤكد لها حقيقة وجوده، ترك شفتيه هناك بينما يده تترك اهتمامه بها أخيرًا وتتلمس جنينها بل جنينهما وطفلهما، أمل كليهما، سمع صوتها الخافت يخبره بأنفاس مبهورة: «عمر، لا تجعلنا نخسرك من جديد، أنا راضية بأي شيء منك طالما أنت معي بنفس يتردد داخل صدرك فأشعر بصداه في قلبي.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إلا أن عمر كان ضائعًا تمامًا في دفئها ولهفتها وهشاشتها وتسليمها له دون أدنى مقاومة دون اعتراض، وبين ذلك الشعور المضطرب والذي جعل قلبه يرتعش بين ضلوعه بإحساس مبهم مختلف مع كل ضربة تأتي من صغيره الذي ما زال يسكن أحشاء أمه تحت كفه الضخم.

عاد يضمها إليه بقوة، فصمت وصمتت تاركةً نفسها باستسلام تغرق في دفئه ورائحته الرجولية، للحظات ولدقائق وربما لساعات، أيام لا تعرف ولم تعد تريد أن تدرك شيئًا إلا أنه هنا معها، ووصلت لبر أمانها أخيرًا وخرجا من ذلك الزقاق المؤلم الذي كاد أن يدمر كل أحلامها، بالنهاية شاء عمر أم أبى هي انتصرت ونالت الرجل الذي تحب، ريان سيولَد بين ذراعَي والده، الآن فقط تستطيع أن تطرد كل أوجاعها، وتتلمَّس جنينها بكل حب العالم دون أن تغرق بالذنب لتسببها في يُتْمِه.

بعد خمسة أشهر، كان العرق يغرق جبينها رغم الثلج الذي يحيط بكل أرجاء الولاية، همست بصوت مرتجف من فرط الألم: «عمر، استيقظ أرجوك.»

لم يأتها الرد فهزته بقوة دون أن تصدر صوتًا آخر عاجزة عن التعبير عن الألم الكبير الذي يضرب ظهرها وأسفل بطنها، انتفض عمر بجانبها مستقيمًا من نومته وهو يقول بقلق: «ما بكِ حبيبتي؟»

أدارت رابحة عينيها عليه للحظات، ثم انفجر كل شيء داخلها وهي تصرخ بعذاب: «أريد أمي، أنا ألد يا عمر.»

بعد ساعات كان سائد يريح رأسه على الجدار محاولًا أن يأخذ بعض دقائق من النوم بعد أن أيقظه عمر الهلِع والذي وجده يتقافز عاري القدمين كما الجذع وسط الجليد الذي يغطي بيته في الناحية المواجِهة لمنزله، استطاع بعد دقائق من جنون عمر أن يسيطر عليه بقوة يهدئه ويأمره أولًا بأن يذهب ليرتدي شيئًا ما ويجهز زوجته وهو سيأتي للمساعدة.

فأخرج سيارته وهو يحمد الله أنه لم يعُد من الإشراف على المتاجر الغذائية التي يملكونها بجانب عدة محطات بنزين إلا بوقت متأخر كالعادة، فعمر لم يستطع أن يباشر العمل كالماضي، بل عدة ساعات قليلة ما يستطيع أن يشارك بها بعد أن استطاع أن يعود للمشي على قدميه والشفاء من عجزه المؤقت، وهو في الحقيقة لا يريد أن يؤرقه بكفيه تلك الإعاقة التي سيعيش بها ما تبقى من عمره، وأيضًا لأنه يجد في العمل الجاد والمتواصل ليل نهار إلهاءً لقلبه وعقله الذي يعاني، وأيضًا لتعويض كمِّ المال الذي أُهْدِرَ في رحلتهم الشاقة للبحث عن العدالة، لقد خسروا كل ما جمعوه خلال خمسة عشر عامًا تقريبًا، ولكن هذا ليس بالشيء المهم، سيبدآن من جديد خاصة بأنهم يمتلكون الأرض الصلبة بالفعل ورأس المال، أما السيولة فمقدور على تعويضها.

فتح عينيه ينظر لصديقه الذي يدور حول نفسه بملامح مرتعبة فرفع سائد كوب قهوته يرتشف منه بهدوء وقال بتشدق: «اجلس يا عمر، مظهرك بسروال المنامة الذي ترتدي فوقه معطفًا ثقيلًا فقط وصدرك يغرق في أحمر الشفاه مثير للضحك والاستياء معًا.»

نظر إليه عمر شذرًا، ثم ألقى بنفسه بقلة حيلة بجانبه على كرسي الانتظار، ثم قال باهتزاز: «إنها تتألم، لقد وعدتها بعدم عذابها وها أنا لا أستطيع منعه عنها.»

رفع سائد الكوب الورقي نحو فمه وهو يقول ببرود: «إنها تلد يا أحمق، ماذا تتوقع بالضبط؟ أن تأتي بصغيرك وهي تغنّي لك ترنيمة ما!»

زفر عمر بضيق وقال: «هل يمكنك أن تصمت؟ حياة أغلى شخص لي في هذه الحياة أي حياتي أنا تُعاني بالداخل وأنت هنا تستخف بدمك!»

نظر له سائد وقال بعملية: «أعلم أن دمي ثقيل، أنا حتى أكره ما يسمى الضحك، ولكنك أحمق حقًّا، وأكاد لا أصدق أنك مَنْ أمامي.»

«لا، لا تصمت طمئنّي بأي كلمات مهدئة.»

قطَّب وهو يقول بحيرة: «أي تهدئة تريدها مني؟! أنا بجانبك ولا أعرف ما الذي قد فعله الأطباء بها في الداخل، أنا حتى لا أستطيع أن أصدِّق كيف آمنت لهم وتركت زوجتك وصغيرك معهم!»

فتح عمر فمه على مصرعه وكاد أن يفقد أعصابه ويهشم رأس من أمامه دون ذرة ندم وتردد، هل أخبره أن يهدئه أم ليرعبه؟!

قال عمر بيأس قبل أن يقفز من مكانه ويهرع إلى مكان زوجته: «أنت آلة من نوع ما، يستحيل أن تكون بشرًا يشعر مثلنا.»

بعد ساعات قليلة أخرى، كان سائد يقف خلف زجاج ضخم ينظر لصغير عمر يثبت لنفسه أنه يشعر ويحس يتألم ويتغير مروِّضًا كل براكينه وكل مرارته وحتى كل أوجاعه التي لم يمحها حتى انتقامه السابق، ينظر لصغير عمر الذي يرقد في سرير حديث الولادة للتأكد أنه بخير ولا يحتاج لأي مساعدة طبية، بينما وضع له رمزًا على سريره كنظام متبع هناك عند الولادة، لقد اختارت له الطبيبة رمز نمر فرفض هو وأصر أن تعلمه بصورة لشبل الذئب، لقد رمى عمر الصغير تقريبًا له وهرول إلى زوجته، همس من خلف الزجاج بخفوت شارد: «مرحبًا يا

صغيري، اعذرني إن كنت سأحقق بعضًا من أحلامي فيك بعد أن عجزت أن أحصل على سعادتي الخاصة، أعتقد أننا سنصبح صحبة لا تُهْزَم أنا وأنت، بالنهاية أنت تملك أمًّا قوية آمنت بأنك نقطتنا البيضاء ورايتنا نحو أمل جديد، ونجحت دون أن تشعر بالمعنى الحقيقي الذي منحته لي أنا ووالدك.»

أخرج هاتفه وقام بضبط الهاتف وأغلق فلاش الكاميرا حتى لا يتسبب بأذًى لعيني الصغير، ثم التقط صورة واضحة وسريعًا قام بإرسالها نحو معذبته وكتب: «أمل جديد، وُلِدَ اليوم ريان عبد الله ابن أخي وصديقي.»

أوضح المؤشر لتلقيها الرسالة فتعمدت عدم الرد كعادتها منذ شهور يرسل باستمرار رسائل كتلك يحكي فيها عن نفسه أحيانًا، وأحيانًا أخرى رسائل داعمة قوية تشد من عزمها، وبعضها اعتراف متوارٍ بالحب الذي لم ينضب ولن ينتهي.»

التقطت رسالته التالية فكتمت أنينها حتى لا تسمعها نرمين وتبدأ بسيل أسئلة فضولية هي ليست على استعداد لها، أحاطت بطنها الفارغ وتذكرت صغيرها بحرقة فلم تستطع كبح دموعها أكثر وهي تقرأ كلماته: «هل تعتقدين أني أستحق فرصة أخيرة؟ هل من حقي أن أحلم بطفل منكِ أنتِ يحمل ملامحكِ وأحمله بين ذراعي؟»

لم تستطيع أن تتجنبه هذه المرة فمدت يدها تكتب: «ولماذا تتمنى صغيري؟! أنا لن أستطيع الإنجاب مرة أخرى، آسفة لتحطيم حلمك أيها الغريب.»

شعر بالأمل ينتعش بداخله من جديد على استحياء، على الأقل تنازلت أخيرًا وقالت شيئًا ما حتى لو أنها تنكر معرفتها بهويته، فأرسل

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مرة أخرى ليلامس تلابيب قلبها بيديه عبر كلماته: «إذن ضاع أملي وحلمي في صغير من صلبي.»

أرسلت باستفهام: «لماذا؟»

تحولت ملامحه فجأة لشيء غريب وهو يرسل دون أن يتردد لحظة واحدة: «إن لم تستقر نطفتي في أحشائك أنتِ وأحمل طفلًا تكونين أنت أمه، إذن لن يحدث هذا أبدًا، أنا لن أَستطيع لمس أو منح قلبي لامرأَة غيركِ يومًا دُجى.»

بعد عام، أغلقت دجوى حاسوبها في مكتبها الصغير داخل المؤسسة، وقالت لإبراهيم بتعب: «فكرة الورش الصغيرة كانت ممتازة، لولاها ما كنا استطعنا توفير كل الأساسيات للدار.»

رد إبراهيم برزانة: «الفضل لكِ وللشباب المتطوعين في معظم المجالات، وأهمها هؤلاء الأخصائيون النفسيون والاجتماعيون، هنا البطل الحقيقي مع كل طفل نأتي به من الشارع إلى المؤسسة.»

ردت ببساطة: «الفضل لصاحب الفكرة ومقترحها أولًا، أما بالنسبة للأطفال فهذا طبيعي، سلوكهم الشرس والذي يأخذ الحدة والدفاع العشوائي معظم الوقت ما هو إلا تراكمات من البيئة المحيطة بهم لسنوات، وقد نحتاج أعوامًا وأعوامًا من المهادنة لنقوِّمها.»

وقف إبراهيم ينظر من النافذة ناحية الساحة الواسعة والتي زرع فيها الأطفال بعض الأشجار، بالإضافة لبعض الخضروات والفواكه البسيطة، فأضافت للمكان الموحش سابقًا منظرًا جماليًّا مميزًا يَأسِر كل من يأتي إليه من بعض رجال الأعمال القليلين فيدعمهم البعض ماليًّا والبعض

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الآخر يرسل إليهم مواد خام أو حتى حرفيين ليعلموا الأطفال صنعة متقنة تنفعهم، بجانب الشباب حديثي التخرج والذين تبرعوا ببعضٍ من وقتهم يوميًّا يقضونه في تعليم الأطفال وشرح المواد، أما هو فيتابع الأوراق القانونية لإثبات تلك المؤسسة كمكان يُعترف به وبعدها سيسعى لإثبات هؤلاء في مدارس حكومية، ربما يستطيع أحدهم نيل شهادة علمية مناسبة إن وجد البيئة الخصبة التي توفر له هذا، فسائد وعمر خير مثال أن أمثالهم إن وجدوا الطريق المناسب سيقدمون أشياء عديدة لخدمة مجتمعهم.

هَمْهَم إبراهيم مرددًا كلمات سائد السابقة: «ليس مهمًّا يا دجوى، طريق الميل يبدأ بخطوة، ونحن سنبدأ بأنفسنا، سنجتهد لإنقاذ البعض منهم من ضلال الشارع، ومن يعلم قد يصبح حلمنا هذا مثالًا لآخرين، والمؤسسة تصبح عشرة، ونتكاتف جميعًا خلال أعوام للقضاء على تلك الظاهرة تمامًا، وبهذا نخفف عن أنفسنا قبل أي أحد ظهور تلك الأعشاب الضارة والجشعة من أمثال حماد وهؤلاء الأطباء معدومي الضمير والرحمة من أمثال فهمي ومعلمه.»

شحب وجه دجوى حتى استحال قطعة من الرخام فوثبت بارتباك وهي تتلقى كلماته كضربة قوية فوق رأسها وقالت بتحشرج حرِجٍ مكتوم: «أنا سأذهب الآن، تأخر الوقت.»

غبي يا إبراهيم كيف نسيت؟! التفت إليها يخبرها برفق: «أنا آسف يا دجوى، صدقًا أنا أنسى تمامًا خلفيتكِ وماضي والدكِ.»

توسعت عيناها وهي تقول بضحكة عصبية: «لا عليك، ولكن أرجوك أن تصمت قليلًا أنت كلما تحدثت تزيد الأمر سوءًا.»

خرجت مسرعة نحو البوابة الضخمة للمؤسسة وهي تضع نظارتها الضخمة لتخفي ألم عينيها الذي أصبح جزءًا لا ينفصل عنها، الصوت المميز لرسالة قد وصلتها كانت في وقتها تمامًا، فتحتها بلهفة فوجدت كلماته المسانِدَة المعتادة وكأنه يشعر بجرحها.»

«أخطاء العالم ليست ذنبكِ عزيزتي، يوم الحساب كل منا يحاسَب بما جنت يداه، لا أحد يحاسَب بكتاب الآخر، تقبلكِ لجرح الآخرين لكِ والانتقام منكِ لن يحل شيئًا، أنتِ تستحقين حب العالم يا دُجى والعفو عن نفسكِ.»

جلست خلف عجلة القيادة ومدت يدها ترسل إليه: «لقد كُسِرْتُ كثيرًا ولم يرحمني أحد.»

أتتها رسالته على الفور: «أعرف، ولكنكِ تقاومين بشجاعة، ومحارِبة أصرت على الوقوف بعد كل كبوة حتى وأنتِ تحملين أخطاء غيرك.»

كانت تفتح قلبها على مصراعيه وهي ترسل إليه بقهر: «لم يمنحني أحد الاختيار لأتوقف أو أشعر أن الذنب ليس بذنبي وأن تلك الجرائم لم تكن بفعلتي أنا، والجميع كان يريد مني قطعة وأنا قاومت وقاومت، وبالنهاية استسلمت لدفع فواتير أبى المؤجلة، لماذا فعل بي هذا؟ حتى هو لم يتردد لحظة في إيلامي، لقد تحطم كل شيء بداخلي.»

لم يأتها الرد لدقائق طويلة فقامت بتشغيل محرك السيارة باستسلام تحاول كبح دموعها بعنف فتفشل، حتى أتتها رسالة أخرى مُقِرَّة ومواجِهة: «أنتِ استسلمتِ لمصيركِ من أول يوم دجوى، لم تقفي بوجهه لتقولي لا، واجهي نفسك عزيزتي، أنتِ كنتِ بطريقة ما تشعرين بالرضا بما يُفعل بكِ ظنًّا منكِ أنك بهذا تكفرين عن ذنب والدك، وهنا أنا لا أبرر لأفعاله التي لا يقبلها أحد ولكن فقط أحاول أن أوضِّحَ لكِ نفسكِ.»

أرسلت بتشوش: «لا، الأمر ليس هكذا، لقد كان يتعذب وأنا كنت أشعر بالذنب ناحيته فتركته يأخذ حقه مني ربما يخفف من بعض آلامه.»

زفر سائد بضيق والنار تشتعل بصدره ومشاعره تخنقه، ليتها أمامه الآن ربما كان يستطيع أن يغمرها بين ذراعيه ويخفف عنها مرارتها تلك، همس بحرقة: «فقط لو تمنحينا الفرصة لنبدأ من جديد بعيدًا عن ماضي كلٍّ منا.»

أرسل بعدم صبر: «هذا ما أقصده دُجى، أنتِ لم تفعلي شيئًا لتستسلمي لجنون غضبه، السواد المنتشر في العالم ليس ذنبكِ، وجَلْد ذاتكِ وتحاملكِ على نفسكِ ليس هو الحل للتحرر من الألم.»

«هل تظن أني بطريقة ما مازوشية أتمتع بعذابي، أستمد سعادتي ممن هو يفرض سلطة أقوى عليَّ؟»

«أنتِ أبعد من أن تكوني مازوشية أو أن تستمتعي بألمِكِ أو الآخرين.»

«إذن ما الذي يعنيه جلد الذات؟»

أرسل: «هو لوم نفسكِ باستمرار، حرمانها من حقها في الحياة أو الأسوأ في حالتكِ إجباركِ على دفع الثمن لأخطاء ليتها أخطاؤكِ.»

«هل تظن أني سلبية هاربة من مشاكلي بجبن متخذة دفع الثمن والتخفيف عنه حجة؟»

ابتسم وهو يرسل بنوع من اللطف: «لقد احترت في تصنيف هل أنتِ سلبية حقًّا أم ذكية تستمدين من ضعفكِ قوة لتنتصري على خصمك.»

«وهل فعلت؟ أتظن أني انتصرت عليه، لقد فقدت طفلي وكرامتي على يديه، أي نصر هذا تعتقد؟!»

التقط أنفاسه وأرسل: «كان طفله أيضًا، أي إن خسارتكم واحدة وان لم يكن عقابه هو أشد مرارة، لقد كسر ظهره بخسارته لهذا الجنين.»

تأملت رسالته فلم يمنحها الفرصة للرد وهو يرسل أخرى: «لقد انتصرتِ يا دجوى وأرسيتِ أشرعتكِ بداخله فأصبح يصرخ بها لنفسه دون تردد أنه يريدكِ بجانبه.»

ترددت قبل أن ترسل: «كيف وماضينا من ورائنا؟! فهو لن يستطيع أن ينسى يومًا أني ابنة غسان ولا أنا سأستطيع أن أنسى ما فعله بي.»

لم يلفَّ ويدور وهو يرسل لها بصراحة: «لا، لن ينسى أبدًا ولا أنت، ولكن هناك ما يسمى بداية جديدة قد تكون محفوفة بالمخاطر والإخفاقات وربما بعض الألم، ولكن هو يدرك جيدًا أنه من أجل معدنكِ الذي لامس جدار قلبه، سيتناسى تمامًا حتى حروف اسم والدكِ ويتذكر فقط أنكِ دُجى ليله.»

وكانت ضربتها الحاسمة كالمعتاد: «وأنا لن أكون حيادية عندما أنظر لوجهه وأتذكر أني كنت عاهرة بالنسبة له، عذابي وحرقتي بدفعه لي لأسمح بموت صغيري.»

توقفت رسائله ورسائلها لدقائق قبل أن ترسل ما مزقه كما مزقها: «لقد نال تعويض صبره في ابن أخيه، أما أنا لم يتبقَّ لي إلا غصة في قلبي، حسرة ومرارة وأنا انظر لتلك الأشياء الصغيرة في واجهة المحلات متذكرة بعذابٍ أن طفلي كان سيُصبِح عمره اليوم تحديدًا عامًا وشهرًا كاملين»

في صالة الاستقبال لمطار مدينتهم الصغيرة كان يقف كلٌّ منهما بجانب الآخر بصمت غير معتاد، بينما عينا كليهما لا تفارق الصغير الذي يفترش الأرض يلعب بدميته ذات الفراء.

نظر عمر لساعته قبل أن يتحرك نحو مقعد حديدي حديث الطراز جلس فوقه مريحًا ظهره وهو يقول بتأوه متعب: «يبدو أنهم تأخروا في الداخل للإجراءات، أنا لن أستطيع الوقوف أكثر من هذا.»

لم يحرك سائد عينيه عن الصغير وهو يقف فوقه بطوله المهيب يرتدي ملابس بسيطة غير متكلفة، بنطال أسود وقميص مماثل، واكتفى بلفِّ شال صوفي حول عنقه حمايةً من البرد المعتاد في شهر ديسمبر، أجاب صاحبه بهدوء: «أنت مَنْ صممت أن تأتي، فالطبيب في آخر فحص لك شدَّد على عدم الحركة الكثيرة، وضعك لم يصبح آمنًا تمامًا بعدُ.»

صمت لبرهة ومال يلتقط الصغير الذي وقف، متوجهًا إليه هو لا والده، فضمه إليه وهو يبتسم بتلقائية، وقال بسخرية معتادة: «في الواقع إن كان عليَّ العمل فالأمر سهل سأجبرك على الجلوس في المنزل، ولكن كيف أمنعك عن تلك الأصوات التي أسمعها مِن كل مكان؟ الأمر بات مزعجًا وأفكر جديًّا في بيع منزلي والبحث عن منزل بعيد عن مجاورتك.»

لم يتقبل عمر المزاح تمامًا، فقال مزمجرًا: «لا أحب تلميحك هذا، تذكر أنها زوجتي، في الماضي كان مسموح لك بقول ما تريد، لكن هي لا تضعها أبدًا مع أحد.»

رفع سائد حاجبيه بدهشة وقال: «إن كان عليَّ أنا فهذا أبغض شيء لقلبي لأذكره، أما هي فأنا حقًّا لا أنظر إليها إلا كأم لريان وأخت انضمت لكلينا.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

صمت للحظة ثم أكمل: «ما أحاول قوله من تعليقي هذا أن تحترم نفسك وتسيطر على مشاعرك قليلًا من أجل صحتك، ومن أجل زوجتك المسكينة، بالنهاية لديك منزل افعل ما يحلو لك داخل غرفة مغلقة، لا في كل مكان كأنك حيوان ما، المصيبة الحقيقية أن تكون صدقت أنك ثعلب حقًّا ومسموح لك ببعض أفعاله!»

لمح سائد شيئًا من القسوة التمعت في عيني عمر سرعان ما انزوَت بعيدًا، ثم ما لبث أن قال: «بعض العادات لا تموت، مهما حاولنا يتبقى منها شيء ما، وأنا بالفعل أحاول وَأدها من أجلها، وطالما بالنهاية كل شيء يحدث معها ومكتفيًا بها أتوِّجها ملكة على عرش النساء، بل أصبحت هي كلهنَّ، هذا يكفي حتى إشعار آخر.»

استطاع رؤية ما خلف كلمات عمر دون أن يعلق بشيء يكفيه أنه يفهمه، وإن كليهما يحاول في فرصتهم الجديدة، أجابه بهدوء: «حسنًا أتفهم ما تقوله، ولكن لن يعجبني إن سمع ريان بعضًا من شطحات جنونك، كما أنك لو استمريت على هذا الوضع ستأتي لنا كل عام بطفل، هذا أكثر مما أحتمل.»

قَلَّب عمر نظراته بينه وبين ولده الذي استراح على كتف سائد في غفوة، فهز رأسه بالرفض وهو يقول: «لا، لن تقول شيئًا أو تفعل أنت، وهذا الصغير شيء قد يصيبني بالدهشة، على كلٍّ أنا لن أتوقف عن الإنجاب كل عدة أشهر إن استطعت، وأنت مبارك عليك شبلك.»

انحنى سائد يطبع على كتلة الشعر العسلية المشعثة قُبلَة طويلة وعينيه مثبتة على باب صالة الخروج، ثم قال بهدوء: «يكفيني ريان، أنا وهو نتأقلم تمامًا، هدية مقبولة منك، والآن استعد صفية بدأت في الظهور من البوابة.»

وقف عمر يستعيد بعضًا من اتزانه، في استعداد لاستقبال والدة زوجته وأخيها الذي انتهت أوراق ضمهما أخيرًا، فقد استطاع بعد مباحثات صعبة وشاقة أن يقنع قُصيًّا بإكمال تعليمه هنا، وعدم العودة إلى هناك، ولكن كانت المشكلة في صفية التي رفضت أن تترك مكانها ووطنها وكل ذكرياتها، ولكن وافقت هي الأخرى على مضض من أجل ابنتها ومستقبل جيد لقُصيٍّ، وبالطبع لم ينس الفتى بصمته الخاصة بطلب عمل ينفق به على نفسه وأمه، فوافق سائد على الفور ووفر له العمل في أحد محلاتهم كما يفعل مع الكثير مؤخرًا من شباب الجاليات العربية، فهم أكثر من متفهمين لحالة الضياع والشتات والعذاب الذي يلاقيها كل من يأتي إلى هنا حديثًا.

نفض عمر تفكيره جانبًا وقال بحزم منهيًا حوارهم السابق: «وأنت متى ستستطيع تخطي الماضي وإيجاد حياة لنفسك؟»

حدَّق به للحظات، قبل أن يقول بصوت خرج من أعماق صدره: «لن أكذب عليك، من الصعب أن أنسى الماضي أو أنسى حبي لآية يومًا.»

زفر عمر بضيق وكاد أن يسبَّ غباءه ولكنه توقف تمامًا عندما أكمل سائد بنبرة وضع فيها كل صدقه: «ولكن هناك نبض متمرد فرض نفسه داخل قلبي فأصبحت أتنفس حبًّا مع كل شهيق يلتقطه صدري باسم واحد يخفق بألم داخل فؤادي، دجوى الهاشم زوجتي.»

إنهاؤه لحديثه بكلمة زوجتي المتملكة جعلت كل الشكوك التي كانت تزور عمر تنتهي بغير رجعة، سائد لن يتركها مهما حدث أو رفضت هي حتى وإن انتظر فوق العمر دهورًا أخرى.

ابتسم عمر ببطء، وقال بلؤم ثعلب مستفز: «الرجل الذي يريد امرأة يكون قادرًا على ترويضها باستخدام كل الطرق المشروعة وغير المشروعة لا أن يجلس يختفي في صغير أخيه وينتظر قبولاً منها لن يأتي قط.»

عندما قابلته عين سائد التي تحجب مشاعره فلم يستطع قراءتها، أضاف عمر: «لو أن الأمر بيدي ولديَّ كل حرية التحرك مثلك وكانت امرأتي أنا لطاردتها لآخر العالم وسأغرقها بحبي بعاطفتي مقدمًا كل الممكن واللاممكن، حتى تتشرب قطرات حبي ببطء وتدمنها ولا تستطيع الفرار منها يومًا.»

تحرك عمر نحو نسيبه فاتحًا ذراعيه ليلقى قُصيٌّ نفسه بينهم، بينما يخبره بصوت مختنق: «أنا لا أصدق أنك هنا أمامي حقًّا، اشتقت إليك يا صديق.»

ضحك عمر بنبرة جَشَّة وقال: «حسنًا، رد فعلك غير مبالغ فيه كما توقعت، لقد حدثتك ملايين المرات في الهاتف ويجب أن تصدق يا فتى.»

رد قُصيٌّ بحرقة: «لا، المتحدث هذا يُدّعى «عبد الله الشبراوي» ربما يحمل نفس نبرة صوتك ولكن لم يكن أنت، رؤيا العين شيء وأن أحتضنك لحمًا ودمًا شاعرًا بأنفاسك شيء آخر يجعلني أصدق كل ما تتفوه به بصدق، وأقتنع أن وجودك مادي.»

تركه عمر وهو يلتفت ينظر لصديقه قائلًا بمغزى: «نعم يا فتى، المكالمات الصامتة الباردة الخالية من أي مشاعر لا تحمل شيئًا من تلك العاطفة التي تصرخ وتفضح صاحبها عند رؤيا العين.»

بعد يومين ليلًا، لم تعرف دجوى لِمَ كانت تشعر بكل هذا الألم الذي أصبح مضاعفًا بداخلها منذ أسبوعٍ مَضى، أصرت على عدم التواصل معه مرة أخرى، أما هو فقد توقف بعد أن لاحقها باتصالات متواصلة على هاتفها الخلوي، وأيضًا على هاتف المؤسسة، ولكنها لم تردَّ أيضًا، فتوقف هو كأنه يئس أخيرًا واستسلم للأمر، ولكنها لا تصدق ببساطة أن سائد استسلم هكذا.

أزاحت الغطاء لتفسح المجال لجعل نفسها تغفو في غيبوبة النوم كعادتها عندما يكثر الوجع إلى حد يخترق صدرها بصراخٍ يصمُّ أذنيها فتجبر نفسها على النوم، ربما تجد في عالم الأحلام ملجأً يريحها من كوابيس الواقع، لدقائق كانت تستلقي على ظهرها تحدِّق في سقف الغرفة وشريط عمرها يمر ببطء من أمام عينيها ليتوقف الزمن عند لقطات مرعبة ومذلة عندما كانت تسكن ذلك السطح حتى لا تملك قوت يومها، جسدها يرتجف بردًا وقلبها يئنُّ بعذاب الحرمان والفقد، تمتمت: «ربما لم يختف الإحساس دجوى، ولكن على الأقل أصبحتِ تشعرين بالأمن قليلًا وتملكين مأوًى جيدًا يضمكِ بعيدًا عن كل مَن حاول استغلال ضعفكِ ووحدتكِ وحاجتكِ.»

ضمت نفسها لنفسها بقوة تغمض عينيها وهي تهمس باعتراف كل ليلة رغم شعورها بالسخط على قلبها والعار من مشاعرها: «اشتقت لذراعيك لراحتك، أفتقد ذلك العناق الوحيد الذي شعرت فيه بالأمان بالشبع بعد جوع يوم أن ضممتني مودعًا في بيت رابحة، ولكن كيف أستطيع أن أحيا معك بعد كل ما رأيته على يديك؟! عام ونصف ولم يتغير شيء بداخلي لا مرارتي منك، ولا عشقي إياك.»

بعد نصف ساعة استيقظت دجوى وقلبها ينتفض خوفًا، نظرت إلى الساعة فوجدتها تعدت منتصف الليل، بينما باب منزلها يطرق بتسارع

وكأن الطارق لا يملك وقتًا في التمهل ليجيبه صاحب المنزل، التقطت مئزرًا أسود ثقيلًا فوق قميص نومها، وهي تهرع إلى الخارج توقفت تسأل باضطراب: «من الطارق؟ ماذا تريد؟»

كانت أنفاس ثقيلة هي كل ما تسمعه، فشعرت بذلك الذعر يزحف على ظهرها، الخوف من أن يكون فُتِحَ عليها بابٌ ظنت أنه ملف وانتهى، أترى أحدهم قرر أن ينتقم منها أخيرًا بعد صَمْت عام؟ ما زالت القضية تُنْظَر والصحف تندِّد بها، ولكن مَنْ أطلقوا تلك الصرخة جميعهم رحلوا ولم يتبقَّ إلا هي في مواجهة ذلك الانتقام الذي يبدو أنه لن ينتهي.

أغمض عينيه يستمتع بصوتها بعد طول غياب، محاولًا بيأس أن يبرد شيئًا من تلك النار التي أشعلتها بداخله، وقال راجيًا: «غريبكِ أتى يطالبكِ أن تعيديه إليكِ، هل يمكنكِ أن تفتحي بابكِ مرة أخرى في وجهه دُجى؟»

ساد الصمت لخمس دقائق كاملة بعد ذلك، كانا واقفان آنذاك كل منهما يلامس جبهته الباب من جهته ينتظر أي شيء من الآخر ليشجعه على المزيد.

«لماذا؟» هتفتها أخيرًا بشيء من العنف واليأس، طرحت نفس السؤال الذي سأله هو لنفسه مسبقًا، ولكنه وجد إجابته منذ زمن حتى وإن كانت تفتقر للمنطق والتعقل، ولكن منذ متى كان لحياته منطق أو لسلطان العشق عقل، إنه يحبها هي وكفى، لقد أصبح يفصل جيدًا بين أنها ابنة غريمه الذي مضى، وبين امرأة زلزلت كل شيء بداخله من مجرد نظرة.

أجابها بصوت أبح: «لأني أحبكِ، أتنفس عشقكِ دجى، وألمي أصبح مضاعفًا معطلًا قلبي وعقلي عن العمل في البعد عنكِ.»

كانت كلماته تدوِّي في أذنيها دون أن ترحمها تضرب على أوتار حاجاتها وحرمانها وجوعها لحب وأمان تفتقده، قالت في محاولة يائسة لتجعله يبتعد: «ما زال ما بيننا قاتم يا سائد، ما بيني وبينك دم، قلوب هدرت نبضاتها ثأرًا متبادلًا لن يتخطاه أحدنا يومًا.»

قال سائد بحرقة: «أنا تخطيته، أريدكِ مجردة كأننا غريبان تقابلنا في الشارع كلانا لا يعرف اسمًا ولا نسبًا.»

هزت رأسها وشعرها يتساقط حول وجهها وقالت بصوت مختنق كمن يوشك على البكاء: «لا أستطيع، ارحل من هنا وكُفَّ عن تعذيبي.»

خبط على الباب بقبضة قوية، وقال بنبرة خشنة: «تبًّا دجى، لم أخاطر بنفسي وبأسرة عمر وبكل شيء بنيته لأعود خالي الوفاض خائب الرجاء في مسعاي.»

تلاحقت أنفاسها وهي تقول: «ولماذا خاطرت وأتيت؟»

قال بصوت عميق أتى من داخل هدير قلبه، فبثَّ الرجفة في أوصالها: «لأنكِ تستحقين أن أخاطر بالعالم كله؛ لكي أحظى بكِ بين ذراعاي.»

خفق قلبها بقوة بين جنباتها وهي تسمعه يضيف: «أنا يائس لضمكِ دجى لِلْمَسِّكِ فقط، اسمحي لي ولن أجبركِ على فعل أي شيء لا تريدينه.»

ربما قرر عقلها الباطن ترك ردة الفعل لقلبها وحبها إليه، لضعفها واستسلامها المعتاد إليه، بينما وضعت كل تفكير المنطق وقرارتها السابقة في ضباب كثيف، فتحت الباب ببطء وهي تدرك بأن هذا اليوم بالذات سيحدد مصيرها لما تبقَّى من عمرها.

جمد كل شيء بينهما، بينما رمادها يتألق بنظرة متلهفة ليتفحص جسده الضخم الطويل في ملابس سوداء كاملة ولكنها أنيقة، فكان مثالًا

للرجولة الصارخة والوسامة الوحشية والعذاب بعينيه، كان يقف في هيئة رجل يعرض عليها جنة طُرِدَت منها لوقت طويل، لم يمنحها حتى فرصة لإبداء أي ردة فعل، واندفع من أمام الباب يدفن أنامله في خصلات شعرها من الخلف جاذبًا رأسها نحوه بذراعه واليد الأخرى تمتد ليغلق الباب خلفه، بينما فمه يعرف تمامًا طريقه نحو شفتيها، كان يزمجر من بين شفتيها التي ضاعت بين شفتيه بوحشية وعنف، بجوع وحرمان جعلها تدرك أنه كان يعاني مثلها تمامًا، لم تستطع أن تقاومه وهو يغرق معها في دوامة لفَّت عقل كليهما، فحاجة كليهما كانت أكبر من أن تجعلها تعترض عندما لفَّت ذراعيها حول عنقه تتشبث به، تشكَّل جسدها اللين فوق صدره سامحة لذراعيه القويتين بضمها وسحقها داخله، حاولت أن تقاوم بشيء من ادعاء التعقل وهي تنظر له بعينين متوسعتين كعيني غزال شارد: «أعتقد أننا يجب أن نتوقف، ما نكاد نفعله سيجلب لكلينا الندم لاحقًا.»

وكأنه لم يسمعها عندما قال بصوت أجش: «إن ما نفعله أكثر شيء منطقي في كل ما كنا نفعله، أنتِ زوجتي وما زلتِ زوجتي، وإلى آخر يوم في عمري البائس ستكونين زوجتي، فلِمَ ننكر على أنفسنا ما يريده كلانا؟»

ظل رأسها مرفوعًا تحدِّق فيه بمشاعر وأحاسيس متخبطة، ما بين التعاسة والقهر، الخسارة والعشق، الشوق الذي لا ينتهي أبدًا لم يتزحزح من قلبها قيد أنملة رغم كل شيء فعله.»

لا تعرف متى قربها منه مرة أخرى وهو يقول بزمجرة خشنة: «أنا أريدكِ ولكن برضاكِ الكامل هذه المرة دون أي ندم أو مشاعر سلبية، أريد قراركِ الآن.»

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أي قرار قد تقوله أو رفض ترميه بوجهه وهي بذلك الوضع، بتلك النيران التي تحرقها شوقًا إليه؟! كان عقلها مغيبًا تمامًا بكل تلك المشاعر التي بثها إياها، بالحاجة الضارية لأن تشعر به، لم تفكر ويدها تقع أخيرًا فوق قلبه، لتستقر هناك فتحرق جلده، همست بصوت مرتجف، فنزعت عنه أي حكمة أو قرار بجعله إياها تأخذ قرارها: «لديك قلب بالنهاية ها هو ينبض بدويٍّ مجنون من أجلي أنا وحدي.»

لم يستطيع أن يجيبها بالكلام، لم تكن لديه القدرة، كان يصر أن يعبر بها بدون تردد لذلك الطريق الذي لن يسمح لها فيه بالعودة أو الهرب بعيدًا عنه أبدًا، ولوقت طويل جدًّا لم يتوقف عن اتحاده معها وإشعارها بأنها توأم لروحه لن يستطيع يومًا أن يختم غيرها به أو يتحرر منها، مدخلًا في عقلها القاسي، أنه لم يعد يهتم بمن تحمل اسمه، وسيحارب جميع شياطينه فقط لتبقى معه، ومن بين غيبوبته كان يبتهل بتضرع أن تكون أرضها الخصبة على استعداد لتلقي بذرته.

فتحت دجوى عينيها بعد ساعات لتجد نفسها مستلقية على الفراش تنام على بطنها ووجهها مدفون في وسادتها كما اعتادت دومًا، تسمَّرت مكانها لوقت طويل، هل كل ما مرت به خلال ساعات كان مجرد حلم؟ ولكن إدراكها لأنين كل عضلة منها وكأن شاحنة من نوع ما صدمتها جعل تخمينها يهدأ قليلًا، وتجزم أن كل ما عاشته كان حقيقة، تلك العاطفة المتدفقة والتي رغم عنفها وتوحشها كانت مراعية حنونة متمهلة، تغرقها داخل فقاعة من الضجيج الرائع، أغمضت عينيها بقوة وهي تتذكر عندما حملها متوجهًا لغرفتها التي تسكنها منذ انفصالهم، وكأنه يدرك كرهها العميق للغرفة الأخرى والتي شاهدت كل أوجاعها معه، لم يتركها ولم يتفوه أحدهم بشيء عندما أراح جسده على فراشها ومددها بجانبه وضمها بقوة إليه لتتوسده، لم تتذكر إلا توقُّف قلبها عن الخفقان للحظات

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عندما همس بصوت أجش: «الآن فقط أستطيع الْتقاط أنفاسي، وأخبركِ أن قلبي الميت نبض لأجلكِ، وإن لم تعيديني إليكِ سيكون حكمكِ هو الموت دون رحمة.»

«أين ذهب إذًا إن لم يكن حلمًا؟!»

الحركة الهادئة المكتومة بجانبها مع صوت خفيض مبتهل؛ جعلها تعقد حاجبيها بتعجب، رفعت رأسها تنظر للمشهد أمامها بصدمة، توقفت أنفاسها وهي تراه يطوي «سجادتها الصغيرة» ثم وقف متجهًا إليها، ويتخلص من ملابس بسيطة كان يستخدمها للصلاة.

تجمد الزمن مرة واحدة من حولهما، وكأن السحر عاد يلفَّهم من جديد، ولكنه سحر مخالط للصدمة من جانبها، لم تستطع أن تخفي احمرار وجهها الذي عاد يتلون بكل ألوان الطيف خجلًا وهي تعتدل قليلًا من نومتها تسأله بتردد يخالطه التعجب: «أنت تصلي!»

ارتسمت ابتسامة حنان على شفتيه وقال: «الدين فطرة، ومعرفة الله غاية واطمئنان لا يأتي إلا بذكره، وأنا قصرت لوقت طويل معه، رغم أنه منحني الكثير من الفرص، فكان يجب أن أخجل من نفسي أخيرًا وأَطْرُقُ بابه متضرعًا ومتوسلًا ربما يغفر لي ذنوبي.»

«لا أصدِّق أن مَنْ أمامي هو أنت.»

انضم إليها: «أنا نفسي لا أصدق أحيانًا أنه أنا، وأتعجب من أفعالي الجديدة، أنا لن أدعي التغيير بين يوم وليلة، ولكني على الأقل أصبحت أعيش بين الأحياء وأتنفس.»

ارتبكت من إجابته قبل أن تسأله بحذر: «الطريق إلى الله دائمًا مفتوح، ما الذي حدث للتغير فجأة؟»

أخذ سائد نفسًا عميقًا وقال بصبر موضحًا: «لم يتغير شيء، دائمًا ما كان داخلي يرفض أن يلوث بالحضيض، شيء أقوى مني منعني عن ارتكاب الجرائم والفاحشة رغم كل ما عانيته ورأيته، ورغم أني حتى لم أعرف معنى الأديان السماوية، ربما مرارتي وشعوري بالظلم وتخطيطي لهدم كل شيء هو ما أعادني للبحث عن طريق اللّه سبحانه، ولكن منذ ما حدث لم أستطع تجنُّب نداء قلبي وفطرتي؛ فذهبت إلى أحد المراكز الإسلامية هناك، وببطء بدأت أتعرف على طريق الحق.»

صمت قبل أن يردف بخفوت به بعض التردد: «لا أحب كشف نفسي لأحد، ولكن الصلاة والعبادة ساعدتني لتخطّي بعض أزماتي فتوقفت عن إيذاء جسدي مثلًا، وأصبحت أُخْرِج عنفي وانفجاراتي بطرق أخرى.»

لن تنكر أنها تشعر بالأمل الطفيف بصدقه في كل حرف يتفوَّه به، ولكنها صدمته بسؤالها المتردد المرتعش: «كما علمت أن لك نسبًا، أنت طفل مختطف أو حتى مفقود، لماذا لم تبحث عن أهلك؟»

عقد حاجبيه وهو ينظر لها لدقائق، ثم ما لبث أن قال بخفوت: «أنا لا أعرف ما الذي قد ينتظرني هناك؟ ومن سيتذكرني من الأساس بعد ما يقارب الواحد وثلاثين عامًا، هكذا أفضل دُجى، أنا مكتفٍ بكِ تمامًا كأسرة لي.»

حاولت أن تجادله وهي تقول: «ولكن ...»

وضع يده على فمها وقال بحزم: «لا، لكن الأمر منتهٍ لديَّ، سأكتفي بكِ.»

هزت كتفيها بدلال وقالت بعينين ضاحكتين آسرتين، فتسللت ابتسامة عطوفة على شفتيه، هل يمكن للعشق أن يغفر وللحنان والرفق أن يجعل

روح المرأة تزهر كحدائق زهور متنوعة لقصر أسطوري؟ «ولكن أنا لا أعرف عنك شيئًا، بالطبع كل المعلومات السابقة كانت مجرد كذبة».

هز رأسه مؤكدًا: «بالطبع كل المعلومات التي رأيتني أتحدث عنها درستها خصيصًا لأمر، ولكن أنا مجرد رجل أعمال وصاحب سلسلة محلات صغيرة مثل الكثير من العرب الذين يقومون بهذه المشروعات.»

سألت باهتمام لم يزعجه: «هل أكملتَ دراستك حقًّا أم مجرد خدعة أخرى؟»

هز رأسه نافيًا وقال ببطء: «أكملتها هناك بالطبع، ولكن لم أتخصص في مجال معين مثل عمر، بطبيعتي أنا كنت أميل لدراسة شخصية من أمامي وطريقة تفكيره.»

هزت كتفيها مرة أخرى وقالت بتأنيب: «كما درستني وعلمت نقاط ضعفي وتلاعبت بها».

قَبِلَ ما ظهر منها ببطء، وقال بتفكُّه: «لا أعتقد أنكِ كرهتِ الأمر كله، اعترفي.»

تغضنت ملامحها بألم مُرٍّ على ملامحها دون أن تجيبه، فجذب عقلها سريعًا وقال برقة: «لم أتلاعب بكِ دجى، بل كان الأمر أشبه بمحاولة لبقائكِ جانبي دون أن أفقدكِ، ولكن كما أخبرتكِ لم أكن أفهم نفسي.»

أغلقت جفنيها وهي تقول بهدوء: «أعرف، وربما لهذا أتفهمك.»

قَبَّلَ جبهتها وقال برفق: «لا تحتاجين لتفهمي ولا أريده.»

فتحت رماديتها وقالت ممتعضة: «ماذا تريد إذن؟»

قال بصوت خرج عنيفًا مزمجرًا رغمًا عنه: «فقط أحبيني».

ردت سريعًا دون تردد: «أنا أحبكَ بالفعل، وتلك هي المشكلة.»

شهقت عندما سحبها إليه وهو يقول مزمجرًا آمرًا: «إذن أحتاج قراركِ، فموعد طائرتنا بعد ساعات من الآن.»

تلاحقت أنفاسها وهو يعود يصدمها بتكرار تلامسهم وكأنه يريدها أن تغرق في دوامة تحجب عقلها عن العمل حتى يصل لما يريده: «عن أي قرار تتحدث؟ وأي طائرة؟ ولماذا؟»

التوى فمه باستمتاع وهو يلاحظ صراعها ثم قال: «عودتكِ لي بالطبع، ووعدكِ أن نرتكز على بعضنا ونتحامل على أنفسنا لينسى كل منا ماضيه، لنسافر إلى هناك، أوراق إقامتكِ قد حصلتِ عليها منذ مدة، ولكن منحتكِ فرصة لتعودي لي بنفسك، ولكن يبدو أن هذا لم يكن ليحدث أبدًا.»

حاولت أن تزيحه من وهي تهمهم بخجل، وشردت بعينيها الجميلتين بعيدًا عنه: «لم أعدك بشيء، كما أنه ليس لأنك لديك طرق ملتوية في الإقناع أو التفف حولي؛ أني قد أمنحك قراري ببساطة هكذا.»

ضحك بخشونة ووجهه ينخفض ليمرر أنفه على أنفها، وهو يقول: «أنا من أعدكِ، كما أني أعتقد أنكِ قلتِ سببًا قويًّا ومقنعًا جدًّا ليجعلكِ تغفرين لي، وتذهبين معي دون تفكير.»

قالت مدعية التفكير: «أنت تستغل الوضع، وتلعب بغير إنصاف، تلك القرارات الهامة لا تؤخذ في وضعنا هذا.»

كان ينظر لشعرها الأسود المتناثر على الوسادة ووجهها المتورد والمتوهج بالعاطفة، متذكرًا معنى افتقادها لعام ونصف كاملين، خرج صوته الساخن متلبسه الجدية كعادته، وقال ساخرًا: «بالعكس عزيزتي،

نحن في الموقع السليم تمامًا، فكل القرارات الاجتماعية والفنية والتي أضاعت شعوبًا بأكملها أُخِذَت من فوق السرير.»

شهقت دجوى وهي تقول لائمة: «لا تخلط الأمور ببعضها.»

عاد يطوِّقها كلها مرة أخرى، يحبسها بداخله ويسحبها لعالمه الخاص الذي تمتزج فيه روحهما سويًّا، ربما ساعات أخرى معها تؤكد على أنهما خُلِقَا لبعضهما بطريقة أو أخرى، كلاهما وجد علاجه في الآخر، إنهما طرفان متكاملان رغم كل الظروف، فقط كل ما يتمناه في تلك اللحظة ما كان يبتهل لأجله في المرة السابقة؛ حملها لصغير آخر؛ ليضمن عدم رفضها إياه أبدًا أو الانفصال عنه.»

جلست بعد ساعات وعينيها تغرق بالدموع رغمًا عنها تنظر من نافذة الطائرة بلوعة؛ هل هي حقًّا كانت على استعداد لأخذ قرار كهذا؟ تترك وطنًا عاشت فيه وأحبته حتى وإن كانت رأت بين دروبه كل أنواع الألم، هل حقًّا ستستطيع أن تتخطى مع سائد كل أوجاعها، وتنسى كل ما فعله بها؟

لم تستطع أن تكبح مشاعرها عندما حاوط كتفيها بذراعه وضمها إلى صدره: «إن نسيت أنت كما تدَّعي ماضي أبي، هل تعدني ألَّا تقارن بيني وبينها عند كل بادرة مشاعر منك نحوي؟»

راقبت وجهه الذي فقد جميع ألوانه لثوانٍ معدودة فقط، ثم عاد يأخذ نفسًا عميقًا ودفع رأسها بيده عن عنقه ليسند جبهته عليها ويخبرها بصوت أجش صادق وصريح: «أعدكِ بكل ما تريدين، ولكن سأكون كاذبًا إن ادعيت نسيانها يومًا، «آية» ستعيش ذكراها بداخلي، ولكنها لن تكون بيننا أبدًا مرة أخرى، كل منكما لها منطقة يصعب خلطها أو تخطيها،

هي غُصَّة عشت بلوعتها عمرًا بحاله، وأنتِ أمل جعلني أنبض، قضيتي لم تكن في آية يا دُجى.»

استفهمت بخفوت: «في ماذا إذن؟»

«قضيتي ستبقى بالقلب غُصَّة لن أتحرر منها يومًا، ستبقى شوكة في ظهر مجتمع يعاني، ستبقى بالقلب غُصَّة في قلب كل أم مكلومة وكل طفل شوارعٍ حُرِمَ من براءته وإنسانيته وكرامته، غُصَّة سنعاني جميعًا منها إن لم نَثُرْ ونتكاتف لنقضي على بؤرِها.»

تمت بحمد الله

عصير الكتب للنشر والتوزيع